

خطوط الطول
خطوط العرض

ملاحظة :

لا علاقة لأبطال هذه الرواية بأي أشخاص حقيقيين ، وان حدث الشبه بينهم وبين بعض الأشخاص فالأمر لا يتعدى كونه اطاراً منطلقه اعجاب المؤلف وانبهاره بهؤلاء الأشخاص الذين يشكلون نماذج مستثناة ومتفردة في الواقع العربي المختلط .

عبد الرحمان مجيد الربيعي

خطوط الطول
خطوط العرض

رواية

مع دراسة للناقد التونسي مصطفى التواتي



دار المعارف للطباعة و النشر
سوسة - تونس

لوحة الغلاف : للفنان التونسي نور الدين الهاني.

الطبعة الأولى : دار الطليعة ـ بيروت 1983 .
الطبعة الثانية : دار المعارف ـ تونس 1993 .

الرقم المسند من طرف الناشر 93/513
تدمك : 3 ـ 313 ـ 16 ـ 9973 ISBN

- 1 -

حط الليل. حط الحزن. حطت تلك القتامة اللاهبة فاصطلى الرأس، وناس بين الضلوع خافق مدمى.

مدت سعيدة بنت المنصف قدميها، فخرجتا من الفراش الدافىء، الظلام مازال مخيما لذا ظلت مسترخية حالمة.

- سعيدة بنت المنصف، أنا غياث داود، أريدك من كل قلبي.

فتح باب السيارة ومد رأسه إلى الخارج وهو يواصل :

- أتريدين أن أصرخ بأعلى صوتي ؟ أن أعلن هذا أمام الملأ ؟

أمسكت به من يده، ضغطتها بقوة، ثم قربتها من صدرها بعد أن لثمت أطراف أصابعه.

ثم تمتمت :

- أيها المهرج العظيم

المهرج العظيم ؟ هكذا اذن هو غياث داود ؟في زمن ما، في لحظة ما، نطقت امرأة بالحكم، كانت ساحرة شقراء، شعر منسدل على الكتفين يوم رآها كان قصيرا، ولكنه طال بسرعة، لن تجلس جواره الا وأمسك به، ينسل ذؤاباته، ويمشطه بأنامله الطويلة، يمنحه ذلك الدفق من المودة الحانية التي لم تذقها.

سعيدة بنت المنصف. من سيذكرك ؟ من سيذكرني ؟ يوما ما انسللت. كانت بيدك حقيبة سوداء. فيها مشط وقارورة عطر، وبضعة دنانير، ودبابيس شعر، وصور عائلية، وخاتم ذو فص من العقيق، وخلفت مدينة الفئران وراءك. لقد أجدبت حقا، حتى المطر لم يعد يخضب ترابها، وظلت شوارعها العارية تصطلي بلفح الشمس والجفاف، لن تحتمل وطأتها الا أشجار شوكاء رابضة في خلاء المدينة مثل شواهد محيرة.

حط الليل. من يغني ؟ ومن يصغي ؟ من لهذا الـوجـه الـلاهث العليل ؟ ومن يئد هذا الشياط الذي يحتقن في الصدر والأصابع ؟

القدمان خارج الغطاء. الغرفة تغط في سكون آخر الليل. لكن سعيدة بنت المنصف مازالت يقظة. جوارها كتاب مفتوح. وعلبة دواء مهدئ. وزجاجة تقطير صغيرة لفتح انسداد الأنف. كانت تتنفس بصعوبة وهي تسحب الهواء الراكد في فضاء الغرفة من فمها.

انقلبت على وجهها. غياث داود. غياث داود. من يغثني منك ؟ من يغـثـك مني ؟ من يغـثـنـا من بعـضـنـا ؟ من يحمـلني ؟ من يأخذني ؟ من ؟ غياث داود أهلا وسهلا. أنا سعيدة بنت المنصف. ترى هل يذكرك هذا الاسم بشيء ؟ لست ممثلة مشهورة ولا مغنية ولا قارئة كف ولا منـدوبة شركة تأمين. أنا سعيدة بنت المنصف. نعم. فتاة من هذا البلد. تطمح في أن ترى اسمها منشورا في صحيفة أو مجلة وهو يتصدر مقالة، أو قصة، أو أي شيء. ألا يكفي هذا ؟

يكفي لماذا ؟ قامتك الوضاحة، وعيناك الوطفاوان. زغردة العقيق في عمقها الخبيء. وترنيمة الفرح في ذلك الجبين. ماذا ؟ انني أغني ؟ نعم، انني أفعل ذلك، قولي انك تتغنى ليكون تشخيصك صحيحا، أتغنى، انني أفضل استعمال هذه الكلمة.

كانـت حكـيمـة بنـت الـشيخ جابـر أمي، نعم. أمي، أفي هذا غرابة ؟ وهل تتصورين انني بلا أم ؟ خرجت من ثقب الحائط ؟

كانت حكيمة بنت الشيخ جابر تخيفني دوما عندما تقول لي إننا وجدناك على دكة باب مهجور. فوق مزبلة. على ضفة النهر، تصوري. هكذا كانت تفعل بي رحمها الله. تقترن طيبتها الفائحة بسادية قاتلة. في أيامها الأخيرة أقعدها المرض. ولكن الويل لي إن امسكت بي، كانت أسنانها سلاحها الباقي والقاتل، أتريدين أن أتعرى لأريك الآثار ؟

مدت يدها وضغطت على مفتاح الضوء فاعتلق. وطأطأت عينيها قليلا فقد بهرهما الضوء. مسحتهما براحة يدها. أغلقت أحد منخريها بطرف

اصبعها وسحبت الهواء بقوة من المنخار الآخر. ثم غيرت موقع اصبعها. أحست ان الوضع أصبح على ما يرام أبعدت الغطاء عن صدرها. ثم عن ساقيها. وفتلت جسدها بخفة حتى تدلت قدماها من السرير. وحاولت أن تنهض. ولكنها حزنت عن ذلك لأنها لا تدري ماذا ستفعل ؟

على الذراع حصف طفيف. كانت أمه تعالجه بقشور الرقي (*) تدعكه فيها مرتين أو ثلاثا، حتّى يحمر ثم تضع عليه خرقة منقعة بماء ساخن، ثم يأتي وقت الشاي الممزوج بالهال، والكعك، والدبس، والتمر القسب، والسمسم، والهدهدات.

حكيمة بنت الشيخ جابر ترى أية بقعة من ثرى النجف الشاسع تضمك الآن ؟ لم أزر قبرك. لم أوقد شمعة. لم أغرس شجيرة. لم أحرق بخورا. أو أنحر ذبيحة. لم أبك. لم أضحك. لم أمت. لم أحي.

ـ ماذا تقول عني يا غياث ؟ هل أنا جلمود صخر لا يحس ؟ هل أنا حجرة حملت من جبل بعيد لترمى في رمال لاهبة ؟ هل أنا شظية طائشة لم تجد الصدر الذي تبحث عنه لتسلبه الضوء والحياة ؟

ـ ولماذا تسأليني عن ذلك ؟

كانت ملتصقة به. يدها على كتفه. مطمئنة. راضية. مذعنة. حائرة. مترددة. حنونة. ناقمة. عاشقة.

نطقت :

ـ لأعرف من أنا بالضبط ؟ لم أعرف أشياء كثيرة مرت أو ستمر بي، انني أنغرس مندهشة هنا. وهناك فوهة مسدس مصوبة نحو صدري. ولكن الرصاصة لم تنطلق. لا أدري أي جبان أخرق يمسك بها ؟ لو يفعل ذلك لربما كانت الأمور أهدأ، ولكان في هذه الخاتمة الجواب.

سعيدة بنت المنصف ماذا تريدين أيضا ؟ وأنا المركون جوارك ماذا أريد ؟

(*) الرقي : البطيخ الأحمر (الدلاع).

- أبي .

- رحمه الله ! اما به ؟

- كلما زرت قبره أصاب بالخرس، ومرة لا أدري ما الذي أصابني فانفجرت ضاحكة، وظلت هذه العادة تلازمني في كل مرة أقف فيها أمام قبره، وقد انتبهت أمي لذلك فلطمتني على وجهي وأنزلت على رأسي حملا من الشتائم .

قرصها من أذنها فكفت عن الكلام. ابتسم لها بعد ذلك فوجدت نفسها هي الأخرى تبتسم له .

ـ 2 ـ

يغط مقهى (الاكسبريس) في صمت الغروب، الاضواء بدأت تعتلق في جوفه الفسيح. بينما انشغل الندل بتهيئة الأطباق والمفارش استعدادا لتقديم وجبة العشاء للرواد الراغبين.

كان البعض يجلس في شرفة المقهى على هيئة حلقات تغص بالثرثرة والدخان بينما انسحب البعض الآخر إلى داخل المقهى بعد أن لعلع الرصاص قريبا من المكان قبل دقائق. ولم يحاول أحد من الحاضرين أن يعرف الأسباب. لان الوضع ينفجر هكذا فجأة، يتساقط قتلى هنا وهناك، من المارة، من الواقفين، من المتحاربين، تحمل الجثث على الفور ثم تمضي الحياة وكأن شيئا لم يحدث. فالموت هو قاموس المدينة ولازمتها الباقية. افتقد القدسية كما افتقد الرهبة أيضا.

عاود البعض الخروج إلى الشرفة من جديد بعد أن عم الهدوء بحثا عن نسمة هواء يأتي بها شارع الحمراء في اكتظاظه الخانق الذي يكون عليه في مثل هذه الساعة من المساء.

كان الرسام المتوحد منزويا على كرسيه، هو وأوراقه، ونظارته الطبية فوق عينيه. ووجهه مندس بين الأوراق.

لقد بدأ بالكتابة في الشهور الأخيرة. نوبة أمسكت به فنشر كتابات غريبة، متوحشة، حارة، عن لصوص غرباء، وجرائم غامضة. وأناس مجهولين لا ملامح لهم، ووقائع خارقة، اهتمت بها أكبر صحف المدينة، وأخذت تنشرها تباعا، وتعد قراءها بمواصلة نشر أجزاء أخرى منها.

سأله غياث داود مرة :

ـ هل كتابتك هذه ولدت على حساب الرسم ؟

ويردد قاطعا :

ـ أبدا.

ـ اذن ؟

ويوضح بملل :

ـ سمها مكملة له . شيء ما في الأعماق لن يذعن للرسم لذلك كتبته .

وقد صمت غياث داود وهو يطوي ساقيه ليضع إحداهما فوق الأخرى ، ثم يلتفت ليواصل الحديث مع صديقه القريب حسان صبحي الذي كان يشاركهما في جلستهما وقد حنى جذعه إلى الأمام وراح ينظر إلى الأرض وكأنه يبحث عن شيء أضاعه . وكان يرفع يده بين آونة وأخرى ليمسح بها على شعره الكث الذي وخطه الشيب .

ربت الرسام المتوحد على كتف حسان مبتسما ثم تمتم :

ـ ها عمو حسان ؟

فيبتسم حسان صبحي ويرفع جذعه المحني . منذ شهور والرسام المتوحد يلصق باسمه لفظة عمو كلما ناداه ، ويعلن بأنها تليق به بعد أن غزا شعره الشيب وأخذت محظياته بالانسحاب التدريجي . ولم يبق له إلا البحث عن البدائل وهو الأمر الصعب بالنسبة لرجل مثله منذ أن شب في تلك المدينة المخضلة بالندى والياسمين وهو يحاول أن يداري السعير الصارخ فيه . ارتمى في علاقات عديدة لم يحسب لها حسابا . تزوج ، ظنوا انه قد روض ، ولكن عينيه طاشتا أكثر ، وظلتا تعريان العابرات . فعرفته الشقق المسدلة الستائر ، في دمشق وبيروت والقاهرة ولندن وباريس صائدا حاذقا ، يحمل عدة صيده معه ، عمودها كلمات طرية خضراء وفحولة شرهة لا ترتوي .

ـ كلهم تآمروا على هذه المدينة ، كانت واحتهم ، منطلقهم ، مبغاهم ، سوقهم ، مصيفهم ، مركز تآمرهم . ملاذ الهاربين من الجور والانقلابات المتعاقبة . كانت لهم كل شيء .

ـ لكنها لم ترضخ لهم . تمردت عليهم . لذلك كان ما حدث لها محاولة لتركيعها واذلالها ، وهكذا عاثوا بها ، وانتهكوها ، افتضوها بمقت ، مثلوا بها .

ـ ولم يعد هناك من يقدر على ايقاف كل هذا ؟

ـ لذا نتقبل ما حدث وما سيحدث صاغرين مذعنين.

ـ هذا كل شيء.

ـ وهل هناك شيء آخر ؟

حسان صبحي. الرسام المتوحد، غياث داود، الاختناق، وصراخ الاستنجاد. القامات المذعورة تفر فوق الأرصفة والأزقة الضيقة التي تحيط بشارع الحمراء، حيث تعسكر الأوساخ والفضلات وصناديق البضاعة الفارغة وبقايا البناء والقطط اللامعة العيون والكلاب المهدلة الآذان. والليل، والخوف والاندحار.

ـ أنا سميرة حليم.

ـ أهلا وسهلا.

ويقول حسان صبحي مواصلا التعريف :

ـ سميرة حليم هذه لا يخبو جمالها أبدا. لقد رأيتها أول مرة قبل عشر سنوات على ما أذكر وهي هكذا، ولم ينطفئ شيء من بريق هذا الجمال أمام زحف السنين. صدقني يا غياث لو لم أكن عاشقا يومذاك لأحببتها، ولكنها هربت عندما عرضت عليها عواطفي فيما بعد. اسمعي يا سميرة حليم انني أحتفظ بحبي لك، وهو معروض أمامك في عرضحال مكتوب بلغة واضحة وبعدة نسخ، والأمر متروك لك لتوقعي عليه بالموافقة متى شئت.

ولكن عينيها كانتا عند غياث داود. تنحنح آنذاك وقال بمكر :

ـ يبدو أن عرضحالي قد جاء متأخرا ؟ حسنا انني أنسحب في انتظار فرصة أخرى، كلاكما تصغرانني فهنيئا لكما، أما أنا فكهل مرهق، ولكن دفاتري القديمة لا تخلو من وجوه أخرى ولن أكف حتى أعثر على أحدها.

قال غياث :

ـ نحن فقراء شاحبون ازاءك.

فابتسم حسان من جديد ووضع يده على كتف غياث بينما ظلت عيناه

تتأملان وجه سميرة حليم الطافح بالبشر. قال لها :

- احفظي اسمه جيدا، غياث داود، لا حاجة لذكر اسم جده الذي لا أعرفه، انني امنحك اياه بالكامل فخذيه.

وضحكت سميرة حليم بصوتها الفرح، وبعد ان ارتوت من الضحك تمتمت :

- كنت أراه في المقهى، ولكن الفرصة لم تسنح لي لأن أتعرف عليه، الشيء الوحيد الذي عرفته عنه انه ليس لبنانيا، لهجته تشير إلى ذلك وهو ينادي على النادل أو يتكلم مع أحد جلسائه.

قال غياث :

- هل عرفت بلدي الآن ؟

هزت يدها ودفعت إلى وجهها ببسمتها التي تتحدى موت المدينة وردت :

- لا يهم. كلنا ننطق بهذه اللغة الحلوة، لغة القلب والأجداد، وهذا هو الأساس.

وعلق حسان صبحي :

- انه من العراق يا عزيزتي !

وهتفت :

- اذن هناك قرابة بيني وبينه، جدة أمي عراقية، أقسم على ذلك.

ونطق غياث :

- من يصدق انني لم انتبه لسميرة حليم من قبل رغم انني ارتاد هذا المقهى كل مساء ؟

بلع ريقه ثم تنحنح من أجل أن يصفو صوته، بعد ذلك قال :

- منذ أن وصلت بيروت قبل عام وأنا كالمضروب بمطرقة هائلة على يافوخه، والا كيف لم التفت لهذا الوجه المشع ؟

وصاح حسان صبحي :

- هيا يا أخي التفت وأنقذنا.

بعد ذلك ينطلق الثلاثة بالضحك الحار الذي قطعه غياث داود بالقول:

ـ والآن ما رأيكم بالجلوس ؟

يهز حسان صبحي رأسه موافقا بينما تنسحب سميرة حليم معتذرة وهي تقرب وجهها من غياث وتقول :

ـ ولكنني غدا سأنتظرك هنا في مثل هذا الوقت.

يوم دخلت هذه المدينة الحلم وجدت الكسوف وقد اقتنص شمسها، حملتني السيارة من مطارها الموحش، أسندت ظهري إلى الوراء وظللت أتطلع إلى الخراب الشنيع من وراء نظارتي السوداء وأنا أكسّر الشتائم واكدسها في قلبي حتى لا تتفجر وتهدم الجدران.

سميرة حليم أيتها العروس الأبدية، المعطرة، المتألقة مثل نجمة، أنت وفيروز وسيارتك الايطالية الخضراء التي تمخرين بها الأزقة الملتوية صعودا وهبوطا، إلى الجبل والسواحل والغابات، وأنا المدعو غياث داود الأبكم الحزين، أقرفص بجانبك صاغرا ولا أقوى على التفوه بكلمة قد تنبئ بما أنا عليه.

هل أرفع صوتي وأعلن :

ـ لعن الله حسان صبحي.

أم أنبس وكأنني أكلم نفسي :

ـ ما أروعك يا حسان صبحي وأنت تقدمني بكل انكساري وتقلباتي لهذه المرأة التي تقارع الزمن والحصار ببسمة لا تعرف الذبول ولا الانزواء ؟

تتكل المدن كالأمهات ودليلي على ذلك هذه المدينة التي تضمني اليوم.

يصغي إليها جيدا، وهو مأخوذ بدنيويتها وتحديها. تبوح له بأشياء كثيرة. رحيلها المتواصل إلى قبرص كذلك. هناك أستطيع أن أمشي وأن أضحك. ولكنك تضحكين ؟ انه الضحك الآخر الذي غادرنا. تصور يا غياث ما أصغر الحلم! وما أسهله! أن يمشي المرء ويضحك فقط ؟ لا

يوقفه حاجز مسلح ولا تنغرس في ظهره فوهة رشاش ؟ أو يشتمه عتي ابن قحبة ؟ وأن يطلق حنجرته على مداها، لتكركر بالضحك الخلي، حتى تغتسل العروق من أدرانها، وتلعب الريح بشعري القصير. مسألة فظيعة أن تصغر أحلامنا إلى هذا الحد نحن الذين كنا نملك كل شيء، وعجز العالم المترامي عن احتضان أحلامنا. كنا نرمي عيوننا هناك. إلى أمريكا وأفريقيا واستراليا واليابان وأوربا والخليج والهند، إلى كل مكان تصله الطائرات والبواخر وحتى الجمال أيضا، لنكون أول المبشرين وأول المكتشفين. جدي جاء بمليون ليرة لبنانية من الكونغو، وابن عمتي جاء بما يقارب نصف هذا المبلغ من الأرجنتين. وأنا كالقطة المحنطة في مخبأ مقرور من هذه المدينة التي حلت عليها لعنة غامضة. ماذا أفعل ؟ مجرد مدرسة لغة عربية، أحمل الليسانس من الجامعة الأمريكية، ومشروع رسالة ماجستير عن الجاحظ لم أجد الحماس لاتمامه، سيارتي اشتريتها بالاقساط، وحسابي في البنك فيه عدة مئات من الليرات، لن أخبرك بالرقم الحقيقي، اطمئن، انني غنية بما فيه الكفاية، ماذا تريد أن تعرف أيضا ؟ البارحة قطعت تذكرة ذهاب وإياب إلى قبرص، لا القاهرة ولا بغداد ولا أي مكان آخر، أبحث عن الأقرب. قلت لك إنه دائي القديم، المشي والضحك أحيانا.

قال لها :

- قولي الضحك دوما لأنني لم أرك مقفلة عابسة مره.

- لا يغرنك هذا، فكل شيء في الداخل قد نسف، وأنا أجاهد من أجل أن أرمم البقايا، وان لم تصدق ادفعني بيدك لاسقط منتهية مبعثرة.

- سميرة حليم أريد أن . .

- اسكت يا عزيزي غياث فالشمس مازالت في كبد السماء.

الرسام المتوحد يشتم الدنيا. يقلب عاليها سافلها. يجمع أوراقه المنتشرة على الطاولة ثم يطويها ويدسها في جيب سترته. بعد ذلك يحمل جسده النحيل ويقف، يلتقط علبتي السجائر والثقاب ويخرج شاقا طريقه

بخطوات عريضة.

انه يخرج دائما في مثل هذا الوقت. يذهب إلى سيارته المركونة في أحد الأزقة الجانبية، وعندما يراها جاثمة في مكانها يتنفس بارتياح. ويحمد الله ان يوما آخر يمر عليها دون أن تسرق، ثم يهدئ نفسه من وساوسها، المهم انها لا تشجع على السرقة، أغبياء آخرون مازالوا يشترون المرسيديسات والبي أم دبليو والفولفو والتويوتا وغيرها. أما أنا فهذه البيجو الهرمة تكفيني، عايشتني سنوات. وفي اليوم الذي يحملونني فيه إلى القبر يوعزون لعمال البلدية لأن يحملوها ويرموها مع الأنقاض بعيدا. البداية الواحدة والمصير الواحد.. تف.

حسيبة ريحان.

جوزفين مراد.

نبيهة الياس.

هناء محمود.

ندى عبد القادر.

أميرة حسين.

نوال الحسن.

أمينة جبار.

ارنستينا هولزمان.

نورية سالم.

لمياء عبد الرزاق.

فاتن عثمان.

زينب عزوز.

حديث مؤجل. يأكل في الرأس مثل العث. جارح وليس بعتيق.

- 3 -

- لا أدري كيف تتم الأمور بهذه السهولة ؟ من الممكن أن تكون المرأة لرجل واحد فترة مامن حياتها تستبدله بآخر في فترة لاحقة، زوجا أو صديقا ليس هذا بالمهم. ولكن أن تكون لأربعة رجال أو عشرة في نفس الوقت تتنقل بين غرفهم المطفأة الأنوار هي وبدلة الطيران، بدلة المهنة كما يقال فهذا أمر غريب أرفضه ومازلت وكلما كنت أصل مدينة جديدة أنزوي في غرفتي، أستخرج أوراقي وقلمي أو كتابا اقتنيته من مكتبة مطار ما لأنفرد به. ولكن زملائي لن يتركوني وشأني. تنهال علي مكالماتهم ودعواتهم المغرية من أجل رفقة ليلة عامرة بالرقص والكؤوس، ورغم انني أحب هذا الا أنني لا أتفاهم مع الرفاق فأطبق التليفون معتذرة بلباقة، ولكنني أنزل الشتائم على أرواح أجدادهم في سري. هكذا أفعل دوما، بعد فترة عرفوني وأخذوا يتهامسون عني بالنعوت، والمهم انهم قد تحاشوني. وقد بالغ البعض في ذلك ولم يعد يبادرني بالتحية أو يرد على تحيتي ان بدأت بها، كبر احتقاري لهم، وللمهنة وللعالم. لذا استقلت وهاجرت.

سعيدة بنت المنصف هل أحذرك ؟ هل أتوجس منك شرا ما ؟ هل أتوقع شتيمة ؟ خيبة ؟ فضيحة ؟ أي شيء ؟

سعيدة بنت المنصف، هل تمضين ؟ أم تمكثين ؟ هل تأتين ؟ أم تذهبين ؟ هل أهلل لانسلالك من بين يدي ؟ أم أطأطئ رأسي كمدا وحسرة ؟ هل أصلي لآلهة مجهولة غريبة الأطوار ؟ أقدم لها البخور في مجامر من ذهب وعلى وجهي المكدود خنوع وحياء ؟ هل أفعل ذلك ؟ دليني على طريق أرجوك.

حط الليل. سعيدة بنت المنصف. والليل مقبرة الفرح والحزن معا. كعبة الهجر والمواويل المبحوحة الأصوات. وأنا المتلفع بمعطفي الواقي من المطر، وبحذائي المطاطي الخفيف أحاول أن أوجد ثغرة ما في هذا الجدار الصلد، لأوقظ النيام الأبديين، وأحذر من أراح رأسه حتى يرفعه

ويـزرع عينيـه مترقبـا حدوث معجـزة تكـون للأشياء بعدها ايقاعات أخـرى، تجعل الرأس المذعن، المنكس كراية اندحار. يتحامل مرتفعا لينصت ويهتز.

حط الليـل. حسنـا ليحط، ولكن أنا وأنت وهذا الجنون المختر في عينيـك، هذا التـاريـخ الواجم الذي تلخصه قامة ناعمة تهمس فوق أسفلت الرصيف بخطوات غمامية متخبطة لا تألف بقعة ولا طريقا في هذه المدينة المترامية، بل يدعوها النأي وتدعوها المسافات لتسرع وتمضي، لا من حيث أتت، بل إلى بقاع أخرى لم تكتشف بعد، ولم يتوقف عند تخومها مرتحل هجين.

سعيدة بنت المنصف. هل أقول وداعا ؟ أم أهب لأرحب بك وآخذك إلى صدري، وأعيد صياغة تاريخك المهلهل الصفحات ؟ أرتبه من جديد وأمنحك المعنى والغاية والمصير ؟

ـ أنا حاجّة، نعم. لماذا لا تصدق ذلك ؟ تستطيع أن تسميني الحاجّة سعيدة بنت المنصف. لقد أديت العمرة قبل ست سنوات، ونحرت خروفا كبيرا، ووزعت الصدقات على الفقراء. ولكن أنت، هل تفكر بأن تفعل مثلي يوما ؟ أيها المتعب الذاوي، تأمل فوديك المشتعلين بالبياض، واذكر الله كثيرا لعلك تفلح، آه انني متدينة، وهذا ما يعطيني الهدوء والرضا في أوج اشتعـالي، سامحني الله ؟ سيسامحني حتما، أو أنه قد سامحني فعلا. أقول هذا باعتداد ويقين، ما الذي فعلته حتى لا يسامحني ؟ هل علقت النـاس من رقـابهم في الطرقات ؟ هل نبشت القبور ؟ هل فقأت عيون الصغار والأمهات ؟ وان لم يسامحني على البعض من معصياتي الصغيرة فلن أطلب منه ذلك، لدي معه عقد خاص، وقعناه في ساعة رحمة، ساعة وئام. انه ربي والعالم بما في هذا القلب، قلت : قلبي ؟ اللعنة عليه هذا القلب اذن فلولاه لما صلبت أمامك كل هذه الشهور. ولولاه لما ولما، ولكن السماء تعرف المسز اليسون.

ـ ومن هي المسز اليسون هذه ؟

ـ بطلة فيلم أمريكي رأيته قبل عشر سنوات.

أضغط على الحروف وهي تنثال من فمي بتأتأة ثقيلة. لم أقل شيئا مهما. ليس لدي ما أقوله. ولكن علي أن أملأ هذا الزمن الشاسع الذي يلفنا الآن ويغـرقنـا في مده. وهي تقـابلني وقد غرست كوعيها على الطاولة واحتضن كفاها وجهها الذي تألق في المكان.

قالت :

ـ مللت، أود أن أصرخ ليسمعني الناس.

ـ مللت مني ؟

ـ من كل شيء. منك ومن نفسي، ومن العالم ومن السخف، ومن العظمة ومن الـ . .

ـ كفى، كفى.

وربت بيدي على كفها، ثم تحسست الخاتم الذهبي في اصبعها، أدرته في مكانه مرتين، بعد ذلك سحبت يدي لأكومها فوق الطاولة.

وضـع النـادل زجاجتي المبردات. سكب ما فيهما، كل في كأسه ثم انسحب. شيعته بنظرة لا تحمل معنى. ناعمة مثل خيط من الحرير هكذا هي سعيدة بنت المنصف. ولكن لسانها يتفتق أحيانا عن حدة لا كابح لها، فيبدو وكأنه ليس لها، كأنه لنمرة بدينة، مزواجة، ووراءها سرب من الأولاد النهمين.

قالت متسـائلـة :

ـ لماذا أبقى هنا ؟

ورددت متسائلا أنا الآخر ببساطة ؟

ـ ولماذا تذهبين ؟

فوخزها تساؤلي، وكأنه نبهها إلى حقيقة كانت غائبة عنها، ولم ترتطم بعظام رأسها مرة.

قالت بعد ان رفعت كفيها عن وجهها لتمسك بكأس المبردات :

ـ أتدري بأنني غارقة فيك ؟ والساعات التي لا أراك فيها هي انتظار للساعات التي سأراك فيها وهكذا رحت، ستة شهور، سبعة، وربما أكثر، كل الذي أعرفه أنني أغطس ماضية صوب القعر، وقد انتهي ان لم انتفض وأقاوم غرقي.

أخذت رشفة من كأسها ثم أعادته على الطاولة. نقرت بطرف سبابتها عليه فرنّ زجاجها، آنذاك واصلت :

ـ لم أعتد أن يستلبني رجل هكذا. وأن يأخذ سلاحي من يدي ببساطة. ويجعل مني كلبته الطيعة التي تهز ذيلها احتفاء به كلما رأته.

رفعت رأسي بعد أن طأطأته قليلا وكأنني مفكر مجهد، تأملتها مليا، وقرأت كل ملامحها التي ألفتها وقلت وكأنني أحذرها :

ـ اسمعي يا عزيزتي.

وقبل أن أواصل تذكرت انني عطش وريقي جاف لذا رميت بمحتويات كأسي الملأى في جوفي الساخن. ثم قلت لها :

ـ أتريدين أن تذهبي ؟ هيا اذهبي، ما الذي يمنعك عن ذلك ؟ أم انك تريدين البقاء فأهلا وسهلا بك ؟ المهم ان تكفي عن اطلاق هذه التهديدات.

وعدت لأسكب في الكأس ما تبقى في زجاجتي ولأفرغها في جوفي دفعة واحدة. أمسح فمي وأستمر في القول :

ـ المحبون الحقيقيون ينعمون في الساعات والأيام التي يكونون فيها معا أما إذا طرأ ما يجبرهم على الابتعاد فليتم ذلك بهدوء حتى يبقى للقلب ما يعتاش عليه عندما تدلهم السماوات وتغلق الدروب، أفهمت ؟

ورددت كالهاربة :

ـ أريد أن أريح وأستريح.

وأطلقت ضحكة عالية، من تلك الضحكات التي تبدو وكأنها مخبأة في داخلي دهرا، ولوحت بيدي الطويلة الأصابع وقلت بمرح لا يلائم

المشهد :

ـ سأقول لك مع السلامة ثم أقفل راجعا إلى بيتي لأنام عشر ساعات أو يومين وعندما أصحو سيفرجها الله .

وتمتمت ببساطة :

ـ بماذا ؟

غمزتها بعيني وأنا أواصل دعابتي :

ـ ربما بامرأة أخرى، هل تمنعينني من ذلك ؟ أم لديك حزام عفة تشدينني به ثم تحملين مفتاحه معك وترحلين ؟

وضعت يدها على يدي ورددت بأسى وهي تكز على أسنانها :

ـ أيها الزاني يا غياث، ستقطع كل الأحزمة والحواجز عندما تداهمك عينا احداهن، من يحميني من تاريخك المثقل ؟ ومن يوقفك عن الخوض في ساحات الوغى ؟

ابتسمت لها ونطقت بحب :

ـ أنت تتحدثين عن غياث الماضي، أما غياث الذي أمامك فقد صدئت سيوفه وحرابه ولم يعد أهلا لشيء.

كان صديقه الشاعر يمصمص شفتيه، وكأنه يخبيء قطعة حلوى تحت لسانه . وكان يتحدث بمرارة عن هموم كثيرة . ولكنه يعود ليسترجع أيامه في قريته الصحراوية بحنين وشوق . بعد ذلك يتحدث عن تلك المدينة التي حل فيها للعمل، نفس المدينة التي أنجبت سعيدة بنت المنصف في يوم شتائي شديد البرد، ويقول عنها بحنق :

ـ استعمرتني تلك المدينة سبع سنوات كاملة، أدرس أبناءها الحساب واللغة العربية والجغرافيا والتاريخ، كل الدروس، ألغو مثل بعير مملوء الجوف، يجتر ما اختزنه، حتى أسقط اعياء ليحتضنني بيت في الأطراف لا يحتوي إلا على غرفة واحدة، مدينة الفئران تلك لم تترك لي قميصا ولا جوربا أو ملابس داخلية سليمة، عاثت بها وشقت فيها نوافذ وفتحات

تهوية و . . لعنها الله، انها ذكرى ثقيلة !

وظل يواصل البوح والشكوى أمام غياث الذي كان ينصت إليه باهتمام.

- وأخيرا نقلوني إلى العاصمة، ولكنهم سيحولونني إلى الادارة لأنني لم أعد اصلح للتدريس بناء على التقرير الطبي المزور الذي جئتهم به، سأسجل أسماء الطلبة الغائبين، واكتب رسائل إلى أولياء الأمور وإلى المستشفيات، وبعد أن أفرغ من ذلك سأنكب على قصائدي وكتبي.

تلعنينني ؟ ألعنك ؟ سيان، ولكن لماذا يحصل هذا ؟ ألسنا هكذا في وئام وتجانس تامين ؟

هز يده ثم قال بحسم :

- المهم ان مدينة الفئران لن تعود الا ذكرى وتجربة، ولكن ما أبهظ الثمن واليوم علي أن أقوم بحملة مشتريات، تبدأ من الجوارب وتنتهي بالمعطف.

ثم عاد لامتصاص قطعة الحلوى المخبأة تحت لسانه واستكان إلى طعمها المستساغ وأغمض عينيه نصف اغماضة بينما استقر رأسه على ظهر المقعد، وتخيل غياث انه سيسمع غطيطه بعد لحظات.

حسيبة ريحان

هل أستعرض مجدا مندثرا ؟ أم أوسمة قديمة بهت بريقها الأول ذاك ؟ وأنا رجل في الظل دوما لم أطمح بأن أضع على صدري وساما يوما فأي كرنفال يتطلب ذلك ؟

هل احني قامتي ؟ أم أنهضها على ما فيها من تعب وارتجاف لأتظاهر بالتفوق والثبات ؟

أنت . . .

اسمعيني جيدا وأنا أصرخ من هذا البعد، لن أصفي معك حسابا فليس بيننا أي حساب، ليس هناك دين ولا عهد، ولكن لي معك عتابا طويلا فقط، منحتني الحق فيه تلك الألفة الهامسة التي عشناها، ذلك الود الـذي تنسجه عيوننا عندما تتشابك بتوادد وفهم، تلك اللوعة، وذلك الغرام، فلماذا فعلت ذلك بي اذن ؟ لماذا تخليت عني لتقترني بذلك الكبش الأصوف دون مقدمات ؟ أطرح عليك سؤالي القاتل بعد عشرين عاما أو أكثر. عشنا فيها ورأينا. مكثنا وارتحلنا. ـنا وبعثنا. لكنني هربت منك، لم أرتض أن أريك وجهي، ولم أرغب في أن أرى وجهك بعد أن مر عليك حصان غازيك البليد. مرة واحدة فقط رأيت وجهي ورأيت وجهك، رغم أننا نعيش في مدينة واحدة ومحلة واحدة. أتذكرين كيف تم ذلك اللقاء ؟

كان المطر يتساقط رذاذا. وقد احتميت بواجهة أحد المخازن فوجدتك هنـاك تحتمـين مثلي، لم نفاجأ ببعضنا، وكأننا مازلنا أسرى ذلك الوئام القديم، وكل الذي حدث انك ابتسمت لي، أو إنني ابتسمت لك أولا، ثم تعانقت البسمتان للحظات قصار فقط. وكان توقف الرذاذ قد حل الاشكال فانسحبت مهرولا.

كان عليك أن تسوقي عذرا، اي عذر، حتى لا تظل الأسئلة تتطاحن في صدري وتقضمني ببطء، وحتى لا تظلي في قلبي غصة أبدية لا شفاء منها ولا جواب لها.

حسيبة ريحان. كل الماضي ذاك مغروس في عينيك مثل شوكة، نابت في دمك مثل الصبير البري فأين تذهبين ؟

حسيبة ريحان. لقد كبرت، وكبرت أنا أيضا، وغزت الشعرات البيض رأسي ورأسـك، لقـد رأيت ذلك في تلك اللحظات القصار، لحظات الـرذاذ، تحت واجهـة المخـزن. ابتعدت عنك هاربا، ولكن التساؤل الأزلي اشتعل في قلبي، لماذا فعلت ذلك ؟ لماذا يا حسيبة ريحان ؟

جوزفين مراد

في أميركا أنت الآن وفي(ديترويت) بالضبط، منذ أن هاجرت ذات يوم، لم يكن أحد يعلم أن تلك الرحلة ستكون رحلتك الأخيرة من بغداد. ولم يكن أحد يعلم أن ذلك الأمريكي الفارع جداً ـ وأنت القصيرة جداً ـ سيكون في انتظارك لتتزوجيه، قد يسألك سائل : وهل خلا هذا البلد من الرجال ؟ ولكن الأمور رتبت هكذا فزواج سعيد. وهل كان على بشير عواد أن يلتقيك في ذلك المتجر الكبير ؟ لقد هتف كل منكما باسم الآخر وهو غير مصدق. كنت ضائعة بين الأمريكيات بشعرك الأشقر القصير، وببشرتك المعافاة البيضاء. وكان واضحا مرفرفا مثل راية عربية بشعره الأجعد ووجهه الشديد السمرة. كتب لغياث داود بعد أيام من لقائه بك، وحدثه عنك، ومما قاله : أتريد أن تطمئن ؟ انها وفية لك. كان الدين يقف بينكما حائلا، لكنها لم تنس انك الهوى البكر. وقعت فيك وهي مازالت طالبة مراهقة. استلتك من بين الوجوه العديدة التي أحاطت بها، واطمأنت إليك. لم تسألني عن الوطن، ولا عن زملاء الدراسة، لم تسألني عن أحوالي ولأية غاية جئت إلى أمريكا، كان سؤالها الأول المباغت : أين غياث داود ؟ وأردت أن أقول لها : لقد ضاع. ولكنني استبدلت ذلك بالجواب التقليدي المعتاد : بخير، وصحته جيدة، هل أنت كذلك فعلا ؟

جوزفين مراد كانت تقتنص فترات سهوم غياث وشروده حيث ينسل من الصف ليقف بمحاذاة الجدار مشرعا للشمس والأنسام، ومطلا على أفواج الطلبة الماخرين في الحديقة لتلحق به وتقف جواره، وكان يتحاشى النظر إليها، ويغص بأغنيته التي يدندن بها بخور كلما رآها مقبلة باتجاهه، ويتوقف كل شيء فيه عن العمل، الحواس والأفكار. ويخضع مستسلما لمشاكساتها من أجل أن تخرجه من صمته وانغلاقه، تهرس قدمه بقدمها،

تردمه بكتفها، ومرة وجدت المكان فارغا فكورت قبضتها ولكمته على بطنه، ولكنه لم يتململ أو يطلق صرخة استغاثة رغم انه أخذ يترنح من ألمه، وبعد أن هدأ التفت إليها وهو يسألها بسذاجة قروية :

ـ لماذا تفعلين هذا بي ؟

وتكور قبضتها ثانية وكأنها تهدده بلكمة جديدة، تكز على أسنانها بقوة وتصرخ فيه :

ـ لأنني أحبك أيها الغبي.

وكان اعترافها الناري ذاك مدعاة لبسمة لم ترتسم على وجهه إلا نادرا. وفي الليلة نفسها دعا بشير عواد على زجاجة بيرة جعلتهما يعودان إلى القسم الداخلي ثملين وعلى شفتيهما نثار من أغاني الحب الشائعة يومذاك.

جوزفين مراد، كان يحملكما باص أحمر من طابقين كل يوم بعد انتهاء الدروس، انتما في الطابق الأعلى منه، وفي المقعد الأمامي غالبا، يهدر بكما نحو « الكرادة الشرقية »، وبعد أكثر من ساعة تصلان. تصل هي إلى بيتها فيعود هو في نفس الباص إلى القسم الداخلي ويكون الجوع قد أمضه، ولكن بشير عواد يرأف به في مثل هذه الحالات وغالبا ما يخبئ له شيئا يأكله، يقبله شاكرا ويعيد على أسماعه وقائع كل الحديث الذي دار بينهما في رحاب الباص.

بشير عواد يحل في « الموصل » اليوم، يمارس التدريس والتثاؤب وأصبح أبا لتسعة، ولكنه مازال يضحك ويغني، وعذره ان كل من عليها فان.

جوزفين مراد لم يبق غياث داود في أعقابك، لم يبق شيء فيه أو منه. قال لك مرة : كل منا له طريق. أنا سأرحل صوب السماوة بعد التخرج لأعاون في اعالة أسرة كبيرة كثر فيها الأولاد والأحفاد، وأنت ستبقين في بغداد، يأتيك واحد منهم، من نفس دينك غالبا، ويطلب يدك، وتهزين رأسك موافقة عندما ترينه فتيا ولبقا، وستقفان معا أمام كاهن عجوز

ليعقد قرانكما، ويستمع لكلمات العهد وهي تنطلق من شفاهكما، بأنكما ستخلصان لبعضكما حتى الموت، ولكنك اعترضت على ما تفوه به وقلت بثقة وعزم : سأخون ذلك الزوج معك، إن أردت ذلك، وفي ليلة زفافي، أفهمت ؟ ما ألذ أن أكون خائنة أخرج على عرفهم وتحنيطهم ؟ وأن تكون أنت بالذات السبب في ذلك ؟

وقد ضحك غياث داود آنذاك وقال لك : لقد ذهبنا بعيدا ونحن لانزال نحمل كتبنا في انتظار أن يقرع الجرس حتى ندخل الصف ؟

جوزفين مراد، لم تكن أمريكا في ذاكرتك. ولم يجر الحديث بينك وبين غياث عنها يوما، لم تتحدثي عن أية مدينة بعيدة، ولكن خالتك المقيمة هناك شاءت أن تزودك بتذكرة سفر إلى هناك، فتقبلت ذلك بفرح. وها أنت تحملين جنسية ذلك البلد البعيد اليوم، ولك ثلاثة أولاد ولدوا هناك، ولم يعرفوا كلمة واحدة من لغتك الأم.

جوزفين مراد، لقد ضعت، لقد ضعنا، وليس هناك من يسير في اثرنا ويرجمنا بالنداء ليعود بنا ولو مكتوفي الأيدي.

نبيهة الياس

كنت مبهورة بممثل كوميدي، يظهر على شاشة التليفزيون في تمثيليات شعبية تنطين ضحكا وأنت تتابعينها وترقبينها باهتمام، كان قصيرا، أكل نصف عمره دون أن يظهر عليه ذلك، وهو يقفز بخفة ويصرخ ويحرك يديه وحاجبيه، ويعض على شفتيه ويرسل النكات الواحدة تلو الأخرى.

أدرت رقم الهاتف ذات مساء بعد أن دخلت أمك إلى الحمام، وكان أبوك في مكتبه في الوزارة منهمكا في تدقيق الحسابات. طلبت مبنى

الاذاعة والتليفزيون وسألت عن ذلك الممثل، وكأن كل شيء كان مرتبا، حيث أعطوك اياه بعد ثوان. ها أنت معه الآن، صوتا لصوت، ودخل معك في العمق فورا، سأل عن لون ثيابك الداخلية، وشهقت فزعا، ثم طلب منك أن تعطيه عنوان بيتك فقد تكونين مطلقة أو أرملة ثرية ووحيدة ليمر عليك متى ما وجد الوقت، ولم ينس أن يضيف بأنه سيحمل معه زجاجة ويسكي. أغلقت التيلفون بوجهه، وووددت أن تهرعي صوب مبنى الاذاعة والتليفزيون وتنتظري خروجه حتى تمسكي به وتحيطي عنقه الهزيل بيديك حتى تنط عيناه موتا.

نبيهة الياس، في يوم ما، من قرية متباعدة البيوت، على هضبة خضراء في شمال العراق جئت، كنت تحملين حقيبة مدرسية فيها حزمة أقلام وثلاث مماح ومبراة واحدة وعدة كتب ودفاتر، مكتوب على غلافها : الاسم : نبيهة الياس، الصف : الخامس الابتدائي، المدرسة : العرفان الابتدائية للبنات.

جلست في سيارة الحمل الكبيرة محاطة بأغراض البيت، وكانت قأقأة الدجاجات تملأ المكان وهن مشدودات إلى قائمة سرير جدتك الحديدي المطبق. كان أبوك فرحا بهذا النقل، والعودة إلى مسقط رأسه الموصل بعد دوران طويل في القرى والقصبات.

ومن الموصل إلى بغداد بعد سنوات قلائل. وكان جارك فيها غياث داود. نعم غياث داود. حكاية ليس فيها ما يثير. فتاة مراهقة قادمة من مدينة محافظة، تفتح عينيها على شاب يطوي كمي قميصه ليعرض عضلات ذراعيه، وينفخ صدره خيلاء واعتدادا. ولكنه يطفئ فحولته الفائرة بممارسة العادة السرية كل مساء في غرفته العلوية التي تطل على حديقة بيتك بعد أن يقلب صفحات مجلات تحتوي على صور ممثلات شهيرات في أوضاع مثيرة. وكان يراك غالبا وأنت تجلسين على كرسي خيزراني لتراجعي دروسك.

شعـرك بضفـيرتـين، على كتفيـك أو تتدليان على الكتاب أمامك، تلتقطينهما وترمينهما إلى الخلف بنترة من رأسك بين فترة وأخرى، ولكنهما سرعان ما تعودان فكأنهما في عناد معك.

تقبلين الكتـاب وكـأنك ترين صورة هذا الفتى الذي يترقبك فيه، وتتذكرين أن هناك أغنية مصرية تقول ذلك، حفظتهامن الراديو إذ كان يبثهـا دائـما في فترات الصباح، ومرة طلبتها من الاذاعة ضمن طلبات المستمعين وقد لبوا طلبك وأذاعوها أيضا.

وتـترقبـين خروج أمك اليومي إلى السوق لتشيري لذلك المنتظر في نافذته العلوية لأن يأتي. تفتحين له الباب فيدلف. يأخذ يدك ويقبلها. بعد ذلك يطوقك بذراعيه. ترحل شفتاه على عنقك وذراعيك ثم تستقران على شفتيك زمنا. بعد ذلك يزفر رغبة وخوفا وهو يراك مطأطأة الرأس ويدك تعبث بضفيرتك الطويلة، وكتابك ملقى على الأرض وصفحاته مشرعة.

وما أكثر ما تهبين كالفزعة وأنت تستحثينه على الخروج.

- كفى، ستأتي أمي.

وقد ينهض محاولا الخروج، وقد يمكث وهو يرد عليك:

- ولكنها لم تخرج إلا قبل خمس دقائق؟

فتتمتميـن:

- حسنا، اجلس اذن.

يعـاود تطويقهـا بذراعيـه المفتولين، يهتصرها برغبة وقوة، يمد يده لتمسح على ساقيها الدافئتين، ومن ثم لتصعدا قليلا وهي منتشية، نصف مغمى عليهـا، يرفع الثوب أعلى فأعلى، يكتشف ذلك السحر الأسمر المجهول، يهبط بفمه، ويظل يقبل الفتنة في ذلك اللحم النابض، تمتد يداه عجلتين إلى ازرار بنطاله، تفكانها بسرعة، ينبثق ذلك الشيء متوترا أشمّ. تفتـح عينيهـا فتراه، تصرخ أولا، يتنـازعهـا عالمـان من الخوف

والشبق، تلتصق به أكثر، يدس ذلك الشيء بين فخذيها فيعلو فحيحها وتتلاحق أنفاسها اللاهثة، يغيبان، ولا تفتح عينيها إلا والسخونة تبلل فخذيها فتهب صارخة :

ـ غياث، ماذا فعلت ؟

ينهض غياث، ويطبق أزرار بنطاله، ويحاول استعادة هدوئه وهو يجلس جوارها وقد أمسك بيدها الصغيرة، أنفاسه مازالت تتلاحق، فيهمس كالمعتذر :

ـ لم أفعل شيئا.

فتضع رأسها على صدره، تهبط كحمامة أتعبها التحليق، وطاردتها صقور شرهة فلم تظفر بها، وتقول :

ـ ولكنني أريدك أن تحبني فقط، ولا تقودني لفعل هذا الشيء ؟

ـ أعاهدك بأن لا أفعله في المرة القادمة.

ولكنهما يلتقيان، ويوضع الثقاب أمام الوقود الملتهب. فتضطرم النار، وتحرق الرؤوس والعيون، ولن يسمع عمال الإطفاء بصرخات الاستغاثة والاستنجاد.

* * *

نبيهة الياس، هل كان على غياث داود أن يبقى معك دهرا ؟ ما الذي سيقدمه لك غير هذا الشبق العاتي الذي يعيث به ويلعن أجداده ؟ لكنه غاب واختفى بمجرد أن رحلت أسرة أخيه إلى مدينة أخرى، ولم تعودي ترين وجهه، وافتقدت حرارته وقوة ذراعيه.

التقيتما ثانية بعد سنوات. كنت طالبة في الجامعة، وكان هو أيضا، أحقا أن هذا الذي أمامك هو غياث داود نفسه ؟ مفجّر الخبايا والأسرار المقموعة في جسدك الفتي ؟ ومعلمك الأول في معرفة طقوس هذه الرغاب الحامية ؟ ما له يبدو مهموما هكذا وكأنه قد كبر مائة عام ؟ أهي السياسة إذن ؟

حدثها مرة بشكل عابر، وأخبرها أنه مطارد مطلوب، لأنه ينتمي إلى حزب سري، يقارع من أجل اسقاط النظام القائم، وأنهم قد يمسكون به يوما فأين يولي وجهه ومخبرو السلطة في كل مكان. ترى هل قبضوا عليه بعد ذلك ؟

ابتسم في وجهك، فرددت على بسمته وأنت تهتفين تحية لماض لم يضع كله.

ـ أهلا غياث.

ويفتح ذراعيه كممثل بارع، رغم كرهك للممثلين، ويتمتم بحبور :

ـ نبيهة الياس ؟ أكاد لا أصدق عيني !

فتهزين رأسك مؤكدة :

ـ نعم، نبيهة الياس.

فتكبر بسمته وهو يعاود تساؤله :

ـ ولكن أين ضفيرتاك الفاتنتان ؟

تحسست شعرك السبط المقصوص وقلت :

ـ ذهبتا مع الثانوية. أما اليوم فأنا في الجامعة كما ترى، ثم انني قد كبرت على الضفائر.

ـ ومع هذا بقيت جميلة متألقة كما كنت دوما.

وتحنين رأسك خجلا من هذا الاطراء، ثم تقربين كتبك إلى صدرك، وتضغطينها عليه وأنت تطوين ذراعيك على هيئة صليب، فينتشلك تساؤله :

ـ كيف الأهل ؟

فتقولين :

ـ ـ الوالد تقاعد عن العمل. وابتعد عن الحسابات التي أرهقت رأسه وعينيه. ولكنه يعاني من النقرس، أما أمي فمازالت بكامل عافيتها والحمد لله.

نبيهة الياس، هل فكر بأن يراك ؟ وهل فكرت بأن تريه ؟

كان ذلك اللقاء حائرا، لم يتم الاعداد له، لذا تناثرت الكلمات من فميهما غير مترابطة، فكأنها اطلاقات خائبة يحاول تسديدها رام مبتدئ لم يتقن أصول القتال.

ولما حضر صديقه وسحبه من ذراعه كان هناك أشقر وسيم ينتظرك تحت شجرة السرو، وقد أقلقه مكوثك الذي طال مع هذا الشاب القادم في زيارة خاطفة إلى كليتك.

ذهبت إليه، وعندما سألك قلت موضحة :

- قريب لأمي، لم أره منذ سنوات لخلاف بين عائلتينا.

وارتضى الحبيب الأشقر العذر وبش في وجهك بحب.

غياث داود عاد ثانية وثالثة وخمنت أنه فعل ذلك من أجلك فقلت له بشيء من الود :

- لا فائدة يا غياث فكل شيء قد طوي، لم تواصل معي فالحق عليك، وأنا الآن في علاقة أخرى، تستطيع أن تقول عنها إنها واعية، وهناك اتفاق أولي بيننا على الزواج، فما الذي بقي لك مني ؟

هناء محمود

ما الذي أورثك اياه ذلك الأب الطويل الفخور بأصله التركي ؟ والذي كان يسير شامخا رغم أنه قد تخطى الستين من عمره، قامة طويلة طويلة تميل إلى الجفاف والضمور، وصوت عميق كأنه ليس له. قال بعض المعمرين إنه كان يضع العمامة على رأسه ذات يوم وهو يرتاد المجالس الحسينية في القرى المحيطة بمدينة السماوة، ولكنه تمرد على هذه العمامة بعد أن عشق غجرية فاتنة. ولاحق ظلها بين المدن والقرى عدة

شهور، صرف كل ما عنده عليها، ثم انكفأ خاسئا طالبا الصفح من أمك الصابرة المنتظرة، ولم يشأ أن يترك رأسه الصغير الذي نتف قرع قديم كل شعره حاسرا لذا وضع هذه السدارة لتستقر فوقه مائلة إلى الأمام قليلا، ولم يظهر من بقايا شعره إلا خيوط بيضاء امتدت من جهة الخلف والسالفين.

هل كان عليك أن تزوري ذلك المعرض المدرسي لتري غياث داود وليحدثك باعجاب عن لوحتك الوحيدة التي ساهمت فيها والتي أعانتك مدرستك على انجازها ؟

وهل كان عليك أن تطربي للمديح النادر الذي تفوه به عنها ؟ انك موهبة خارقة ذخر العراق وفخره لا السماوة فقط، ستتحدث عنك الصحف يوما، ويقدمك التليفزيون في لقاء خاص، وتفتح لك قاعات العرض في العاصمة، وتكونين عضوة في جمعية الفنانين التشكيليين، وربما رئيسة لهذه الجمعية، من يدري ؟ المهم أن تواصلي، الموهبة وحدها لا تكفي، هناك فلاحون لا يعرفون كتابة أسمائهم، ولكن لو انهم دخلوا المدارس وتعلموا لكانوا علماء ذرة اليوم، أو أطباء جراحين يفتحون الرؤوس والقلوب والبطون، ارسمي، ارسمي، يا . . ما اسمك ؟ آه ! هناء محمود ! ما أجمل الاسم ! وأنا غياث داود، لاسمينا ايقاع واحد ؟ يا للمصادفة العجيبة ! ومن المصادفات أيضا انني ملت إليك بهذه السرعة، وأحسست وكأنك لست بالغريبة عني، ربما تكونين قريبة أو جارة، ولكن لماذا هذا السؤال ونحن أبناء مدينة واحدة ؟ هل تتذكرين أنك رأيتني من قبل ؟ ولا أنا، عباءاتكن السوداء تحجب آلاف الكنوز الرائعة، حسنا لنتعارف الآن، منذ اللحظة هذه أنا معجب كبير، أحني قامتي احتراما وحبا، وأقدم لك قلبي على راحة يدي فاقبليه مني أرجوك، يا للسعادة أنك تقبلينه ؟ ترى كيف التقيك ثانية ؟ بسيطة ؟ هكذا تقولين ؟ بعد يومين ينتهي المعرض وتحملين

صورتـك لتعلقيها في غرفة الضيوف، أو تهدينها لمديرة المدرسة بعد أن تكتبي عليهـا : رسم الـطالبة هناء محمود، الصف الخامس ثانوي، يا للمفـاجـأة، إنه نفس الصف الذي أنا فيه، أنت علمي ؟ أم أدبي ؟ هنا اختلفنـا، لا يهم فأنـا دمـاغي يشتغـل جيـدا في الفيزياء والرياضيات والكيميـاء لا الأدب والجغـرافيـة والتـاريـخ والنحو والصرف وصداع الرأس، ستقفر السماوة بعد انفضاض هذا المعرض، ولم يعد فيها طائر شريد قادم من ضفاف الغراف، أتذكرينها تلك الأغنية ؟ حسنا، من جاء به ؟ تقولين قدره ؟ ليكن ذلك فما أكثر ما تركب الأقدار من مصائر وأحداث ؟

هناء محمود، سأردد هذا الاسم حتى لا أنساه، أقول لك وداعا الآن، لدي موعـد، ستضحكـين، أي موعـد أحـلى من رؤيـة وجهـك الباسم ؟ ولكنني سأعود غدا، وما عليك إلا أن تساعديني في البحث عن طريقة نلتقي فيها دون أن تكتشفنا العيون.

* * *

هنـاء محمود، غياث داود، التقيتما، ضمتكما إحدى كليات بغداد، تهربان من الدروس وثقل دم المدرسين لتتحدثا، أو تتمشيا، في شوارع « الوزيرية » الخضراء ما بين الكلية والمعهد البريطاني والسينمات ومقاهي شارع أبي نواس، وأغنيـات عبـد الحليم حافظ التي تدندنان بها وأنتما تقرقزان اللب، أو تلتهمان السندويج.

وقال لك يوما :

ـ هنـاء محمود، أريدك زوجة لي فماذا تقولين ؟

وتبتسمين له وتسألين بخبث :

ـ وكم ستدفع ثمنا لي ؟ المقدم والمؤخر ؟

ويغرد صوته بضحكة دافئة ويقول :

ـ لو جئت بكل أموال الدنيا لما وازت عظمتك، ولذا فإنني أدع حديث

المال جانبا، وأقول لك بإنّني أقدم قلبي مهرا لك لا ثمنا، ألديك اعتراض ؟

ترمين نظراتك بشرود فيقرأ تلألؤ الدمع فيهما ثم تقولين :

ـ كيف أعترض وأنا أنتظر أن تتفوه بهذا منذ شهور ؟

تمسك بيدك وتحيطها بكلتا يديها، تتلفت يمنة ويسرة حتى لا يراها الناس وتطبع على يدك قبلة ملتاعة وتقول :

ـ غياث، إنني سعيدة.

وتزوجتما بعد تخرجكما مباشرة، وقبل أن تستلما أول أجر، بعد شهرين تشاجرتما، بدأ الملل والنقار، حملت ثيابك وذهبت إلى أهلك، ظل وحيدا في البيت، يشرب العرق الماستكي ويكلم أشباحا ملتصقة على الجدران، جاءه عمه ذات يوم وسأله :

ـ ما الذي ستفعله مع امرأتك ؟

وتعلن قرارك :

ـ لم أعد أريدها، لقد خاب ظني فيها، مثلت علي كثيرا حتى وقعت فيها. وتزوجتها لتبدأ معاركها وشجاراتها معي بتحريض من أهلها الذين لم يكونوا راضين عن هذا الزواج.

وعلق العم المتباهي بعقاله ويشماغه :

ـ طلقها وسأزوّجك من غيرها.

واقتنع غياث برأي عمه وقال :

ـ ومؤخر الصداق ؟ انه مبلغ كبير.

ـ سنفاوض أهلها عليه، تنازل لها عن كل شيء واخرج بثيابك فقط.

وضغط العم على كلماته التي تنهال خشنة حادة وهو يؤكد بتصميم :

ـ سنرغمهم على ذلك، إنهم يعرفون قدرنا جيدا بين القبائل.

وكان قد خلع عقاله انذاك وساط به الأرض تأكيدا على قسمه مما جعل الغبار الجاثم يهب فجأة فيملأ أنفيهما ويدفع بالعم إلى السعال والتمخط.

وهنا قال غياث مقررا :

- إن كان لابـد من الـطلاق سأنفـذه، ولكنني سأرحـل بعد ذلك، سأبحث لي عن وجهة ولن أبقى هنا لأرد على عشرات الأسئلة الفضولية التي يثيرها المعارف والأقرباء ؟

ووافق العم بها تفوه به بهزة من رأسه الذي كان قد أعاد العقال فوقه ثانية. تمخط مرة أخرى وقال :

- أحمد الله أنك لم ترزق منها بأطفال.

- كان قرارنا أن لا يكون ذلك الا بعد ثلاث سنوات.

ونطق العم وكأنه ينطق بالحكم الفصل :

- قالوا في الأمثال إن الباب الذي تأتيك منه الريح أغلقه واسترح. أفهمت ؟

وطلقها. وفجعت هناء محمود. لم تصدق أن ذلك سيحدث فعلا. حاولت أن تحرق نفسهـا مرة. وابتلعت زجـاجة حبوب منومة ثانية مما استدعى نقلها إلى المستشفى حيث أجري لها الإسعاف. أخذت تتكلم في نومهـا، وقلت شهيتها للطعام. ولكنها بعد قرابة العام من كل ذلك ارتضت الـزواج من ابن خالتهـا الـذي خططت له الأم مع أختها منذ سنوات، وحملها الزوج إلى مقر عمله في البصرة، وقد أنجبت له حتى اليوم خمسة أولاد، ومازالت طامحة في المزيد.

هنـاء محمـود. زوجتي. رفيقتي في أيـام المحن والمـطاردات، حيث المخـبرون والمتلصصـون في دروب الـوزيـرية. أضعتك يوما فغادرت المدينة، سكرت كثيرا، بكيت كثيرا، ندمت كثيرا ثم شفيت.

ندى عبد القادر

ظن أنكما لن تلتقيا أبدا، فما أكثر الوجوه التي تمر بنا عابرة ؟ ويذكر أنك كنت مغرمة بقراءة القصص العاطفية، وكانت مكتبة المدينة تعرفك، ربما كنت السافرة الوحيدة التي تخلت عن قيود العباءة بعدما ذهبت السافرتان السابقتان إلى بغداد لتنضما إلى الجامعة.

كان يترقبك مع المترقبين الذين يتلصصون في المقاهي والساحات المترية على قامتك المشتهاة بعيون تخبئ شهوات لاهبة مجنونة لا يطفئها اللواط ولا معاشرة البغايا والغجريات. ولكن لم تكن هناك وسيلة للوصول إليك. الوسيلة الوحيدة أن يتقدم من يريدك للزواج بك، شريطة أن يكون يملك المؤهلات لذلك. فمن يجرؤ على الاقتراب منك ؟ أو التحدث معك ؟ وأنت مشرعة مثل راية انتصار تتقدم الصفوف الزاحفة نحو مراميها. وكثيرون تمنوا لو أنهم حلوا محل موظف المكتبة الذي يناولك كتابك المطلوب، وكان مثار حسدهم ونقمتهم، وقد افتعل أحدهم حادثة معه، ضربه أثرها ضربا مبرحا تركه نزيل المستشفى عدة أيام واللفافات تحيط برأسه.

التقطك ضابط ممتلئ ذات يوم. كان له نصف طولك. ضعف عمرك. له بيت كبير على شاطىء النهر. وفي انتظاره إرث يضم أراضي وبساتين وبيوتا. تزوجت منه. وألبسك عباءة وأخفاك عن الأعين. نسيك الكثيرون. وجاءت وجوه أخرى. جديدة تجدد الحياة نفسها. ولكن غياث داود كان يتذكرك أحيانا لأنك تشكلين علامة مميزة في تاريخ المدينة، وفي مرحلة من مراحلها. وكلما تذكرك عض على يده ندما لأنه لم يصللك. ولم يحاول ذلك رغم أنه أوهم نفسه بأنك كنت تلوحين له بنظرات غير التي تتأملين بها الأشياء والوجوه الأخرى. وأعطى لخياله العنان في تفاسير وأحلام أولدها الحرمان والكبت والألم.

بعد أعوام طويلة التقاك . كان معك ثلاثة أولاد كبار، ومعك زوجك أيضا وأنت تقودينه نحو المصعد في مدينــة الطــب ببغــداد ، حياكم غياث داود فرددتم على تحيته، ثم عرفكم بنفسه وقال :

ـ أنا من مدينتكم، ولكنكم قد لا تعرفونني إذ غادرتها منذ سنوات .

قالت هي :

ـ إنني أتذكرك، إذا لم أكن مخطئة ألست زوج هناء محمود ؟

وهز رأسه وقال :

ـ كنت . .

وابتسم الـزوج العليـل وهو ينهت ألما. وابتسمت ندى عبد القادر كذلـك. انطلق ذلك الشعاع الأبدي القديم. فلاذت السنون بالفرار وانـدحـرت. وأصغى الأولاد إلى حديث هذا الرجل المندس معهم في المصعد، والمتطفل على عالمهم وهمومهم وهم مشغولون بآلام الكلى التي يعاني منها الأب .

قال الزوج بصعوبة :

ـ أهلا وسهلا بالسماوة وكل أهل السماوة. نحن غادرناها أيضا منذ فترة . ذهبنا إلى الموصل، ثم استقر بنا المطاف في بغداد .

وأضافت ندى عبد القادر :

ـ كانت أختك سعاد صديقتي . أين هي الآن ؟

ـ إنها هنا في بغداد. وقد أصبحت حاجّة

فضحكت وهي تتساءل :

ـ بهذه السرعة ؟

- تعرفين بأنها متدينة منذ صغرها .

قالت :

ـ بلغها تحياتي .

توقف المصعد وخرجوا . خرجت ندى عبد القادر كالظبية الأنوف،

تقود زوجا سحقه الزمن والمرض، وخلفها ثلاثة شبان وسيمين وصامتين، بنت وولدان، كلهم يقتربون من العشرين، وكأنهم قد ولدوا في يوم واحد.

أخـذهم ممر المستشفى، وأخذ غياث داود المصعد ثانية ليعلو به إلى طابق آخر من أجل أن يؤدي زيارة لصديق له تعرض لحادثة دهس.

ندى عبـد القـادر. إن الحيـاة تمضي، ونحن وقودها، تجترنا وترمينا كالنخالة، ولكننا ننغمس فيها، نمسك بها، مع أن أوهى ريح قادرة على تبديد هذه النخالة وتشتيتها ذرات!

ندى عبد القادر ... هل من قول بعد؟

أميرة حسين

من هذا الصلف الذي يلح علي بهذه النظرات؟ هل أخلع حذائي ذا الكعب العـالي وألقنـه درسا؟ ولكن هذا لا يليق بي، فلم أعتد اهانة الناس من قبل، ولكن وقاحته المارقة تدفعني للقيام بفعل كبير، ولكن ما هو هذا الفعل؟

أدرت وجهي عنـه، كما أدرته من قبل. ولكنه ورائي دوما، يترقبني وينتظر مجيئي حتى يصل الباص الذي يحملني إلى بيتي فيركبه معي، يقف أمامي، ونظراته لا تفارق وجهي، أحسها تنفذ إلي من وراء زجاج نظارته الشمسيـة السـوداء، عديم الحيـاء. من يتركني لألعن أجداد أجداده، والقبيلة التي ينحدر منها.

في عينيـه عهـر. لا، ربـما يكون غير ذلك. كثيرة هي العيون التي عرفتها، أو فوجئت بها وهي تتأملني، عيون فيها توسل، وأخرى فيها شهوة، ولكن عينيه شيء آخر، إنهما تعريانني، لو كنت معه في الباص

وحدنـا فقط لربـما خلعت له ثيـابي وسألته ببساطة واحتقار : أهذا ما تريد ؟ انظر، ماذا بعد ؟

تف. يا لي من مخبولة أفكر في خلع ثيابي في الباص ؟ أين أنا ؟ وفي أي عالم ؟ ولكن عينيه ما ألعنهما

كلما أهبط من الباص يلحق بي، ولا يكف عن ذلك. في الحر أو القر، في الـريح المتربة القاتلة. وفي الصحو والهدوء. وقد دفعني وضعه لأن أتأمل وجهي في المرآة عشرات المرات وأنا أتساءل مع نفسي : أي شيء فـيّ يميـزني عن الأخريات ؟ وعندما لا أعثر على جواب أكوّر قبضتي وأضرب بها على صدري وجبيني وكأنني واقعة في نوبة صرع لا فكاك منها.

كلما وصلت بيتي أطبق بابه بسرعة دون أن التفت إلى الوراء لأرى هل يظل مرابطا مثل كلب حراسة ؟ أم يمضي ؟ ولكن إلى أين ؟ ثم ما الذي يهمني منه ؟ مشرد ضال، لن أرمي له بعظم. أمامه المزابل كثيرة فليذهب إليها. أما أنا فأمري آخر. ليذهب إلى الجحيم. لدي هموم أخرى. لماذا أصدع رأسي بحديثه ابن الأوادم هذا ؟

لم يرفع عينيه عني. إن عينيه سوداوان بالتأكيد رغم أنه يخفيهما عني وراء نظارته. مرات يرفعها عن عينيه، ولكنني لم أنتبه إلى لونهما. عجيب أمـره هذا. من هو ؟ موظف ؟ طالب ؟ مجرم ؟ مخبر سري ؟ ممثـل ؟ أم مجنون فرّ من مستشفى « الشماعية » ولم يمسك به مطاردوه ؟

ليكن كل هذه الأشيـاء والصفات مجتمعة. ما ضرني منه ؟ سيتعب ويكف. ولكن عينيه ورائي. أراهما حتى في النوم مغروستين في قلبي. تحدثـانني وتتـوعـدانني، نعم. ها أنا أهبط من الباص، وأشق طريقي صوب البيت. والـريـح المـتربة تعيث بي، بشعري القصير، وبتنورتي الفضفـاضـة، أجـاهـد من أجـل أن أتماسك، عيناه تلسعان ظهري. سأصرخ بأعـلى صوتي ألما ورعبا وأهدم الدنيا، وأوقظ الذين يتمتعون بقيلولة الظهيرة بغباء، وألتفت بسرعة إلى الخلف فأراه على بعد خطوات

مني، وكأنه كان يهرول ورائي ليمسك بي حتى يوقفني عن المضي.

ابتسم وقال بصوت ودود لا ينتمي إلى هيئته الجهمة الغامضة:

ـ أهلا أميرة.

فصرخت في وجهه بحنق:

ـ وتنطق اسمي يا ابن الـ . .

وغصصت بالكلمة، ولكن البسمة ظلت مرفرفة على شفتيه، والتماسك لم يفارقه وأنا أطلق عليه ناري، وكبرت بسمته وهو ينبس بكلمات بسيطة لعله كان فيها يحاول تخفيف حدتي وإبطال ثورتي:

ـ حسنا، اكملي، ابن من ؟

طأطأت رأسي وأنا أهدر بشيء من الأسف:

ـ العفو، لم يكن قصدي اهانتك، ولكنني متعبة، وأعصابي متوترة، اذهب أرجوك، لم أعتد على هذا الأسلوب، ولكنك اضطررتني عليه.

وعاود التساؤل بنفس البساطة المجنحة وكأنني ارتضيت به:

ـ وهل أطمح بأن أراك في يوم آخر ؟

قلت وأنا أقاوم توتري وانفعالي وتآلفي السريع معه:

ـ ليس هناك سبب يدعوني للقائك، أو يدعوك للقائي، ثم إنك تراني كل يوم، وتلاحقني بلا هوادة ولا موعد، وكأن هناك من بعثك لتتعقبني وتحصي علي أنفاسي ؟

هز يديه حائرا دون أن تشفع له كلمة فيتعكز عليها برد، وتركته واستدرت منصرفة.

وعندما وصلت البيت فتحت الباب، والتفتّ إلى الخلف فوجدته مازال مغروسا في مكانه هناك وعيناه في أثري.

* * *

كانت أميرة حسين مشوبة بحمرة فاتنة، لا يمكن للمرء أن يحس بفتنتها الفائحة إلا إذا اقترب منها وسمع صوتها الناعم ذا الرنين والدفء،

وهي تحرك أصابعها عند الكلام بينما ترمش عيناها الضاحكتان بكثرة.

وكـان لها شعـر قصير، فاحم السواد، تشع خصلاته السبطة ببريق أخـاذ، ورغم قصره فإنـه لا يهدأ في مكانه حيث ينسكب إلى أية جهة يتحرك نحوها رأسها، لذا كانت يداها تداريانه دوما، وغالبا ما كانت تبقي يدها فوق طرتها حتى لا تنسكب على جبينها فتغطي عينيها.

ولأميرة حسين ساقان فاتنتان، يميزهما امتلاء قد يبدو للبعض زائدا عن حده، ولكنه كان يسحر غياثا، وتظل عيناه ترافقان هاتين الساقين وهما ترتفعان إلى أعلى بامتلاء شبق، ثم يتخطى كل شيء ليأتي الوركان الرشيقان والخصر الفائق الدقة، وليأتي الكتفان المائلان إلى الارتفاع وكأن صاحبتهـما تتـأهب للوثوب، وكذلك العنق الأسمر الأغيد الذي تحليه سلسلة ذهبية ناعمة يتدلى منها قرآن صغير.

يا لها من امرأة فاتنة أحببتها ودهشت بها منذ أول مرة وقع نظري عليهـا، إنه الحب النادر الذي تحدث عنه العشاق المغمورون في تلك القصائد والحكايا الجارحة، وها أنا أعيد حكايتهم، وأتناثر أشتاتا مقتولا بهذه الفتنة، وأظل أراقب الوجوه المرتصفة في موقف الباص أو في داخله باحثـا عن معجب آخر قد وقع في هواها وراح يطاردها مثلي، ولكنني أطمئن عندما لا أجده ولا أشخصه، فأود أن أصرخ فيهم : أيها العميان الأغبياء لماذا لا تنظرون ؟ لماذا لا تندهشون ؟.

يسحب غياث داود جسده المنكسر، يصفق بيديه، ويقفل راجعا بينما تدخل هي بيتها وتطبق الباب بصوت مسموع.

* * *

يوم. ثلاثة. سبعة. لم يظهر ذلك المخلوق. غاب عن الباص وعن عينيهـا. وجدت نفسها تقف منتظرة. يمر الباص الذي تريده مرتين، ثلاثا، وهي مصلوبة هناك، يداها في جيبي معطفها. وعيناها تلقيان نظرة على عقربي ساعتها بين فترة وأخرى وهي تتأفف، وتود أن تقطع ثيابها

وتصرخ نادبة فقدانها له، وتلوم نفسها لأنها قست عليه، وسد ـت إليه أكثر من طعنة قد لا تكون له القدرة على احتمالها فخر صريعا ، راح.

أرادت أن تشتمه، أن تتوسل به، خبأت من أجل ذلك كلـ ت كثيرة، أعادت صياغتها في رأسها مرات، ولكن أين هو؟

وفي اليوم الثامن رأته. إنه هو. يرتدي معطفا هذه المرة شد ازراره وحـزامـه. وراح يخطو متمهلا باتجاهها. وعندما صار عـ‍ـ، مقربة منها توقف بعد أن أسند ظهره إلى عمود موقف الباص. ولكن نـظراته كانت مصوبة نحوها وفيها استفهام عن وقع لقائه بها وما تفوهـا به.

أخذت نظراته تحفر خدها وجانب عنقها المواجه له. هرشت المكان بأظفارها الطويلة، رفعت ياقة معطفها لتحمي خدها وعنقها، لكنها لم تمكث على هذا الوضع طويلا إذ سرعان ما التفتت إليه، رمته بنظرة لم تفقه هي ماذا كانت تريـد بها؟ هل هي تسـاؤل عن سبب الانقـطاع؟ أم لوم؟ تحذير؟ أم عتاب؟

لكن وجهه كان أمامها فضاء من الشحوب والارهاق. وبدا لها وكأنه قد بريء لتوه من داء عضال، وأنه بحاجة إلى نقاهة قد تطول حتى يستعيد جموحه وثقته اللتين شخصتهما فيه عند ذلك اللقاء المبتور.

وعندما وصل الباص صعدت إليه فتبعها، وقف في مكانه هناك خلف مقصـورة السائق، ثم استخرج نظارته الشمسية ووضعها على عينيه، وراح يتأملها من وراء زجاجها الأسود.

كانت هي مطرقة، تعوم في بحر من التساؤلات، لقد أحست بأن شيئا قد حدث، وأن هذا المخلوق الذي ظنت به الظنون لابد لـه وأن عانـى وأرق وتمزق طيلة أيام البعد، وهذا وجهه يحدثها عن ذلك بصدق.

كانت دائخة، مطرقة، حائرة، إنها أمام اختبار لم تألفه رغم أنها قد تخطت العشرين ورأت وجوها رجالية عدة، من الجيران والأقارب ومن

زملاء الجامعة والعمل، ولكن هذا الفتى قد فاجأها، ودفعها لأن تعيد مجرى حياتها واقفة واقعة، مع أنه ليس فيه ما يميزه ويفرزه من بين الوجوه العديدة التي اكتظت بها ذاكرتها. واقتنعت في سرها أن هناك نداء في عروقها قد قاومته وكبحته حتى تسرب دخانه فكاد أن يعمي عينيها. وعليها أن تقر بذلك، وتطلق الأسير الأبدي لينعم بما تبقى له من أعوام.

أخذت أصابعها باللعب بسلسلة حقيبتها بينما راحت نظراتها في تأملها للشارع لتراقب المارة والأبنية التي يمر بها الباص في رحلته الوئيدة، في هذا النهار الشتوي حيث يتقرفص الناس وهم يحثون الخطى مسرعين، وتمرق السيارات الخاصة مسرعة أيضا وقد أسدل زجاج نوافذها منعا للريح الباردة.

وعندما وصل الباص نزلت. مرت بمحاذاته، وكاد كتفاها أن يلامساه، وتبعها. مشت عدة خطوات متعثرة في الأرض الرملية المنداة التي تربط ما بين موقف الباص وبيتها.

كان المكان خاليا ولم ينزل في المنطقة أحد غيرهما، ولم تقطع إلا عدة خطوات حتى وجدت نفسها ملتفتة إلى الوراء، فكأن يدا مجهولة قد أمسكت بعنقها وأدارته. أرادت أن تقوم بفعل. أن تنطق بكلمة، ولكنها كانت مقعدة عيية.

رفع نظارتيه عن عينيه وابتسم لها فوجدت شفتيها تتمتمان وكأنها تعرفه دهرا :

ـ أين كنت ؟

ورد على الفور :

ـ كنت مريضا.

ووجدت نفسها تقول وكأنها لا تكلمه هو بل انسانا بعيدا :

ـ قلقت عليك.

ونطق من قلبه :

ـ وهل يهمك أمري لهذا الحد ؟

خفضت نظراتها، وهزت رأسها حائرة :

ـ لا تسألني لأنني لا أعرف شيئا.

وبعد أن فرغت من جوابها رفعت عينيها وغرستها في عينيه : كر وبتين فطالعها عالم من الصفاء، وأحست بأنها قد عرفته يوما، تلألأ في أحلامها ثم غاب، وكلت في رحلة البحث عنه ولكنها لم تجده، وها هي تعثر عليه ثانية فعليها أن تمسك به ولا تفلته لئلا يضيع.

سألته وكأنها تنوي الوصول إلى شيء :

ـ ماذا تريد مني بالضبط ؟

هز كتفيه، ورفع ذراعيه، وتلجلج قبل أن يتفوه :

ـ اننـــي

واستحثته ولكن بصوت عطوف شجعه على الايضاح :

ـ إنك ماذا ؟

وقال مسرعا وكأنه يفرغ هما أتعبه :

ـ معجب بك كما ترين.

وأرادت مناكدته وهي تسأله :

ـ ولكنك لا تعرفني، فقد أكون مرتبطة بانسان غيرك ؟

فأجابها جازما :

ـ لن أكذب قلبي، لدي حدس غريب بمعرفة الناس.

ـ ولكنني لا أعرف أي شيء عنك ؟ لا أعرف من أنت ؟ وماذا تعمل ؟

ـ اسمي غياث داود، تخرجت من الجامعة قبل ثلاث سنوات، تزوجت مرة وطلقت، وأعمل الآن موظفا في وزارة الاسكان.

ورفعت يدها إلى أعلى لتستوقفه عن مواصلة الكلام وقالت :

ـ تخرجت وتزوجت وطلقت ؟ وكأن الأمر سهل لهذا الحد ؟

وقال مدافعا :

ـ الظروف تملي على الانسان مواقف كثيرة، ولكن المهم أن يكون صادقا مع نفسه بالدرجة الأولى وحاسما إن اقتضى الأمر ذلك، هذا كل شيء.

تمتمت وهي تطرق وكأنها تبحث عن شيء اختفى بين ذرات الرمل الندي :

ـ قد تكون محقا.

ـ لا تضعي قد هذه أرجوك، فأنا محق فعلا.

وظلا صامتين برهة وهما يقفان متقاربين في فضاء شاسع، والريح الباردة تعبث بأطراف معطفيهما.

رفعت عينيها إليه، وأخذت تتأمله متملية وكأنها تواصل اكتشافه فرفع عينيه هو الآخر ليرتوي من مائها السلسبيل. أغمض عينيه ونطق بوثوق :

ـ أميرة حسين إنني أرغب بالزواج منك.

وتزوجته بعد ثلاثة أشهر من ذلك اللقاء. ولكن أميرة حسين ماتت بين يديه ولم يمر عام على زواجهما. حملوها إلى المستشفى لتضع مولودها الأول الذي انتظراه فرحين واشتريا له الدمى والثياب وأحضرا قائمة بالأسماء إن كان ذكرا أم أنثى.

أخذها الطلق ليومين. قال له الطبيب بعدهما :

ـ لا نستطيع أن نضمن حياتها وحياة الطفل معا، اختر من تريد ؟

وأجاب على الفور :

ـ أريدها هي، وهل يحتاج الأمر إلى نقاش ؟

وأدخلت غرفة العمليات، وبعد مضي قرابة العشرين دقيقة أخرجوهما معا جثتين هامدتين هي وطفلها . . .

ولم يصدق أحد أن غياث داود قد ظل حيا فيما بعد.

ـ عذري أنني قادر على الوقوف، أتحامل على جراحي وندوبي وأواصل.

ـ ولو لم تكن كذلك لما عرفناك يا غياث.

- 4 -

- عمو حسان، ألا تكفنا شرك ؟

وينطـق :

- آخ يا صديقي اطمئن، ليس ورائي أي شر، إن قلب حسـان صبحي نقي مثل موجة من بحر بيروت.

وابتسم الرسام المتوحد وتساءل كالساخر :

- وهل بقيت أمواج بحر بيروت نقية فعلا ؟

ولكن حسان صبحي نظر إلى ساعته وأعلن انه غير مهتم بمواصلة الحوار :

- بعـد نصف ساعـة تقـريبا سيحين موعدي معها، استأجرت شقة مفروشة في « الرملة البيضاء » لتكون عش غرامنا. يجب أن نرتوي من بعضنا قبل أن تغادر إلى لندن. لقد كفرت ببيروت، وهناك أبوها الذي يمتلك مطعما فخما، وقد طلب منها أن تديره مكانه فقد تقدم به العمر.

ويعلق بمرح لا يكون فيه إلا نادرا :

- حسنا، إذا حللت بلندن سيكون طعامك مجانا ؟

ويستجيب حسـان لمرح صاحبـه بضحكـة عالية اهتز لوقعها جسده المسترخي، وردد :

- ليس طعامي فقط، بل وطعام أصحابي أيضا.

(العزيـز غيـاث

تحياتـي ومحبتـي

أكتب لك والفجيعة تحط في كل مكان، ولا أدري هل تصلك كلماتي وأنا على قيد الحياة، أم أن قذيفة طائشة ستأتي علي وعلى زوجتي وولـديّ ونحن في شقتنا المعلقة في الطابق الثامن من تلك المحلة التي أصبحت اليوم ملتقى للقذائف الآتية من كل الجهات.

حاملة رسالتي هي المرأة التي أحب اليوم، وربما الحب الأخير أيضا، إنها تقطن معي نفس العمارة، هـي وأمهـا فقـط، لذا أهرع إليها كلما اشتد بي الحزن وحاصرني الضيق لتقدم لي كل شيء، كانت كريمة معي منذ أول يوم عرفتها، أعطتني قلبها، وجسدها، ولم تشح علي بشيء، أو تفكر بأن بيني وبينها يقف أكثر من عشرين عاما.

غيـاث يـا صديقـي

إنني جائع وعطش، أولادي وزوجتي كذلك، قد اقتل وأنا أخرج لآتي برغيف خبـز، حتى الخبـز يسرقـه المسلحون، أرسل لي طحينا وسكرا وسمنا وتمرا وبطاطا، أرسل لي كتبًا وأفراحًا، فأنا مقتول انتظر من يدفنني ويهيل علي التراب حتى لا يظل جثماني طعاما للجرذان والجوارح.

غيـــاث . . .

هذه المرأة هي الملاذ وهي الخاتمة، أقول هذا لأنني لا أتصور بأن العمر سيمتد بي لأحب وأعانق وجوها جديدة، لا تضحك أرجوك، إنها شيء آخر، لم تحتجزني امرأة من قبل وبكامل رغبتي أطول مما احتجزتني هذه المـرأة، إن كنت أسمي الحب احتجـازا، خاصـة وقـد اعتدت التنقل والتمثيل بنهم مرير وشره لعين. لقد أعادت الاعتبار إلى أمور كثيرة ظننت أنني قد فقدتها وانتهيت.

جاءتكم إلى بغداد مع أول طائرة تغادر بيروت بعد أن فك الحصار وفتح المطار. وقد لا تجد مجالا للعودة، لكنها مجنونة ستأتي عليها اطلاقة قنـاص إن لم تغـادر، زرها في فندقها، در بها في بغداد، أرها الحدائق والمطاعم والآثار، حدثها عني وعن الأمان، اقتل رعبها، اِرو لها النكات إن كنت قادرا على ذلك.

افعل شيئا من أجلها، من أجلي . . . أرجوك.

(المخلص حسان صبحي)

* * *

حسنا يا حسان صبحي. ماذا فعلت بي أيها الزاني العريق ؟ ترى هل ستبقى معها إلى الأبد فعلا ؟ وذاك البلاء الذي بين ساقيك ؟ والذي كاد أن يودي بك مرات ما الذي تفعله له حتى يهدأ ويكف ؟

ترى ماذا تسمي جلوسي معك في صدر سيارتك وخلفنا يجلس قواد ضئيل، يقودنا إلى شقة ما هناك، تنتظرنا فيها امرأة، سمراء في الثامنة عشرة من عمرها ؟ هكذا وعدنا، وأنت فرح بالصيد المنتظر، تضغط على منبه سيارتك من أجل أن يفسحوا لك الطريق حتى تصل، فأهمس لك أن اهدأ. قد يلتفت إليك أحدهم غضبا من منبه سيارتك فيصلينا بنيران مسدسه.

القواد الضئيل يشير إليك بالاتجاهات، ويخبرك بأن المكان ليس بعيدا، ويفضل أن تترك السيارة على مبعدة ونلحق به. تركن السيارة ونهبط منها، ونتبعه وهو يحث الخطى في أعماق زقاق قريب، يعج بالصبيان اللاعبين، وبعد قليل سنصل، لنتناوب أنا وأنت على جسد امرأة واحدة، ثم ننفض ضاحكين بعد أن ندفع لها الثمن لتضمنا ثيابنا من جديد، ونهرع إلى سيارتك غير واثقين أننا سنجدها في مكانها، فاللصوص كثيرون. وبعد أن نجدها نستقلها متجهين صوب « الاكسبريس » ملاذنا في هذه المدينة المسورة والملغومة.

سميرة حليم زار معها كل مطاعم الروشة، جعلته مفتونا بالكبة النيئة وعرق « الكسارك » إنها دنيوية فاتنة، لا تكف عن الضحك فكأن بيروت لا تغرق في البلاء، ولكنه يكره فيها عشقها للضفادع، يدير وجهه تقززا عندما يوضع الصحن أمامها، وتروح تقطع أجسادها المفترشة الصحن ببراعة، وتناديه مداعبة :

ـ حاول أن تذوقها مرة.

ويعترض قائلا :

ـ لا أستطيع أن أراها فكيف أذوقها ؟

وتواصل محاجته:

ـ أغمض عينيك وذقها.

ـ سأتقيأ أحشائي بعد ذلك.

ـ إنك لا تعرف كيف تأكل، ولكنني سأجبرك على ذلك يوما.

ـ اسمع يا غياث، لا أدري لماذا أنا مجنون بزيارة بيوت الدعارة السرية؟ ان ألف حصان يصهل في جسدي عندما أعتلي واحدة من إياهن في بيت ما من مدينة مجهولة، مرة حملتني عاهرة إيطالية إلى شقتها في ضاحية صامتة من ضواحي روما. بعد أن دخلنا أغلقت الباب بثلاثة مزاليج دفعة واحدة، قلت في سري: رحمك الله يا حسان صبحي، وإن كانت العاقبة للمتقين، فأنت لم تكن تقيا ولو لفترة قصيرة من عمرك، ها أنت تصل إلى حتفك على قدميك وبمحض اختيارك. وكبر ذعري عندما وجدت عربيدا أرقط في غرفة نومها. نعم عربيد لم أر مثيله حتى في الصور. ولا أدري من أين جاءت به؟ كان يلتم حول نفسه ويتكور فوق الفراش. وعندما رآها رفع رأسه فحملته بعد أن قبلته ووضعته في سلة على الرف وراحت تخلع ثيابها حتى تعرت تماما، ضاجعتها مرتين وأنا أرتجف ذعرا وألتفت إلى الخلف بين فترة وأخرى مخافة أن يلدغني العربيد في مؤخرتي.

كانت هادئة ومنتشية من حرارتي وأنا أدخلها بكل خوف واشتهاء. وخمنت أنها تريد المزيد، لذا جاءتني بكأس من الويسكي وقادتني إلى غرفة الاستقبال لأطمئن، ولكنني لم آخذ من الكأس رشفة واحدة، ظننت أن الويسكي ممزوج بمخدر ما، تعذرت بأن لي موعدا مع صديق لأمر تجاري، وسأزورها ثانية. أعطيتها موعدا كاذبا وخرجت، أصبحت في الشارع وأنا غير مصدق بنجاتي، ولكن قل لي: هل ارتدعت؟ أبدا، إذ سرعان ما أرتمي في مواقف أخرى، عندما يناديني هذا البلاء يلغى العالم وتنغلق عيناي وأهب لألبي نداءه.

لكن سميرة حليم تمارس الجنس بفرح أيضا. لا يبدو عليها الشبق ولا الاندماج التام. مرة وجدت اللبان في فمها وهي تحتي. اكتشفته وأنا أمص شفتيها، وأحاول أن أفعل ذلك مع لسانها. كنا معا على المقعد الطويل في

غرفة الضيوف من شقتي التي أستطيع من نافذتها أن أرى البحر أدغم وبعيدا وكأنه ينسحب من معركة خسر فيها، ولم تعد له القدرة على المواصلة.

وكنت محموما بالرغبة، جسدي يتنمل، وفي عروقي يهدر دم صاخب، وأود أن ألجها بسرعة، ولكنني أتوانى من أجل أن أوقدها وأهيئها جيدا حتى يكون التحامنا عامرا ولذيذا، يمكث في ذاكرتينا ما دمنا أحياء.

- سميرة، ما هذا ؟

وتمد يدها لتستخرجه من فمها وهي تقول :

- اللبان.

فأقول بامتعاض :

- ما ألعنك

فتـرد :

- نسيته، ثم إنك لم تمهلني.

ترميه في منفضة السجائر، ثم تستجمع جسدها الناعم وتدسه تحتي، انقلب فوقها بكل ثقلي ونغرق.

الشقـة صامتة، لا يتناهى إلينا إلا صوت البواب وهو ينهر الأطفال ويأمرهم بأن يبتعدوا عن المصعد فهو سريع العطب. وكان الغروب قد بدأ في الحلول وزادت في كثافته الستائر الداكنة المسدلة.

كان أبو مراد يخاف هذه الشقة الواسعة، ويعلن كلما زارني :

- كيف تعيش فيهـا ؟ ماذا تفعـل ؟ هل تحصي الكـلاب ؟ أم تشنق القطط السوداء وتعلقها على الجدران ؟

- صديقي، إنني أنام ملء أجفاني، مع أن نافذة غرفة نومي قد اخترقها صاروخ ضال يومـا، ومازالت آثاره على الجدران رغم الترميم والطلاء اللذين قام بهما المالك، اطمئن لقد حدث هذا قبل استئجاري لها، أما اليوم فمن يدري ؟

كان الـرسـام المتوحد مشحونا بفرح نادر، وهو يجلس محاطا بحسان صبحي وغياث داود، مواصلا ارتشاف البيرة، وقد بلغ ما ارتشفه خلال ساعة أكثر من خمس زجاجات.

ـ عمو حسان، لماذا لا تشرب ؟ وأنت يا غياث ؟ خمسة أعوام في مدريد لم أكن حيا فيهـا. كنت مدفـونا في الألوان والخمرة وأجساد النساء. لا تسألني عن عددهن ولا عن ملامحهن، فلم أعد أتذكر إلا ثقوبا، أولجه فيها فأستريح، عربيات، ومن أمريكا اللاتينية، وفرنسيات، وأفريقيات، وإسبـانيات. ولكن تلك الأشبيلية اللذيذة هي الـوحيدة التي مازلت أذكرها، لأنها الوحيدة التي اخترت أن أرسم وجهها لا جسدها فقط كما فعلت مع الأخريات، ومازالت صورتها معي، تتصدر مرسمي، لم أشارك بها في أي معـرض من قبل ولن أفعل ذلك مستقبـلا، إنها لي، كما كانت صاحبتها يوما، لعل هذا تعويض عن فقدانها الباهت.

يأخـذ رشفة من كأسه، ويستل قطعة كلينكس من الصندوق الذي أمامه، يمسح فمه، ويواصل كالمستحث :

ـ اشرب عمو حسان، لماذا تحرن هكذا ؟ وأنت يا غياث، لماذا هذا الوجل ؟ إن صمتك هذا يخبئ شيئا، من يعلم ؟ هل تطمح في أن تغير الـدنيا ؟ أن تقود انقلابا ؟ لست جنرالا مخصيا حتى تفعل هذا، تتزعم عصابة إذن ؟ لا تجبني، ليس هذا بالمهم، ولكن الأهم من كل هذا أن البيرة رائعة في هذا المساء الهادئ، وكلنا حزانى، عمو حسان شب عن الطوق، ولكنه شاخ، البارحة راقبته وهو يسير في شارع الحمراء، تابعته على مبعدة، رغبت في أن أفعل هذا، فوجدته يسير مستسلما وقد تهدلت كتفـاه، أحسستـه وقـد كبر فجـأة، ترى هل أبـدو أنـا على هذه الحال ؟ كالسائر إلى نهايته لو أن أحدا تابعني ؟

فنطق حسان مؤكدا :

ـ إنك الآخر مزموم الشفتين، وكأنك في عراك حتى مع الله في عليائه، قبعتك تكاد أن تخفي عينيك، ورأسك مغروس بين الأوراق، ولعل أحدا

يطق من وضعك فيسألك يوما : وماذا بعد؟

ورد كالمدافــع :

- إنني أحيا وفق مشيئتي، ولن أسمح للأسئلة المتطفلة أن تعكر شيئا في مسرى حياتي هذه. ثم من تتصـور أن أمري يهمه إلى هذا الحد ؟ إنني مستريح الآن، منسجم مع الأشياء ومع نفسي، أشرب البيرة وأمدد ساقـيّ مسترخيا. وليمت العالم كله فلن أطلق عليه كلمة رثاء واحدة، أفهمت ؟

وقال حسان وهو يتعمد مشاكسته :

- إنني أفهم، ولكنني لا أفهم هذه القبعة التي تلازمك ؟

ولم يجد غضاضة في أن يرد وهو يمرر يده عليها، ويرفعها من فوق رأسه ويضعها على الطاولة أمامه :

- إنها تقليد عرفته في إسبانيا، ولم أتخل عنه. إنني مسكون بذلك البلد، عدت منه قبل سبعة عشر عاما، ولكنني مازلت فيه وكأنني لم أغادره أبدا. ومـــرات أفكـر جادا في العـودة إليه، ولكن من لهذا الارث الكبـير من اللوحات الغالية ؟ إنني أختزن في بيتي أكثر من أربعمائة لوحة غير تلك التي بعتها، فلمن أتركها ؟

قال حسان بدعابة :

- اتركها لي، ألست صديقك ؟ وأعاهدك على بيعها في أول يوم لأمخر بعيدا، حتى أصل آخر الدنيا، أزور اليابان وأمريكا والدول الاسكندنافية وأسـتراليا، أحقق حلما صعب المنال كان يداعبني وأنا صبي أسعى إلى رزقي في شوارع وحارات دمشق القديمة.

غيـاث داود باسم وأنيق. طر شاربـاه وراحا يرتسمان تدريجيا فوق شفتيـه المكتنزتين. ولكن الحماس كان يأخذه فيرتمي في فورة الأحداث ولهيبها. لن يفكر بما هو مخبأ له هنا أو هناك. أول إضراب ساهم فيه كان بمنـاسبـة زيارة وزير الداخلية للمدينة، ملئت الشوارع بصور الملك والوصي، ونصبت أقواس النصر التي تفنن فيها نجارو المدينة، وعلقت اليافطات. انتخب غياث في لجنة الإضراب بالمدرسة، أغلقوا الأبواب،

وجعلوا من سبورات الكتابة شعارات حملت عبارات التنديد، لكن رجال الشرطة اقتحموا الأبواب الموصدة وإنهالوا على الطلبة المضربين بالعصي والسياط، فكانت معركة دامت قرابة الساعة والنصف. أمسكوا بغياث بعدها هو وبضعة من رفاقه وقادوهم إلى مركز الشرطة، كانت عينه اليمنى متورمة من أثر طابوقة طائشة استقرت عليها، وفوق جبينه يتخثر الدم بسبب الجراح التي أحدثها لسع السياط.

كانت تلك أول مرة يرى فيها مبنى مركز الشرطة من الداخل، إذ كان يمر من الشارع المحاذي له أحيانا ويلقي نظرة على حراسه الصارمين بوجوههم المخشبة الجافة وإلى مدخله الذي لا يرى إلا مظلما حتى في النهار.

وأمام غرفة كتب على بابها «مأمور المركز» أوقفهم شرطي بملابس مدنية، كان قوادا في يوم مضى، واسمه «عفون» وأطفال المدينة يحفظون أهزوجة كانوا يرددونها عنه كلما لمحوه عابرا فيلحق بهم راميا إياهم بالحجارة والحصى ولاعنا من أنجبوهم دون أن يربوهم جيدا.

كانت أهزوجتهم تقول: (سقط حزب السفالة لما انسجن عفون يا مربي الحمام ومكرم البزون) (*) إلى آخر كلماتها النابية.

اقترب منه غياث وسأله ببساطة:

ـ ماذا تريدون منا بالضبط؟

ـ اسكت. ابن الكلب. كل الذي فعلتموه ولا تدري ما الذي تريده منكم؟ سنضع رؤوسكم في الخراء. أفهمت؟

وخرس غياث وأربعة من أصحابه الحاملين لحقدهم وجراحهم، بينما كانت رؤوسهم منكسة يعتصرها الانتظار. وهناك أمام مبنى مركز الشرطة يتجمهر البعض من ذويهم لمعرفة مصيرهم.

(*) الاهزوجة باللهجة الدارجة لجنوب العراق والبزون هو القط بهذه اللهجة.

كان غياث أول من نادوا عليه. وعندما وضع أولى خطواته في الغرفة فاجأته صفعة، لا حد لبأسها، دارت الدنيا بسببها في رأسه، ثم تقنطر على بلاط الغرفة، ولم يستعد وعيه الا بعد أن رموا على وجهه جردلا مليئا بالماء.

وعندما صحا كان أول سؤال نطقت به شفتاه:

- من صفعنـــي ؟

ولكن لم يأته أي جواب. هز رأسه متوعدا:

- قولوا لي من هو حتى أقتله وأشرب من دمه ؟

ولكنـه كان مسـوراً بوجـوه خرسـاء منقبضـة، ويتوسطها وجه عفون المخبر القواد بشاربيـه الطويليـن المتهدليـن على جانبي فمه. لذا كان تساؤله المتوعد يصطدم بصلادة هذه الوجوه التي بدت كجدران متآكلة لم تعرف الترميم ولا الطلاء.

وقد ظلت أذن غياث تصلَ عليه أعواما بعد أن نضحت لأيام عديدة دمـا وصـديدا، والرائحة العطنة تفوح منها، فلم يقو أخوه الذي كان يشاركه السرير على تحملها لذا انتقل لينام على الأرض.

من يرفع صوته وينادي:

- يا لثارات غياث داود

- 5 -

حمل غياث معطفه على ذراعه ثم شق طريقه صوب سيارته التي كانت رابضة أمام بيته في ذلك الدرب المشجر من حي « المنزه » فتح بابها ورمى المعطف على المقعد المجاور له. أدار المحرك ثم اعتدل في جلسته وراحت السيارة تقطع الدروب.

لم تكن له وجهة معينة لقد أنفق طيلة نهار الأحد في فراشه إذ كان يعاني من صداع ثقيل أخذ رأسه بعد أن أكثر من شرب النبيذ التونسي اللذيذ « سيدي سعد » ولم تفلح حبتا الأسبرين اللتان رماهما في جوفه منذ الصباح في اقتلاع هذا الصداع كليا.

مضى باتجاه فندق هيلتون. استدار من أمامه وعاود الهبوط نحو حي « البلفيدير ». كان أناس كثيرون يتمشون هناك، وهناك أيضا البعض ممن ارتدوا الملابس الرياضية وراحوا يهرولون. وثمة مجموعات من الفتيات عائدات باتجاه بيت الطالبات، سالكات شارع « يوغرطة »، وكانت سماء تونس مغطاة بغيوم كثيفة يصحبها نثيث مطر أحيانا، يتكدس فوق زجاجة السيارة الأمامية فيحجب الرؤية عنه، ولذا يلجأ لتحريك كاسحة المطر لتزيحه.

توقف عند إشارة الضوء في رأس شارع « يوغرطة » وأمامه ساحة « باستور » بأشجارها الكثيفة، وقد بدأت تغط في عتمة الغروب، وفتح الراديو، كان علي الرياحي (*) يغني، واستبشر خيرا بهذا الصوت التونسي الصميم الذي يحبه، « يا اللي ظالمني » أغنية عذبة حقا. فتح حوارا مع سعيدة بنت المنصف ذات يوم عنها. أبدت إعجابها بها هي الأخرى، لكن غياثا لمح إلى التأثير المصري فيها، وقد قالت مدافعة :

(*) مغني تونسي مشهور.

ـ لا يهم، تأثير مصري أم لبناني، المهم أنها أغنية عذبة، وشرقية حتى العظم، رحمه الله، كان مغنيا فذا.

ثم وعدته بأن تهديه شريطا نادرا له. سجل له في حفلة خاصة بمدينتها، وكان خالها من بين الحاضرين، ومن الصدف أنه كان يحمل آلة التسجيل معه.

انعطف متجها نحو شارع الحرية، ومر بمبنى السفارة الأمريكية الذي كان يغط بالصمت، وأمامه وقف في الظلام شرطي بمعطف وبيده راديو ترانسستور. وعندما وصل إلى مبنى السفارة العراقية انعطف في الشارع الفرعي المحاذي لها وأركن سيارته فيه.

حمل معطفه ثانية، وخرج من السيارة بعد أن أغلق أبوابها وفي داخله رغبة لأن يمشي على قدميه مسافة حتى يبدد الخدر المعسكر في جسده.

سعيدة بنت المنصف ليست في العاصمة اليوم. لقد ذهبت إلى مدينتها قبل يومين، حذرها مداعبا :

ـ إياك وإن تأكل انفك الجميل فأرة شرهة.

صديقه الشاعر لا ينفك عن الحديث عن الفئران في تلك المدينة وهو يمصمص شفتيه مستلذا من طعم قطعة حلوى وهمية مخبأة تحت لسانه لم تنفد ولن تنتهي.

حكيمة بنت الشيخ جابر تغزل الصوف وتبيعه صباح كل يوم جمعة في سوق المدينة. يأتيها حائك عجوز، يمتلك نولا في كوخه القصبي غربي المدينة ليدفع لها السعر المعلوم ويأخذ ما غزلته طيلة أسبوع ليحيله إلى عباءات يتلاقفها القرويون. يحتج غياث على هذا ويقول لها متوسلا :

ـ إنك تعمين عينيك.

وترد على احتجاجه بأنّها لا تستطيع أن تقبع في البيت مكتوفة اليدين منذ أن خذلها صوتها الرخيم ولم تعد قادرة على قراءة سيرة آل البيت في المجالس الحسينية التي تقام في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم كل عام.

حكيمة بنت الشيخ جابر. كانت ضامرة مثل رمح. امرأة من عظم

وعصب. تسعل فيختض كل قفصها الصدري، وتنوس أضلاعها الواهنة. ولكنها تستيقظ في ساعة مبكرة، مع آذان الفجر وصياح الديوك لتصلي، وتوقد التنور، وتهيء أقراص الخبز. لم تقبل أن تأكل من خبز الأفران. من يعلم ماذا به ؟ ومن يدري أن الخباز قد ذكر اسم الله قبل أن يكور العجين ويفرشه ليودعه في الفرن ؟ لا آكل إلا من خبز يدي، أما أنتم فأحرار. كلوا ما تشاؤون. لكن لا تتبطروا على رزق الله، اشكروه لأن أمكم مازالت قوية. تبيع وشائع الغزل وتشتري الحنطة، ثم تحمل الكيس الثقيل فوق رأسها وتمضي به إلى المطحنة لتعود به مطحونا وناعما، ومع ذلك فإنها تنخله جيدا. تبعد عنه النخالة ليصبح ناعما جدا لا يجرح البلعوم، ثم تعجنه وتخمره وتخبزه، لتجدوه حاضرا فتأكلون.

لم تكن حكيمة بنت الشيخ جابر تعرف الفرح. كانت مصبوبة من الحزن. تبحث عن المناسبات المحزنة والمآتم لتشارك فيها، أما الأفراح فتعافها. وعندما تجد نفسها ضاحكة مرة فإنها سرعان ما تستغفر الله، وتدعوه أن يجعله ضحك خير، وتدمع عيناها فتضطر إلى مسحهما بطرف فوطتها السوداء.

كان صوتها وهي تتحدث عن استشهاد الحسين يعلم الحزن لمن لا يعرفه، ينسكب ببحة جارحة مترنما بتلك السيرة العطرة المضمخة بالعذاب والغدر، حيث بسالة الحسين ومصائب زينب اخته وعويل الأطفال، والعطش والجوع وصولات العباس ورؤوس الأعداء المتناثرة.

ولكنها كفت عن ذلك وأعلنت قرارها الأخير :

ـ لقد كبرت وتعبت. ولم يعد السعال يرحمني. أديت ما علي للحسين أبي عبد الله عليه السلام، ابن فاطمة الزهراء وقرة عين الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾.

حكيمة بنت الشيخ جابر عليك الرحمة. وعلى تربتك الطاهرة زيتونة خضراء من أشجار الجنة. لتكن رمال النجف الشاسعة رحيمة بعظامك

ولتضمها بحنو فلست أمي فقط بل أنت فجيعتي الأبدية.

راح يغذ السير على الرصيف، كان مارة كثيرون يملأون الشارع، وقد خرج أغلبهم من حديقة الحيوانات القريبة وهم يقودون أطفالهم الذين مازالوا منبهرين بالحديث عن الأفيال والأسود والببغاوات التي رأوها هناك.

أخذ يسرع تدريجيا وهو يتنفس بعمق متذكرا تعليمات طبيب لبناني، نصحه بأن يمشي قدر ما يستطيع، أربعة كيلومترات، ستة، كل يوم ان وجد المجال حتى يذيب كل ما يمكن أن يختزنه الجسد من أملاح ودهون تكون وبالا عليه ان كثرت.

سعيدة بنت المنصف سترحل. هذا هو قرارها الذي تعيده على مسمعه كلما التقيا. قبل يومين قالت له:

- اسمع يا غياث. ان أسبابا أخرى استجدت وتدعوني لأن أغادر. أهمها أنني كنت كالمطاردة خلال الشهر الأخير، وهذا أمر لم أحدثك عنه. ولقد جاء رجلان غريبان إلى منزل عمي يسألان عني في الأسبوع الماضي بحجة أنني قد فقدت جواز سفري، كيف عرفا بمكاني؟ علما بأنني لم أفقد أي جواز سفر، ولا أحد في الدنيا غيرك يعرف أنني أقطن في هذا البيت، فمن تتصورهما؟

وقال لها محاولا تهدئتها:

- قد يكونان مبعوثين من قبل زوجك لاثارة رعبك حتى ترحلي وتعودي إليه؟

صفنت برهة ثم هزت رأسها وتمتمت:

- أتمنى أن يكون هذا التفسير صحيحا.

ولكن كل الكلمات التي صبها في أذنيها لم تفلح في تبديد مخاوفها وذعرها لذا كانت تهب من نومها فزعة غارقة في العرق وأنفاسها تتلاحق وكأنها ركضت عشرات الكيلومترات.

قال لها مرة أخرى:

- ربما كانا يحملان رسالة من أمك أو من أحد اخوانك، لابد من سبب.

فتقاطعه وتقول :

ـ لو كان هذا فعـلا لسلماهـا إلى زوجة عمي المرابطة في البيت ليلا ونهارا، ولكن الأمر غير هذا بالتأكيد.

وقـد طلبت منـه ان لا يأتيهـا إلى البيت ويوقف سيارتـه ذات الرقم الأجنبي أمام الباب، واتفقا على مكان ينتظرها فيه كلما أراد لقاءها. وقد امتثل لما أرادت مداريا الوضع المستوفز الحاد التي هي عليه. لذا كانت لا تغادر البيت الا بعد أن تتأكد من خلو الشارع من المارة، وتفر بخطوات سريعة ورأسها مطرق إلى الأرض، وأحيانا كانت تلف رأسها بشال وتحاول أن تغير في مشيتها. وتدور في الأزقة المحيطة بالبيت وكأنها تضلل شخصا يطاردها. قبل أن تتوجه إليه لتجده في انتظارها وقد أطفأ أنوار سيارته وخلد إلى التأمل والنوم أحيانا ولا يفتح عينيه الا بعد أن تطرق عليه زجاج السيارة.

وقبل أن تدلف في السيارة تتلفت يمنة ويسرة، وان رأت شبحا عابرا في الظلام تبتعد ولا تعود إلا بعد أن يختفي.

قـال لهـا :

ـ إنك واهمة يا عزيزتي، تتخيلين أشياء غير موجودة، ولو كان ذلك الشخصان يريدانك فعلا لعادا ثانية وثالثة حتى يعثرا عايك.

قالت والذعر ممسك بصوتها :

ـ لقد أفلحا في اخافتي، انني نصف مجنونة، ماذا فعلت ؟

ونطق مجاريا تساؤلاتهـا :

ـ لعلي السبب في هذا. امرأة من هذا البلد، ترتبط بعلاقة مع أجنبي. لا أحد يعرف جنسيتي ولا انتمائي، انهم يرون سيارة أجنبية تدخل هذا الحي الآمن الذي يعرف سكانه بعضهم البعض، وكل هذا يثير التساؤل والاهتمام.

وهزت كتفيها قائلة :

ـ ربمـــا.

وعاود الكلام :

ـ وهـل أنت حاقـدة علي لأنني السبب في هذا العذاب المضاف إلى عذاباتك الأولى ؟

ورددت نفيا :

ـ أبدا. انك خلاصي وشفائي. ولولاك لكنت مسكونة بمليون رعب وليس رعبا واحدا.

ثم يقبلها على جبينها. بعد ذلك يمسك بيدها الصغيرة التي تحب دوما أن يقتنصهـا ويدعكهـا بأطـراف أصابعه حتى تتسرب إليها السخونة. ويقول لها بصدق :

ـ وأنت خلاصي وشفائي أيضا. لا أريد أن أتذكر كيف مرت بي الأيام في هذه المدينة قبل أن التقيك.

تضع رأسها على صدره آمنة مستريحة، وتبسبس :

ـ أود لو أظل هكذا محتمية بك إلى الأبد. انك قوي وواثق، أما أنا فخائفة، أشياء كثيرة تخيفني، حتى نفسي أخافها وهنا مكمن الخطر الأكبر.

يا سعيدة بنت المنصف. دعي المياه تحفر مجاريها،تنحت في الصخر. وتنساب في السهول، أما نحن فليس لنا الا هذا الغرام اللاهب فلنمض فيه بكل ما عندنا. حدثيني عن كل حلم جميل رفرف في رأسك الصغير هذا. سقسقي مثل جدول ماء فرح يسقي بستانا من أندر الزهور، افعلي ذلك واقتلي كل الذين لا يريدون للصفاء أن يعم.

رفعت رأسها وصرخت مفجوعة :

ـ غياث أمسك بي، لا تدعني أضيع أرجوك.

ـ أكره كلاب الصيد والوجوه المقنعة.

ـ أواه يا سعيدة. كان لي تاريخ زاخر هناك. مع وجوه وقامات أخرى. هل تريـدين أن أسرد لك تلك الـوقائع المندثرة ؟ ما الجدوى في ايقاظ النيـام ؟ والتجـول في متحف الشمع والأشباح ؟ المهم ان كل شيء قد

مضى وراح، وها أنا أمامك الحصيلة والخلاصة والبقايا، ولو كان الماضي يرتسم على محيا أصحابه، اذن لما رأيت أمامك الا وجها مهشما مليئا بالندوب. لقد صمد هذا الآدمي الذي يحدثك الآن. وكان الصمود معجزة، ولم نعد في زمن المعجزات ذاك.

تلتصق به :

ـ يا حبيبي، سأقتلهم كلهم.

ويبتسم هادئا :

ـ من هم ؟

ـ الذين قتلوك.

ووضعت كفها الدائمة البرودة على جبينه، طرح ظهره إلى الخلف وتنفس بارتياح. كانا انذاك مندسين وسط صخب الجالسين في بار فندق الملكة « ديدون »، وكان حولهما عشاق وأحبة آخرون. يدخنون ويثرثرون دون أن يهتم أحدهم بما يصنعه الآخر، بينما يدور النادل بين الموائد ملبيا طلبات الرواد. وكان الزجاج الذي أمامهما يرسم سفحا مليئا بالبيوت التي تشع أنوارها الكابية، والريح تعبث بالأشجار بصوت مفزع ومسموع.

قالت :

ـ غياث، ماذا ستفعل بدوني ؟

وأجاب :

ـ لا تسأليني أرجوك فأنا أكره الأسئلة المسبقة. ماتت حكيمة بنت الشيخ جابر، وطلقت هناء محمود، ثم مات أبي وبعده أميرة حسين وطفلي الذي لم أر وجهه وبقيت دون أن أعرف كيف ؟

قالت بحزن وكأنها تستوقفه :

ـ لا أريد أن أنكأ لك جرحا قديما، ولكنني أسألك عن الزمن القادم.

ونطق متجاوزا آلامه :

ـ عليك أن تعرفي بأنني مطمئن إلى حد بعيد اليوم. ربما لأنك معي في هذه المدينة. حتى لو لم أرك لمدة أسبوع يظل في أعماقي يقين بأنني سأراك متى أردت. وبعد عشر دقائق مثلا. لكن أن تكوني في مكان آخر وفي بلد بعيد، أحتاج إلى تأشيرة دخول وإلى بطاقة سفر واجازة حتى أصلك فهذا أمر لا أريد أن أتصوره. أعتقد أن وضعنا الآن فيه رضى لكلينا فلنكف عن طرح الأسئلة ما دمنا لسنا بحاجة إليها.

سكبت ما تبقى في زجاجتها من مبردات في الكأس وقالت وهي تغمزه :

ـ ولكنهن كثيرات ؟

وتظاهر بأنه لم يفهم تعليقها حينما تساءل :

ـ مـن هـن ؟

وردت وهي تهم بشرب ما في كأسها :

ـ نساء هذا البلد، من تونس إلى القيروان، وأنت رجل تاريخه حافل والحمد لله.

وأخذت جرعة صغيرة وقالت مواصلة مناكدته :

ـ أتتذكرها صديقتي البغدادية تلك التي حدثتك عنها ؟

قـــال :

ـ نعم أذكرهـــا.

ـ عندما عرفت اسمك مني حذرتني في احدى رسائلها وقالت اياك منه فحياته مختبطة، مقلوبة من الأعلى إلى الأسفل، يتزوج ويحب ويهجر، فحاذري أن تقربي مياهه فإنها مغرقة.

صفقت بيديها وقالت :

ـ ولكنني لم أستمـع إلى النصيحـة، وهـا أنا أتنفس تحت الماء. اني أغرق. أغرق.

وأعقبت ذلك بضحكة رطبة، سقسقت لها حنجرتها المتعبة، أما هو

فقد صفن قليلا قبل أن يقول :

ـ صديقتك قالت الحق ، ولكن هناك ايضاحا صغيرا فقط هو انني كنت صادقا دوما ، لم أكذب على أحد ، كما لم اكذب على نفسي هذا هو المهم .

وردت كالمعتذرة بعد أن ابتلعت بقايا ضحكتها :

ـ لن أسمي هذا الوئام الجميل غرقا . انني غير نادمة أبدا . صدقني ، ولو كنت كذلك لما بقيت معك لحظة واحدة ، سأختفي ولن تجدني مهما حاولت . ولكنني مقتنعة بك . بحبي لك . إذ وجدت فيك نسغا جديدا سرى في مساماتي الصدئة فأعاد لها بريقها وزهوها ، كما أعاد لي الثقة بأشياء كثيرة ظننت انني قد فقدتها إلى الأبد ، بعد أن كفرت بها على يد ذلك الأخرق الذي صدقته للدرجة التي جعلتني أقبله زوجا .

وقال لها مستحثا ومهدئا :

ـ اشربي ما في كأسك لندخل المطعم حتى نتعشى فقد أمضني الجوع ، أما أحاديث الموتى فدعيها جانبا .

فزفرت ونطقت ببطء :

ـ أواه يا غياث انني اوهم نفسي بأنني قد انعتقت منه ، ولكنني مازلت زوجته ، ومعاملة الطلاق تدور في المحاكم منذ عدة أشهر ما بين التأجيل والمرافعة دون أن يبت بها القاضي . هل تضحك إذا قلت لك إن المحكمة قد أرسلت لي باحثة اجتماعية لتنصحني بضرورة العودة إلى زوجي وعدم التفكير بأبغض الحلال ، وأشياء أخرى ، سردتها على مسمعي وكأنها قد لقنت لها . لماذا أنت ساكت ؟ ألا يضحكك هذا ؟

« باب سعدون » استدار حوله . عبر شارات المرور . هرول أمام السيارات المارقة بسرعة . بدأت في الجو برودة خفيفة ، لسعة برد ، اختض لها جسده مما اضطره لأن يرتدي معطفه الجاثم فوق ذراعه ، وحث خطواته على الاسراع أكثر ليمد جسده بالدفء وود لو بإمكانه أن يهرول ، ولكن سيبدو منظره مضحكا هو ومعطفه الثقيل الذي اشتراه قبل سنوات من براغ .

دخـل شارعـا ضيقاً مليئا بالمارة والدكاكين وعربات الباعة المتجولين وسيارات الحمـل المركونة، ولم يحاول أن يقرأ اسم الشارع. ولكنه كان يعرف انه يسير في الاتجاه الصحيح، وخمن انه بعد ساعة سيكون في قلب شارع بورقيبة حيث يشتري الصحف والمجلات العربية وينفتل عائدا إلى سيارته المركونة في شارع الحرية جوار سفارة بلاده.

طائـر السماوة، من جاء بك إلى الغراف؟ تبرق كلمات تلك الأغنية ويتردد صدى ذلك الصوت الذي كم لاكته آلة التسجيل في سيارته ليظل مشدودا إلى أرض الوطن ووجوه الأهل والأصحاب التي بعد عنها، يدندن بكلمات الأغنية وكأنها تعويذة ضد الشرور التي ترصده، يمتلىء بدفـء كلماتها ويهيم متبخترا.

ـ لماذا لا يتركـونني وشـأني؟ ما الـذي فعلته لهم؟ لقد فجعت بهم كلهم، كان آخرهم زوجي. يا للسخف أأقول زوجي مع انني أنكره وجلدي يقشعر كلما تذكرته لأنه مر عليه شهورا، عجيب ا كنت أتصور انني أحببته يوما، بدليل انني تزوجته هو بالذات، ولكنني اكتشفت أنه لم يكن الا كذبة كبيرة ملفقة، لذا بصقت عليه وحملت أغراضي وجئت، ظل يستنجـد، يطاردني، وكـل مسـاء يثمـل ويـدير رقم الهاتف من هناك ليخاطب من يجده، عمي أو زوجته أو ابنته، يبكي ويتوسل، ولكنه قد مات بالنسبة لي، ولا جدوى.

قال غياث:

ـ انك لعينة قد يكون محبا لك، فما ذنبه؟

فــردت موضحة:

ـ انه يلاقي جزاء غبائه مادام لم يستطع الاحتفاظ بي.

نقرت بطرف اصبعها على جدار زجاجة المبردات الفارغة وأضافت:

ـ لقد صفيت كل شيء وأنا اليوم مخلوقة أخرى، اسمع يا غياث، ألا تتفق معي ان المشـاعـر البشرية غريبة؟ والا لماذا تكف فجأة عن محبة

انسان كنت تمنحه الكثير وتأمل منه الكثير ؟ تصور انني في أيامي الأخيرة معـه قد شعرت بهذا، وبدأ يلهج بالبكاء من أجل أن يمتلكني، يفعل أشياء عجيبة، يقبلني، يعضني، يسبني، يهذي، يصرخ، يغني، يسكر، يمزق ملابسي الداخلية، ولكنّني أمامه ممددة كالميتة التي تنتظر من يدفنها ويـواريها تحت التراب، وعندما يراني هكذا، لا أصغي ولا أستجيب، يهرش شعـره ويلطم وجهه ويكفر بكل المقدسات، ثم ينهض ويرتدي ثيابه ويفر. وقد يختفي يومين أو ثلاثة قبل أن يعود متسخ الثياب، طويل شعر الذقن، منخذل الملامح واللهجة، أرد على تحيته التي يطلقها دون أن ينتظر مني ردا ثم أنصرف لشؤوني. ذات يوم غاب، هرب بعد أن اغتصبني وقطع ملابسي، نعم فعل هذا، وعضني في اليتي كالعنين الذي يريد اثبات فحولته، نشب أظفاره في جسدي، ثم فعلها، نفث ما به وهو يحمحم كالمعتوه وفر. لم أحرك ساكنا. كل الذي فعلته أنني حملت أغراضي وجئت لأجـدك أمامي وكأنني على موعد مسبق معك. هل أترحم على أموات كامل السعدون ؟ أم أشتمهم ؟ واشتم كل سلالته غير العريقة ؟

حاذت خطواته رجلا متوسط العمر كان يسير بتمهل فسأله عن اتجاه شارع بورقيبة، حرك الرجل يديه عدة مرات قبل أن يجيب بصوت مختنق :

- بعد قليل ستصل باب سويقة، ومن هناك اِمض إلى أمام فليست المسافة بعيدة.

ثم اعتذر عن عدم قدرته على الكلام، وأشار إلى عنقه وأضاف موضحا :

- أجريت عملية جراحية للوزتـيّ، ولم أخرج من المستشفى الا قبل يومين.

وتمنى له غياث الشفاء، ثم ودعه مواصلا المشي بصعوبة في فورة الزحام.

باب عليوة، باب العسل، باب سعدون، باب البحر، باب سويقة،

كلها أبواب تونس العتيقة، ولكن أين باب الله لأدخله وأمضي باحثا عن فرح مخبأ لي وراء ضلفتيه ؟

سعيدة بنت المنصف، ما أكبر أحزانك ولكن ما الذي بقي لك ؟ وما الذي تملكينه ؟ يوما ما سأحمل امتعتي وأشد الرحال إلى بلد آخر، سأبتعد، قد نلتقي في شارع، في مقهى، في فندق مهجور، وقد لا نلتقي أبدا. ولكن أي ضمان لديك تواجهين به قسوة الأشياء وظلمها ؟ انك هاربة، أعرف هذا، مذعورة، مختضة، ولكن إلى أين وظلك ملتصق بك ؟ ومن السامع والمغيث في هذا العالم الموصد المليء بالرجس والجفاء ؟

حط الليل، والليل سجنك، تنزلين السلالم إلى غرفتك المنعزلة، وتتمددين في فراشك، تطفئين كل الأنوار، ويختنق صدرك بالنشيج، عيناك شاخصتان في العتمة، تصليان لآلهة من صخر، وترجوانها أن تفعل شيئا، أن تكون دليلك في هذا الضلال، أن تمنحك قسطا من السلام، أن تهدهدك فتغفين، نعم، اسمع يا غياث، ربما مر أسبوع أو أكثر علي وأنا نصف نائمة، نصف يقظة، نصف حية، نصف ميتة، أتعرف أولئك المعلقين بين السماء والأرض الذين يأتي ذكرهم في الأمثال ؟ انني واحدة منهم، ليس لي جناحان لأمضي، وليس لي قدمان لأقف وأثبت، اسمعني يا غياث، افتح اذنيك جيدا أرجوك، لو أمسك بي ذلك الرجلان وقاداني إلى غرفة مظلمة موصدة، لا نافذة فيها ولا كوة واغتصباني. لو فعلا ذلك بي ماذا سيكون رد فعلي ؟ قد يتركانني أدور عارية أول الأمر ليتمليانى، فتتقد شهوتهما الخبيثة، وقد يفعلان بي أشياء أخرى كثيرة، سأنتحر بعدها، سأفعل ذلك بالتأكيد. أريد سببا فقط، أفهمت ؟ لأنني لم أعد أفقه شيئا، ولا أريد، أرجوك يا غياث أن تبقى مصغيا. ولكن رغم هذا فإنني جائعة، أشتهي أن أفترس دجاجة كاملة، أو سمكة، أو قطعة لحم مع البطاطا والخضروات والحلوى، لم آكل منذ ثلاثة أيام، اعلنت اضرابا احتجاجًا على بقائي حية في هذا العالم الذي يمقت الأحياء، ولا يمنحهم فرصة أن يحيوا بنبل واقدام، حتى جوفي بدأ يفرز رائحة غريبة، لا تقترب مني، ان

فعلت ذلك ستتقيأ أحشاءك، ولن تستقر شفتاك على شفتي أبدا.

رغم كل هذا فإنني أريد أن أحيا وأن استمر وأن أعطي شيئا، فأغثني أرجوك، ألم يسموك غياثا ؟

أحس بالسخونة تتسرب إلى هيكله الماشي، فعاد وخلع معطفه ووضعه على ذراعه.

هذا هو باب سويقة اذن ؟ حسنا، لقد رأيته أخيرا، منذ عامين وأنا في هذه المدينة، ولكن خطواتي لم تعرف دروبها الملأى، لم تعرف بيوت الفقراء ولا مقاهيهم، ولكن استلبني وجه المدينة السياحي، الفنادق والسواحل والمطاعم، فضعت ولم يدلني أحد على الطريق.

اندس في مقهى « الروتوندة » الذي حدثوه عن عراقته ومجده المندثر أيام الاستعمار الفرنسي للبلاد، وشرب زجاجتي بيرة، دفع ثمنهما وانصرف، ذاب في الجموع، ولم تخمد أنفاسه.

- صدقني يا غياث بأنني لا أتوهم هذا. لقد جاء رجلان غريبان وسألا عني بالاسم. خافت زوجة عمي من هيئتهما، ولم تسألهما ماذا يريدان مني والمصيبة ان هذه المرأة قد تغيرت، منذ ذلك اليوم، تغيرت في كل شيء حتى في معاملتها لي، وأصبحت تراقب كل حركاتي بعينين تنضحان بالشك والريبة.

- ولكنك لم تفعلي شيئا يثير الانتباه، هل قمت بعمل ولم تخبريني به ؟

سكتت فترة. ابتلعت ريقها بصعوبة. ثم جاهدت من أجل أن تجعل لهجتها هادئة وهي تسأله بدورها :

- ألا تشكل علاقتي بك مأخذا رسميا عليّ ؟

قال مهدئا :

- يا سعيدة، يا عزيزتي، انني رجل لا أشكل خطرا لا على الحكومات ولا على الأفراد ومن يتصور غير ذلك سيكتشفني بعد أن يراقبني بضعة أيام ان كان ذكيا. انني احبك وأنت تحبينني، والحب، الصافي لا يخيف أحدا، لست عضوا في حزب سري، ولا أظنك أيضا، ولم نعد نوزع

النشرات السرية المنددة بهذا الحاكم أو ذاك. نحن أسرى حالتنا، ولنا دنيانا ولقاءاتنا التي لا تغضب أحدا، فالصدور واسعة في هذا البلد، انني واثق من ذلك، لذا عليك أن تطمئني.

خديجة بنت الهادي مرعوبة ذاوية أيضا. تفز من نومها صارخة وتندد بذعر بأن لا أحد يقوى على سلب ابنتيها منها. تتمنى أن تفعل شيئا، تتحرك، تقفز، تمضي، ولكنها مسورة بعمل وعائلة تغرقها بالمحبة وطفلتين رائعتي الحسن. انها ليست مثلك على أية حال. لم تغادر مدينتها يوما الا مرة واحـدة قبل عشر سنوات حيث مكثت في جنيف عامين كاملين مع زوجها، ولكنها لم تر شيئا من تلك البلاد غير التمشي على ضفاف البحيرة الراكدة مساء كل يوم أحد وهي تدفع عربة طفلتها البكر. لقد قاتلها ذلك الكلب ـ كما تسميه ـ أيضا. إذ كان يتفق مع العاهرات السويسريات أمام عينيها. يحملهن في سيارته ويتركها مع طفلتها مزروعتين على ضفاف البحيرة.

خديجة بنت الهادي. سعيدة بنت المنصف. من لوث الأشياء ؟ ومن سلبها طفولتها وبكارتها ؟ ثم من جاء بكما إلينا ؟

سامي المنـذر يكتم غيظا سحيقـا. ويشتم الجدران وشوارب الرجال الملطخة. ينطوي كمدا وانشغالا، ويكتب قصائد حب مفجوعة، فقد قادوا خديجة بنت الهادي أمام عينيه مرة. شتموها. نادوها أن يا عاهرة اصمتي. توسلت بهم اني اختكم فأجابها أحدهم بأننا لن نتشرف بواحدة مثلك تصاحب رجلا إلى هذا المكان وهي ليست زوجته.

وعاتبه غياث داود عندما سمع بالنبأ وخاطبه قائلا :

ـ أنت السبب. هل هناك عاقل يقدم على استئجار غرفة في فندق مع امرأة ليست زوجته ؟

ـ ولكننا لم نفعل شيئا ؟

ويواصل عتابه :

ـ لا تنس انك في بلد عربي، مازالت له تقاليده رغم كل شيء ؟ ثم ما

حاجتك للمكوث في الفندق ولديك شقتك التي لا يقطنها أحد سواك ؟
ورد سامي المنذر مدافعا :
ـ أردنـا أن نخرج من دوامة العاصمة، أن نمكث ليلة معا في مدينة أخرى، هذا كل شيء.
ـ اذن اقطعا تذكرتي سفر وامضيا إلى روما أو مالطة أو باريس أو أية مدينـة أوربية قريبـة، آنذاك لن يطالب أحد مرافقتك بجواز سفرها في الفندق ولا ببطاقة الهوية.
قال سامي المنذر وهو يطأطئ رأسه وكأنه يعترف بالخطأ الذي أقدم عليه :
ـ لم أشعر بمثل الخور الذي اقتنصني انذاك إذ لم يكن من حقي أن أفعل شيئا، أن أنطق بشيء. توسلت وحدثتهم بوئام وطيبة، ولكنهم أصروا على أخذ بطاقتها الشخصية وتسجيل ما فيها من معلومات، ثم أرجعوها لها. وقد هددها أحدهم بقوله : اياك أن تعودي لمثل هذا العمل، سنسامحك هذه المرة، ولكن ان تكرر ذلك ستعرفين ماذا يكون مصيرك ؟
وقد سقطت خديجة بنت الهادي مغمى عليها، والزبد ينضح من فمها الجميل. رمى عليها الماء، ومسد يديها، حملها بين ذراعيه إلى مقعد في الحـديقة المفتوحة ولم تستعد وعيها الا بعد أن جاءها بطبيب زرقها بإبرة كعـلاج لمثـل هذه الحالات. ويومها قررا أن لا تخطر قدماهما في مدينة بنزرت أبدا.
بعـد أن صحت لم تكلمـه. خطت نحـو السيارة معتصرة بالصمت والشحوب، ووجد نفسه مفرغا من كل كلمة تصلح للقول في مثل هذه المناسبة، واكتفى بقيادة سيارته بأقصى ما يستطيع من سرعة وهو عائد إلى العاصمة.
بعـد صمت كاد أن يطول انفجـرت خديجـة بنت الهادي بالعويل، وأخـذت تلطم وجهها مما اضطره لأن يوقف السيارة على جانب الطريق ويمسك بيديها وهو يتوسلها :

ـ خديجة، ماذا تفعلين ؟

فترد على توسله :

ـ دعني اقتل نفسي. دعني. ماذا كتبوا عني في دفاترهم ؟ هل قالوا إنني قحبة أرافق الرجال إلى الفنادق ؟

ويواصل محاولته المستحيلة في ايقاف انفجارها :

ـ خديجة، لم يقولوا هذا ولن يقولوه ؟

فتصرخ فيه :

ـ دعني، لا تحاول أن تخفف عني، سيأخذون ابنتّي مني لأنني لم أعد أما صالحة.

يلطم هو الآخر وجهه ويصرخ بصوت كالعويل :

ـ خديجة انني المذنب، قولي هذا، اطلبي مني ما تشائين كحل لهذا المصاب.

وكانت قد بدأت بالبرود، وبدأت ثورتها بالانسحاب، وعندما تمتمت بتهاوت :

ـ لن أطلب منك شيئا، لأنني لم أحبك من أجل شيء.

التقط يدها وقبلها، شمها بكل ما استطاع صدره اللاهج أن يبثه من أنفاس، وقال :

ـ خديجة بنت الهادي لن يأخذك أحد مني. سأهدم الدنيا وأصوغ المعجزات، أفهمت ؟

سعيدة بنت المنصف. خديجة بنت الهادي. كل منكما محاصرة فأين المفر ؟

ها هو شارع بورقيبة مازال يموج بالعابرين. وكانت مقاهيه وحاناته الكثيرة تقذف بالسكارى المترنحين، وهم يخبئون أعناقهم بياقات معاطفهم أو سترهم حاثين الخطى نحو بيوتهم حالمين بعشاء ساخن.

دلف غياث داود في فندق تونس الدولي، ومضى باتجاه كابينة التليفون العمومي هناك. أودع في الآلة قطعة الخمسين مليما، ثم أدار رقم منزل عم سعيدة بنت المنصف الذي حفظه عن ظهر قلب. وعندما جاءه صوت رجولي غليظ من هناك سأله عنها فجاءه الرد بأنها لم تعد من مدينتها بعد.

- 6 -

كان من الممكن أن يكون غياث داود في عداد الأموات الآن إذ مرت به سلسلة من لحظات الموت المندثرة، لكنه ظل حيا رغم كل شيء. قبل أيام فقط وصلته رسالة من حسان صبحي يقول فيها : (هنيئا لك فقد نجوت من براثن بيروت بأعجوبة. أما نحن فلا أحد يعلم أي موت مخبأ لنا ؟ صديقنا الرسام المتوحد ـ كما كنت تسميه ـ مهموم صارخ هذه الأيام فقد تفجرت قنبلة موقوتة في سيارة كانت مرصوفة أمام شقته الواقعة في الطابق الأرضي فأتت على معظم لوحاته التي كان يجمعها في صناديق تهيئة لشحنها إلى أمريكا لتعرض هناك في أكبر كاليري بواشنطن. إن قلت لك إنه ميت الآن فقد أنصفه، ولكنه ذاهل مجنون، لم يعد يرتكن في مقهى الأكسبريس بهدوئه العجيب ذاك. لم يعد، لم أعد أنا، لم تعد أنت. لم يعد أحد. لم تعد حبيبتي تلك تكتب لي. توسلت بي لأن الحق بها إلى لندن. قررت أن أفعل ذلك في نهاية هذا الاسبوع. وسأكتب لك من هناك. لم يبق شيء يا غياث. حتـــى العمـــر راح اكثر من نصفه، وها أنا أرتمي في مرحلة العد العكسي فعن أية فجيعة مخبأة سأحدثك ؟).

نعم. مرة كان يسير وحيدا في شارع « السادات » (*)، وكان يقضم سندو يشا شهيا من « الشاورمة ». وبعد مروره من أمام محطة البنزين بأمتار انفجر صاروخ كان موجها نحو شقة يقطنها دبلوماسي عربي. ارتمى غياث على وجهه بعد أن أفلت السندويش من يده، وظل ملقى هكذا عدة دقائق تحسبا من صاروخ آخر، ولما تأكد من أن ليس هناك صاروخ آخر تحامل ناهضا ولحق بالناس المتجمعين أمام الشقة التي دكت واعتلقت

(*) اسم شارع في بيروت ولا علاقة للتسمية بالسادات المقبور.

فيها النيران وحاول أن يعين المتجمعين بإخراج الأجساد الجريحة وقطع الأثاث السليمة.

نفض ثيابه بعد ذلك وعاد إلى شقته الموحشة ليخصي الكلاب ويشنق القطط السوداء تماما كما يردد أبو مراد.

ومرة أخرى مرقت رصاصة مسدس بالقرب من أذنه، تصور أن شعر رأسه قد تحرك من سرعة برقها. وثالثة وقعت على مائدته في مقهى الاكسبريس رصاصة ساخنة، التقطها بأطراف أصابعه وقلبها أمام عينيه ثم قذفها بعيدا. أحداث كثيرة وقعت، ومدينة الحزن والسواد والفرح القتيل تواصل حياتها وتحديها، وباراتها الصغيرة التي كان غياث يحب الانزواء فيها مع كأس من الويسكي أو زجاجة بيرة وشحنة من الهموم لم تعد تضم إلا العتاة المسلحين الذين يسارعون لاشهار مسدساتهم لأتفه الأسباب فيلعلع الرصاص ويفر المارة، وتخمد أنفاس السيارات، ويسرع أصحاب المخازن إلى غلقها ليخيم الموت فترة حتى يأتي الانفراج وتعود الحياة إلى صخبها ونبضها لتقهر القتلة والمأجورين والعائثين بالأمن.

لكن يا غياث داود هناك حكاية قديمة، أنت تتذكرها جيدا اليوم وغدا، إذ كان من الممكن أن تنتهي فيها مراهقا لم ير الدنيا، يومها كنت في الثانية عشرة من عمرك، وكان صيف الجنوب العراقي ساخنا كاويا على عادته، وكنت قد حللت في الناصرية كعادتك في كل عطلة صيفية حيث تخلف السماوة وراءك لتمكث في بيت خالتك جل شهور العطلة.

خالتك النائحة الوحيدة التي انتزعوا زوجها المرض من المستشفى ليودعوه في سجن مدينة الكوت عشرة أعوام بعد محاكمة جائرة ودفاع هزيل، وقد رأيت صورته بعد سنوات معلقة في مركز الشرطة مع رفاق آخرين له، وقد كتب تحتها : (المجرم الشيوعي، وهو لم يكن الا مناصرا للحزب الوطني الديموقراطي وزعيمه كامل الجادرجي . . . . خضر حميد). وقد فغرت فمك عجبا وسخطا : كيف يكون هذا الرجل الودود

مجرما ؟ إذن ماذا يكون الذين حاكموه ورموه في السجن ؟ وقد كانت الأجوبة قد وضحت لك يومذاك.

كان ابن خالتك الذي يقاربك في السن يرافقك كل مساء إلى شاطىء الفرات، تخلعان مبذلتيكما وتكومانهما على الشاطىء الرملي ليظهر جسداكما الأسمران الضامران وقد سترهما البنطلونان الرياضيان الأسودان تتحسس أقدامكما طريقهما في أعماق النهر، فتهرب السلاحف بعيداً وتخبىء رؤوسها المكورة الطافية فوق سطح الماء، وكذلك أسماك « أبو الزمير » ذات الأذناب الجارحة، والتي كنتما تخافان طعناتها وتحاذرانها بخوف، وبعد أن تتعديا الماء الضحضاح وتقتربا من الجزء العميق من النهر تصرخان منتشيين بصوت واحد، وترميان رأسيكما إلى الأمام بقفزة عالية، يتقدم كل منكما ذراعاه الممدودتان كجناحي طائر محلق. تغوصان لعدة أمتار ثم يأخذ جسداكما السمكيان بشق النهر نحو الضفة الأخرى، وعندما تصبحان في منتصف النهر يتوقف غياث عن العوم، ينقلب على ظهره مسترخيا، ويظل يرفس الماء ببطء بساقيه الصلبتين، ويستمر على هذا الوضع فترة طويلة، قد تقارب الساعة بينما تدور عيناه في سماء صيف الجنوب الناصعة الزرقة والتي لا تطرزها إلا غيوم بيضاء أحيانا أو طائر غاق صف جناحيه وراح يركز نظره في الماء بحثا عن سمكة يلتقطها بمنقاره الطويل، يهبط هكذا فجأة كالسهم المسدد بإحكام ويرتفع بها ناعقا ومبتعدا حتى لا تلحق به طيور الغاق الأخرى لتنتزعها منه.

ذات يوم كنت منطرحا على ظهرك لا تنصت إلا لخرير الماء وهو يسقسق بنعومة في جريانة الأبدي نحو مصبه البعيد في أعماق الخليج، وفجأة لطمت وجهك موجة ناعمة حركها زورق صياد مر على مقربة منك، شرقت بالماء، وازدادت حركة ساقيك لتستعيد توازنك من جديد، ولكنك شعرت بالاختناق حيث انسد أنفك بشيء، ولم تعد قادرا على سحب نفس واحد تواصل به حياتك، كانت قشة ناعمة استنشقتها مع

الماء هي التي فعلت ذلك بك، وبدأت تغطس، سحبتك تلك المهاوي العميقة لتقدمك طعاما إلى حيوانات الماء. توقفت ساقاك عن الحركة، وعبىء جسدك بزرقة الاختناق، كما تهدلت ذراعاك، لكن ـ مة عنيفة أمسكت بجسمك فعطست بكل قوتك، وانفتح آنذاك أنفك الموصد، وعـادت الحركة إلى جسدك الذي أخذت بابتلاعه الأمواج .لبطت مثل سمكة محاصرة تبحث عن منفذ لها بين الشباك، مضيت يمينا ثم شمالا حتى قوست جسدك ودفعته إلى أعلى بكل طاقتك، وبعد لحظات كان رأسك يطفو فوق سطح الماء وأنفك يعب الهواء بصوت كالشخير.

قال لك ابن خالتك :

ـ لقد كتب لك عمر جديد، غطست وراءك دون أن أعثر على أثر لك.

أعمار جديدة تكتب، لكن ما الجدوى منها ؟ ومرحلة العد العكسي يا حسان صبحي أين نولي منها ؟

يوما ما في ظهيرة قائظة من نهارات بيروت أعلن حسان صبحي بأسف :

ـ بعد الأربعين تبدأ مرحلة العد العكسي، يأتي من العمر أرذله ولكنه ينساب بطيئا كحية رقطاء في حضن صحراء مترامية، علينا أن نتقبل هذه الحقيقـة المرة ونصغي إلى صوت الزمن اللعين، وكفانا مكابرة وتظاهرا بالفتوة والنشاط.

صفق بيديه تخاذلا ثم دسهما في جيبي بنطاله وأضاف وكأنه يواصل شرح نظريته :

ـ وفوق هذا داء الشقيقة اللعين الذي يشل نصف رأسي ويجعلني أنطح الحيطان علني أبرأ منه، وعشرات الأمراض الأخرى التي تبيض وتتوالد في المعدة والكبد، شربتها مع الماء وأكلتها مع الحلوى منذ سنوات طفولتي الأولى التي يصر بعض الأغبياء على لصق صفة السعيدة بها. كان الأجدى

لهم أن يقولوا عنها بأنها الطفولة التعيسة، الطفولة الخائبة المغتالة.

وتتتابع شارات الموت، تتلاحق ثم تذوب مثل موجة تعبة، ومن بينها ذلك اليوم الذي بقي في ذاكرتك انذارا أبديا. كنت منطرحا على ظهرك، تراقب مسلسلا تليفزيونيا كوميديا، بطله نفس الممثل الذي أعجبت به نبيهة الياس في مراهقتها، وكانت جليلة عباس معك مستلقية على الأرض فوق السجادة الصوفية المفروشة في باحة الغرفة وقد أسندت رأسها إلى ذراعها الذي زرعت كوعه على وسادة صغيرة وراحت تقلب صفحات كتاب عن متحف اللوفر وصلها في نفس اليوم هدية من صديقة لها تدرس الرسم في باريس. وكان شعرها الطويل منسكبا إلى الأمام بحيث يتعذر عليك أن ترى وجهها. ولم يعد يظهر منها إلا ذلك الشلال اللامع من الشعر الداكن السواد ويد بيضاء ذات أصابع طويلة تقلب صفحات الكتاب. كنتما وحيدين في بيتك الذي يقع في إحدى الضواحي الغربية من بغداد. تجمعكما الفة نادرة، لم تجعلك تشعر يوما بالرغبة في امتلاك جسدها أو معرفة ما وراء بنطلونها الجنز الذي تصر على ارتدائه دوما، وأقصى عاطفة أبديتها نحوها أن قبلتها على خدها ذات يوم، وكأنك قد قبلت مبسم زهرة أو خد طفل رغم أنها كانت تفوح أنوثة وهيبة، ولجسدها الأبيض الطويل الذي يشبه أجساد بعض الممثلات الفرنسيات، (أنوك أيميه) بالخصوص كما كنت تحب أن تصف لها سحره الخاص الذي يجعل ذيول الرجال تهتز مثل كلاب طيعة.

تعارفتما يوما في بيت صديق لك. كانت احدى قريبات زوجته، وقد اكتشفتها في ذلك اللقاء واكتشفتك، ضحكت من نكاتها الكثيرة التي كانت تطلقها بدماثة وخفة دم، وعندما غادرت بيت الصديق رافقتك لتوصلها إلى بيتها.

قلت لها:

- إنني فرح بك ومنك لأنك فتاة متحدية وشجاعة

قالــت :

ـ إنني أحيـا مرة واحـدة، وعـلي أن أصوغ حياتي، وأرسم مسارها بنفسي، ولا أسمح لأحد بأن يفعل ذلك بدلا عني.

وهتف من قلبه :

ـ عظيــم

ثم صفق لها. ترك مقــود السيــارة طليقــا وهي تمضي في سرعتهـا القصوى، وتحدثت وأنت تصغي لها.

زارتك بعد ذلك في مكتبك، ثم في بيتك، دعوتها إلى الغداء في إحدى العطل، وكانت معكما اختك سعاد، لم تمكثوا في البيت بل حملتم الطعام ومضيتم صوب بحيرة الحبانية، ولعبت معها الكرة، والورق، وأصغيتما إلى بعض الأغنيات الغربية الراقصة، وقالت تستحثك :

ـ إن كنت راغبا في الرقص لا مانع لدي.

ونطقت بالسؤال :

ـ هنا على ضفة البحيرة وأمام كل هذه الجموع ؟

وترد ببساطة واصرار :

ـ ولماذا لا ؟ في هذه الرؤوس المتحجرة تنام قناعات وعادات ومفاهيم وعلينا أن نداهمها، نخربها بأفعال غير متوقعة.

ولما لم تجد لديك استعدادا قالت :

ـ لا تخف يا غياث، ولا تتراجع، ليس هذه نصيحة. ولكن هكذا الدنيا اقتحام وحرب لا تفتر.

وأجبت موافقــا :

ـ أنت محقة فعلا.

وكانت سعاد تراقبكما، الحاجة سعاد أختك الكبرى، وأمك الثانية، ومعلمتك في الحنان والهم.

وقـد رأيت على وجهها آنـذاك سعـادة لا توصف، احتلت وجهها

الأسمر الشاحب وجعلته يتدفق ويشرق صاحيا.

خطوت نحوها، أخذت وجهها بين يديك، ثم ضممتها إلى صدرك، فصرخت فيك جليلة عباس :

ـ انني أغار من هذه العواطف.

ولكن حرارة العناق الأخوي أخذتكما، ومدت روحيكما بالسلام والرضى.

وبدأت جليلة عباس تتردد على بيتك، وان لم تجدك تمكث مع سعاد، تعينها في الطبخ وغسل الملابس، وتنقل إليها أخبار الدنيا وما يتهامس به الناس.

وعندما تسافر سعاد إلى السماوة لا تنقطع عن زيارتك، وقد أعلنت مرة :

ـ لا تتثاقل مني يا غياث. ان أحسست بهذا قل لي ؟ إنني أهرب إليك أو إلى سعاد من أختي وبيتها الضاج وصراخ أولادها الذي ينطلق لأتفه الأسباب.

وقلت لها بصدق :

ـ البيت بيتك وهو مفتوح لك على الدوام.

وكانت غالبا ما تأتي بسيارة تاكسي وقد حملت معها كمية من الفواكه وكبة الحلب والكباب وغيرها من الأطعمة العراقية التي تعدها بنفسها، تضعها على مائدة الطعام وتناديك، وتهجم على ما حملته وكأنك تعاني من جوع قاتل، وتزداد رغبتك في الطعام وأنت تصغي إلى نكاتها التي تسخر فيها حتى من نفسها.

وهكـذا قويت الألفة، وامتزجتما إلى هذا الحد، ولستما تعرفان ماذا تريـدان من بعضكـما ؟ ولكن الأهم من كل تساؤل هذه السعادة التي تنزرعان فيها، تشمانها، وتشربانها، عندما تلتقيان.

قالت لك سعاد مرة :

ـ لماذ لا تتـزوجهـا ؟ زوجتـك ماتت منذ سنوات، وكلنا سنموت، وصدقني أنها ستكون سعيدة في قبرها عندما تكون أنت سعيدا في حياتك.

وقلت لها :

ـ ليس هنـا الاشكال، ولكن الإشكال في علاقتي بجليلة إنها تأخذ منحى آخر بحيث يتعذر علي أن أفكر بأنها ستكون زوجتي يوما.

وردت الأخت :

ـ ولكن الناس لا يرحمون، إحدى جاراتنا سألتني عنها، فاضطررت لأن أجيبها بأنها خطيبتك، وقد احتجت الجارة إذ تساءلت وكيف تزوركما في البيت وهي مازالت خطيبته فقط ؟ نحن نعيش في عالم لا يرحم وبين أناس لا هم لهم إلا رصد تحركات بعضهم

ونكست رأسك حائرا، وتحركت شفتاك بعد برهة لتقولا :

ـ حسنا يا سعاد لا تتعجلي، والأيام القادمة كفيلة برسم صورة واضحة لهذه العلاقة. أما الآن فهي مجرد خطوط لا أقول عنها بأنها غير واضحة فقد تكون قردا أو زهرة، من يدري ؟

ولم تفهم سعاد ما تفوهت به، زفرت ثم تحاملت ناهضة لتقضي بعض شؤون البيت.

وأغلقت الموضوع ولم تعد تفتحه معك، واعتادت وجود جليلة عباس بينكما كواحد منكما، وكلما غادرت سعاد بغداد إلى السماوة أو الناصرية أو إلى كربلاء والنجف لتؤدي الزيارة إلى المراقد المقدسة هناك أملت عليها قائمة من التوصيات. ماذا عليك أن أن تأكل، أو تشرب، وماذا عليك أن تلبس ؟ وماذا ؟ وماذا ؟ أشياء كثيرة تنصت إليها وتهز رأسها بالموافقة وهي تعدد بأصابع يديها، وأحيانا تكتبها على الورق إن كثرت، وتضعها في مظروف وتكتب عليه بمرحها المعهود : (ما يجب أن تفعله جليلة عباس للمدعو غياث ابن حكيمة بنت الشيخ جابر أثناء غياب أخته

المحبوبة سعاد).

وكانت جليلة عباس تحب نحت رؤوس الحيوانات، طيور وكواسر وأرانب وأسماك، وفي غرفتها تحتفظ بنماذج عديدة مما صنعته، وقد أهدت لغيات ثلاثة، يمثل أحدها رأس حصان والثاني رأس بقرة والثالث رأس عصفور.

درست النحت سنتين في القسم المسائي من معهد الفنون الجميلة، ثم انقطعت عن ذلك، وهي تعلن :

- لعبة سخيفة، ثم أن الفن لا يدرس وغبي من يتصور عكس ذلك، الفن موهبة وممارسة وملاحظة وأنا أفعل هذاوسأصل.

ثم تهز يدها وتضحك عند نطقها الكلمة (سأصل)، وتتساءل وكأن أحدا غيرها نطق بها :

- ولكن إلى أين سأصل ؟

كنت تراقب المسلسل الكوميدي وتلقي نظرة على جليلة بين فترة وأخرى وهي منسرحة مع كتابها، وفجأة عطست، مرة واثنتين، وتلاحق عطاسك فانتبهت وسألتك :

- هل أصبت بالزكام ؟

أجبت :

- ربما.

ورفعت إليك وجهها الذي تحرر من أسار الشعر وبان صافيا تعتريه مسحة من شحوب انثوي آسر ونطقت بود :

- حاذر فزكام الصيف مزعج.

ثم عادت إلى كتابها، وانثال شعرها من جديد ليحجب وجهها عنه بعد أن كف عن العطاس، ولكنه تململ في مكانه، وفتح أزرار قميصه فقد بدأ يحس بالضيق في نفسه وكأن ثقلا رهيبا قد استلقى على صدره. وجاهد من أجل أن يتنفس ولكنه وجد صعوبة في ذلك، كما عجز عن ابتلاع

ريقه، اعتدل في جلسته ولكن لا فائدة، أحس بأنه يختنق وأن لا قدرة له على ازاحة الثقل.

وامتـدت يده لتمسـد صدره ولكنـه كان يابسـا كلوح من الخشب الصلد، لا تتسرب إليه الليونة أبدا، فصرخ مستنجدا بصوت لم تسمعه الا بصعوبة :

ـ جليلـة

فهبت فزعة بعد أن رمت الكتاب من حضنها ووضعت يدها على كتفه وهي تسأله :

ـ غياث ما بك ؟

فرد بصعوبة ويده تواصل تمسيد صدره :

ـ إنني أختنق.

وحاول أن ينهض، ولكنه وجد جسده خائرا لا يقوى على ذلك، وهنا ناولته يدها فأنهضته وعندما استقر واقفا حرك ذراعيه في محاولة يائسة لأن يملأ صدره بالهواء وقالت له :

ـ اغسل وجهك بالماء بالبارد

وتمتـم.

ـ لا فائدة.

وكبرت لوعتها وهي تتساءل :

ـ ماذا أفعل لك ؟

ورد وقد عادت يده لتنحشر في عب قميصه لتواصل تمسيد عضلات صدره علها ترتخي وتلين.

ثم وضعت كتفهـا تحت ابـطه وهي تعينه على الخـروج من الغرفة وصوتها المكلوم ينطلق بالتساؤل :

ـ غياث، اجبني ؟

فرد عليها بعد أن دفع برأسه إلى الوراء عـلّ هذه الحركة تساعد في

جعل تنفسه سهلا :

ـ احمليني إلى المستشفى، مفتاح السيارة في غرفة نومي.

تركته في وضعه اللائب، وأحضرت مفتاح السيارة، وعادت لتضع كتفها تحت ابطه وتقوده متمهلة نحو مرآب السيارة.

* * *

في مستشفى اليرموك وفي صالة العناية الفائقة مكث ملقى ثلاثة أيام، كانت أمامه شاشة صغيرة ترتسم عليها سرعة ضربات قلبه، وفي وريده تنغرس ابرة تحمل إليه الكلوكوز المغذي من زجاجة معلقة على جانبه، دون أن تغمض عيناه طيلة هذه الأيام الثلاثة الا بضع ساعات وبمفعول الزرق المخدرة التيكانوا يحقنونه بها.

قال له طبيب شاب وهو يداعبه :

ـ إن قلبك يضرب أكثرْ من قلوب البشر.

وسأله :

ـ وهل يؤشر هذا الخلل فيه ؟

ورد الطبيب الشاب مهدئا :

ـ أبدا. ربما تكون خائفا أو عصبيا، أو انك خلقت هكذا، كل انسان حالة خاصة. لماذا يعيش البعض ويعمر بدرجة حرارة مرتفعة دوما عن الحد الطبيعي ؟

ورد عليه غياث :

ـ لا أدري، فهذا الجسد الممدد أمامك لم تدخله زرقة من قبل، أو تستقر عليه أنامل طبيب أو سماعته، ولم أعرف المستشفيات من قبل الا زائرا، ولكن ها أنذا أقع.

وربت الطبيب على كتفه وهو يهم بمغادرته لينصرف إلى مريض آخر :

ـ إن ما حصل لك اشارة لأن تنتبه إلى نفسك جيدا، في الطعام والراحة والشراب والعمل والجنس وأمور أخرى كثيرة.

وكانت جليلة عباس زائره الوحيد إذ أصر عليها أن لا تخبر أحدا بما حصل له وقد امتثلت لما أراد، وعندما أعلن الطبيب المشرف على علاجه أن لا ضرورة لبقائه في المستشفى جاءته بسيارته وحملته إلى بيته حيث مكث أسبوعا في الفراش وقد أخذت اجازة من عملها لتبقى ملازمة له، ملبية لاحتياجاته.

ولكن التخشب ظلا ملازما لصدره، ودار على عيادات كل أطباء القلب المعروفين في بغداد، أعطوه الحقن والحبوب ومددوه ليسجلوا دقات قلبه في جهاز خاص ولكن لا فائدة، ثم فتح عينيه ذات صباح ليجد صدره طليقا من جديد فكان أن حمل علب الأدوية ورماها في صفيحة القمامة.

ويوم غادر بغداد كانت جليلة عباس فيها، لكنها الآن في وارشو أو صوفيا أو برلين، أخبار متناقضة سمعها عنها، فقد عرف متأخرا أنها كانت منتمية أو محسوبة على الحزب الشيوعي الذي اختار بعض أعضائه مغادرة العراق بناء على تعميم بذلك من قيادته وكانت هي أحد المغادرين، رغم أن غياثا لم يتذكر انه قد فتح معها حوارا في أي أمر سياسي، إذ لم يبد عليها أنها كانت تميل إلى ذلك، حتى نشرات الأخبار كانت لا تعيرها أي انتباه فكان ما سمعه عنها مفاجأة هزته، ولكنه ردد مع نفسه مستدركا:

- ولكنها حياتها واختيارها. ألم تردد مرة بأن علي أن أصوغ حياتي وأرسم مسارها بنفسي؟

- صديقتي البغدادية تملك أشياء كثيرة تتميز بها عني، أهمها أنها دكتورة الآن في الاقتصاد السياسي من جامعة السوربون. كنا نسكن غرفة واحدة في ضواحي باريس، وما أكثر ما نطفىء ضوءها لنثرثر عن الناس والأوطان الجريحة وأحلامنا، نعم أحلامنا، لماذا لا؟ ومرات يطل الفجر وثرثرتنا الجميلة لم تنته. كنت يومذاك بائعة في متجر للملابس الرجالية، انتقلت

بعـد ذلك للعمل كاتبة تحقيقات في إحدى المجلات الأسبوعية العربية الصادرة هناك، واعتبرت هذا فرصتي المنتظرة، ولكن ما ينتظرني كان أمر وأدهى، إذ عرفت زوجي هناك وظننت أنني أحببته لذا تزوجته بمجرد أن تفـوه بطلبه، ولكنني سرعان ما هجرته وهجرت المجلة وباريس وعدت أدراجي، وهكذا ترى بأنني لا أملك أي ضمان أقارع به المجهول والأبواب المـوصدة إلا عنادي، وهناك في تلك المدينة البعيدة التي يصر صاحبك الشاعر الذي لم أر وجهه الا في صورة باهتة نشرتها احدى الصحف اليومية مع قصيدة له على تسميتها بمدينة الفئران أسرة تنتظر أن أعينها، ولا تملك الا مرتبا صغيرا هو تقاعد والدي رحمه الله، ولكنه لا يسد كل حاجيات أمي وإخوتي الثلاثة الصغار في هذا الزمن الصعب الذي لا يفيد معه تقتير ولا ادخار، أما إخوتي الثلاثة الكبار فقد رحلوا وراحوا ونسجوا حياتهم على أنوال أخرى، عامل في فرنكفورت، وعامل في مرسيليا وطالب في لوزان، والصغار سيرحلون أيضا عندما يشبون، أما أختاي اللتان تصغرانني فقد تزوجتا في نفس المدينة، نعم مدينة الفئران، سامح الله صديقك الشاعر، وهكذا كما ترى فإننا أسرة مشتتة لن يقدر على جمع شملها حتى الله.

طائـر السماوة من جاء به إلى الغراف ؟ ولكنه طائر المجرة كما تقول الأغنية اللائبة تلك ؟ أعرف ذلك ولكنني أحورها وفق مبتغاي مادامت تتحدث عن غربة الطائر الذي تضرب جناحاه في السماوات القاحلة بحثا عن نخلة رؤوم تنتصب وسط واحة في صحاري الرمل القاحلة تحتضن تعبه وهيامه.

كنت تراها تلك الطيور في السماوة والناصرية والدواية، على ضفاف الهـور الأزرق الممتـد مثـل راحـة كف، وكان الصيادون يشقون ماءه الهادىء بمشاحيفهم الصغيرة وأغانيهم الحزينة، أعطاك عبد الله كريم بندقيته مرة وأشار إلى سرب من الطيور افترش الماء وراح يمخره ومناقيره تنقب فيه، وقال لك مشجعا :

ـ هيا، صوب نحو الطيور، هذه البندقية لا تخطيء، تقتل على مساحة متر مربع.

أخـذت منه البندقية وأسندتها إلى كتفك وصوبت نحو الطيور التي تعانق الماء، كتمت أنفاسك وضغطت، فانطلقت الرصاصة مدوية فهبت الطيور زاعقة، ضاربة الماء بأجنحتها. ولكن عبد الله كريم هتف :

ـ لقد أصبت واحدا، عظيم، لم تركز على نقطة تجمع الطيور، ولكن هذه أول مرة، وفي المـرة القـادمـة ستصيب عشرة.

أعطيته بندقيته وأحسست بأن الرصاصة قد نفذت إلى قلبك أنت وقتلتك.

ـ لا تسمّ ما أقوله اعترافا، ولكنني أحب أن أكشف كل أوراقي.

ـ وهل خطر ببالك أنني فضولي لهذا الحد ؟

ـ ولكنني ثرثارة قديمة، ألست امرأة ؟ لا تضحك، بل انصت إلـي.

ـ تنقلت بين المهن الصغيرة، عامل طابوق مرة لكنني تخليت عن هذا العمل بعد أيام، ومن يدري لو أنني بقيت فيه لكنت الآن بنّاء ماهرا أشيد القصور والمساجد ودور اللهو والمدارس ؟ ولكن ذلك اللوطي الأقشر هو الذي جعلني أفر مذعورا إذ طلب مني ذات يوم أن أوافيه إلى بيته بعد العمـل، وسـألته ببراءة ابن الرابعة عشرة : وماذا تريد مني ؟ وأجابني بمكـر لم أفقهـه وعيناه تروزانني : لنفرح، ونتناول طعام العشاء معا. فعـدت أسأله : وهل هذه ليلة زواجك ؟ وضحك حتى كل، وأنفاسه الحارة تنقذف من منخريه الواسعين ومعهما رائحة العرق الذي يكرعه بغزارة. بعد ذلك نطق : تستطيع أن تقول عنها بأنها ليلة زواجي، ولكنه زواج من نوع آخر سأعرفك عليه. سيخلو لنا الجو معا، أما أمي التي تقيم معي فسأطلب منها أن تذهب إلى بيت أختي.

وقرعت رأسي مطرقة غريبة، كاد أن يتداعى من وقعها قحفي وتتناثر عظامه. وانسحبت منصرفا دون أن أعلق بشيء، ولم أعد للعمل ثانية

حتى أجرتي عن ذلك اليوم عفتها وتركتها له.

كان الصمت يسود المدينة الصغيرة منذ المساء، حتى رواد المقاهي البائسة المظلمة ينسحبون إلى بيوتهم بعد أن يؤدوا الصلاة في المسجد الكبير، وينصرفوا مثرثرين بأحاديث لا تنتهي رغم السعال والبصاق اللذين يلازمانهم في كل الفصول.

تقفر المدينة وتغط بيوتها الطينية والقصبية في الظلمة وتبدو كمدينة أشباح عافها أهلوها ومضوا لولا الكلاب والقطط التي تشمشم الأرض بحثا عن طعام لا تجده، ولولا حراسها الهزيلون أيضا الذين يعلنون عن أماكن وجودهم بنفخ صفاراتهم أو نحنحتهم وسعالهم، ولكن اللصوص الزاحفين نحو المدينة من القرى المجاورة لن يخافوهم وهم على استعداد لأن يسرقوا أي شيء تقع عليه أيديهم حتى جرار الماء.

وكان الكبت يعتصر عيون ذكورها ونسائها من كل الأعمار. وتجعلهم سخونتها يبلغون سن الرشد مبكرين فيأخذهم السحاق واللواط والزواج، وأسعد الذكور من يمتلك حمارة ينقل عليها أحماله وينزلها في حفرة خالية كلما وجد المجال ليفرغ فيها رغابه المتوقدة.

قال صديقي الشاعر وهو يواصل امتصاص قطعة الحلوى الأبدية تحت لسانه وقد ازداد صوته حماسا :

- إننا مغرمون بتسمية انقلاباتنا العربية وما أكثرها والحمد لله بالثورات، فكأن التسمية سهلة إلى هذا الحد ؟ لماذا لا يقولون عساكر تجيء وأخرى تذهب، والزعيم دائما هو الذي سيعيد الديموقراطية ويحرر فلسطين ويصنع العجائب وغير ذلك.

ثم هز يده محاولا أن ينتهي من غضبته هذه :

- حاولوا أن تشموا رائحة البترول. أليست لكم أنوف تجيد الشم ؟ فالبترول هو المحرك السري في كل ما حدث وما سيحدث.

قلت له دون أن تكون لهجتي مدافعة :

ـ قد أتفق معك، ولكن ليس في كل الحالات.

واعترض على ما تفوهت به وقال :

ـ لا تتحدث عن العموميات. أدخل في التفاصيل رأسا وخذ أي نموذج تريد ودعنا نشرحه. هـه، انني مستعد.

ونزع سترته وعلقها على الكرسي وراءه، ثم بدأ برفع كمي قميصه.

فقلت له :

ـ أتتصور بأنني سأنازلك في جولة ملاكمة ؟

وضحك بأعلى صوته، وكأنه انتبه إلى المدى الذي وصل به حماسه، وبدأ وبحركة غير اعتيادية بانزال كمي قميصه، أطبق زريهما وصفن.

آنذاك استخرج سيكارة، أرثها وراح يواصل الانسراح مع دخانها الذي يجد مجاله بصعوبة للدوران في جو المقهى المكتظ.

قـــال :

ـ إنني مفجـــوع يا غياث، صدقني، من المؤلـــم أنني اخـــترت دوز الشاهد، إنه أصعب دور اليوم، لو كنت في الزحمة، ضمن تنظيم نقابي، أو حزبي لربما كنت انسانا آخر لا هم لي إلا أن أدافع وأستكلب في دفاعي عن الـذين انتمي إليهم، أطبـل لانجازاتهم وأبرر عثراتهم وهزائمهم، ولكنني في موقع آخر، يقتلني السم الذي لا أجد منفذا لأفرغه فيه.

ولم أعلق على شيء مما تفوه به، وتركته مع دخان سيكارته ومع احتشاده، قال :

ـ لم أنتم بالمعنى العشائري للانتماء، واخترت كل الناس، كل الفقراء والطيّبين، دافعت عنهم بقصائدي وبالكلمات التي استطعت أن أمررها في بعض الـصـحـف، رغـم أن كل الأحـزاب جميلة الـشـعـارات، الديموقراطية، والمستقبل المضيء، والعدل ثم الاشتراكية وغيرها وغيرها، ليست الأحزاب العربية فقط بل وحتى أحزاب العالم إذ ليس هناك حزب يطرح شعـارات قبيحـة، الـدم، المشـانق، السجـون، القمـع، كبت الحريات، أبدا. حتى النازية وكل الفاشيين الجدد والقدامى شعاراتهم

جميلة، ليخدروا الشعوب ويسرقوها ويحيلوها إلى نعاج ثاغية، نعم يا عزيزي غياث فأين أعطي وجهي ؟ ومن ينصت إلـي ؟

ـ سعيدة بنت المنصف، أنت ضالة وأنا مثيلك في المصاب، كل شيء لم يسر كما نريد ولن يسير أبدا، لنا أحلامنا ولهم أحلامهم، ولكن المؤلم في الأمر أن يظلوا ونظل نراوح في أماكننا. سعيدة بنت المنصف انهم وراءنا، وكلما ظننا أنهم قد فروا واندثروا يخرجون علينا بأردية جديدة، ولذا فنحن منذورون للقراع الأزلي، وليست لنا أية فرصة نسترد فيها أنفاسنا، لأن ذلك يعني نهايتنا، أفهمت ؟

ـ عرفت طعم الرجل أول مرة مع المنصف. صديقي الرسام. نعم. المنصف هذا هو اسمه، نفس اسم أبي، إنها الصدفة فقط، كان يمتلك شقة صغيرة في منطقة « البلفيدير » تعلو قصرا قديما مهجورا كان يمتلكه ثري تونسي عجوز، شاخ فيه ومات بعد أن عاش أرملا ووحيدا مع كلابه وقططه. وكانت هذه الشقة ملأى باللوحات المنجزة وتلك التي في طور الانجاز ورائحة الألوان والدهان، وقد وجد لسريره الصغير مكانا حيث حشره في زاوية احدى الغرف، وكنت أجد راحتي معه، أعود من رحلاتي التي قد تمتد أياما لأقصد هذه الشقة ولأجده هناك أمام احدى لوحاته، وصوت الموسيقى ينبعث من راديو الترانسستور الذي يفتحه على مداه وينصت إلى كل ما يبثه من أخبار وأغان وأحاديث وتلاوات قرآنية ليتذكر أنه في هذا العصر، وليعرف ماذا يدور فيه ؟ أقبله على خده، ثم أقصد غرفة نومه، أخلع ملابسي كلها، وأضعها على كرسي هناك ذي ثلاث قوائم فقط، وكم طالبته وألححت أن يحمله إلى النجار ليصنع له قائمة رابعة ولكنه لم ينصت الـي. بعد أن أفرغ من خلع ملابسي أندس في الفراش، ويأتي المنصف هو الآخر ويخلع ملابسه ويرميها فوق ملابسي فيميل الكرسي ذو القوائم الثلاث ويكاد أن ينقلب على قفاه، ولكنه يظل ثابتا بأعجوبة، وأفسح له المجال ليندس معي في الفراش الذي كان من الضيق بحيث يتعذر على أي منا أن يتحرك، ومع المنصف تلقنت أول دروس الجنس، هل تريد أن

أشرح لك ذلك ؟ حسنا ما دمت لا تريد سأنتهي من هذا الموضوع، فهو أمر خاص جدا لا أكذب عليك إن قلت إنّني لا أستطيع أن أتذكر طقوسه، ولكنني أتذكر طعمه فقط، هذا كل شيء.

ـ سعيدة بنت المنصف انني لا أرى غير المزيد من السواد الذي يغطي كل السماوات والمنافذ ولن يسمعني أحد إذا ما صرخت فمن أين آتي بالنور لأبصر طريقي ؟

ـ 7 ـ

ـ بعـد عملي في البناء بعت الحلوى، كنا ندعوها ببيض اللقلق، لا أدري لماذا سمـوهـا بهذا الاسـم ؟ لماذا لم تكـن بيض النسـور ؟ أو الـدجاج ؟ أو الحمام ؟ وغيرها من الطيور الكثيرة. كانت هذه الحلوى كبـيرة وشفـافـة مثـل رغـوة الصـابـون، ولها ألوان متعددة، الأزرق، والـوردي، والأبيض والبنفسجي والأصفر بشكل خاص، ومن يحملها بيده يتصور انها ستطير وتحلق بعيدا إذا ما لامستها الريح. وكنا نضعها في سلال مغطاة بقطعة من القماش الأبيض الشفاف، نحملها على اكتافنا وندور في شوارع المدينة وأزقتها أنا وابن خالتي وقد تمنطق كل منا بحزام جلدي عريض يشبـه أحـزمـة الجنود، نبدأ عملنا منذ ساعات الصباح الأولى ونتنـاوب في اطـلاق النـداءات : (بيض اللقلق، بيّض وطـار اللقلق) فيهـرع إلينـا الصبيـة بقـطع نقودهم التي أكل حواف أغلبها الـزنجـار والتي لا تخرجها الأمهات من صررهن الا بعد توسل طويل وبكـاء. ثم بعت الصحف والكتب القديمة وزجاجات الدواء الموحد الذي يعطي لكافة الأمراض مع أقراص بيضاء كبيرة مكتوب عليها (عراق مجانا)، و (هذا دواؤك وعند الله شفاؤك) كما يقال في الأمثال، والعزة لله، ويعيش الملك المفـدى والـوصي العـظيم، والموت للأعداء ـ أي أعداء ؟ ـ ويا فلسطين اننا عائدون. ثم عملت كاتبا في معمل لصنع الـطابـوق بعده في دكان لصنع السكائر الملفوفة بالأيدي والتي يقوم بها رجـال مسنـون بوجـوه شاحبـة صفراء ولحي طليقة طويلة، وسعال لا يتوقف، وبصاق مستمر، على الأرض وفوق أكياس التبغ وفي المرحاض الذي لا باب له، واستعيض عن ذلك بقطعة قماش كبيرة لا تستر الجالس لذا كان صوت فسـائـه وضراطـه يصـل إلى أسـماع زمـلائـه فيكتمون ضحكاتهم بعض الوقت، ولكنها سرعان ما تنفجر بعد أن يبادر أحدهم

بسؤال القادم من هناك : ماذا أكلت اليوم ؟ فيبتسم ويردد : الله أوصى بالستر، ولكن الضحكات الميتة تظل تتردد ثم تنطفئ ويبتلعها السعال والبصاق من جديد. وظننت انني قد استرحت رغم ان رائحة التبغ كانت تدمرني، ولذلك لم أقو على تدخين سيكارة حتى اليوم. أما أنت فهنيئا لك سكـائرك هذه، سأحاول أن احتمل رائحتها لأنها منك، فيها أنفاسك العطرة التي لم يغدر بها الدخان، ولكن في لحظة غضب سأمسك بالعلبة وأدعكها ثم أرميها من نافذة السيارة. تنقلت بين كل هذه الأعمال حتى وصلت إلى الجـامعة، الارتماء في الأتون السياسي اللاهب، المظاهرات وتوزيع النشرات السرية، والاضرابات والاعتقال المتكرر، كبر سجلي لدى دوائـر الشرطـة، امتلأ بتقارير المخبرين وأوامر المطاردة والحجز، وكبرت اللوحة المعلقة في مركز الشرطة وامتلأت بصور عشرات الوجوه التي تتصدرها صفة : (المجرم الـ . . فلان الفلاني). ولم أعد أعثر على صورة زوج خالتي بصعـوبـة بينها. وجاءت الوظيفة والزواج والطلاق والمـوت. بضـع سنـوات في وزارة الاسكان، لا أدري ماذا كان عملي بالضبط ؟ ولكنني كنت أهيء قوائم بأسماء أشخاص وشوارع وشركات ومقـاولين ومشاريع وأرفعها إلى مديري ليضع توقيعه عليها، بعد ذلك يطبق أزرار سترته ويتأكد من وضع ربطة عنقه وشعره ونظارته ويحمل المعاملة في ملف إلى مديره العام الذي يرفعها بدوره إلى وزيره وإلى رئيس جمهوريته وإلى الله بعد ذلك فهو الغفور الرحيم. مرة عملت مذيعا في التليفـزيـون وخـارج أوقـات عمـلي الرسمي في وزارة الاسكان، لماذا تضحكين ؟ ان وجهي فوتو جينيك كما يقولون. كان ؟ حسنا. ولكنني لم أتمتع بنجوميتي إلا لشهرين فقط. المسألة بدأت بدعابة، هكذا إذ قرأت أمـيرة حسـين اعلانا في احدى الصحف يتضمن طلبا لمن يجد في نفسه الكفاءة ـ هكذا! تصورت بايحاء من امرأتي وحبيبتي ـ وتقدمت. أحضرت كل الأوراق المطلوبة وصوتها يتردد في أذني : أريد أن أراك على شاشة

التليفزيون. وقد أجبتها في حينه : ولكنك ترينني كل يوم أرابط أمامك بعد عودتي من العمل ؟ فاحتجت بأن التليفزيون سيظهرني بصورة أخرى، أحلى بكثير من صورتي الطبيعية. وداعبتها : ألا تخافين من المعجبات ؟ فضحكت وقالت : انني واثقة من انك لي، وانني حبك الأكبر. ونامت على صدري وتنشقت شعرها وجيدها، ضممتها بقوة وحنو حتى لا يسلبوها مني، أو يسلبوني منها. وذهبت إلى الاختبار ونشر اسمي في الصحف بين الناجحين، كان ترتيبه الثالث من بين اثني عشر اسما. وبعد دورة تدريبية قصيرة بدأت أظهر كمذيع ربط بين فقرات البرامج، أقدم المطربين أو العازفين أو الندوات - ما ألعنها وما أكثرها - وكانت أميرة تلح علي بأن ابتسم وأن لا أظل هكذا بكل تجهمي أمام المشاهدين المتعبين فما ذنبهم ؟ - كما تقول - وحاولت أن أقنعها بأن معظم المذيعين يتصنعون الابتسام فيبدون سخفاء لمن يراهم. قالت : مع هذا لا تظهر وكأنني قد تشاجرت معك قبل خروجك أو انني لم أطعمك وجبة دسمة. رضخت لما أرادت وظللت ابتسم كلما توجهت الكاميرا نحو وجهي وراحت صورتي تبث إلى الملأ، حتى انتبه إلى ذلك مدير التليفزيون وقال لي يوما : حاول أن تعرف متى تبتسم. ولكنني تخليت عن التليفزيون، كرهت النجومية التي عشتها أياما، وبدأ تهامس الناس يضايقني عندما يرونني في الطريق، ولكن السبب في التخلي جاء من أميرة نفسها، ومثلما عملت في التليفزيون بمشيئتها خرجت منه بمشيئتها أيضا، لا تضحكي، أتريدين أن تعرفي كيف تم هذا ؟ حسنا سأرويه لك. عدت من العمل ذات يوم مرهقا وضجرا بعد أن تحدث معي مدير التليفزيون بشبه تأنيب لم اعتده اثر تعثري في قراءة فقرة ونصبي لكلمة كان علي أن أرفعها، وودت أن أبصق في وجهه أو اصفعه ولكنني تماسكت بشكل نادرا ما أكون عليه. عدت إلى البيت فوجدت أميرة غاضبة هي الأخرى فسألتها : ما بك ؟ قالت : جارتنا الغبية جاءتني

صباح اليوم ودعتني لحضور حفل ختان ولدها ليلة الجمعة القادمة، قبلت الدعوة شاكرة، ولكنها رجتني أن أطلب منك يا غياث شخصيا أن تغني في هذا الحفل. فسألتها ببساطة : ومن قال لك انه يغني ؟ فردت علي بالغباء الذي يلائم حجمها الضخم : ولكنه يعمل في التليفزيون ؟ أتدري ماذا فعلت ؟ لقد طردتها، نعم فعلت ذلك وأنا غير نادمة على ما فعلت.

وهنا انطلقت حنجرة سعيدة بنت المنصف بضحك حار قطعته بقولها :

- يا ليتني أسمع صوتك، لا تكسفني أرجوك، هيا غن فأنا منصتة لك بكل جوارحي.

لجسدها أسراره وخباياه، وطقوسه التي لم استطع أن ألم بها كلها منذ أن امتلكتها لأول مرة في تلك الغرفة المسدلة الستائر حيث كان المطر يقرع زجاج نافذتها بصوت مسموع.

كانت وجلة مترددة، والغريب أنني كنت أعاشرها بهدوء لم أعرفه، ليس فيه ذلك العنف الساحق الذي تضعني فيه حالة وجود امرأة بين ذراعي ولكنني خبرت ذلك الجسد فيما بعد، اكتشفته موقعا موقعا، وعرفت ايقاعه، ورغم هدوئي وصبري فإنني أجد أسناني مغروسة في خاصرتها، في هذا المكان دون غيره ففيه وحده المدخل إلى عالمها الموصد، وكانت استجابتها الوحيدة لي هي في صراخها المتوسل :

- غياث اقتلني، أرجوك.

فأقتلها.

ود لو ينهض ويمسك بفكي صديقه الشاعر، يفتحهما ليبحث عن قطعة الحلوى التي يظن انها مخبأة تحت لسانه تماما كما يفعل مشترو الخيول في مدينته تلك عندما يتفحصون حصانا أو فرسا لغرض شرائها. وكان الشاعر شبه غاف، يتكلم وعيناه مغمضتان، ولكن قطعة الحلوى اللعينة باقية كالأبد يتحسس حزمة الكتب التي وضعها على ركبتيه بينما يسند

ذراعه الأخرى على الطاولة وعيناه تتركزان في وجه غياث كلما صحتا من غفوتها.

قال مواصلا حديثه الغاضب :

- لم أعرف باريس ولا أية عاصمة أوربية أخرى من تلك المدن التي يضعها جل المثقفين في هذا البلد في رؤوسهم، ولكنني عرفت أرض العرب كلها منذ أن صحوت على صوت جمال عبد الناصر ذات يوم. ثلاثة شهور أمضيتها متنقلا وليس معي الا حقيبة صغيرة فيها قصائدي وملابسي، ولكن هل رجعت راسخا ومتفائلا ؟ هنا السؤال والجواب عليه : أبدا، فقد رأيت الأهوال، نعم هذا ما حصل لي.

مسح بأصبعه على شاربيه وتأمل غياثا وكأنه يحاول أن يعثر على صدى كلماته في وجهه فلم يجد أثرا، ولكنه وجد وجها منتبها إليه مما شجعه على المواصلة :

- الغريب، وهنا المفارقة الكبرى انني وجدت معظم الناس وفي أغلب البلدان التي زرتها شبه مذعورين أمام السلط وأدواتها، وعندما تكلم أحدهم يتلفت يمينا وشمالا، إلى القدام والخلف قبل أن يغرس فمه في اذنك ليرد عليك بكلمة، تراه يحاذر من نادل المقهى، ومن الجالس بجانبه أو ذلك الذي تقع عيناه عليه صدفة، أما الأدباء والمثقفون فاللعنة عليهم، لا أقول كلهم، ولكن الغالبية منهم، انهم منقسمون ما بين سلطويين يتبارون في مدح الأنظمة والحكام وكتابة التقارير عن زملائهم يزكون فيها أنفسهم ويجددون ولاءهم، وما بين خائفين لا موقع لهم، تأخذهم المقاهي والحانات والتسكع الطويل، أما المواطنون الآخرون فانهم مورطون بهذه اللامبالاة الغريبة فكأنهم لا هم لهم إلا السفر والمضاجعة وجمع النقود وتناول الوجبات الدسمة، ولا يدرون أن هناك اسرائيل والخونة والجواسيس والبترول.

توقف عن الكلام متنحنحا ومصفيا لحنجرته التي تسرب إليها البلغم

لكثرة ما دخن من سكائر. وقال بعد ذلك :

ـ ثمة أمر آخر يتعلق بالثورات، أينما كانت، فالخطر كل الخطر عندما تتحول إلى غنائم، يركب موجتها البعض ليمتصوها، ويتقاسموها حصصا، في وزارة، في سفارة، في . . . أضف انت فلا أدري ما هي المناصب الكبيرة الأخرى.

ورفع غياث يده التي كانت مدسوسة في جيبه وتساءل ببرود :

ـ إلى أين تريد الوصول ؟

ضرب الطاولة براحة يده وزعق :

ـ أصل إلى القول بأن هذا الوطن الذي تغنينا بأمجاده طويلا وبشكل حالم ورومانسي هو في طريقه لأن يكون بيداء وخرابا إذ لم ننتبه جيدا، قمع وديكتاتورية ولا ديموقراطية، ورؤوس أينعت وقطعت، وأخرى في الطريق إلى ذلك، وننسى الشعوب ونكتب عن الحكام، قل عني بأنني يائس، وان كنت تريد أن تغيرني دلني على ومضة أمل واحدة وسأصمت. سأغلق فمي بالطين. حاول وستعجز، لقد بحثت عن ذلك من قبل وأنا أحمل جواز سفري متنقلا بين البلدان العربية بتأشيرات دخول لم تمنح لي الا بعد عذاب واهانة من قبل السفارات الكثيرة والحمد لله. لن تستطيع أن تتهمني بالعمالة للصهيونية والامبريالية على عادة الاذاعات العربية هذه الأيام.

ثم فتح يديه ونهض وكأنه يؤدي مشهدا في مسرحية مبهمة، بعد ذلك أحنى قامته وقال :

ـ بعد أربعين عاما في هذه الدنيا لم أجد إلا غرفة صغيرة تضمني أنا وكتبي وهمومي وأحزاني وأمثالي كثيرون. فمن يطهر أمتكم ؟ أمة البترول والرمال من ذنوبها ؟

ـ وأمة الشهداء والرجال الأفذاذ والرسالات أيضا. أنسيت ؟

وقد نطق غياث داود برده هذا وكان انذاك يطرح ظهره إلى الخلف وقد وضع

ساقا على أخرى وراح ينصت لكل ما تفوه به صاحبه، تركه ليفرغ ما اختزنه، وعندما أحس بأنه لم يعد لديه ما يضيفه وانه انصرف لتدخين سيكارته دون أن يعلق على ما اعترضه به أضاف غياث :

ـ قد لا تكون عميلا لجهة، امبريالية أو صهيونية، ولكنك واقع في فلك ما تريدانه، وتردد أقوالا تخدمها، وبحسن نية، ومن هنا الخطر، انني أمامك محصن بشكل ما، لي فهمي ومبرراتي وانتمائي، ولكن الأديب الناشئ الذي يحبو في طريق الابداع قد يحل به التشوه والخراب عندما يسمع أقوالك هذه التي تجد أصداءها بسهولة في نفسه، إذ انها تجرده من أهم مسند والمتمثل في المسؤولية، أفهمت ؟

وكان الشاعر قد فتح أذنيه منصتا بانتباه لهذا القول الذي لم يتوقعه ولكنه لم ينطق بكلمة دفاع واحدة. وظل محتفظا بهدوئه ورغبته في سماع المزيد.

قال غياث :

ـ أنا لا أدافع عن نظام حكم معين، فأنا موظف في الجامعة العربية ومن المفروض أن تكون جهودي كلها منصبة في خدمة العرب وليس في خدمة قطر، حتى قطري الذي أعارني للعمل هنا، لأنني ابن نظام الحكم فيه، والمؤمن بمبادىء الحزب الذي يحكمه، لذا فانني أقول لا مدافعا بل موضحا وأعلن انك واهم ومضلّل، العرب ليسوا امة من الأنبياء فقط، انهم بشر مثل سائر البشر، فيهم القوي المتحدي، وفيهم الخائر الضعيف، فيهم الوطنيون وفيهم العملاء، ومن هنا فانهم ليسوا سيئين أبدا، ان موقع الوطن العربي وبتروله وخيراته الأخرى هي التي جعلته مستهدفا على مر العصور، أفهمت ؟ وواحدة من وسائل هذا الاستهداف وأخطرها هي تمييع المواطن وسلبه يقينه ونبل القضية التي يناضل من أجلها، وأنا العبد لله الجالس أمامك عرفت محبة الأمة والوطن وكذلك الانتماء لحزب، فسجنت وقاتلت، لذا لن تقولي لي لقد فعلت

ذلك وكأنك تقاتل الوهم، تقاتل الريح، أبدا،

وهـمّ الشاعر بالكلام ولكن غياثا رفع يده ليوقفه عن ذلك لكي يستمر في إيضاح رأيه :

ـ ليـدافـع البعض عن أنظمة بلدانهم، ليكونوا سلطويين إذا كانت السلط وطنيــة وليكتبـوا عن الـزعـماء والـرؤساء ان شاؤوا، ان كان بعض هؤلاء الزعماء يمثلون الطموحات ويجسدون الرموز والمعاني، انني افرح عندما أرى زعيـما عربيا يمتلك الهيبة والحضور لا في بلده فقط بل وفي العالم أيضــا، محمـد كان فردا، وعـلي بن أبي طالب كذلـك وابن الخـطاب والحسـين، و . . العشرات، فلماذا ترفض الأمـر بالنسبـة للعرب ؟

ـ اتسمح لي بالرد ؟

ـ سامارس معك الارهاب هذا اليوم، دعني أفرغ ما أدخرته من ردود، انك يا صديقي ثائر وصريح وشريف وهذا هو المهم، لا تطمح بشيء، أعرف ذلك، ولكن مصيبتك أن أفكارك الغاضبة هذه تحتاج إلى الترتيب في رأسك أولا قبل أن يسمعها منك الآخرون حتى تكون مقنعا. والآن تكلم إن أردت ؟

قال بكسوف :

ـ مازالت لي معك نزالات أخرى، سأؤجلها اليوم.

انحنى غياث إلى الأمام. ربت على كتفه وقال باشا :

ـ لست خصمك، انني صديقك وعلى استعداد لأن أنصت إليك متى ما أردت.

ـ كان يلاحقني رجل بدراجة، يترجل منها ويمسك بها ويظل ملازماً في رأس الزقاق حتى أخرج من البيت متوجهة إلى المدرسة. كنت صغيرة جدا لم أبلغ الثانية عشرة، أما هو فله ثلاثة أضعاف عمري، يخزرني بنظرات لم أستطع أن أفقه معناها حتى كلما مررت بقربه بصحبة صديقاتي. وبعد أن نبتعد عنه قليلا يلحق بنا حتى نصل المدرسة، آنذاك يمتطي دراجته

ويستـدير عائـدا . لم أحدث أبي عنه ، كما لم تنتبه لوجوده أية واحدة من صديقـاتي . وقد مكث على هذه الحالة قرابة الأربعة شهور . ثم اختفى فجأة ، ولم أره منذ ذلك اليوم على الرغم من انني كنت أتوقع دوما أن أراه في سوق أو مقهى أو شارع ، ولكنـه غاب ، ظننته مات فالناس يموتون بسهولة ، قصفته حمى ، أو انهار عليه جدار ، أو اقترف جريمة ما وقادوه للسجن ، أو سافر بحثا عن عمل ، هل تفسر لي يا غياث ما الذي كان يريده مني بالضبط ؟

ـ أخذها إلى صدره ، ومرر كفه على شعرها الناعم وأجاب :

ـ ربما تكونين شبيهة بابنة له فقدها بحادث ، أو تذكرينه بانسانة أحبها في مراهقته ، وفي أسوأ الاحتمالات أن تكوني قد أوقدت غرائزه ، وهو في وضع قد لا يسمح له بشم رائحة امرأة ، فوجد عزاءه في ملاحقتك دون أن يحاول الاقتراب منك ، على ذلك يجرحك وهو لا يريد ذلك ، وقد تكون هناك أمور أخرى وراء هذه الملاحقة . فالسلوك البشري ليس من السهولة تفسيره ، ان هذا المخلوق الـذي يدب على قدمين ، والـذي يسمـونه بالانسان كائن في منتهى الغرابة ، ومن هنا فان أجوبتي مجرد تخمينات . ثم يا عزيزتي لماذا ترهقين رأسك بالأسئلة ؟

تأخـذك سيـارة خشبيـة قديمـة ، تنحشر فيها مع الفلاحين والجنود والعائدين من زيارة المراقد المقدسة ، وأنت منزو في مكانك الضيق ويداك تشدان على صرة القماش التي تضم ثيابك وهدايا أمك البسيطة إلى أختها . كان الركاب يسعلون ويبسملون وينطلق أحدهم بالغناء ، أو تنفجر امرأة في البكاء اذ تكون عائدة من النجف بعد أن دفنت أحد ذويها . وعلى ظهر هذه السيـارة جلس ركـاب آخـرون وسط أكيـاس الحبـوب والصرر والأقفاص والنعاج والعجول المشدودة إلى بعضها .

كان الطريق بين السماوة والناصرية شاقا وغير معبد ، تثير فيه عجلات السيارة أفواجا من الغبار ، ولكن لك فيه متعة نادرة وأنت تتأمل بيوت القصب والطين وقطعان الماشية والكلاب الهزيلة وقامات البشر الضامرة ،

في انتظار ان تصل إلى بيت خالتك التي تجزل لك في محبتها وتعاملك تماما كما تعامل ابنها الوحيد الذي يقاربك في السن. انها ملاذك الذي تهرع إليه كلما انتابك القرف من أفعال والدك المزواج الفخور بنسائه الأربع اللواتي لا تدري كيف جمعهن ؟ إذ كلهن من سقط المتاع. أرملة وعانس والرابعة خرساء، ماعدا حكيمة بنت الشيخ جابر الثالثة في التعداد فانها كانت النغمة الجميلة في هذا اللغط والهراء. ولم يكتف بهن بل أراد الزواج من خامسة تصغرك في العمر، قالت له أمك :

- حرام عليك يا أبا غياث عليك أن تفكر بزواج أولادك الذين كثر عددهم وأن تكف عن هذه الأمور التي كبرت عليها.

ولكنه نهرها وأراد أن يسوطها بعقاله، ولكن غياثا أمسك بيده مهددا :

- ان تزوجتها سأغتصبها وأجعل ذلك فضيحة تتحدث بها كل المحلة والمدينة أيضا.

فانقلب عليك ليسوطك بعقاله ويشبعك صفعا وركلا وهو يصرخ :

- أنت لست ابني، انك ابن حرام.

ورغم كل الأذى الذي لحق بك فانك استطعت ان توقف جنونه واتقاد عينيه كلما حطتا على وجه امرأة شهية.

وقد قال لك ابن خالتك مداعبا :

- ان أباك يريد أن يكوّن مبغى صغيرا خاصا به

فتضحك وتقول :

- ربما يكون من سلالة خليفة عباسي، كان يمتلك في قصره عشرات الجواري والمحظيات، لذا حن دمه واستيقظ الخليفة المندثر في جسده.

وقهقهت حنجرتاكما بالضحك الخلي، وأردت أن تقول له :

- يفعل كل هذا وأنا متروك للتحرق والاستمناء ؟

انه وراءك هذا الأب، بعقاله وسعلته الخاصة المميزة التي يطلقها وهو يحمل ابريق الماء وعباءته الصوفية على كتفيه متوجها نحو الخلاء المحيط

بالبيت ليقضي حاجته ويعود ليتوضأ ويصلي، ولكنك لن تصدق صلاته فقد رأيته مرة يخرج من بيت صفية جارتك التي يميزها بياضها وسط وجوه سمرتها تقارب السواد بفعل السخونة ولسع الشمس. كما يميزها أيضا امتلاؤها الذي جعل سبعة رجال يتزوجونها بالحلال دون أن يفلح أحدهم في غرس بذرة جنين في أحشائها. زوجها الأخير كان سائقا، وقد أحبها بقوة، ولعله وجد فيها التعويض عن حجمه الضئيل الذي كبر قبل أوانه، وطاف بها بين الأطباء في بغداد والبصرة، كما حملها بسيارته الكهلة إلى كل المراقد المقدسة ونذر لها الخراف والعجول والديوك. ومات دون أن يرى جنينه الموعود.

ولكن المفارقة الجارحة أن صفية كانت على علاقة معك أيضا في نفس الوقت، وكنت تتحين الفرص لتدلف إلى بيتها، لتفرغ فيها لهيبك، ولن تخرج منها الا بعد ان تستنزفك وتحس انك لم تعد قادرا على الفعل بعد.

يوم رأيت والـدك يخرج منها ذهبت إليها، وبدل من أن تصفعها أو تشتمها انخرطت في البكاء. بكيت حتى شبعت، أما هي فكانت منطرحة على ظهـرها فوق سريرها الخشبي العريض وساقاها المترعتان مشرعتان تنتظرانك ان تدلف بينهما بكل شبقك واشتهائك اللذين عرفتهما منك. ولكنـك انسحبت بهدوء، جمعت كل حوائجـك في صنـدوق صفيحي ومضيت صوب الناصرية، ولم تعد إلى السماوة الا بعد أكثر من عامين لحضور مجلس الفاتحة على روح أبيك.

عرفت ما معنى أن ينـاضل الإنسان وأنا في بيت خالتي المنتظرة التي قاومت الحاجة والوحدة بعد سجن زوجها، بالعمل، البيع والشراء، كل شيء، السمن والدجاج والبيض والملابس القديمة والحلي الفضية وقلائد الخـرز والمسابح. كما كانت تقوم بغزل الصوف عندما تأوي إلى بيتها، تفعل كل ذلك من أجل أن لا تمد يدها إلى أحد، قريبا كان أم بعيدا. كانت تهيء لي أنا وابنها الطعام الجيد، السمك واللحم والحلباء والبصل

والبيض والبرتقال واللبن والتمر. ولم تشعرني يوما انني ضيف ثقيل بل كانت فخورة وسعيدة بوجودي عندها. ولم تفلح أمي في اعادتي، أما أبي فكان يردد :

ـ دعوه وسيعود صاغرا.

ولكنني لم أعد، ليس تحديا، بل ان حياتي قد اتخذت لها مسارا آخر، وتأقلمت مع المدينة وأناسها وأحببتها.

وكانت خالتي تدخر بعض النقود في جرة تدفنها في باحة البيت ولا تفتحها الا مرة في الشهر لتشتري لزوجها ما يحتاجه من سكائر ومناشف وثياب وتصطحبنا معها أنا وابنها لنمضي إلى مدينة الكوت لنرى زوجها في موعد مواجهة السجناء الشهري.

وكان زوج خالتي يخرج علينا بثياب السجن ومعه رفاقه الآخرون الذين يهرعون إلى ذويهم في قاعة كبيرة مخصصة لذلك ومحاطة بالجدران الشائكة والحراس الواجمين. ولكن الذي كان يثير انتباهي ان اولئك السجناء ذوي الأعمار المختلفة لم يبد عليهم أي ذعر أو انكماش، بل كانت تميزهم حيويتهم واقبالهم على الطعام وتبادل النكات مع زائريهم، فأتساءل في سري :

ـ لماذا يُرمى هؤلاء هنا ؟ وما الذي صنعوه حتى حل بهم هذا العقاب ؟

ولكن الأيام اللاحقة أعطتني الجواب الشافي، فكان أن بدأت رحلة القراع وذبت في الجموع وعرفت سر قوتها وثباتها.

يزفر سامي المنذر متحسرا ثم ينهض من مكانه. انه هكذا لا يهدأ في مكانه محركا جسده الممتلىء بخفة. يقف أمام النافذة، ويحاول أن يشرع ضلفتيها ولكنه يتوقف عن ذلك ويعود إلى مكانه ليلتقط الصحيفة التي كان يقلبها.

قالت له خديجة بنت الهادي يوم أمس :

ـ أنت تملك كل شيء وأنا لا أملك شيئا، وبمجرد أن تمضي من هنا سأعود إلى وحدتي واضطرابي وخوفي، وعبثا أحاول أن أتناسى وضعي في

دوراني اليومي ما بين العمل والاهتمام بطفلتيّ اللتين لا أحد لهما سواي، حتى ذلك الأب النجس لم يسأل عنهما مرة ولو في رسالة بعد أن فر إلى كندا مع سائحة عاهرة زارت تونس ذات يوم.

وقد حجم سامي المنذر عن التفوه بأية كلمة فقد نطقت بالحقيقة الحاسمة، وأعلنت مستقبل هذه العلاقة المرة التي يحاول أن يتناساها والتغافل عنها باصطناع المرح والابتسام، وسكب المزيد من كلمات الحب التي حفظها من دواوين الشعر العديدة التي قرأها، المترجم منها والموضوع.

يفتل شاربيه الدقيقين. يجاهد من أجل أن تلتقط أنامله القصيرة الممتلئة الشعيرات الناتئة ولا يفلح الا بعد لأي. ها هي خديجة بنت الهادي معه. انها له اليوم، ولكنها ليست له غدا، ليست له في أي وقت، لأنه مشدود إلى هناك، إلى زوجة وستة أولاد كلهم من الذكور جاؤوا تباعا، وقد خلف زوجته حاملا بالسابع طمعا في أن يكون فتاة، أختا لهؤلاء الرجال كما كانت تقول.

انهم يتكاثرون، وغدا يكبرون ويتزوجون ويأتي الأحفاد، ويكبر سامي المنذر ليكون شيخا بعصا، يصدر الأوامر فتلبّى، ويدخل فتكف الضوضاء، سيحدث كل هذا، ولكن أين مكان خديجة بنت الهادي فيه ؟

انه يحبهم، أولاده وامرأته، رغم انهم يسورونه بطلباتهم ورغباتهم العديدة ؟ وتكبر فرحته عندما يرى شواربهم وهي تخط مواقعها في وجوههم الملساء، وبحث عن سبب ميلهم إلى الانزواء والانصات للأغاني العاطفية، وكتابة التهويمات الشعرية على صفحات دفاترهم المدرسية، وأحس بالغربة بينهم، انهم أولاده، رأى كل واحد منهم جنينا يطلق صرخته الأولى في وجه العالم. واختار لهم أسماءهم من بين أسماء رجال العرب الخالدين، في كل مراحل المجد والتألق العربيين، ولكنهم ابتعدوا عنه، يتهامسون بكلمات لا يفهمها عندما يحل في البيت، يناديهم

واحـــدا واحـدا، يداعبهم، يقبـل خدودهم وعيـونهم، ويضمهم إلى صدره، لأنهم هو، في عطشه وارتوائه، في طفولته القاحلة ونضجه.

يمتلـئ بالـزهـو، لأنـه أعـطى هؤلاء الرجال، فهم القصائد الأبقى والأهم. يستـديـر منفتـلا نحـو امرأته، تحتضنه وتمنحه الطيبة والوفاء النـادرين فيبكي بين يديهـا، لا يدري لماذا يفعل ذلك ؟ تكتفي بمسح دموعه حتى يتعب وينطرح غافيا، كأنه قد تطهر من كل ما فيه.

لكن خديجـة بنت الهـادي جاءته، حكاية ولدت في غير مكانها ولا زمانها، ومع هذا لم يطق مقاومتها فكان ان لوح لها بيده. رفع لها الراية البيضاء حتى تأتي وتنضم إليه.

خديجـة بنت الهـادي. لماذا أحببتك ؟ لماذا احببتني ؟ ما الذي أريده منـك ؟ ما الذي تريدينه مني ؟ صحيح ان طريقينا متوازيان، تستطيع أيدينا ان تتلاقى في عناق قصير، ولكن طريقينا لن يلتقيا أبدا، اننا اليوم في عناق الأيدي، في هذا الوهم الذي صغناه آملين في أشياء لن نصلها يوما.

خديجة بنت الهادي. اننا مسوران بقوانين وعلائق، ولو كنت في زمن آخر لجئتك ضارعا من أجل ان تقبليني زوجا لك، ألثم يديك وانحني لطلعتك اجلالا وحبا. ولكننا نعيش اليوم وعلينا أن نصحو، أن نعرف أين نحن ؟ فان فعلنا ذلك لن تبقى لي غير القصائد، أنسج أبياتها الناعمة من أجلك، مفتـونا ومؤرخا، لعل العشاق ينتبهون إليها، فيحتضنون كلماتها ويتهامسون بها في ساعات اللقاء، أو يسطرونها في رسائلهم في أيام الابتعاد.

خديجة بنت الهادي. انني احلم.

- تزوجتـــه راضية. ولكن لم فعلت ذلـك ؟ لعله العـطف. هذا هو الصحيح، مازلت أتذكر منظره وهو ينكس رأسه وأصابع يده تلتف حول زجاجة البيرة. وينفجر بالحديث، ليقول لي إنّني خلاصه وحياته الجديدة

بعد ان أخذه التشرد أعواما ما بين الكويت وعمان وبغداد وباريس منذ ان غادر مدينته المحتلة ذات يوم. لم يذكر ذلك الماضي بالتفصيل لأنه كان صغيرا يحبو، يحمل في يده دمية من المطاط على هيئة حصان. ظننت انني أحببته. وان كنت كذلك فلم كففت عن حبه فجأة ؟ عجيب أمري أليس كذلك ؟ لعل في هذا الرأس قد اختبأ جنون ما ؟ أو لعل ديدانا مفزعة تقضم فيه ؟ سئمته مرة واحدة. وبدأت اكتشف عيوبه في كل تصرف يقدم عليه. وقبل هذا لم أكن أرى فيه شيئا استنكره، بل كان بالنسبة لي نغمة صافية تصغي لوقعها أذناي فأمنحها صمتي وتأملي ويأخذني بعد ذلك طرب طريف. ولعلي أتساءل الآن : من يصدق ان هناك انسانا في هذا الكون لا يجد لذة في احتساء قهوته الا في المرحاض ؟ نعم، يرشفها بتمهل ومؤخرته العارية مغروسة هناك ؟

تفتح سعيدة بنت المنصف باب السيارة بعد أن تقذف بحذائها في جوفها، وتهرع مهرولة صوب البحر، وكأنها مهرة جامحة لم يستقر على ظهرها فارس. وعندما تبدأ قدماها بالتعثر في الرمل الرطب الكثيف تتوقف لاهثة مستردة أنفاسها. ترفع اذيال بنطالها حتى ركبتيها ثم تواصل الجري والقفز بينما تعبث الريح بشعرها الأشقر الطويل.

يلحق بها غياث داود وهو يخطو متمهلا، ثم يتوقف على مقربة منها ليتأمل جنونها وافتتانها، وليلقي بعد ذلك نظرة على قامات النخل الموزعة على الشاطئ. تنبثق الجذوع الطويلة من الرمل وتمتد بتسامق، يرمي رأسه إلى الوراء حتى تصافح عيناه كثافة السعف في قمم النخلات حيث يتحرك بصوت مسموع تحدثه الريح العاتية التي تهب على الشاطئ في هذا اليوم الخريفي البارد.

ناداها :

ـ ماذا تصنعين ؟

وردت على ندائه بضحكة منتشية ذات رنين اخاذ. وعندما وصلت الماء خطت عدة خطوات فيه، ولكن موجة عالية جاءتها فارتدت على

أعقابها. وراحت تركض مبتعدة بمحاذاة الشاطئ العاري. وكانت نوافذ فندق « أميلكار » تتسرب منها أنوار مشعة تنصب عليها وهي تجري بممارسة طقوس سعادتها البيضاء هذه.

ظل يناديها، ولكنها واصلت ابتعادها ثم انفتلت عائدة وهي مازالت تهرول بنفس الحرارة، وعندما اقتربت منه قال لها :

ـ حاذري، ستمرضين.

ولم تنصت لتحذيره بل فرشت ذراعيها وراحت تدور حول نفسها مقهقهة، واستمرت في هذا العمل وسرعتها في ازدياد حتى داخت وارتمت على الرمل.

خطا باتجاهها محاولا أن يجد مكانا لحذائه الذي أخذ يغوص في الرمل حيث يتعذر عليه انتشاله. وعندما وصلها أمسك بها من يدها وسحبها إليه. وقفت بجانبه صغيرة ثرة وهو يجاهد من أجل أن يحافظ على توازنه فوق الرمل الهش، ارتمت عليه وطوقته بذراعيها وشعرها ينفث رائحة عرار بري.

أخذ يضمها إلى صدره بقوة ويستنشق كل ملمح من وجهها. ثم افلتها وحملها بين ذراعيه في طريقه إلى السيارة. أوقفها على الأرض وهو يقول بصوت آمر :

ـ هيا البسي حذاءك.

ـ ولكن قدميّ متسختان ؟

ـ لا يهم. عندما تصلين إلى البيت اغسليها.

ـ والحذاء ؟

ـ سأشتري لك عشرة بدلا عنه.

دلفت إلى داخل السيارة، وانتزعت عدة أوراق من الكلينكس من العلبة الموضوعة أمامه وأخذت تمسح قدميها. وبعد أن فرغت من ذلك لبست حذاءها ثم مددت ساقيها بالقدر الذي تسمح فيه مساحة صدر

السيارة وهي مازالت تلهث محاولة استعادة أنفاسها.

قالت وكأنها لا تخاطبه :

ـ جميل ان نستسلم للجنون إذا ما غزانا !

وتمتم مداعبا :

ـ شريطة أن لا يكون استسلامنا له أبديا ؟

وقالــت :

ـ الجنون الأبدي، أليس ذلك نعمة ؟

ـ ألم يتسن لك أن تري مجنونا مرة ؟

ـ أبــدا.

ـ حاولي أن تفعـلي ذلـك. ألست صحفيـة وكـاتبـة ؟ اذن اقصدي المستشفى واطلعي على هيئاتهم، وآنذاك اخبريني عن احلامك.

قالــت :

ـ فكرة، سأحققها في أقرب وقت، أقصد المستشفى وأراقب المجانين وأحادث الأطباء والمرضى، ومن يدري لعلي إذا أعجبتني حالتهم سأحجز سريرا وأبقى هناك.

ويضحك غياث داود بحنجرة ملعلعة ثم يمد يده إلى جهاز الكاسيت ويضغط على الشريط المودع فيه فينفجر بالغناء.

كانت أغنية فرنسية حملتها معها سعيدة بنت المنصف ذات يوم ليستمعا إليها معا عندما يكونان في السيارة، بيتهما المتنقل كما كانت تسميها.

ولم يكن غياث داود يفقه كلمة منها رغم طربه للصوت الدافىء الذي يغنيها. لذا شرحت له معانيها، ترجمتها له كلمة كلمة.

كانت الأغنية تتحدث عن اثنين يلتقيان تحت المطر، لم تكن مع الفتاة مظلة لذا أسرعت لتنـدس مع فتى عابر تحت مظلته، وبدأ بينهما حوار قصير انتهى بأن دلفا إلى مقهى مرا بها ليحتسيا القهوة الساخنة في انتظار أن يتوقف المطر. ولكن ذلك اللقاء كان بداية لقصة حب.

أخذا ينصتان معا إلى الأغنية ونظراتهما مصوبة نحو الشاطىء الطويل الذي تصفعه الأمواج.

التفتت إليه هامسة :

ـ انني في غاية الفرح.

وعادت لتواصل اعلانها :

ـ أتدري لماذا ؟

وقبل أن يتفوه بكلمة صفقت بيديها وسحبت ساقيها الممتدتين، ثم رفعت صوتها بالجواب :

ـ لأنني أحببتك.

قـال :

ـ دعينا لا نستعمل كلمات الآخرين. اننا في حالة نادرا ما نكون عليها، الآخرون لا تسعفهم اللغة العربية الواسعة الا بكلمة حب، أما أنا فأكره أن أصفها وأنتهي منها. انها حالة حياة واستمرار في عطاء ورغبة في اختراق المستحيل، وادانة للفناء والانصهار، هل هذا واضح.

تمتمـت :

ـ واضح، ولكن الحب، وأنا ألجأ إلى هذه الكلمة ثانية، أكبر من كل هذا، ويظل يفوق الوصف ويتجاوز جدران اللغة.

ويمد يده إلى آلة الكاسيت ليرفع الصوت على مداه وفيه يتوسل المغني بتلك الفتاة، وعلى لسان فتاها أن لا يكون غيابها عنه طويلا، وقد وعدته بأن لقاء آخر لهما سيكون مساء نفس اليوم ان لم يكن عنده أي ارتباط.

يلتفت غياث داود إليها ويقول :

ـ سعيدة بنت المنصف هل أنت نافذة الضوء والهواء الوحيدة في وسط سجني السرمدي ؟

- 8 -

كانت سميرة حليم تقود سيارتها بسرعة وكأنها مطاردة من قبل اعداء مجهولين. وكانت السيارة تصعد الطرق الجبلية الملتوية وعجلاتها تحدث أصواتا عالية من اثر احتكاكها بالأرض وبالصخور المرمية. وكان غياث داود يجلس جوارها صامتا ونظراته تتنقل من جهة إلى أخرى ليراقب الوديان السحيقة التي قد تختل السيارة بين يدي هذه المجنونة الضاحكة فتهوي فيها.

قال لها :

ـ لماذا تسرعين ؟ ما الذي وراءك ؟

وردت عليه ببساطة :

ـ لو عرفت لهذا السؤال جوابا من قبل لما أسرعت ؟ انني أسرع لأن علي أن أسرع.

ضغطت على محرك السرعة أكثر وراحت السيارة تنهب طريقا مستقيما خاليا من اية استدارة، ثم أضافت :

ـ السرعة رائعة. أتمنى أن أسرع حتى أطير وأتبخر ولا يبقى مني شيء

ـ ولكنك لن تتبخري بل ستنتهين في واد أو بصخرة في سفح جبل ؟

قالـــت :

ـ ستكون ميتة مشهودة. لا أريد أن أموت في فراشي، تماما كما تمنى خالد بن الوليد.

قرصها غياث داود من فخذها فصرخت بأعلى صوتها وقال :

ـ ولكن امنيته لم تتحقق ومات في فراشه ؟

ـ لو كان يريد أن يموت في ساحات الوغى أو في حادث كبير لفعل ذلك، ولكن يبدو أن شيئا ما في داخله كان يكبح رغبته في الموت، لذا قاتل بشجاعة وحذر حتى سلم وخرج من كل المعارك التي خاضها وهو لا يحمل الا خدوشا وجراحا بسيطة

وردد بعد أن فكر قليلا فيما تفوهت به :

ـ قد يكون رأيك مصيبا بعض الشي.

ـ قل كل الشي. لأنني أكره الأنصاف، في الأجوبة والحلول، في أي شيء.

كانت تقله معهـا إلى مصيف « عاليه » كما وعدته، فبيروت خانقة، وأماكن التحرك فيها محدودة، أقصى مكان من الممكن أن تصله هو مطعم « السلطان ابـراهيم » في شاطئ « الأوزاعي » لتـأكـل السمك وتشرب العرق اللبناني الأصيل. اذن سأهرب بك إلى الجبال الشم وروابيها الخضر المـلأى بأشجـار الأرز والـبرتقـال لتتنفس وتجري وتغني، ثم هناك بيتنا الصيفي، انه خال الآن ولكن معي مفتاحه، أحمله في حقيبتي دوما لعلني أهـرب إليه محتمية من وحشـة بيروت، سنشعـل الموقد، بعد أن نملأه بخشب البلوط، ونتعانق أمام لهيب النار، أليس هذا رائعا ؟

وامتثل لما أرادت. وها هو معها الآن. تذكرت فيروز فقالت له :

ـ ابحث لي عن الشريط. نعم هنا.

استله ووضعه في الجهاز ثم كبسه بطرف اصبعه. وبعد لحظات جاءه ذلك الصوت المخضب بالعطر والحنين ليذكره بأن لبنان كان جميلا يوما، وكان آمنا، وكان مثلا، ولكنهم جاؤوه، وسحقت أقدامهم الكبيرة كرمه وزيتونه.

(تذكرتك يا عليا وتذكـرت عيونـك
يخرب بيت عيونك يا عليا شو حلوين)

وكانت سميرة حليم تغني أيضا، وصوتها يعلو على صوت آلة التسجيل.

قـال لهـا :

ـ انني أحسدك ؟

فقطعت غناءها وسألته :

ـ ولمـاذا ؟

ـ لأنك لا تعرفين الحزن رغم ان الموت يطوقك.

وصرخت بلهجتها اللبنانية اللذيذة :

ـ يلعن أبو الموت، يا الله.

وضغطت على آلة السرعة أكثر غير آبهة بسيارة حمل قادمة كانت تسير في منتصف الطريق. أمسك بالمقود معها وهو يصرخ محذرا :

ـ انتبهي. هذه آخر مرة اركب فيها معك.

ضحكت وهي تأخذ جانب الطريق حتى تمرق سيارة الحمل وبعد أن ابتعدت عنها قالت :

ـ على أي شيء تخاف ؟ على أولادك مخافة أن يأخذهم اليتم ويتشردوا ؟ اطمئن. فأنت من الكائنات التي ليس لها من يبكيها. ربما أفعل ذلك أنا لأنني آخر امرأة عرفتك، وستندثر حكايتك ويغيب اسمك. فأهلا بالموت اذن.

وردد وكأنه لا يتابع ما تفوهت به :

ـ لقد نجونا من المتفجرات والقذائف إلى حدّ الآن، وتريديننا أن ننتهي اشلاء في واد لعين ؟ لا أريد هذه الميتة أبدا، ولم اختر بعد طريقة موتي. ولكنها لن تكون بهذه الصورة على أية حال.

ـ هنيئا لك حياتك، فانعم بها. أما أنا فلا أريد شيئا، إلى الجحيم كل شيء.

ثم راحت تبحر مع صوت فيروز الذي يقطر نقاء وحلاوة، أما غياث فظل على ديدنه في الالتفات يمينا وشمالا ويده على قلبه، وحاول أن يكبت احتجاجه ولكنه لم يستطع عندما وجدها تسير بمحاذاة حافة الوادي فكان انهيار أية صخرة كفيلا بأن يرميهما في القاع.

صرخ :

ـ سميرة، أرجوك أن تكفي عن هذه المداعبات الخطرة.

حك حسان صبحي شعر رأسه الخشن والمشتعل بياضا، ثم أخذ ينسله إلى الأمام جاعلا من أطراف أصابعه مشطا حتى يغطي جبينه

الأجلح الذي بدأ شعره بالتساقط لذا كان يعلن بدعابة :

ـ شعر رأسي يتساقط أما شعر الأماكن الأخرى فزد وبارك أحصده اليوم وينبت غدا .

وأشار بيده إلى وسطه ولحيته .

وكركرت حناجر الأصدقاء الثلاثة ، غياث داود والرسام المتوحد ، وحسان صبحي .

تقدمت امرأة قاربت الخمسين ولكنها مازالت تحتفظ ببقايا نضارة على وشك الانطفاء وحيتهم . ثم صافحت الرسام المتوحد الذي نهض لتحيتها ، بعد ذلك انصرفت لتشاطر امرأة أخرى تقاربها في السن مائدتها . وكان مكانها يقع على مرمى نظر الأصدقاء الثلاثة الذين حلوا في المقهى مبكرين ليرتشفوا قهوتهم ويثرثروا على عادتهم كل مساء .

وكان رواد المقهى قليلين ، فالناس يقرأون الأحداث في وجوه بعضهم ، لذا سرعان ما يفرون ليحتموا وراء جدران بيوتهم ليقتلوا ساعاتهم الثقيلة بمراقبة برامج التليفزيون التي تصب في بيروت من كل المناطق القريبة ، من قبرص والقاهرة ودمشق واسرائيل . لعلها اللذة الوحيدة التي تصاحب كأسا من العرق ومائدة عامرة بالمازات الشهية .

في ذلك اليوم كانت التنظيمات المسلحة التي تعددت أسماؤها في اشتباك ، لا أحد يعرف له سببا فقد يكون تافها لحد السخف ، ولكن هؤلاء الشبان المحقونين بشهوة القتل والدمار والذين يضعون أصابعهم على أزندة أحدث الرشاشات وأغلاها بحاجة إلى متنفس يفرغون فيه رصاصهم الواجم المنتظر ، لذا يبحثون عن الأسباب الواهية ، الموت ، العرس ، قطة تقفز من نافذة ، كلب يهرول في الظلام ، أي شيء ، وسرعان ما يلعلع الرصاص ، ويتساقط قتلى جلهم من العابرين ، ويفر الناس ليلازموا بيوتهم ، وتقفر الشوارع ويخيم الذعر .

تنحنح الرسام المتوحد وطلب قهوة أخرى، ثم مسح بيده على جبينه وهو يردد :

ـ يا للصداع اللعين ا

وعلق حسان صبحي :

ـ انه الكبر يا عزيزي. مرحلة العد العكسي، الصداع وبعده البواسير والضغط وأمور أخرى كثيرة.

ونطق الرسام المتوحد معترضا :

ـ انني أقترب من الستين، ولكن الزمن يخافني لذا لن يقترب مني. انظر هذا الرأس، نقّب فيه، هل بامكانك أن تجد فيه شعرة واحدة بيضاء ؟ أما انتما ففي الأربعين وزحف على شعريكما البياض، وفوق هذا فعمو حسان قد تساقط شعره وبدأ رأسه يبشر بصلعة محترمة.

وقال حسان صبحي :

ـ المظاهر لا تهم ولكن المهم الفعل اياه ؟

وصفق الرسام المتوحد بيديه وقال وكأنه يبوح بسر :

ـ لقد أوصى الله بالاعتدال، ولكنني لم أمتثل لهذه الوصية، المهم انني مازلت قادرا على الثلاث، بعدها يبقى هذا المذموم رافعا رأسه طلبا للمزيد فأضربه حتى يخجل ويكف.

وانطلقت الضحكات من حناجرهم رنانة. بعد ذلك خفّض حسان صبحي رأسه وقال :

ـ أما أنا فلم أعد قادرا الا على المرتين. الأولى لا تستغرق إلا بضع لحظات، والثانية تتركني انهت ساعة والعرق يتصبب مني حتى في الشتاء إلى أن يسهل الله أمري.

ابتلع ريقه ثم ردد بأسى :

ـ لقد نفد مائي. أعطيت كثيرا، وان أخذني الجفاف تماما، فمن يدري ماذا سأفعل ؟ لعلي سأنتحر حتما

والتفت الرسام المتوحد إلى غياث وسأله :

ـ أما أنت فلا تتكلم عن هذا الشيء ؟ ان لم تفعل ذلك سأسأل سميرة حليم ؟

وقال غياث موضحا بابتسام :

ـ في هذا الميدان أجهل قدراتي، لن يهمني عدد المرات بقدر ما يهمني الارتـواء. وهذا ما لم يحدث حتى اليوم، لسبب بسيط واحد هو ان في عروقنا عطشا أزليا لا شافي له.

وهز الرسام المتوحد رأسه بشيء من التأييد :

ـ ولعل هذا هو السبب في لهاثنا، وتنقلنا من امرأة إلى أخرى دون أن نتســاءل لمــاذا ؟ وها انك تجيب نيابة عني وتضع يدك على مكمن الجرح.

وتساءل حسان صبحي كالمفجوع :

ـ مازلت أتصرف أمام أية امرأة وكأنني ابن العشرين، وكلي ثقة بأنني مرغوب وألفت النظر، ولكن ماذا يحدث غدا إن جف النهر ؟ ولماذا أعيش اذن ؟

ونطق الرسام المتوحد :

ـ سيؤدي لك مهمة أخرى.

وضحكوا ثلاثتهم، ولكن حسان صبحي عاد إلى القول :

ـ للبول فقط ؟ هذا كل شيء ؟ انني عند عهدي، سأنتحر، من يدري لماذا انتحـر همنغـواي مثـلا ؟ لعله فعل ذلك لهذا السبب ؟

وعادوا إلى الضحك من جديد وشاركهم النادل الضحك دون أن يعرف السبب وهو يضع فنجان القهوة أمام الرسام المتوحد الذي سرعان ما بدأ بارتشافه دون أن يضع فيه قطعة سكر واحدة بينما راحت عيناه تدوران بنظرات متأملة بين الرواد ثم توقفتا عند المرأة الخمسينية التي صافحته قبل دقائق. وقال :

ـ أعرفتماهــا ؟
وتساءل غياث داود :
ـ من هي ؟
ـ تلك المرأة.
وأشار بيده إليها، بعد ذلك واصل حديثه :
ـ كانت ابرز ممثلة مسرح في بيروت قبل قرابة العشرين عاما. مثلت لشكسبـير وراسـين وموليير وغيرهم، اشتهيت أن أنام معها ذات يوم، وكنت عائدا لتوي من اسبانيا لآخذ بثاراتي الدفينة، ثارات ابن الجنوب الأسود، ابن مزارع التبغ والفلاحين المحرومين، وظننت انني به أستطيع أن افتتح بيروت كلها، وانني سأنتقم بمجرد أن أولجه في المزيد من أولئك الارستقـراطيـات الفـاتنات اللواتي يفوح منهن العطر والنعيم، وكنت أبحث عنهن في قاعات العرض وفي المقاهي والمطاعم الفاخرة والملاهي الليلية، في كل مكان يستطعن فيه أن يمرحن بخيلاء ويستعرضن ثيابهن وجـواهـرهن بمباهاة غبية. أثارتني في صوت هذه الممثلة البحة النادرة الحـارة وهي تمثـل بانفعـال فتخيلتها تحتي، هكذا، ولم أجد ما يعترض طريقي في الوصول إليها، طلبت من مخرج المسرحية أن يقدمني إليها، عرفتني رأسا، دعوتها مرة وثانية وفي الثالثة كنت أحملها إلى شقتي، ولكنني هربت منهـا بعد أن ذقتها مرة واحدة. فقد كانت لجسدها رائحة قاتلة يفرزها عند الجماع، ولعلها تتساءل لحد الآن عن سر هروبي منها بعد ذلك اللقاء ؟ رغم انها قد حاولت ان تعيده مرات فلم تفلح.

وواصـل ارتشاف قهوته مستلذا بطعمها المر، وهو يرخي جسده في جلستـه بينـما كان صاحبـاه يصغيـان إليه باهتمام. وكانا يجدان نفسيهما ملتفتين صوبها بين فترة وأخرى وهي تدخن وتمضي في الحديث مع جليستها.

بعـد أن فرغ من احتساء قهوته أعاد الفنجان إلى الصحن وأضاف

وكأنه مسيحي يدلي باعترافه في مقصورة مسدلة الستائر ولا أحد يصغي لما يقول غير راهب عجوز سعاله لا يكف عن الانطلاق من صدره اليابس :

ـ كل امرأة حالة ونغمة منفردة، لن تكررها امرأة أخرى أبدا، لذلك فإن الوصول إلى جسد المرأة وفك أسراره يحتاج إلى مهارة وإلى خبرة، ورغم هذا العمر والتجارب فأنا مازلت مبتدئا، قد انتهى دون أن أصل إلى جواب، أو إلى الارتواء كما سماه غياث، وهو تعبير صحيح.

وقاطعه حسان صبحي بقوله :

ـ بعض الرجال، أو لنقل الذكور فهذه الكلمة أسلم، يفتقدون إلى التركيز الذهني. ينامون مع امرأة ويتخيلون أخرى، وبهذا فإنهم لن يقنعوا التي بين أيديهم ولن يقتنعوا هم في نفس الوقت، إننا نمتلك المرأة ليس بالجسد فقط بل وبالذهن أيضا.

وقال الرسام المتوحد :

ـ على أية حال إننا نتناقش في موضوع شائك، والدخول فيه لا يحتاج إلى نصائح من تلك التي ينسجها بعض الأطباء الدجالين حول المرأة والتعامل معها، والحب والزواج. إن المرأة حقل واسع وإذا كنت فلاحا حكيما تستطيع أن تجعلها تخضر بأعظم الثمار، وإن لم تكن كذلك فلن تعطيك إلا أشواكا وأعشابا كسيحة. حدثتكما عن المثلة هذه، ولكنني سأحدثكما عن امرأة أخرى، تستطيعان أن تقولا عنها بأنها نقيضتها إلى حد ما. كانت شاعرة صغيرة. ظهرت فجأة في صحف ومجلات بيروت، في كل يوم أجد لها قصيدة، لا أدري متى كتبتها، قصيدة عن الحب وأخرى عن فلسطين وثالثة عن فيتنام، في كل موضوع يخطر على البال، وتحدث كثيرون عن موهبتها ونشروا صورها مع قصائدها المزعومة بعينيها الخضراوين، وأجريت معها مقابلات تحدثت فيها عن حقوق المرأة، وعن الحب، وآرائها بالشعراء المعاصرين، وأكلتها المفضلة، وبالغت إحدى في

المجلات بإظهارها صورة غلاف مرة، كانت في تلك الصورة تطأطىء رأسهـا قليـلا، وتصوب عينيها إلى الأمام بنظرات ذئبة قاحلة الجوف، ستفترس كل من يقترب منها، ولا أدري لماذا شعرت آنذاك وكأنها تدعوني للمبـارزة، وتتحـداني شامتـة، تقول لي : اقترب مني إن كنت قادرا. فذهبت إليها، طاردتها من مقهى إلى مقهى رغم أنها لم تظهر وحيدة إذ كان يحف بها دوما عدد من الصحفيين أو الشعراء المراهقين وكل واحد منهم طامـع في الـوصول إلى جسدها حتما، ذات يوم عرفوها علي في مكتب إحدى المجلات، وعرفت أنها فرصتي المناسبة لذا دعوتها لأن أرسمها، قلت لها سأخلق من وجهك الساحر (جيو كندة) أخرى، فطارت على أجنحـة من الفرح لأن كلماتي أرضت في نفسها غرورا تريد أن تؤكده وتتأكد منه بأي فعل.

ابتلع ريقه الذي نشف من كثرة الكلام، ثم توقف برهة وكأنه يريد استرداد أنفاسه بعد هذا الخوض العميق في صفحات الماضي المندثرة، ماضيه هو الحافل والمتألق دوما :

قـــال :

ـ حان وقت كأس الويسكي الآن، اتشربان ؟

فهزا رأسيهما بالموافقة فأشار بيده إلى النادل، ولما جاءه طلب منه أن يحضر كؤوس الويسكي، ولم ينس أن يطلب منه وضع مزيد من الثلج في كأسه.

بعد ذلك نطق مواصلا :

ـ عندما أخذتها بين ذراعي أول مرة أحسست بها وكأنها خارجة لتوها من قـــارورة مســـك ، وقد جعلني هذا الأمر حائرا ماذا أفعل لها ؟ هل ألـثمهـــا ؟ من أين ؟ هل أمـــرر أنفـــاسي على كل جســـدهـــا ؟ هل أنكحها ؟ هل ؟ هل ؟ أسئلة كثيرة ومتناقضة داهمت رأسي مرة واحدة !.

وسأله حسان صبحي بفضول :

ـ وماذا فعلت ؟

أجـاب :

ـ فعـلت الـذي فعلتـه. في البـداية ظننت انها لم تكن همي، كـان همي في الوصول إليها فقط، وقد وصلت، وأمضيت معها شهورا مموسقة ناعمة، لعلها أطول فترة أمضيتها مع امرأة في هذا البلد رغم أننا لم نكن نبدو متجانسين تماما فقد كان لي ما يربو على ضعف عمرها، وعندما أصبحت علاقتنـا جادة انتبهت ووضعتهـا أمـام الحقيقة المرة هذه. لذا ارتضت الزواج من صحفي ثانوي وراحت، قبل أن تتزوج قالت لي بأنها ستنتحر على طريقتها الخاصة، بعد فترة من ذلك رأيتها حبلى، يتقدمها بطن مكور وتجاهد من أجل أن تشق طريقها في الزحام، ابتسمت لي وابتسمت لها، هذا كل ما كنـا نقـدر عليـه آنذاك، ومضت، ومضيت أنا الآخر، ثم سافـرت مع زوجهـا إلى الخليـج بعـد أن وضعت بنتـا، وضاعت هي وقصائدها وانقطعت أخبارها، أو أنني لم أكن مهتما بمعرفة أخبارها فقد صفعت شاطئي أمـواج جديـدة، وتكسرت عليـه سفن، وغرق بحارة ماهرون، وطافت ألواح وبقايا.

جاء النادل بكؤوس الويسكي الثلاث ووضعها أمامهم. التقط الرسام المتوحد كأسه وهو مازال يقود دفة الحديث الذي زرع صاحبيه في انتباه وفضول لم يعرفاهما من قبل.

أخذ رشفة من كأسه ونطق :

ـ بيروت هذه التي تبدو صغيرة خانقة الآن هي في حقيقتها كبيرة جدا، لعينة جدا، تنطبق على ملايين الأسرار، إنها توغل في عمق عامر ومبهم. هكذا عرفتها، ولذا أحببتها

وعاد ليرتشف جرعة أخرى من كأسه، هز رأسه كالمتقزز ثم أطلق شتيمة عالية قال بعدها :

ـ ويسكي مغشوش رغم أن بيروت مليئة بالمهرب منه

وأمسك غياث كأسه ورفعها إلى أعلى وقال :

ـ في صحتكمـــا.

وكـأن حســان صبحي كان يغط في النوم وقد صحا لتوه على صوت غيـاث حيث التقط كأسه ورفعها إلى أعلى متمتما بعد أن عب أكثر من نصفها في جوفه مما جعل غياث يداعبه :

ـ إنه ليس بيبسي كولا بل ويسكي ؟

ورد حسان بلا مبالاة :

ـ لا فرق، المهم أن هذا الجسد لن يتخدر بعد لا بالويسكي المغشوش ولا بالعرق ولا أي شيء آخر.

وهنا عاد الرسام المتوحد إلى الكلام مستأنفا حديثه :

ـ لم أتحدث هذا المساء إلا عن النساء، ولعل هذه إشارة خطر، لأنني كنت أعيش علاقـاتي بكتمان، ولم أتحدث عنها لأحد، أما عندما أصبح اليوم متحمسا لفتح أبواب الماضي التي ظننتها قد أوصدت تماما فهذا يدل على أنني قد بدأت أحتضر، في مجال النساء على الأقل. لذا بدأت أتحدث بهذا الاطراد، ولعل ذلك محاولة مني لمقارعة الاحتضار. إنني أفهم نفسي، أفهم هذا الذئب المستكين النائم في أعماقي، ولكنه ذئب على أية حال، وله مخالب وأنياب، وهنا مأساتي إن شئتما أن تسمياها هكذا.

واستحثه حسان صبحي على أن يواصل كشف المزيد من أوراقه عندما قال له :

ـ حديث النساء يظل أرق حديث، فهل تريدنا أن نتحدث عن عدد السيارات التي نسفت خلال الأسبوع ؟ أو عن الغارات الاسرائيلية على مدن وقرى الجنوب ؟ لنضع الجراح المؤرقة جانبا الآن.

وتساءل غياث داود ببساطة وهو يوجه كلامه إلى حسان صبحي :

ـ وهل تتصور أننا قادرون على ذلك ونحن نعيش أسرى صليل هذه الجراح ؟ وفي كل دقيقة تمر يذرون المزيد من الملح على هذه الجراح الدامية ؟

وقاطعهما الرسام المتوحد بقوله :

ـ لنستجب إلى رغبة عمو حسان ونواصل الغوص في بحر النساء، ولكن لماذا تتركانني أتحدث وحدي ؟

قال غياث :

ـ لأنك بدأت فأكمل، أما نحن فالفرص كثيرة، وليس لنا من ملاذ غير الثرثرة على موائد هذا المقهى.

وعاد الرسام المتوحد ليرتشف جرعة جديدة من كأسه، وكأن كل رشفة يأخذها تدفعه للحديث عن عالم عاشه.

ونطق بلهجته العميقة نفسها :

ـ مرة تعرفت على عاملة في مخزن لبيع العطور، دخلته لأشتري زجاجة لصديقة ارستقراطية كنت على علاقة بها يومذاك بمناسبة عيد ميلادها السابع والعشرين فقط، فوجدت أمامي بائعة أنيقة وعذبة للدرجة التي تصورتها فيها وكأنها نفسها زجاجة عطر فاخرة، وناداني هذا المذموم الذي بين ساقيّ أن أهجم، فهجمت، بدأت معها الحديث، وأخبرتني أنها تعرفني فقد رأت صوري في المجلات كثيرا، ولكنها لم تعرف لماذا ينشرون صوري ؟ ثم سألتني : هل بإمكانها أن تنشر صورتها هي الأخرى ولو لمرة واحدة ؟ حوار طويل وساذج وذو نغم خاص، يؤكد ما ذهبت إليه أن كل امرأة حالة لا تتكرر، الساذجة جميلة بسذاجتها، والذكية بذكائها، والكبيرة بخبرتها، والصغيرة بفطرتها، ثم طريقة الكلام، وإيقاع الصوت، وأشياء كثيرة لا أستطيع أن أستعيدها الآن كاملة. دعوتها فابدت تمنعا في البداية لكنني أقنعتها في الأخير، وقدتها إلى المذبح ذات مساء، انتظرتها حتى أنهت عملها وحملتها بسيارتي إلى هناك، بعد دقائق من دخولنا الشقة كنت أعريها، صرخت متوسلة بأنها مازالت عذراء وأنها خائفة من خوض التجربة، فأجبتها وما المهم ؟ لأكن الرجل الأول، لابد من الرجل الأول في مثل هذا الحال، ولأكن أنا، هل تتوقعين أن تجدي

من هو أفضل مني ؟ خفت توسلها، واستسلمت لي راغبة وراضية، ودخلتها بثوان، وعلى الرغم من أن دمها قد تدفق على الفراش إلا أنني أحسست وكأنني قد دخلت في متاهة، ولم يوقفني أي حاجز، وأن طعناتي كانت تسدد في فراغ، وانطفأت فجأة وأنا فوقها، أحسست بالخذلان التام، إذ أن الدخول الأول في امرأة كان يعني الكثير عندي، وقد رسمت له في مخيلتي صورا شتى. حملت جسدي وثيابي المبعثرة ودخلت الحمام لأتقيأ كل ما ضمه جوفي في ذلك اليوم. ولكن المصيبة أنها حملت مني بعد ذلك اللقاء، وقد عملت المستحيل من أجل اجهاضها حتى لا أرمي في هذا الكون السافل بابن زنا جديد.

صمت برهة ليرتشف ثمالة كأسه، بعدها زعق بضحكة عربيدة وقال :

- في كل مرة كنت أظن أن لبيروت هذه ثقبا وحيدا قد تحمله امرأة لم أعثر عليها لحد الآن، وفي الوقت الذي سألجه فيه ستخفت الحمى ويعود الأمان لهذا الرأس الذي لم يستقر على كتفيه يوما.

- 9 -

تحتفظ سعيدة بنت المنصف بنسخة من مفتاح بيت غياث داود، لترتاده كلما انتابها الضجر أو أحست برغبة مفاجئة لرؤيته، وعندما تجده أمامها تكون تلك فرصة عظيمة بالنسبة لها، ولكنها في الغالب لا تراه لأنها تأتي البيت في الوقت الذي يكون فيه في العمل، تتوجه نحو المطبخ، وتبحث في ثلاجته عن اللحم والخضروات لتهيء له طبقا وتضعه على المائدة بعد أن تغطيه بالمنشفة وفوقه ورقة تكتب له عليها تلك الكلمة التونسية الشائعة التي تقال للآكلين (صحة).

لم تستسغ مخاطبته بالتليفون ولا تلجأ إلى ذلك إلا مضطرة، رغم أنه يطلبها كثيرا، ويكلمها كثيرا، وفي الغالب لا يستسلم للكرى إلا على صوتها وهي تقول له بهمس :

ـ تصبح على خير.

ولكنها تحب أن تفاجئه، تدخل عليه وهو نصف عار بملابسه الداخلية وهو جالس أمام التلفزيون أو يقرأ في كتاب، وأحيانا تجده ويده تعبث بمؤشر الراديو ليجلب صوت وطنه القادم من هناك عبر الصحاري والبحر الأبيض المتوسط بجلاله وامتداده، صوت وطنه المحمول على جناحي أغنية أو نشرة أخبار.

وحفظت منه أسماء كل المغنين، وعرفت كيف تميز بين أصواتهم، الدفء في صوت حسين نعمة، والحنان في صوت فؤاد سالم، والبحة في صوت فاضل عواد، والأنوثة في صوت أنوار عبد الوهاب، هكذا بدأت تشخص الأصوات وتعرف مميزات كل واحد منها، كما تعلمت منه أن تسأله بصوتها الأخن وبتلك الكلمات العراقية اللذيذة : (شلونك عيني ؟ شلونك كَلبي ؟) فيضحك من طريقتها في النطق ويأخذها إلى صدره بمودة.

وأكل من طبخ يدها الكسكسي بالعلوش وبالسمك وبالعصبان، وأكل أيضا الطاجين والمعكرونة بالصلصة، وعلمته أن يتذوق مرقة الموالح وشوربة الفريكة ولسان العصفور (*). وفي مطاعم بنزرت والحمامات وقمرت أكل معها القواقع والأخطبوط وكل ما يقذفه البحر من حيوانات ما عدا الضفادع فالمائدة هنا لا تعرفها، تذوقها أول مرة بتقزز ولكنه اعتادها حتى أصبحت تشكل طبقه المفضل، يلتهمها وهو يترحم على أجداد سميرة حليم فلم تكن تستحثه إلا على أكل الضفادع فقط، ويود أن يصيح :

- أين أنت يا سميرة حليم لتري ماذا يصنع غياث داود ؟

وكم قال لها كالمعاتب مرارا :

- لماذا تصدعين رأسك بالطبخ ؟

فترد عليه :

- المرأة تبقى مرأة، ويشكل دخولها إلى المطبخ سعادة لا توصف. أمي تطبخ لنا ألذ الأطعمة، ولكنها لاتأكل منها شيئا لأسباب صحية، و عندما تراقبنا ونحن نأكل تحس وكأنها هي التي تأكل، وتكبر سعادتها إذا ما امتدح أحدنا طبخها

وتعود لتضيف :

- ومن هنا فإنني لا أصدع رأسي، والمهم أن لدي قائمة من المشتريات الضرورية، هيا البس ثيابك وكف عن إظهار ساقيك القبيحتين أمامي، واذهب لتحضرها لي من السوق.

ويقول :

- سنذهب إلى مطعم قريب ونأكل فيه ؟

وتواصل حثه :

- لقد خاس بطنك من طعامها، كل يوم تأتيني وأنت تحمل داء جديدا

(*) كل هذه الأكلات من المائدة التونسية الشعبية.

فتضطرني لأن أكون طبيبة وأستحضر كل معلوماتي في هذا المجال حتى أصف لك الدواء.

أجاب موافقا:

- الحق معك، ولكن من يغسل الصحون؟ ومن؟

فقاطعته بسؤالها:

- وهل طلبت منك أن تغسل الصحون يوما؟ إنه عملي وأنا أدرى به.

ويكف عن المناقشة، وينهض من مكانه بعد أن يبعد عن عينيه نظارته الطبية التي يستعملها عند القراءة، ويرمي بالجريدة جانبا وهو يردد بامتثال:

- حسنا يا عزيزتي، سأرتدي ثيابي وأخرج لآتيك بما تريدين، اكتبي قائمتك أولا.

- أريد أن أقدم لك مع الطعام حلوى تونسية لم تذقها من قبل.

وتساءل بفضول:

- وما اسمهـــا؟

- غريبة، بتسكين الغين وليس بفتحها، تعلّم كيف تتحدث بلهجة أهل هذا البلد الأمين.

سعيـدة بنت المنصف. أين تولـين وجهك؟ إن يدي على قلبي من أجلك، أخاف أن أراك يوما وأنت تسندين ظهرك إلى جدار في رأس زقاق معتم، تثنين إحدى ساقيك لتظهر عارية مشتهاة، وقد يمر بك عجوز مخمـور، تقـذفـه حانـة مكتظة، يتوقف برهة ويتملاّك من وراء دخان سيكـارتـه ثم يسألك عن الثمن، وقد تتفقين معه فتتبعينه، سعيدة بنت المنصف. ماذا تقولين إذا كان ذلك العجوز المخمور هو أنا؟ غياث داود؟ .

حكيمـة بنت الشيخ جابـر، كنت ترممـين ابنـك المنخور، المجهد، المرتجف الأوصال تنتزعين فصوص التمر من القوصرة، تبعدين عنه كل نواة، ثم تهرسينه مع السمن واللبن المجفف وتضعينه أمامه وأنت تقولين له بأمر:

ـ هيا كل، فهذا يشد أعصابك.

وكان أمامك مستنفدا خائرا لا يقوى على نش الذباب المتجمع فوق وجهه، وتمضين في الإلحاح :

ـ كل، لماذا أنت صافن هكذا ؟

فيمـد يده، ويقطع قسما من التمر ويحوله إلى لقمة، يهيؤها ببطء ثم يرميها في فمه.

وتتحرك أسنانه بصعوبة محاولة مضغها، ويود أن يقول لك :

ـ نسيت يا أمي أن هذا التمر الكافر هو الذي سيوقدني من جديد كلما ظننت أن ناري قد خبت وهدأت، فتطيش عيناي وأهب لأدور في أزقة المحلة بحثا عن صدر يتمرد على العباءة التي تحجبه، أو ساقين حافيتين تلسع قدماهما الأرض السبخة بغنج. وصاحبتهما تحمل فوق رأسها كيس حبوب أو صفيحة ماء فترسخ صورتها في رأسي، وتستيقظ شهواتي المخبأة فأهرع إلى هناك.

كان يجتمع مع أقرانه بعد خروجهم من المدرسة ويتبادلون فيما بينهم إشارات خاصة فيحثون خطاهم إلى خارج المدينة ليجلسوا في صف واحد على حافة نهير جاف وقد فتح كل منهم ساقيه ليترك ذلك الشيء منتصبا، يلعلع صوت أحدهم مطلقا إشارة البدء فتتحرك الأيدي لتنهبه تمسيدا، وصرخات الالتذاذ تنطلق من الصدور بفحيح ساخن، ومن يصل القمة قبل غيره تكون جائزته تذكرة دخول لسينما المدينة الوحيدة التي كانت قبل ذلك مدبغة للجلود.

إنه يتذكر تلك الأفعال التي كادت أن تبدده، ويتساءل عن السر الذي جعله يتجمع ويتماسك مرة أخرى ليكون هذا الهيكل المكابر الذي لم تهدمه علاقة خائبة ولا موقف حزين.

ـ ولكنني كبرت وعشت، وفتحت أمـامي آفاق النساء فكان الموت، وكانت الحياة أيضا.

سعيدة بنت المنصف لا تحجمي هكذا، بل حدثيني عن كل احلامك، وأنا على استعداد للمقاتلة من أجل أن أصوغها قلائد لجيدك الأغيد.

نـوال الحسن

لا تمشي إلا في منتصف الطريق فكأنها مسيّرة برغبة حادة في الاعلان عن حضورها بهذا الشكل الواضح. تميل إلى البياض والطول، ويميزها ارتفـاع ساحر في حاجبيها، وسهوم ناعم في عينيها. رأته ذات يوم وهو يشرب زجاجة مبردات من الدكان القريب من منزلها فاستعذبت نظرة الحنو التي فرشها لها، ورأته ثانية وثالثة كلما خرجت مع صاحبتها التي تلازمها دوما، كانت تلك الصاحبة أقصر منها وأكثر امتلاء ولها شفتان زنجيتان، فيهما دعوة صارخة.

وكلما رأته تتقابل العيون فينطلق منها الهديل والشوق في ذلك اللقاء المسائي الذي يهرب فيه الجميع من حرارة بيوتهم الخانقة، يخرج الرجال إلى المقاهي وهم يحملون بأيديهم المراوح اليدوية، وتخرج النسوة ليتجمعن أمـام واجهـات البيوت داعيات الـرب من أجـل نسمة هواء، ويفضل الشباب التجول في الشارع العريض لذا يأخذون بقطعه من أوله إلى آخره ذهابا وإيابا حتى يخيم الظلام فينسحب الجميع إلى بيوتهم، من المقاهي والشوارع وأماكن العمل.

كانت تعيش على ذلـك اللقاء وكان هو أيضا. مرة استلت ورقة من دفـترها المدرسي وكتبت له رسالة، خطتها بقلم الرصاص، وقد أعانتها صديقتهـا وكـاتمة أسرارها ـ كما كان يسميها غياث ـ على كتابتها. فيها حديث عن أشواق دفينة بإمكانه أن يرجعها إلى أغنيات شائعة تلك الأيام وإلى كتب المـراسـلات العصرية ـ كما كتب على أغلفتهـا ـ والتي كانت تتكـدس بكميات كبـيرة في مكتبة المدينة والتي يقدم على شرائها الطلبة والجنود بشكل خاص.

وقد دعته في رسالتها إلى أن يأتيها إلى بيتها الذي يقع في نهاية زقاق مسدود، حددت له اليوم والوقت فلم يتوان عن الذهاب، وفي رأس الزقاق وجدها تنتظره، لم يكن قد كلمها من قبل، ولا سمع صوتها، أشارت له

بيدهـا فتبعها وهو يتعثر في الحفر التي امتلأ بها الزقاق، وعندما دخلت البيت دخل وراءها وأسرعت في غلق الباب.

رمت عباءتها على الأرض لتبقى في ثوب النوم الأبيض المرصع بنجوم زرقاء، ابتسمت له وفي عينيها الساهمتين اتقدت ألف رغبة، تقدم منها وأخذها بين ذراعيه دون أن يجد كلمة واحدة يتفوه بها. وظل يعتصرها بين ذراعيه، ويتحسس لحمهـا الطري غير مصدق أن هذه الأنثى له، وأن بإمكانه أن يأخذ منها ما شاء لعله يقبر قحطه وجفافه العريقين، أما هي فكـانت تفـح رغبـة وهي تنفتـح له مثـل مدينة مستسلمة وتأخذه إليها مشمشمة رائحته وداسة أنفها في شعر صدره.

سألهـا :

ـ ما اسمــك ؟

ونطقت بصعوبـة :

ـ نــوال.

وأضافت وهي تغرق في مياهه :

ـ نوال الحسـن

وتمتم وهو يعضها من عنقها الأبيض :

ـ إنك جميلة

فتصــرخ :

ـ أرجوك، ستترك عضتك أثرا فماذا أقول ؟

ورفع عنها أسنانه، كان يود أن يأكلها، يمضغها بتلذذ، يعرف طعم لحمها ودمها، ينحرها في هذه الساعة الساخنة التي يقترب فيها الوقت من الظهيرة، وقد سارع الناس للاختفاء في بيوتهم من لفح الهجير الكاسح.

وعندما ينفجر لهيبه فوق ثيابه، ينتبه إلى تدفق السخونة فيرفع ذراعيه عنهـا ويسرع نحو الباب ليفتحه ويمضي مهرولا في الزقاق ويده مسدلة أمامه لتغطي بنطاله المبلول.

وقـد كرر ذلك معها مرات، يطرحها على الأرض فوق بلاط مدخل

البيت الشرقي الطراز، يلحس بياضها بلسانه، يشمشمها كلها، يصل إلى كل مكـان في جسـدهـا، من حلمتي ثدييهـا حتى . . . وإلى قدميها الورديتين. وكان في كل مرة يزداد هدوءا وتماسكا ومعرفة بجسدها، ولكن ابن خالته ألح في تحذيره له فكف عن ذلك. وقد حاولت أن تستعيده ولكن قراره كان حاسما فانكفأت باحثة عن البديل.

أمسكـوا بها وقـد خرجت من بيت موظف بغـدادي أعـزب فكانت فضيحة حركت مياه المدينة الراكدة مما اضطر والدها الغريب إلى طلب تقديم نقل والعودة إلى مدينته كركوك.

يتذكرها غياث مرات ويعض على يده ندما لأنه أنصت إلى تحذير ابن خالته وفر منها فكان أن لجأت لذلك الموظف ثم حدث ما حدث.

انطونيـو لاثـارو

إن الرسامين ورائي دوما، قاتلهم الله، وأحدهم رسام اسباني كان يقيم معرضا لرسومه في صالة الفندق الذي نزلت به في مدريد ذات يوم. خرج أفراد طاقم الطائرة ليطوفوا في شوارع المدينة وليشربوا « السنكَرية » (*). وتكون الخاتمة سهـــرة عامرة، في ملهى ليلي، أو مرقص، أو مطعم. أما أنـا فقـد غيرت ثيابي، ووضعت الأحمـر على شفتي ونـزلت وكأنني ألبي موعدا. ولكن لم يكن هناك أحد في انتظاري غير موظف الاستقبال الذي أخـذ المفتـاح مني وتمنى لي ليلة سعيدة، شكرته وتركت خطواتي الحائرة لتتحرك في فسحة المدخل بعد أن تزودت بعدد من الأدلة الملونة عن أماكن السهر في ليل مدريد، رحت أقلبها تارة وأخرى أراقب الاعلانات المعلقة فقرأت بينها إعلانا عن معرض في الصالة، سألت عن مكانها وأسرعت متحمسة لأرى نماذج من الفن الاسباني المعاصر الذي لم يتسن لي التعرف

(*) هو النبيذ الاسباني الأحمر المحلى بالفواكه.

عليه من قبل .

عندما دخلت صالة العرض وجدته هناك، كان طويلا ونحيلا وتخيم على وجهه صفرة مطمئنة، وكان رواد المعرض قليلين بينهم خليجي، عرفته من عقاله وكوفيته ودشداشته العريضة، يأخذه القصر والامتلاء، ويجعل عرضه قريبا من طوله .

التقطت دليل المعرض وقرأت عنه بالفرنسية والاسبانية، اسمه وولادته والمعارض التي ساهم فيها، في نيويورك وباريس ولندن وستوكهولم وجنيف وبراغ ولشبونة والقاهرة، تعلو هذه المعلومات صورة له وهو في بدلة غامقة مع ربطة عنق مزركشة، يبدو وكأنها لم تثبت جيدا حول ياقة قميصه .

اقترب مني عندما رآني، وخاطبني بالاسبانية، وأظنه كان يرحب بي، إذ أنني كنت أجهل أية كلمة في هذه اللغة، وهززت رأسي مشيرة بأنني لم أفهم منه، ثم حييته بالفرنسية فرد علي باسما وقال :

ـ يا لها من فرصة جميلة ان التقي بفرنسية في مدريد، لقد درست الرسم في باريس ثلاث سنوات وأحببتها كما أحببت أهلها .

واعترضته قائلة :

ـ رغم أنني أتكلم الفرنسية بطلاقة كما ترى إلا أنني أبعد ما أكون عن الفرنسيين، انني عربية يا سيدي .

وعلت ضحكته التي ناس لها قفصه الصدري الضيق، ثم هز يده غير مصدق، فاتقد في داخلي حس المناقشة الذي أحبه وقلت له من جديد :

ـ انني عربية رغم شقرة شعري وأعتز بهذا، وإن كنت غير متأكد فهاك جواز سفري .

وفتحت حقيبتي لأستخرج منها الجواز حتى أريه إياه فأوقفني عن ذلك بقوله :

ـ حسنا يا سيدتي لقد اقتنعت، والمهم أن تري اللوحات، يسرني جدا أن تزور معرضي ساحرة شرقية مثلك .

شكرته على كلماته الرطبة هذه، وأخذت أتبعه وهو يطوف بي بين اللوحات .

وتحدث كثيرا وكأنه كان يخبىء حديثه في انتظار من يأتيه ليسمعه منه، وأظنني مكثت هناك قرابة الساعة، وعندما فرغت من تأمل اللوحات وشرحه لظروف ومكان رسم كل منها دعاني على فنجان قهوة في كافتريا الفندق فوافقت.

ثم صافحته مودعة بعد أن قبلت منه بطاقته التي تحمل اسمه وعنوانه ورقم هاتفه.

* * *

بعد أيام حطت بي الطائرة في براغ، خرجت لأتجول في الشوارع المحيطة بالفندق، وكنت أرى هذه المدينة لأول مرة، وقد سمعت عنها الكثير من قبل، وعن أواني الكريستال والمزهريات ومنافض السكائر التي يجلبها السياح منها.

واشتريت في طريقي مجموعة من البطاقات التي تضم صورا لمعالم المدينة، حملتها إلى غرفتي في الفندق وعدت مبكرة لأسطر عليها حروفا للأهل والأصدقاء.

ولم أكتب للمنصف البطاقة الأولى كما كنت أفعل، والتي غالبا ما كنت أصل قبلها حتى اختلطت عليه ولم يميزها أو يقرأها كما اعترف لي ذات يوم، وحيث قابل زعلي من ذلك بالقول :

- ها أنك تعودين وأنت على أحسن ما يرام، سليمة ومعافاة ومشرقة، وهذا ما يهمني، أما الحديث عن المدن ومعالمها فهذا أمر لن يهمني.

وقبلت تبريره على مضض، كما قبلت قبلته الباردة التي طبعها على خدي ولكنني لم انقطع عن الكتابة له، حيث أسطر له حروف الفرح وأنا أعانق المدن والوجوه الغريبة لعلّه يقرأها مرة في ساعة فراغ.

لم أكتب له البطاقة الأولى هذه المرة فقد تخلى عني قبل اسبوعين، قبلني على جبيني وهو يقول :

- ربما يكون هذا آخر لقاء بيننا، ففي نهاية الأسبوع سأسافر إلى طبرقة

لأتـزوج من ابنة خالتي ممتثلا لارادة العائلة وبامكانك أن تحتفظي بهذه الشقة فإيجارها قليل، وأنت بحاجة إلى مكان تأوين إليه في فترات بقائك هنا بين رحلة وأخرى، فالفنادق مزعجة، تعرفين بأن دخلي قليل ولست قادرا على دفع إيجار هذه الشقة اضافة إلى الشقة الأخرى التي استأجرتها في منطقة المرسى لتكون عشي الزوجي.

لم أشتمه، لم أعاتبه، لم أبصق في وجهه، لم أفعل شيئا أبدا، ولم أسأله ذلك السؤال الذي يطلقه الفم بسهولة في مثل هذه المواقف:

ـ وماذا كنت تسمي علاقتنا اذن؟ وما الذي كنت أعنيه لك؟

على الـرغم من أننا لم نتطرق إلى حديث الزواج مرة، ضحكت من قلبي، وأخـذت أركـل الأرض بقدمي بقوة وأنا أواصل الضحك، وهو واقف أمامي بانشداه ويده تمسك بفرشاة الرسم المحملة بالألوان ليضعها على اللوحة التي كان يرسم فيها دون أن تتضح معالمها بعد.

دخلت الغرفة وارتديت ثيابي على عجل، وحملت حقيبتي المرسوم عليها شعـار الخـطوط الجوية التي أعمل فيها والتي كانت تضم ثوب نومي وفـرشاة ومعجون أسناني وبعض علب التجميل وقارورة من عطري المفضل، وانصرفت.

في لحظات الحسم والقـطيعـة ينتـابني هدوء غريب، يسبقـه ضحك مسعور، فكأنه رد فعل على اكتشافي المفاجىء لسخف الكثير من الأشياء التي نضع عليها الهالات الكبيرة فإذا بها تسقط تحت أقدامنا معفرة بالرماد والطين وممتزجة بالأزبال وروث البهائم.

وأتذكر بأنني بعد خروجي قد مشيت كثيرا، وتوقف لي أكثر من سائق فخـور بسيارته الفارهة ظنا منه أنني صيد سهل، يستطيع به أن يرطب أسنـانـه ويرضي ذكـورته الاستعراضية، قطعت شارع الحرية كله، ثم الحبيب ثامر وفرنسا وبعده شارل ديغول.

دخلت مخازن وتطلعت إلى واجهات العرض، واشتريت معطفا واقيا من المـطر ومشـدات صدر ومـلابس داخلية، ولم تسع حقيبتي الصغيرة

مقتنياتي الجديدة لذا حشرتها في كيس ورقي وحملته على صدري وقدماي تتخبـطان في دربي. وانتبهت إلى أنني لا أعـرف مكـانا آوي إليه، وهنا تذكرت عمي، وجاءني الخلاص، أوقفت سيارة تاكسي لتحملني إلى بيته.

طالعني الكارت الذي قدمه لي الرسام الأسباني، قرأت اسمه وعنوانه، وضحكت من الـواو هذه الملصقـة باسمـه واسم أبيه، ماذا لو كنت اسبـانية؟ إذن لكـان اسمي سعيدتـو بنت المنصفو، وكررت الضحك ثانية، وأنا أقلب البطاقات لأختار واحدة منها له، واستقر رأيي على بطاقة تمثل لوحة لفنان تشيكي معاصر، تمرد على أسر الفن الرسمي المتداول في هذا البلد وغيره من البلدان الاشتراكية، وكتبت له كلمات تحية بعد أن سجلت له عنوان بيت عمي، وفي الصباح وقبل أن انضم إلى طاقم الطائرة لنغادر إلى المطار أودعت البطاقات في صندوق البريد.

بعد قرابة الأسبوعين وصلتني منه أول بطاقة. جميل أن يعود المرء من رحلة مرهقة، وخاصة لمضيفة مثلي، تخدم عشرات المسافرين، الناعمين والغلاظ، المرضى والأصحاء، أقدم لهم أطباق الطعام وكؤوس الشراب، فكأنهم قد اشتروا الطائرة بمن فيها بمجرد أن دفعوا ثمن تذكرة، جميل أن يعود ليجد في انتظاره كلمات طيبة، تذكره بأن الدنيا مازالت بخير، وأن في هذا العالم المترامي هناك من يسأل عنه.

لم أرد على بطاقته بسرعة، انتظرت أن أحل في بلغراد في نهاية الأسبوع لأكتب له من هناك. وألحقتها بأخرى من جدة، ولكنني كنت أجد بطاقة منه في كل عودة، وانقطع عن ذلك قرابة الشهر ثم جاءتني بطاقة منه معنونة من الفلبين، وأخرى من هونغ كونغ، وثالثة من دلهي ورابعة من البحرين وخامسة من الكويت، بعدها من بغداد وعمان وأخيرا من مدريد حيث أخبرني بأنه قد عاد إليها من رحلة ممتلئة في الشرق البعيد، وحمل معه الكثير من التخطيطات وهي مشاريع لوحات معرضه القادم وسألني :

ـ هل بإمكانه أن يقيم معرضه في تونس؟ وهل لي أن أساعده في الأمر؟

ولم ينس أن يذيل بطاقته هذه بقوله : إنني أفعل ذلك من أجلك.

كتبت له شاكرة، واخبرته أنني لا علم لي بعالم المعارض واللوحات، ولكنني أعرف أن في قلب العاصمة قاعة عرض كبيرة تدعى بقاعة الأخبار، وكنت غير متأكدة من اسمها تماما، وأنني أجدها دوما مكتظة بالزوار الذين يشاهدون لوحات معلقة على جدرانها ولم أفكر يوما في زيارتها، ولعل هناك قاعات أوسع وأفضل منها ولكنني لا أعرفها وسأبحث عنها وأخبره عن ذلك في رسالة لاحقة.

* * *

وصلت ذات يوم إلى مدريد. وكان علينا أن نمضي ليلتنا فيها لنرحل في اليوم التالي مبكرين، وبعد أن وضعت حقيبتي في غرفتي طلبته فوجدته، كان ذلك مفاجأة له، واخبرني أنه سيكون عندي خلال ساعة.

لا أدري لماذا كنت فرحة بهذا اللقاء وأخذت اتهيأ له، ملأت البانيو بالماء الفاتر وغطست فيه، وكان مذياعي الصغير يبث الأغاني الأسبانية الرائعة بعنفها وايقاعها السريع.

ارتديت ثيابي وانتظرته في صالون الفندق حتى حضر، مد لي يده، وظلت بيننا مسافة، ولعله كان ينتظر أن يكون لقائي به أكثر حرارة، ولكنني لم أجد الرباط العميق الذي يشدني إليه حتى أفعل ذلك.

قال لي :

- سيارتي في خدمتك، إنها مركونة قريبا في الفندق.

وقلت له.

- لا أظن أننا سنكون بحاجة إليها، أفضل أن نمشي على قدمينا.

وامتثل لما أردت.

كانت مدريد رائعة على عادتها، وشارع « برنسيسا » الذي يقع فندقي فيه يمور بالأضواء والعابرين، وأنا أتأمل الواجهات وأراقب الناس وهو بجانبي بطوله الذي يفوق الحد المألوف، لذا تجاهد خطواتي القصيرة من أجل أن ألحق به وأنصت إلى صوته الذي تنسكب علي كلماته من علٍ.

وقفنا عند محل لبيع أشرطة الكاسيت، واشترى لي واحدا وقدمه لي موضحا :

ـ إن هذه هي الموسيقى الاسبانية الأصيلة التي فيها روحكم أنتم أيها العرب الرائعون !

تقبلت منه الشريط الهدية، ووعدته أن اسمعه مرارا، ثم قادني إلى تمثال دون كيشوت، وكسفني انزواؤه خلف نصب كبير حيث لا يستطيع رؤيته إلا من يدلف الى الحديقة، أما المارة في شارع « برنسيسا » فلا يتوقعون وجوده في هذا المكان.

واقترحت عليه وهو الرسام المعروف أن يقدم طلبا لبلدية المدينة حتى تنقذه من هذا المنفى وتخرجه إلى الأنظار تكريما لسيرفانتس العظيم.

ثم دخلنا مطعما لبيع « الهمبورغر » أكلت اثنتين وشربت كأسا كبيرة من البيرة، وضحكت، نعم، لماذا لا أفعل ذلك ؟ من مات وأخذ معه شيئا من هذه الدنيا ؟

وخرجنا لنتمشى ثانية.

قلت له :

ـ لقد تعبت، وكأس البيرة بدأت مفعولها.

واقترح أن نجلس في أحد مقاهي الأرصفة فوافقت لأنني أحبها، حيث يصبح بإمكاني أن أرى عشرات الناس العابرين وأنا أرتشف فنجانا من القهوة وفي يدي سيكارة أمج دخانها مجا دون أن أقوى على إدخاله إلى رئتي.

همست له :

ـ أتدري ماذا أحب أن أرى في مدريد ؟

وهتف كالممتثل لتلبية رغبتي :

ـ ماذا ؟

قلت :

ـ مصارعة الثيران.

وردد :

ـ طلب بسيط، ولكن عليك أن تأخذي اجازة طويلة وتأتي إلى هنا لأن المصارعة هذه لا تقدم إلا مرة في الأسبوع، أما في زيارتك الخاطفة هذه فلا أستطيع أن أريك غير عرض للفلامنكو الاسباني الصميم.

وهتفت من قلبي :

ـ رائع.

وعاد ليوضح بحماس عندما وجد مني قبولا :

ـ أما مصارعة الثيران فانني ابن اسبانيا البار كما اطلق على نفسي وكما سماني أحد النقاد التشكيليين إلا أنني لا أطيق مشاهدتها، مرة واحدة فقط حضرتها في مراهقتي فأصبت بالإغماء وأنا أرى طعنات السيف تترى على جسد الثور المسكين.

شرب انطونيو لاثارو الكثير من أقداح البيرة وهو يقول :

ـ إنني لا أخلط بين المشروبات رغم أنني أشربها كلها، فإن بدأت بالويسكي فانني استمرّ به، وإن بدأت بالبيرة استمر فيها حتى ينهار مجد رأسي ويتسرب الخدر العظيم إلى كل مسامة مني.

ـ هذا يعني إنك مدمن ؟

ـ أبدا، إنني تكوين خاص، أشرب شهرا باستمرار وأقلع ستة شهور، ادخن سنة وامتنع ثلاثا، وهكذا، كل شيء لدي وليد حاجة ومزاج، هذا كل شيء.

ولم أصدق أن بطنه الضامر الذي يكاد يلتصق بظهره قادر على اختزان كل هذه الكمية من البيرة، ربما أكثر من خمس عشرة كأسا كبيرة حتى الآن، ولم يبد عليه السكر، ولكن صوته رق كثيرا، وهدأت لهجته المتحمسة وخف ميله إلى الشرح والدخول في الجزئيات.

وعرفت فيما عرفته عنه أنه كان متزوجا من راقصة فلامنكو سمراء، عرفها في غرناطة وقدكان يقيم معرضا لرسومه فيها، رآها في ملهى « نبتونو » وقد كانت تؤدي رقصة فاتنة، فبدت له كالطيف بتنورتها

المزركشة والضوء الكاشف مسلط عليها، وهي تنفتل وترفس الأرض ثم تقفـز وتصفق بيديهـا، فيعشش الصمت والإنشداه في قلوب رواد ذلك الملهى الليلي.

انتـظرهـا حتى فرغت من أداء رقصتها وذهب إليها، وقدم لها نفسه فكانت علاقة استمرت لبضعة شهور، تبعها الزواج، ولكنها سرعان ما ملت حياتها البيتية الرتيبة في مدريد، واقترحت عليه أن ينفصلا بهدوء فهي لم تخلق لمثل هذه الحياة ورنين القيثار يخز رأسها فعليها أن تذهب وترقص مادام جسدها قادرا على ذلك، ولم يجد طريقة توقف قرارها المفاجىء لذا رضخ لما أرادت وودعها كسيرا، أطلقها لتحلق في سماواتها الأولى التي لم يتوقف حنينها إليها مرة.

صار شراء تماثيل راقصات الفلامنكو عادته وهوسه، يحملها من كل المـدن الاسبـانية، من إشبيلية وقادش ومدريد، من القرى الجبلية ومن الباعة المتجولين حتى غصت بها شقته وبدأت تزاحم لوحاته الكثيرة.

ثـم قـال :

- مرة سكـرت، لا أدري كم شربت لعـلي أنفقت طيلة النهـار في الشرب، امتلأت عروقي بعدوانية لم أعرفها، درت في الشقة فوجدت هذه التماثيل اللعينة ورائي، تتكاثر كالفئران، في غرفة النوم، وفي المطبخ، وفي غرفـة الاستقبـال والممـرات، امتدت يدي إليها وبدأت أضرب الواحد بالآخر وأنا أصرخ وأسب، أتيت عليها كلها وحولتها إلى نثار، سقطت على وجهي وأنـا أتصبب عرقـا وتعبـا، ورحت في نومـة عميقة شبيهة بحالة الإغماء، وعندما صحوت كنت قد شفيت.

* * *

تحولت بطاقاته الصغيرة إلى رسائل طويلة، غبت عن تونس شهورا مع زوجي لأجدها مكدسة في بيت عمي، وعندما رأتني زوجته بادرتني بالقول :

- تعالي وأنقذينا من هذه المصيبة.

كنت وحيدة وخائبة في نفسي وزوجي وأمنياتي فوجدت فيها متنفسا وملاذا، حملتها بحرص وقرأتها كلها، لم يكن فيها شيء مهم، ولكنها كانت صرخات إنسان يحتضر، لم تستطيع مدريد ولا إسبانيا ولا العالم كله ولا شهرته ولا رسومه ولا الخمرة أن تعيد إليه الحياة، إنه يستنجد بي، ولكن ما الجدوى ؟ وهل يستطيع الغريق أن ينقذ غريقا آخر ؟

* * *

وصلتني منه رسالة أخيرا يقول لي فيها إنه سيأتي من أجل أن يراني ويدرس إمكانية إقامة معرض في مدينتي، حسنا ليأت، ولكن بماذا سأقدمه لغياث داود ؟

(العزيز غياث

محبتي وصداقتي

منذ أسابيع لم أكتب لك. أحيانا أحس بأن لدي أشياء كثيرة أود لو أحدثك فيها، ولكن من أين أبدا ؟ وكيف هذه الصفحات الصغيرة أن تسع كل ما في القلب والرأس ؟

ما أريد أن أقوله لك الآن هو أنني مجهد ومحبط أيضا، وفوق هذا وزني في ازدياد غير معقول رغم المصائب ورغم فقداني للشهية في تناول الطعام. ولم أعد أقوى على ابتلاع لقمة واحدة الا بمصاحبة كأس من الخمرة.

جئت من لندن قبل أيام بعد أن تبعتها إلى هناك، ليس إلاها من وسادة أضع عليها رأسي المحموم في هذا الليل الطويل الذي لا صباح وراءه.

قطعت تذكرة وتبعتها إلى هناك، شغلت بي، وأعطتني كل وقتها، أغرقتني في الحلم، أسكنتني معها في شقتها، وهكذ مضى الشهران وخمسة أيام وأنا في في حالة غياب لذيذ. ولكنني أفقت فجأة، وتذكرت أن لي امرأة وولدين يتلهفون من أجل رؤيتي ومن أجل أن أوفر لهم الحماية والطعام واللباس فقفلت راجعا. تشبثت بي لأن أبقى وأعمل هناك، في مجلة أو معها في المطعم، أو أي مكان اختاره، ولكنني تهربت من تسجيل أي رد ذكّرتها بأسرتي فطأطأت رأسها، وكأنها هي الأخرى قد أفاقت من حلمها، أخذتني في حضنها وهي تعلن بصوت ملتاع : اذهب، ولكن عد، إن لم تكن معك النقود اكتب لي وسأبعث لك بالتذكرة.

كلنا مشدودون إلى أوهام نصنعها، ونصوغها وفق الصورة التي نريدها لها نحن، ولكن هل هذا يكفي ؟ وإلى أين ؟

غياث يا صديقي.

أتمنى أن ألتقيك لأحدثك بعد. واعذرني ان لم أطل فأنا عييّ.

حسان صبحي)

(حبيبـي غيـاث
تحيـة ومـــودة
اكتب لك من بيروت، بيروتنا نحن عشاقها الحقيقيين، وليس بيروتهم هم الذين يمارسون غرس حرابهم في جسدها المضرج ليزيدوا في تعذيبها ويمعنوا في سحقها.
لقد فارقتنا يا غياث دون أن نكون متهيئين لذلك، لم تمهد لهذا الفراق، كنت تعمل في الخفاء من أجل أن تغادرنا، ولكن المهم أنك مازلت حاضرا بيننا ـ وفي قلبي على الأكثر ـ ولعل كتابتي لك اليوم فيها شيء من العتاب لأن كلماتك لي بدأت تشح تدريجيا، ومن يدري فقد يأتيك يوم تنساني فيه تماما ؟ ترى هل سيحصل هذا فعلا ؟ وهل كان رحيلك من هنا الخاتمة لتبحث عن بدايات أخرى، في تونس، أو في أي مكان تحل فيه ؟
لم أعتد أن التفت إلى الوراء يا غياث، وهذا سر ضحكتي الدائمة التي لا تغيب عن شفتي، رغم أنني مهدمة من الداخل، وأعاني من ذلك الحزن الصامت الذي يقرضني كالعث، وهل تعتبر ما أخبرك به الآن كشفا لسر خاص عندما أقول إنني أتناول مع فطور الصباح حبة مهدئة وثانية قبل أن أغمض عيني، كل هذا من أجل أن أخفف من توتري الذي لم تقهره ضحكاتي ؟
غياث . . . إنني هكذا . . ولكنني رغم كل شيء فرحة برحيلك، ولو أنك بقيت في بيروت لقرأنا نعيك في إحدى الصحف المنافقة، وكل ذنبك أنك تحمل هذه الجنسية دون غيرها، فتصور.
بيروت، بيروتنا، تزداد عتمة، وليس هناك أمل في انفراج، المتفجرات في كل مكان، وشريعة الغاب هي السائدة، والمسلحون الغريبو الهيئات هم الأسياد، أما نحن فليس لنا إلا الله.
غيـاث عزيـزي.
أتريد أن أفاجئك بقرار ؟ اسمع، لقد قررت أن آتي إليك، أن أرى تونس التي تغنّى الكثيرون بخضرتها، ولكن قبل هذا علي أن أعرف هل

سيكـون مجيئي منـاسبـا ؟ أم أنك في علاقة أخرى تمنعك من استقبالي ومنحي الوقت لكي أدور في كل المدن والشواطئ التونسية ؟ .

إننا في إضراب الآن، كل معلمي المدارس الرسمية أضربوا، لديهم حقـوق ومـطاليب، ولكن من يستمع إلينا والدولة غائبة فعليا وحاضرة اسميا فقط ؟

وأظن أن الاضراب سيستمر لأن ليس هناك من يفاوض المضربين، وبهذا سأستغل الفرصة وآتيك، لا حاجة لي بقبرص هذه المرة فقد سئمتني قبل أن أسأمها لكثرة زياراتي لها.

سآتيك، فانتظرني.

المخلصة سميرة حليم)

* * *

حسنا تعالي، هذا البيت الكبير مفتوح لك، ليس لك وحدك فقط بل للشعب العربي الباسل كله. من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، لبيك يا . . . ألست موظفا في الجامعة العربية ؟ ولي مكتب وتليفون ومرتب شهري يدفع لي بالعملة الصعبة ؟

ولكن، ماذا ستقول سعيدة بنت المنصف إذا فتحت الباب ووجدتك أمامها ؟

ـ 11 ـ

حط الليل، حط الحزن، والليل وخز ودبابيس، وهو قافلة تحمل متاع القبائل المضرجة التائهة الباحثة عن أهلة بيضاء في سماوات الحزن والخيبة.

تنطرح على ظهرك عاريا وتتقلب في رمل مسعور. تنبح مثل كلب وقع في حفرة فأحاط به الصبيان ليحصبوه بالحصى والحجارة.

تعـوي ولكن لن يسعفك عابر حنون، فصوتك مختنق خاو، وأنت بينهم، يتلذذون بما يصنعـونـه بك، ولن يغـادروك ما لم تنفث آخـر أنفاسك، يجمعون قهقهاتهم وينصرفون ليظل جسدك الملقى شاهدا وفزاعة.

حط الليـل، وهب العجاج، تتناثر الرمال التي لم تفقدها سخونتها أنسام الليل، الملح في العيون، والطين في الأفواه، والصدور لا تستنشق غير الرماد، ترتفع الرؤوس المنكسة، رايات المغلوبين تتساءل عن عدالة الأرض والسماء، وتتحرك الأظافر لتحفر أخاديد لها في الجلود المدماة.

نخل السماوة هل هو باسق حقا ؟ هل صدقت تلك الأغنية التي كانت تترنم بها حكيمة بنت الشيخ جابر ؟ وهي تحيل العجين إلى كرات صغيرة في انتظار أن تفرشها بين يديها الذاويتين أقراصا تودعها في تنورها الحامي ؟

تتذكر أن نخل السماوة كان يظلل أشجار المشمش والسدر والرمان، وتتـذكـر العنـادل والقمري والفواخت والعصافير التي تركن إلى سعفه المزهـو وعـذوقـه الحبـلى بالتمـر. ماذا تتمنى تلك الجـذوع الـواقفـة الـيـوم ؟ تلك الأشجـار المـرداء بعـد أن أخـذت أهليهـا المـدن البعيدة ؟ مصانع الإسمنت والنسيج، دوائر الحكومة والدكاكين الصغيرة التي ترصع مدن المهاجرين، في « الشعلة » و« الثورة » و« كسرة وعطش »

و« البياع »، في بغداد والبصرة، والموصل وكركوك ؟

حط الليـل، وهناك المنائر والقباب، وتكبيرة الأذان، وصياح ديكة الفجـر وهي توقظ النيـام، وصـوت أبيك ذاك، وهو يتهدج بالصلاة، شاكـرا الـرب على النعمـة التي هو فيها، أية نعمة كانت ؟ أربع نساء وسرب طويـل من الأولاد، الـذكـور والإنـاث، المـرضى والأصحاء، وحصان أدهم ضامر، وبقرتان وثلاث نعجات ومعزى واحدة.

وحكيمـة بنت الشيـخ جابـر تحمـد الله هي أيضا وهي تنوء بعللها العديدة التي تسكن جسدها من الرأس حتى الأطراف، وأنت لا تفعل شيئا، تصغي وتتطلع إلى السقف حيث تعشش سنونوة أليفة اعتادت أن تأتي كل عام.

* * *

سعيـــدة بنت المنصف أنت معي درع واق، ومـــأوى يضم تشردي وضياعي، ولكنك ستذهبين، كان في نيتك أن تقضي هنا أسبوعا، عشرة أيـــام في أحسن الأحـوال، تزورين أهلك وتتـابعـين أخبـار المعـارف والأقـربـاء، ولكن ها هي الشهـور تمر عليك، بأيامها وساعاتها وأنت معي، تعتلقين انفعالا، تتحولين إلى عدوانية شرسة أحيانا، تصرخين، تهاجمينني، تهدمين الدنيا، تنسفين كل شيء، ولكنك سرعان ما تبردين، تقبلينني وتطلبين الصفح، لقد خبرتك، عرفت غليانك، لأنك معي، تريدين ذلك، ولكنك لا تريدينه في نفس الوقت، أعرف لحظات جنونك لذلـك أكف عن الرد أو الكلام، أتركك لتفرغي ما ادخره صدرك من غضب وكلمات، أحيانا لا أنصت إليك، أرحل مع فكرة أو أغنية حتى تتعبي وتكفّي.

ترى أية فكرة طرأت في رأس كامل السعدون وهو يلتقيك في قطار النهار ذاك الذي ضمكما في مقصورة واحدة وهو يقطع الآماد الخضراء ما بين لوزان وجنيف ؟ كيف عرف بلدك ؟ وكيف عرف وجهتك ؟ وكيف

تذكر مكاني ؟ فكان أن حملك تلك الرسالة لتأتيني بها ذات صباح، ولتكون البداية والحتف ؟

ملعون كامل السعدون، ملعونة أنت، هيا امضي، إنني وحيد وموحش، لن يشفع لي شيء، لا الماضي المزدحم الخائب، ولا النقود التي أودعها في البنك، ولا السيارة ولا المتبقى من التطلعات. كان من الممكن أن أنتهي في ذلك اليوم لو لم تكن معي جليلة عباس، ومن الممكن أن تعاودني تلك النوبة وأنا في بيتي المعزول في حي « المنزه » الذي لا يعرف مكانه أحد إلاك وسامي المنذر وهو يفاجئني بزياراته القصيرة ليبثني همومه ويحدثني عن خديجة بنت الهادي وأولاده دون أن ينسى كأس الويسكي التي يحضرها قبل أن يبدأ الكلام، يدور داخل الغرفة بقامته الممتلئة المنتصبة، ويحرك ساقين متعبتين أمضهما الخدر وقلة النوم، أشاركه حديثه، وأصغي إليه، وأسمعه نصائحي التي تنثال على فمي كالسعال.

اذهبي. من قال لك أن تبقي ؟ لن أتوسل إليك من أجل ذلك فأنا رجل بلا قناع ولا تميمة، كل ما في قلبي يعلن عنه لساني، أكره المناورات والكواليس، وأحب الحقول والبراري وغناء الرعاة، إنني منذور اليوم للشوارع والمدن الواسعة، للشواطىء والسياح والمطاعم الخافتة الأنوار، سأركب سيارتي في لحظة شوق وضجر وأقودها بأقصى سرعتها دون أن أحدد مكانا، فيلحق بي شرطي مرور على دراجته النارية ليوقفني ويطلب أوراقي، ثم ليسجل علي مخالفة، أضحك وأمضي لأواصل الدوران في الشوارع، وقد أتوقف أمام فندق البحيرة لأبحث عن تلك العاهرة الصغيرة السمراء، بشعرها القصير ونهديها الغلاميين ونكاتها الكثيرة التي حفظتها من السياح العرب الذين مروا على جسدها بلا حساب، أحملها هناك بعيدا، في طريق بنزرت أو الحمامات، أو، وقد أرميها على قفاها وأولجه فيها فتفرج ساقيها ضاحكة وهي لا تكف عن رجمي بالنكات.

اذهبي سعيدة بنت المنصف، فليس مهما أن تكون سدودي منيعة، وليعث بي الموج والفيضان.

هذا المهيب - هكذا كانت تراه أميرة حسين - المائل إلى السمرة والشحوب، بقامته النحيفة الممتدة وفوديه اللذين تسرب إليهما شيء من البياض، بياقة عنقه المنشاة وبدلته الايطالية الزرقاء، وبرائحة الطيب التي تفوح من خديه وكفيه هو نفسه غياث بن داود بن الشيخ محمد آل نجم بن فزع العاتي الذي هجر السماوة نحو الناصرية يوما بدشداشة مقلمة وصرة قماش ليس فيها غير حفنة من التمر الجاف الذي كانوا يسمونه بـ «الديري». هو نفسه الذي كان من الممكن أن يفترسه ذلك اللوطي الأقشر فيكسر كبرياءه ويجعله ذليلا إلى الأبد، لا يقوى على الثبات والعراك وخوض الأحداث الكبار.

غياث داود، لقد فعلت ما فعلت، فهل هناك شيء لم يزل ملقى في انتظار من يوقظه من رقاده ؟

قالت سعيدة بنت المنصف :

- لم أرك في مقر عملك إلا مرة واحدة عندما حملت لك الرسالة من صديقك الظريف كامل السعدون الذي كدت أن أعرف كل وقائع حياته خلال ساعة ونصف فقط أمضيتها معه في القطار، وجدتك محاطا بأناس كثيرين، تكلم هذا وتصغي لذاك، أو ترد على مكالمة هاتفية، كنت غارقا، وأحسست وكأنني زائدة لا مكان لي لو لم تبادر إلى الاعتذار وتوجيه الدعوة لي لنتناول العشاء معا، لا أدري لماذا قبلت دعوتك ؟ ولكنني قبلتها على أية حال فكانت البداية والمفتاح.

يمسد بيده على شعرها السبط، ثم يشم رائحة العرار البري فيمتلىء صدره بالرضا والحنو، وهو يقول لها :

- السبب أن الجامعة كانت تستقبل وزراء الخارجية العرب في أحد اجتماعاتهم الكثيرة والحمد لله، وكنت مكلفا ببعض الأمور التنظيمية لهذا

الاجتماع، أما لو جئت غدا فسترينني وحيدا في غرفتي، أتثاءب وأنش الـذبـاب الجاثم على وجهي. ثم هناك أمر ورد في كلامك حول كامل السعدون عندما قلت بأنك كدت أن تعرفي كل وقائع حياته خلال ساعة ونصف ؟ لا يا عزيزتي، إنه لا يبوح إلا بالظاهر من الأشياء، أما حياته الحقـة فلم يعرفها أحد، حتى أنا صديقه المزمن الذي عايشه في سجنه وحـريتـه وامتدت معايشتي له سنوات عدة أحس بأنني لم أفهمه، وإنه يواجهني دوما بأفعال تقلب حساباتي، أفهمت ؟

تسحب رأسها من تحت يده ثم تسند ظهرها في زاوية المقعد الأمامي من السيارة المركونة على شاطىء البحر، تتأمله برهة ثم تقول مغيرة وجهة الموضوع :

ـ اعلق نور السيارة الداخلي.

ـ هكذا أحسن، الظلام جميل.

ـ أريد أن أرى وجهك فلم أر أمامي الآن الا كرة سوداء ترمي الكلام بهدوء وتأن :

يقهقه بخفوت ثم يسألها :

ـ وما الذي يهمك في وجهي ؟

وتؤكــد :

ـ لأراجع ذوقي وأعرف أي رجل أحببت ؟

ويمد يده ويضغط على الزر فيعتلق الضوء، تتأمله بعض الوقت، ثم تقول :

ـ غريــب !

ـ ماذا ؟

ـ لا أستطيع أن أصدر عليك أي حكم.

ـ حسنا، لنؤجل ذلك الآن

تمد يدها ثم تمررها على فوده وتقول :

ـ الشيب حلو على فوديك !
ويرفع صوته بالقول :
ـ رغم انني اخافه وهو يواصل الزحف على كل شعر رأسي
تضع يدها في يده، تهصرها ببطء، ثم تتمتم بوله :
ـ ستكون رائعا بشعر مكتمل البياض ؟
ـ هذا يعني انني سأصبح عجوزا ؟
ـ وما المهم ؟ انني أريد قلبك وحنانك فقط
ـ انني أمنحك ما أقدر عليه، وما دمت بشرا فإن لي حدودي، ولكن من أجلك سأفيض وأهدم كل السدود والضفاف
قالـــت :
ـ منـذ مراهقتي وأنـا أحلم برجل أبيض الفودين، كان ذلك موضة بالنسبة لصديقاتي، وقد أحبت احداهن والد صاحبتها وجنت به، عندما تراه لا تقوى على مقاومته كما أنها لا تقوى على مصارحته لذا تهرب من أمامه لتنفجر بالبكاء.
ـ وكم عاما بينهما ؟
تهز كتفيها وترد :
ـ وما المهم ؟
ـ المهم أنها مرحلة العد العكسي كما كان يسميها حسان صبحي
فيلفت انتباهها سماعها لهذا الاسم لأول مرة فتسأله بفضول :
ـ ومن هو حسان صبحي الحكيم هذا ؟
واستمـرأ الثرثرة معها في هذا العالم الخلي، فكأنهما مقذوفان خارج الزمن والصعاب.
أجـــاب :
ـ مشرد كبير، وعاشق محموم لن يبرأ، تضمه بيروت اليوم، أحبها وقرر أن لا يغـادرهـا حتى تنهـد جدران بيتـه على رأسه. مرة نشرت احدى

المجلات ريبورتاجًا مع غير اللبنانيين الذين أصروا على البقاء في بيروت دون أن تكون لديهم الأسباب القاهرة التي تضطرهم لذلك، وكان جوابه أبلغ جواب.

وانتبهت إليه أكثر وهي تتساءل :

ـ وماذا قال ؟

ـ لقد كانت بيروت كريمة معي في أيام صحوها وعزها، ولذلك لن أفر منها وأنجو بجلدي وهي ذبيحة تتخبط في دمها، أنا هنا وموتها هو موتي

ورددت بعد أن رمت بصدرها إلى الوراء :

ـ رائع

وأضـــاف :

ـ لقد وعدني بأن يزور تونس يوما.

قالـــت :

ـ غرست في نفسي فضولا كبيرا لأن أراه.

ثم ابتلعت ريقها واعتدلت في جلسلتها وتابعت :

ـ لم أعرف من أصحابك إلا كامل السعدون ويخيل إلـي انه طيف عبر وراح رغم فضله الكبير علـي.

ـ وسـامي المنذر ؟

وضحكت من قلبها وقالت :

ـ حقـا، انـه انسـان طريف فعـلا، يحب أن ينهل الحياة كلها دفعة واحدة، في الطعام والضحك والغناء في كل شيء

ـ انه محق، فهكذا يجب أن تؤخذ الأمور

مد يده وأطفأ النور وهو يسألها :

ـ هل أنت جائعة ؟

وقالت بعد أن برمت شفتيها لثوان :

ـ لســت أدري
وعلــق :
ـ ومن يدري اذن ؟
وابتسمت وهي تردد :
ـ صدقنـــي.
صفن بعض الوقت ثم قال :
ـ كل مطاعم « قمـرت » عرفنـاهـا. ما رأيـك بمطعمنا الصغير في قرطاج ؟ لقد ألفته أكثر من غيره ونادله القصير الخجول عرفنا جيدا لذا صار يختار لنا الطعام بنفسه
قالــت :
ـ في مثل هذا الجو أفضل مطاعم المدينة، في مطعم، « لاماما » مثلا، لنـأكـل البيتزا ونستمع إلى عزف البيانو ؟ أو في مطعم « ستراسبورغ » لنكون في حماية التاريخ حيث انشىء قبل قرابة المائة عام ومازالت أعمدته وديكوراته كما هي ؟
ضحـك وقـال :
ـ وكم تتقاضين عمولة من هذين المطعمين ؟
رددت :
ـ لي حصة فيهما، ألا تعرف ذلك ؟
ويعاود الضحك ويقول :
ـ الذي أعرفه انك مفلسة أبدية
بعد أن أطلق تعليقه الذي جعلها تغص في الضحك قال :
ـ حسنا، سنعود إلى المدينة
وأدار محرك السيارة، ولكنها أمسكت بيده وهي تقول برجاء :
ـ ليس الآن، لنمكث هنـا ربع ساعة آخر، فالبحر هادىء والقمر ينتصر على أنوار فندق اميلكار الباهتة، والنخلات، انظر، ان فيهن حياة

جديـدة، ألا تشعـر بهذا ؟ اسمـع، قررت أن أكتب شيئـا عن هذا الشاطىء، لا يهم ماذا اكتب ؟ قصيدة ؟ خاطرة ؟ قصة قصيرة ؟

وعادت يده إلى شعرها بعد أن أوقف محرك السيارة عن الدوران وتفوه بوله :

ـ أيتها المجنونة الصغيرة

وسكتت قليلا كالمفكرة ثم عادت إلى البوح :

ـ أتذكر نهار الأحد الماضي ؟

ـ ومـا بـه ؟

ـ لقد حملت أحد ضيوفك الثقال لتريه مدينتي نابل والحمامات. أما أنا فقد استيقظت مبكرة وكنت مشحونة بالرغبة في أن أراك رغم انني كنت معـك في الليلة الفائتة، جئتك إلى بيتك عصرا، وخرجنا بعد أن خيم الظلام لأنك تخاف من عيون بعض العراقيين التي تترصدك، لقد أمضينا معا حوالي الخمس ساعات، انني احفظ الأيام والساعات والدقائق وحتى الثواني التي أكون فيها معك، ارتديت ثيابي بعد أن ارتشفت قهوة الصباح على عجـل وخـرجت للشـارع وارتميت في أول تاكسي حملني إلى محطة القـطارات لأذهب إلى « سيـدي بوسعيـد ». وبعد أن وصلت قطعت الـطريق من هناك مشيا على قدمي حتى وصلت إلى هنا، نعم إلى هذا المكان بالضبط، أردت أن أرى البحر. والشاطىء والنخلات في النهار إذ لم أرها معك إلا في الليل. فنهاراتك كلها ليست لي، لعملك وأصحابك وأمورك الأخرى التي لا أعلم بها. خلعت حذائي ومشيت في الماء على امتداد الشاطىء، والأمواج ترفس ساقـيّ، وعندما انتصف النهار غادرت المكان وقد أمضني الجوع. وقصدت ذلك المطعم الذي يقدم البيتزا في « سيـدي بوسعيـد » فالتهمت واحدة مع صحن من السلاطة وزجاجة بيبسي كولا، ثم صعدت نحو المقهى البحري المطل على البحر، مقهى « شبعان »، هذا هو اسمه، صدقني، وشربت كأس شاي بالنعناع وأنا

أتطلع نحو مرسى السفن و . .

قرب وجهه منها، وغرس شفتيه فوق شفتيها، ولم يبق على هذا الوضع طويلا إذ سرعان ما رفع شفتيه ليردد :

ـ قلت انك مجنونة صغيرة ؟

وتقاطعـه :

ـ ولكنني كبرت، انني أركض نحو الثلاثين لا تنس هذا

ـ انك كبيرة في عمرك، ولكنك صغيرة في أحلامك ا

تصفق بيديها وتتساءل بهمس :

ـ أليس هذا جميلا ؟ أن يكبر المرء وتظل أحلامه طفلة لا تخشى المشيب ؟

وهز رأسه موافقا، ثم قال ببطء وكأنه يختار كلماته قبل أن يتفوه بها :

ـ لم تكن لي أحلام في يوم من الأيام حتى وأنا مراهق مشحون، كنت أقتحم فقط حتى لا أتوقف، وعندما وصلت إلى ما أنا عليه اليوم فهذا لم يكن ضمن خطة أو هدف، أبدا، لقد حققت أشياء كثيرة لم تكن ترد حتى في مخيلتي التي جبلت على رضاعة الواقع بكل سخونته وبشاعته فقط، ولذا فانني لا أخشى على شيء. أو من شيء، وكلي استعداد لأن أقلب الاناء الذي آكل فيه إذا ما أحسسته عبئا وقيدا لأعود من جديد حاملا مشاعر ذلك الغلام الحافي القدمين الذي كنته يوما، أتلذذ بطعم اللبن الـرائب والتمـر القسب وخبـز التنور أكثر من التذاذي بطعام المطاعم الفاخرة الذي يقدم بقوائم نختار منها الصنف الذي نريد وفق طقوس مضجرة

وتعلن بمكر :

ـ انك مجنون أيضا ؟

ويتساءل بمكر هو الآخر :

ـ ومن قال غير ذلك ؟

تطلع كامل السعدون إلى مؤخرته المرصوصة وهو ينشفها بعد أن غادر الحمام، أعطاها كلها للمرآة ولوى رقبته إلى الخلف حتى يستطيع أن يراها جيدا، وعندما ارتسمت أمام عينيه حمراء لامعة لا شعرة فيها هتف من قلبه وكأنه اكتشف سرا كان غائبا عنه :

ـ أيها القواد يا كامل كيف مرت هذه اللقمة من أمام أفواه كل اللوطيين دون أن يستولي عليها أحد منهم ؟

وقد ضحك غياث داود عاليا عندما أنصت إلى كامل السعدون وهو يتفوه بهذا القول. ثم عاد وأضاف :

ـ تصور ان عمري تعدى الثلاثين ولم أر هذا الكنز المخبأ الذي قد ينفعني في أيام الضيم ؟

بعد ذلك انطلقت حنجرتاهما بالقهقهات العالية التي امتزجت بضوضاء المقهى وذابت فيها.

قال غياث داود :

ـ انك مفضوح لعين

وعادا ليطلقا في صخب ضحكات أخرى.

قالت سعيدة بنت المنصف :

ـ ان زيارتي لك اليوم في مقر عملك هي الثانية. لا أدري لماذا فعلتها ؟ لقد تسكعت طويلا حتى تعبت فوجدت نفسي قريبة من مبنى الجامعة العربية الفخم وتذكرت انك تحل فيه فقلت لنفسي حسنا لأدخل، ولكن لا تخف فهذه الزيارة قد تكون الأخيرة لأنني أكره الأبنية الرسمية وأفضل عليها مقاهي الأرصفة. ومن حسن حظي انني وجدتك وحيدا، ليس لدي ما أخبرك به، لذا شربت قهوتي وخرجت متحججة بموعد.

قال :

ـ كانت زيارتك مفاجأة حلوة

ـ أحب أن أراك في شتى حالاتك، في البيت والعمل والفراغ، أتصدق ان قلت لك انني أحب أن أراك مريضا حتى أعتني بك، أقدم لك الدواء ؟

خلعت سترتها المخملية السوداء وحملتها على ذراعها وهي تخطو بجانبه بأناة وهما يتمشيان في ممرات حدائق « البلفـدير » العالية الأشجار.
ثم قالت له :
ـ مللت المقاهي والمطاعم، أريد أن أخرج معك في النهار، أن يرانا الناس سوية، أن أحارب بك كل الخصوم، وأعلن بأعلى صوتي : هذا هو الرجل الذي أحبه، هذا زوجي وصديقي، فاذهبوا إلى الجحيم.
يضحك غياث داود ويضع يده على كتفها وهو يقول معلقا :
ـ لن يهم الناس بشيء حبنا هذا، ان لهم همومهم، ولهم مشاعرهم، وكل منهم فخور بما هو عليه.
وتعترضه بتساؤلها :
ـ ومن أدراك انه فخور ؟ قد يكون مسمما نازفا ؟
يرفع كتفيه إلى أعلى وهو يرد :
ـ ولماذا لا ؟
ـ تتوقف ثم تمسك بيده لتبعده عن سيارة قادمة بأقصى سرعتها، وبعد أن تمرق السيارة يواصلان الخطو وهي تقول بلهجة متحمسة :
ـ اسمع، لدي اقتراح.
وقبل أن يسألها عنه أضافت بحماس أكبر :
ـ لنسافر أسبوعا أو أكثر، اختر عاصمة قريبة حتى نذهب إليها ؟
وقدحت فكرتها في رأسه فوجدها مقنعة على الفور وهبّ مجيبا :
ـ انني معك، ولكن أية عاصمة تفضلين ؟
قالـــت :
ـ لتكن روما مثلا، فبينها وبين تونس خمسون دقيقة من الطيران فقط.
وهتف موافقـا :
ـ رائع فأنا أحبها، لقد أممتني جامعة العرب التي أعمل فيها، وعلي أن أفر من قيود هذا التأميم وأنتبه لنفسي ولو لبضعة أيام.

وفي اليوم التالي كان يحمل التذكرتين في جيبه، أخرجهما ولوح بهما أمام عينيها وهو يقول :

ـ هيئي نفسك يوم الأحد القادم.

وصفقت بيديها فرحة :

ـ أحب الثورية في تصرفاتك رغم انك مجرد برجوازي صغير كما تقول التقسيمات الفئوية للبشر.

* * *

.. وعندما وصلا إلى روما ظلا مرابطين في غرفتهما بالفندق الأنيق طيلة الأيام الثلاثة الأولى حتى ظنهما مدير الفندق زوجين في أيام عسلهما لذا بادر بارسال باقة ورد لهما.

ولكنهما ملا من المكوث في الغرفة وممارسة الحب بهذا الشبق الذي لا يرتوي، وأخذا يغادران الفندق للتجول وتناول الطعام وللتبضع من المخازن المحيطة بالفندق.

ثم ذهبا إلى الفاتيكان ليستمعا إلى صوت الراهب الأجش في قداس مهيب يتحدث فيه عن العذراء والمسيح واليوم الآخر، هكذا خمنا من خلال بعض المفردات الفرنسية التي تلتقطها سعيدة بنت المنصف من صلاته الايطالية.

* * *

سعيدة بنت المنصف إنك تتعبينني، والوصول إلى جسدك ليس بالأمر لهين، ان له مفاتيحه الغامضة، وبعد شهور من مصافحتي له لم اكتشفها كلها، لذلك فكل مرة يجمعنا فيها الفراش معا هي محاولة مضافة للوصول لى الشبع والجواب، وقد كثرت المحاولات حتى أصبحت قتالا ضاريا لا دري من منا الذي سيخر فيه ؟

- 12 -

أمينـة جبـار

هل أحببتـك حقـا ؟ أم أن ذلك الالتياع كان مجرد جوع لظل رؤوم يغـطي هامتي المحمـومـة ؟ الملسـوعـة ؟ وكان بلسما لهذا القلب المطارد المفجوع ؟ أتساءل اليوم، وبعد كل هذه السنوات رغم انني موقن بأن ما فات قد مات، ولا جدوى من طرح الأسئلة بعد. ولكنني أتساءل وسأظل كذلك مادمت لم أحظ بالرد والجواب حتى الآن، ليس دوما ولكن في بعض الأحيان عندما تبرق ذكراك في رأسي فجأة لسبب أجهله، أو تخطر أمامي امرأة لها البعض من ملامحك التي عاشت في رأسي رغم الهموم وتكدس الأحداث، أو أنصت إلى أغنية وقد شملني الرضا والسلام. تأتين أنت، أراك بقامتك الصغيرة وصدرك المتهدل الثديين الذي أرضع خمسة أبناء، تأتـين بشعـرك الطويل الذي لا تخفين فخرك به إذ هو وعيناك سلاحك الفـاتـك الماضي، ولم أكن أدري انك كنت تحاربين زحف الشيب عليه بالاصباغ، فمرة تلوحين شقراء وأخرى عامرة بالسمرة. مرة تتركينه سائبا ثملا على كتفيك، وأخرى ترفعينه إلى أعلى كتاج خرافي لـمملكة هرمة لم تعد تأوي غير الأشباح، وثالثة تقبضين على خصلاته المتناثرة بمشد فيتدلى مثـل ذيل حصان. كنت تخنخنين بكلماتك، تطلقينها من أنفك، وأنت تقتحمينني بنظراتك السوداء، تغزين رفاتي المعذب وأنا خارج من فشلي وعلائقي المتشابكة التي لا تخضع لـمنطق أو تخطيط. في قلبي محل وفي أيابي جدب وغمـة، كلهم راحـوا مني، وتركوني للظلم والظلام، حتى حكيمـة بنت الشيخ جابـر اختارت أن تموت بعد أن عايشت جملة من الأمراض التي لم يشخصها طبيب لعدة سنوات، لم أكن حاضرا أمامها يوم أغمضت عينيها إلى الأبد لذا حملت معها الكمد إلى قبرها، ووشمت قلبي بغصـة لن تخبـو أو تمحى. جاءتني رسالة تحمل نبأ موتها وأنا أتربع على الحصير بثياب السجن البيضاء، كنت مثل واحد من أولئك الذين رأيتهم

في سجن الكوت كلما زرت زوج خالتي الذي كان يقيم فيه، لم أُبد أي انفعـال، ولم أقو على أية استجابة وأنا أقرأ سطور الرسالة التي كتبها لي أخي، طويتها ووضعتها في جيبي ولازمت الصمت، لم أبك، لم أضحك، لم أشتم الدنيا، لم أقم، لم . .

ماتت حكيمة بنت الشيخ جابر اذن ؟ وكان عليها أن تموت قبل هذا الموعد، فأية الفة عجيبة كانت لها مع هذا الزخم الفياض من الأمراض المستوطنة والمعدية التي كانت تعالجها بالكنين المر الذي لا تحمل دواء غيره كلما قصـدت المستشفى، وغـير كرع المـزيد من البـابونج وفصد كتفيها بموسى حادة تقوم به عجوز مسنة، مازلت اذكر أن اسمها كان « كوشة »، وكانت تعيش على الربا وتربية الدجاج والقيام ببعض الطقوس السحرية الباهتة، ومازلت اذكر كيف كنا نخافها ونهرع مهرولين بعيدا كلما خرجت من كوخها القصبي طويلة جرداء وراحت تصرخ فينا شاتمة أهلينا وأجدادنا وقبائلنا لأن تصرفا ما قمنا به قد أزعجها.

ماتت حكيمة بنت الشيخ جابر، وقد سبقها إلى ذلك داود بن الشيخ محمد آل نجم بن فزع العاتي، من قبائل الـ . . . الذين قطنوا البوادي والسهول ونصبوا خيامهم في الجزيرة الواسعة، ولكنهم ارتضوا التدجين فيما بعـد، باعـوا ابلهم واحتفظوا بخيولهم فقط وحطوا على ضفاف السماوة مقتـاتـين على ذكريات وأمجاد كان يتغنى بها الحادون والرعاة وكان اسم جدي محمد آل نجم بن فزع العاتي أحدهم، ولكن أزلام الأمس أخذتهم المهن اليدوية ومعاملات البيع والشراء، وتناهبتهم مدن العراق والكويت، ولم يبق من ذلك الماضي الا حكايا مطفأة لم تجد من يحفظ وقائعها ليطرب بها الأسماع بترنيمة مبحوحة فوق ربابة قديمة.

أمينة جبار . . هل احببتك ؟ هل حدث ذلك فعلا ؟ أم أن الحرمان هو الـذي جعلني أتـوهم ذلـك ؟ وهل كان علي أن أستجيب لنظراتك المقتحمة وأن أتبعك هازا ذيلي ؟

كنت تضطهدينني، تعاملينني بسادية قاسية، تتركينني أنفق الساعات

مصلوبا في انتظارك متحرقا من أجل رشفة ماء.

يوما ما قلت لي بشيء من الود :

ـ ليس عندي ما أعطيك اياه يا غياث، أنت تريد مني القلب وأنا لا أملكه، لقد ذاب في محبة خمسة أبناء وزوج وأصدقاء وأحلام. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أمنحك اياه هو هذا الجسد، انظره جيدا، هل يعجبك ؟ ان كان كذلك فانني على استعداد لأن امنحه لك الآن شريطة ان تكف عن مطالبتي وتبتعد عني !

وارتفعت يدي، تهيأت لصدك بصفعة عظيمة، أفرغ فيها فشلي واندحاري وسجني وعراكي وانكساري وموتي.

انفتلت وذهبت بعيدا، هرولت في الشوارع، واستقبلتني وجوه مستنكرة، ودخلت حانة وشربت ومزقت قميصي ثم نمت تحت شجرة في أحد الحدائق العامة، أيقظني أحد العسس وحملني إلى مركز الشرطة لأنفق ليلتي فيه بتهمة السكر والتشرد.

لا أريد أن أوقظ النيام ولا نبش قبور الموتى، وليس في قلبي اليوم نحوك غير السلام وغير هذه الراية المهلهلة البيضاء أرفعها بساعد مرهق لا يقوى على الثبات. وهكذا تمضي الأمور، تأخذ مجراها الذي رسمته لها الأقدار ـ قد تضحكين من عبارة الأقدار هذه ؟ ـ ولذا ابتسمت لك، ومددت لك يدي مصافحا عندما رأيتك في مطار الدار البيضاء منشغلة بتهيئة حقائبك استعدادا لوزنها. لم أسألك أين كنت ؟ ولا ماذا تصنعين في هذه البلاد ؟ لكنني افتقدت في عينيك تلك الدعوة، وبانتا لي خابيتين منكسرتين. لقد هرمت هكذا فجأة، انحنى كتفاك وازداد تهدل ثدييك اللذين كان فيهما بعض من شموخ وصلابة عندما أخذتك إلى صدري ذات مساء، كما وهن صوتك الأخن حتى كاد ان يصبح فحيحا، لقد رحت، ولم يبق منك شيء، ليتني لم أرك فقد اغتلت بذلك اللقاء حلمي الصافي الجميل الذي عايشني دون أن يخبو ويتلاشى.

انسحبت من أمامك، تناولت حقيبتي، وزنوها ثم وضعوا لها رقما

وأخذتها السكة المتحركة، وانشغلت بعد ذلك بملء بطاقة المغادرة.

أعطيتك ظهري ولم أحاول أن أعرف ماذا فعلت ؟ أو هل أنت بحاجة إلى مساعدة ؟ كنا قاصدين بغداد، لذا فالطائرة التي ستقلنا واحدة، ولكنني لم أرك فيها، لا أدري أين جلست ؟ ولم تبحث عنك عيناي، فقد نسيتك. تصوري هذا يا أمينة جبار ؟ ولكنني تذكرتك فجأة وأنا أقلب صفحات المجلة الملونة التي بين يدي تارة وأتطلع إلى الغيوم الكثيفة السوداء تارة أخرى، والطائرة تجاهد من أجل شق طريق لها بينها.

وصفعت على جبيني براحة يدي، وتساءلت : ماذا قلت عني ؟ ثم انتابني تساؤل آخر : ماذا لو سقطت بنا الطائرة الآن ؟ هل سيجتمع اسمي واسمك في قائمة الموتى ؟ وتدبج في رثائنا كلمات العزاء ؟

ماذا بامكاني أن اسمي ذلك العذاب المندثر اذن ؟ ماذا أسمي ذلك الذل العجيب الذي لم أعرفه في هوى من أحببنني ومن احببتهن ؟

هل احببتك ؟ كيف احببتك ؟ ويوم رأيتك في لقاء المطار ذاك، كنت في أوج تألقي، كنت في ربيعي، ولكنك كنت في خريفك مهدمة لا تقوين حتى على النطق.

أمينة جبار، عندما أوطرت وجهك صفعا ذلك اليوم، واعتلقت نيران الفضيحة التي وصل لهيبها إلى زوجك وأصحابك لم أكن أنشد شيئا غير الشفاء منك، فقد أحسست انك قد أصبحت لي القيد والداء وأنا رجل ثائر، بكل أعصابي ومشاعري، وعلي أن انعتق قبل أن يفوت الأوان.

لقد هدمتك يومذاك، تركتك تبكين وعيناك ينبوعا دمع أخرسان، لم تفعلي شيئا، لم تصرخي، لم تشتميني، لأنك تعرفين بأن ما حدث كان يجب أن يحدث ختاما لهذه المسرحية المحكمة الأحداث.

كنت تقدرين وضعي وتعرفين أن لا حل لي لذلك لم أر على وجهك المغلوب في لقاء المطار إلا الصفح والسماح، ولكنهم لم يعرفوا ذلك فكان أن غرست عشرات الأصابع في عيني.

امينة جبار . . انني لا أشهر بك، ولا أرمي بالرماد على بقاياك، ولكن

ذاكرتي تخزني بألف نصل، تسيل الدماء، فأجد عينـيّ تراقبان انسيالها. .
هذا كل شيءفعلينا السلام.

أرنستينا هولزمان

يقدمها له علي النجار فيصافحها ثم يواصل التعريف :

ـ والمفـاجأة انها تعرف اللغة العربية بطلاقة، فتكلم معها وباللهجة المصرية أفضـــل، لأنها أنفقت سنتـين ما بين القـاهـرة ومـدن الصعيد لتتعلمها، وقد ترجمت إلى الألمانية رواية لنجيب محفوظ ومجموعة قصص لمحمود تيمور.

وضحكت ارنستينا هولزمان بدلع وهي تضيف :

ـ ولا تنسَ الأغاني من مهمد أبد الوهاب إلى أهمد ادوية ؟

فيبتسم غياث داود من عدم قدرتها على نطق العين والحاء ثم يعلن :

ـ لم أتوقع ان أرى امرأة في هذا البلد تقطر شقرة وبياضا وتتحدث بلغتنا ؟

هزت كتفيها وهي تعلق على قوله ببساطة :

ـ لا تستغرب مادمت تراني.

وأخذت رشفة من كأس البيرة ذات العروة الموضوعة على الطاولة أمامها وأردفت :

ـ لست وحدي من يتكلم العربية في النمسا فهناك الكثيرون، ولدينا فرع في الجامعة لدراسة هذه اللغة، أحد الأساتذة عراقي ببشرة سمراء وشفتين زنجيتين، ولكنه وسيم على أية حال، ولقد تعلمت على يديه.

وتساءل غياث عن اسمه فتمتمت :

ـ اعرف اسمه الأول فقط، عباس، لا أدري اسمه الثاني فأسماؤكم صعبة النطق والحفظ.

وقال علي النجار :

ـ انــه صديقي أيضـــا، ولكنه كف عن أن يكـون عربيا، لقـد تجنس بالنمساوية بعد أن تزوج من احدى تلميذاته.

وعلقت ارنستينا هولزمان :

ـ هذا أمر آخر لا يعنينا، وهو حر في اختيار جنسيته، فنحن دعاة وئام لكل الإنسانية، ولسنا شوفينيين بالمرة، رغم ان حملة العداء ضدكم أيها العرب في اتساع. والمهم ان هذا الأستاذ قد عرفني على أدبكم وتاريخكم وكان يتحدث عن هذين الأمرين بمحبة وفخر.

هل هي المصادفة يا علي النجار؟ نعم هي كذلك، والا ماذا تسمي مكالمتي لك وأنا قادم من بودابست لأمضي هنا بضعة أيام لأرى هذه المدينة التي غنت اسمهـان طيلة ثلاثين عاما عن ليالي أنسها، فكان أن جئت لأتمتـع بليالي أنسهـا، وليس لي الاك من أعـرفـه فسطوت على هدوئك وشيخوختك الآمنة لأخرجك معي وتدور بي بسيارتك الهرمة في شوارع فينا العريقة وحدائقها العامة ولتصلبني أمام ابنية وتماثيل وأمام الدانوب الأزرق وهو ينساب هادئا، ثم أدخلتني هذا المقهى لنأخذ قسطا من الراحة فكان أن وجـدنـاها أمامنا هناك وحيدة وأمامها كأس البيرة والسيجارة بيدها، وعيناها تراقبان عقربي ساعتها بين فترة وأخرى وكأنهما تستحثانهما على المضي.

عنـدمـا رأتـك نهضت باشة، وعانقتك، طوقتك بذراعيها الطويلين العـاريين، غمرتك بالطيب والفتنة، لعل الحياة تتقد في جسدك الشيخ الذي تخطى السبعين وأنت مازلت ملازما لهذه المدينة التي جئتها أول مرة كلاجىء سياسي أيام نضالك ضد العهد الملكي، وغادرتها لبضعة أشهر بعـد الثـورة وعملت في منصب مرمـوق ببغــداد، ولكنك سرعان ما استقلت وعدت وأنت تعلن :

ـ في الماضي كنا نقارع ملكا واحدا ووصيا واحدا، أما اليوم فقد كثر الملوك والأوصياء، فمن الذي نقارعه؟ ومن الذي نؤيده؟ لقد ضاع علي

الحساب والتبس الأمر ولم أعد أميز.

وقد قلت في احدى رسائلك لغياث داود :

ـ ان فيّنا هي مقري الأبدي، وهي خاتمة تطوافي، حتى قبري أريده فيها، قبورهم حدائق، أما نحن فيا لرحمة السماء ا وبعد أن انهت معانقتها

وبعد أن انهت معانقتها لك نطقت ببعض الكلمات باللغة الألمانية ثم استبدلتها بالعربية حيث قدمتني إليها :

ـ غياث داود

وحاولت أن تعيد نطق الاسم، ولكنها لم تفلح في ذلك فأفلتت ضحكة طليقةمن بين شفتيها الورديتين وقالت :

ـ اسم صعب آخر.

فقلت لها مازحا :

ـ قاتل الله الغين.

ودخلنا في حديث طويل بعد ان أخذنا مكاننا على طاولتها، ولاحظت انها كفت عن النظر إلى ساعتها، ولم يعد يهمها أمر الوقت، وبدأ يتبدد ذلك التحفز والانتظار اللذان كانت اسيرتهما حين دخلنا المقهى.

قال علي النجار مخاطبا غياث داود :

ـ هل تحلم ان تجالس امرأة مثل هذه في بغداد ؟ ان ألف عين متسائلة سترصدك.

وقلت ليس مدافعا :

ـ ان معلوماتك قديمة، أما اليوم فقد بدأت الحياة تأخذ مجراها، وأصبح للناس ما يشغلهم.

وردد علي النجار :

ـ ولكن بعد أن هرمت ولم تعد بي فائدة ؟

ـ نحن أولى يا عزيزي، لقد أخذت حصتك.

وقال بأسى واضح :

ـ لو كانت لي القوة الأولى اذن لما افلتّ هذه المهرة الجامحة.

وفهمت ارنستينا هولزمان كلماته فقالت :

ـ أنت أجمل شيخ، وأنا أعشقك فعلا.

وضحك وهو يقول :

ـ وما الفائدة من عشقك لي ؟ لم يعد هناك شيء يتحرك فيّ إلا هذا اللسان.

وأخرج لسانه وأخذ يحركه فانطلقنا في ضحك ضاج، كان رنين ضحكاتها أعلى من ضحكاتنا.

وعرفت أنها تعد كتابا عن وضع المرأة العربية واضافة إلى مصر زارت من أجل ذلك الخرطوم والكويت. وفي نيتها زيارة بغداد وعمان ودمشق وبيروت لتستكمل معلوماتها، فدار النشر تستحثها على انجاز الكتاب بسرعة ـ كما قالت ـ وعادت وذكرت اسماء نساء عربيات بارزات اعجبت بهن امثال : مي زيادة، سهير القلماوي، نازك الملائكة، وأم كلثوم وأخريات، كما تحدثت عن اولئك الرجال الشجعان الذين انتصروا للمرأة ودافعوا عنها ودعوا إلى تحررها وذكرت فيما ذكرت قاسم أمين من مصر وجميل صدقي الزهاوي من العراق.

وضحكت يا علي النجار وسقسق صدرك النخر العجوز عند سماعك للاسم الأخير وقلت :

ـ ذلك العجوز اللعين كنت أؤم مجلسه في المقهى الذي يحمل اسمه في بغداد حتى اليوم، ولكنني لم أكن عجوزا أضع أولى خطواتي في قبري، بل كنت فتى يافعا تؤججني كلماته وهو مكوم على مقعده مثل حزمة عظام لا يبدو أن فيها حياة.

وتقاطعك ارنستينا هولزمان بقولها :

ـ ولكن كومة العظام تلك كانت تشع بالأفكار الشابة المتجددة ؟

وهز علي النجار رأسه وقال :

ـ انني اتفق معك في هذا. وقد سبق فترته بسنوات، وإلى يومنا هذا مازال البعض يعترض على أفكاره، أتصدقين ان هناك بلدانا عربية لا

تسمح للمرأة بحق الانتخاب مثلا ؟

قالـــت :

ـ أصدق، ان بلدانكم تحتوي على كل التناقضات.

وقبـل أن نصافحها مودعين كنت قد سجلت عنوانها ورقم هاتفها، ووعدتها بأن أكلمها في أقرب فرصة، ولم تنس ان تذكر لي الأوقات التي تتواجد فيها في بيتها، أما إذا كلمتها في أوقات أخرى فلن يرد علي أحد لأنها تعيش وحيدة وزوجها الخبير في صناعة السيارات قد انتدب للعمل في تركيا، ولم تفكر في اللحاق به الا بعد أن يستقر ويجد المكان ملائما.

* * *

ارنستينا هولزمان أهلا بك فغياث داود قلب واسع، وماكنة تطحن، السمراء على الشقراء، الافريقية على اليابانية، لا يهم، كلهن من نعم الله عليه، أما القحط القديم ذاك فقد ضاع، والخطوات لم تعد ترفل إلا في الخصب والنعيم، وأنت أمامي قارورة من ماء الورد في مدينة الأنس والطيب.

* * *

خمسة أيام عامرة بلياليها ونهاراتها كانا معا. في المقاهي والبارات والطرق والحدائق والفراش. حمل حقيبته من الفندق لينضم إليها وهي تقول :

ـ الشقة كبيرة، والوحدة قاسية، وأنا لا أستطيع النوم دون أنفاس ذكر تدفىء لي الفراش.

وشرب معها النبيذ النمساوي الساحر في «غرينسنج »*واحتسى القهوة المعطرة في مقهى « ديميل » وهي تهمس له :

ـ انك تجلس في أعماق التاريخ، هذا المقهى عمره قرابة المائة وخمسين سنة، أتصدق ؟ لقد شيدوه قبل أن يولد جدي، ألا تشم فيه رائحة القدم والماضي الجليلة ؟ انها تمد الجسم بهدوء نادرا ما يعرفه، أماهذه الساحة التي أمامك فانها ساحة القصر الامبراطوري، هيا ارم نظراتك لتسرح مع جموع البشر التي تزحف فيها وكأنها تقدم الولاء والقرابين للامبراطور اليافع

المتربع فوق عرشه

وأخـذتـه أيضا إلى مطعم « غويسّر كيلر » وهو على هيئة مغارة تحت الأرض، نزل سلالمها بخشوع ومحبة تماما وكأنه يتسلق تلك السلالم في هرم خوفو الرابض في جيزة مصر ليصل إلى تلك المقصورة التي كان يودع فيها جثمان الملك المحنط، ولكن كبرياء الفراعنة كانت تجعل حتى من الصاعد إليهم محني القائمة، أما تواضع هؤلاء النمساويين فإنه يجعل حتى النازل ممدود القامة.

وتناول في هذا المطعم عدة وجبات وسط تعليقاتها:

ـ هذا المطعم غارق في القدم أيضا، ربما يعود إلى أكثر من مائة سنة.

فيحتضنها ويهمس في أذنها :

ـ انك شغوفة بالماضي، أريد أن أرى كل ما هو حديث فأنا انسان لا ذاكرة لي، اكـره المـاضي مثـل كرهي للمستقبل ولا أتعلق الا بالحاضر والحاضر فقط مهما كان وقعه.

وقد صاحبته إلى المطار وظلت تكاتبه فترة، التقيا في بغداد مرة، حملها لتـزور اضرحـة الكـاظمين والشيخ عبـد القـادر الكيلاني والإمام علي والحسين عليهما السلام. كما حملها لتزور بابل وأور والحضر. ثم التقى بها ثانية في عمان بناء على موعد مسبق. ولحق بها إلى فينا مرة أخرى فعرف ان زوجها قد عاد من تركيا ولكن هذا لا يمنعها من ملاقاته وكانت تعلن :

ـ عرفت قبلك مصريا من بورسعيد كان موظفا في الكمارك، ولكنكما لا تتشابهان في شيء فلكل منكما طعمه الخاص.

* * *

في دفتر ملاحظاته كان هناك عنوانها ورقم هاتفها، والعام الجديد على وشك الحلول لذا فطن ان عليه مكاتبتها، فاختار بطاقة تهنئة، تمثل جملا في ساحل جزيرة « جربة »، وسطر لها بالعربية بضع كلمات وأودعها في البريد وهو يردد في داخله :

ـ من يدري، لعلني أحل في فينا ذات يوم ؟ وهل أحلم بملاذ غير غابة الشقرة والفرح تلك ؟

نوريـة سالـم

تنقلين الماء في صفيحة كبيرة، تضعينها فوق رأسك بعد أن تتمنطقي بأذيال عباءتك الصوفية، وكنت في السابعة عشرة من عمرك، لك ثوب أحمر بزهور بيضاء، من القماش اللاصف الذي يعشقه كل القرويات، وكنت عارفة بسحر عينيك اللتين يغنيك سوادهما عن استعمال الكحل كما تفعـل لداتـك، ولم تضعي « الـديرم » على شفتيك لأن هذا محرم على العـذراوات وحكـر للمتـزوجـات فقط، ولكن من انفك المعتدل تتدلى « خزامة » ذهبية فيها شذرة زرقاء، ورائحة « المحلب » والزعفران تفوح منك ليس في الفرح والأعياد فقط بل وفي كل الأوقات أيضا.

ويوما رأيت غياث داود ورآك، رأيته بعين غير تلك العين التي كنت ترينـه فيهـا من قبـل يوم كان صغـيرا يشـاركـك لعبة « الحجة حجو » و« الطنطل » و« الشرطة والحرامية »، ويوم كان يخوض معك في النهر عاريا إلا من لبـاس داخـلي أسـود له شريطان ابيضان على جانبيه، أما أنت ورفيقاتك فتغطسن في الماء بدشاديشكن التي كلح لونها من لسع الشمس والقدم.

أحسست بأنه قد بدأ يميل إلى الوحدة واجتناب الآخرين، يحمل كتبه ويهرب إلى الخلاء، وألح في داخلك سؤال : ما الذي حدث له ؟ وأي هم يشغله ؟ هل هو عاشق ؟ إذن من هي المحظوظة التي أحبها من بين كل بنات المحلة ؟

عندما تستقر عيناه في عينيك تفران خجلا ووجوما، فكأنه لم يكن قرين طفولتك تلك قبل أن يقسرك أخوك على ارتداء العباءة وهو يعلن بصوته الأجش بأنك قد كبرت ولم تعودي صغيرة تخوضين في الماء وترعين العجول والحملان.

كان غالبا ما يقبض بيده على أحد كتبه وقد طواه بين أصابعه، وخطواته

المكدودة الهامسة تتيه في الحقول ليستقر تحت نخلة، أو يجلس على حافة النهر وساقاه العاريتان تتدليان في الماء وتداعبانه بأطراف أصابع قدميه.
وعندما يتأنق يرتدي دشداشته «الكودري» البيضاء التي تستعذب الريح نعومتها فتنهبها في مجراها لتظهر تفاصيل جسده كله، الكتفان العريضتان والساقان المائلتان إلى الهزال، وذالك الشيء الذي يتكور هناك، وكلما وقعت عيناك عليه انفجرت بضحك خلي حار.

يوما ما صار قريبا منك، صرت قريبة منه، بادرك بابتسامة لم يدر كيف دحرت خجله وانقباضه لتفضح ما كان يخبئه ويداريه بالتهرب بعيدا.
كانت ابتسامته فاترة عبثا حاول احتضانها وجهه المكدود. ولكنك رددت على بسمته ببسمتك الأكثر اشراقا وحياة فطار على أجنحة من الأبرسيم، تلقفته غيوم نقية بيضاء كالقطن المندوف.

كان يعرف مواعيد ذهابك إلى النهر لجلب الماء وغسل القدور والصحون، صار يراقبك بحماس أكبر، وصرت تترقبينه أيضا، وبادرك بالتحية يوما فرددت عليه تحيته. ويوما آخر لحق بك إلى النهر، توقف قريبا منك وأنت منحنية تغرفين الماء بطاسة نحاسية وتسكبينه في الصفيحة، وانحنى هو الآخر وأخذ يحضن الماء ويغسل وجهه، ولكن كل هذا كان تظاهرا من أجل أن يقول لك :

ـ نورية، إنني أحبك.

وفرحت من اعترافه، عرفت أنك السبب في همه وانشغاله، ولكن وجه ابن عمك ارتسم أمامك فجأة، هب كعفريت كان مخبأ، ووجدت نفسك ترددين بانخذال وخوف :

ـ ولكن ابن عمي يريدني، وأهلي يريدونني له أيضا ؟

وارتفع صوت غياث بحنق :

سنهرب من هنا، نذهب إلى بغداد، أو الموصل، نعيش مع الأكراد في الجبال.

وكنت أكثر تعقلا منه حين قلت له :

ـ هذا ليس بحل، والدنيا صغيرة.

وخـــرس غياث داود، أنهض قامتـــه المنحنية، ومســـح يديه بأذيال دشداشته وانسحب من مكانه، وراح يبتعد مكسوفا.

استقبلته مزارع خضراء عامرة بشجيرات القمح والشعير، وفلاحون منهمكـون بسقي الـزرع وتشذيب النباتات الطفيلية، وقطعان ماشية، ورعاة يزمرون وكلاب نابحة.

مشى طويلا حتى كل. استراح فوق الرمل، غنى بموت، ثم اقترب من النهر، وقتل عطشه ولهاثه بحفنات منه واستدار بعد ذلك عائدا، أما السهم الذي انغرس في صدره فلم يستطع انتزاعه.

ومع هذا لم ينقطع عن ترقبك، أخذ يكثر من غسل وجهه، وتسريح شعـره بزيت « بريل كريم » الأبيض الذي كان شائعا يومذاك ويشكل عنوان أناقة للشبان العاشقين الذين (دار في خصيتي كل منهم الماء) كما كانت تصفهم حكيمة بنت الشيخ جابر. كما بدأ ينتعل حذاءه المطاطي الذي كلح لونه الأسود بدلا من الخروج حافيا. ولكن حزنه وصمته قد كبرا.

نورية إن انسَ شيئـا لم أنسَ ما حل بك ذلك اليوم. عشت كابوسا طاردني سنوات. وصرخة استغاثة تطن في رأسي حتى يوم الله. فقد نحرك أخوك في صباح يوم قائظ، وكنت عائدة من النهر على عادتك فوجدته في انتظارك أمام باب الدار وهو يمسد شاربيه ويده ممسكة بخنجره المعقوف الذي يتدلى غمده من حزامه الجلدي العريض. كان قد خرج من السجن قبل أيام فقط بعد أن أودع فيه عدة سنوات بتهمة اللواط.

اقتربت منه وأنت تقولين بمحبة :

ـ الله يساعدك

فصرخ فيك :

ـ لا يساعدك ولا يساعدني.

ولم يمهلك لتفهمي ما مقصده من وراء هذا الرد بل هجم عليك، طعنة في الكتف وأخرى في الصدر وثالثة حصد فيها أحشاءك. سقطت الصفيحة وتناثر ماؤها ليختلط بدمك النازف.

وارتعبت وأنا أرقب المشهد عن قرب، وانكمشت على الحائط مطلقا همهمة خرساء، ويداي تتحركان بأصابعهما المشهرة، وكأنني أذود عن شيء وأحاول دفع حيوان كاسر يواصل هجومه علي.

شعرت بالجبن والخذلان كما لم أشعر بهما من قبل، ليس خوفا من أن يحصدني نفس الخنجر الذي حصدك، ولكنها المفاجأة غير المتوقعة، والتي لا سبب لها.

نوريـة سالـم . .

كان أخوك لوطيا ولصا ومدمنا وقبل ذلك غلاما عند نجار زنجي عاش معه في بيته كزوجته. ولكن شرفه السليب المشتت، شرفه الرفيع لم يسلم من الأذى إلا بعدما نحرك، ونحر معك الطفولة والنقاء.

كل الحكاية التي تداولتها المحلة ثم المدينة كلها فيما بعد أنك وقفت عدة دقائق مع طارق غريب وكانت صفيحة الماء فوق رأسك، حركت له يدك ببعض الاشـارات ثم أخذت طريقك وأخذ هو طريقه نحو الجهة التي أشرت إليها.

كان الطارق الغريب ذاك قادما من مدينة أخرى سائلا عن بيت أخيه الذي يقع في نفس محلتك فقاده حظك لأن تكوني أول إنسان يلتقيه ويلقي عليه بسؤاله.

نوريـة سالـم . .

سقطت أحشاؤك على الأرض السبخة وتقنطرت فوقها، رفست الأرض مرات وهو واقف فوقك يتأملك منفوشا مزهوا، ولم يسحب خطواته إلا بعد أن تأكد من أنك قد انتهيت.

نفـخ صدره ومضى باتجـاه مركز الشرطة. وضع خنجره المدمى على مكتب العريف وهو يعلن مفاخرا :

ـ لقد قتلتها، غسلت عاري

فيرد عليه العريف بلا مبالاة أمام هذه المسرحية التي تتكرر مرات، ولا يجازى مقترفها إلا ببضعة شهور سجن، لأن للقتل غسلا للعار قانونه الخاص :

ـ بارك الله فيك.

ثم يقوده ليرميه في الزنزانة الوحيدة في المركز.

لمياء عبد الرزاق

كان لكما دينان مختلفان رغم أنه أعلن على مسمعك مرارا بأن الدين لم يؤثر في مجرى حياته، وأنه مؤمن ذلك الإيمان المطلق، وهذا يكفيه ويجعله أكثر اطمئنانا. وكنت تخالفينه الرأي إذ تدعين إلى تأدية كل الطقوس والشعائر بشكلها الاحتفالي الغيبي مقتنعة بأنها عملية تطهير وصلاة مهما كان رأي البعض فيها، وأن البشر في خضم حياتهم الضاجة المكسفة بحاجة إليها لتغذي الروح وتشحذ من همة القلب، فكأنك لم تدرسي الاقتصاد ولم تحملي شهادة عالية فيه.

وكان يهوى مشاكستك والسخرية من تصوراتك وتبريراتك فتعتلقين غضبا وانفعالا.

لقد اختلفتما منذ أول حديث بينكما، ولكن لا مفر من هذه المناقشات سيما وأن مكتبه يجاور مكتبك في تلك الغرفة الرطبة من مبنى وزارة الإسكان.

كان كل حوار بينكما هجوما وطرادا تبدآنها متى أحس كل منكما بأنه قد عزز مواقعه جيدا وأصبح مؤهلا للخوض.

وكنت نقيضته عندما تنفعلين وتضربين بيدك على الطاولة. ويتكرر صدامكما أكثر من مرة في اليوم. ومرة تصاعد غضبك فصرخت فيه :

ـ لو كنت صابئيا مثلي لتزوجتك رغم أنفك حتى أعرف كيف أذل جموحك هذا، وأضع رأسك في الأرض يا غياث يا ابن داود ؟

فاتـن عثمـان

تقفر المدن والقلوب، وتقسو النهارات القائظة، وليس هناك من ملاذ غير المقاهي بمراوحها السقفية المتباطئة التي يعشش عليها الوسخ والذباب، أو شاطئ النهر الذي ترصعه أكوام الملابس التي تركها السابحون وهم يغطسون في الماء ليبتردوا ويخففوا من لسع السخونة الجائرة.

وكنت تجدين متعة في مراقبة السابحين والنسوة يغسلن الأواني والثياب في مجرى الماء، تتلفعين بعباءتك الناعمة السوداء، وتمسكين بها من العنق حتى لا تأخذها الريح. وتهل من وجهك الأسمر الآسر تلكما العينان.

كنت نغمة منفردة في لحن المدينة المكرور، وشارة مرفرفة للجمال والبهاء، لو بحثنا في قرى الجنوب وسهوله، مدنه وأريافه، لو بحثنا في خيام البدو المرابطين في رمال الجزيرة وبين هوادج القبائل المرتحلة الباحثة عن الكلأ والماء لما وجدنا مثيلا لعينيك. سعة البحر، ودكنة الليل، ونقاء قلب الطفل، تتلألئان مثل نجمتين في وجهك النضر ذي السمرة المشوبة بحمرة فاتنة. ويستقر هذا التاج البهي على جسد بدوي ضامر قادم من فرح الصحاري وحداء البدو، وعبثا تحاول العباءة السوداء التي تطوقك أن تخبىء الفتنة، وتكم أفواه العنبر والمسك.

كنت تكركرين كلما رأيت طفلا يتخبط في الماء، أو جسدا مشوها بلباسه الداخلي الطويل وقد تقوست ساقاه من المرض وسوء التغذية وكساح طفولي لم يبرأ منه، أو بطنا تكور حتى أصبح بالونا على وشك الانفجار، وأنت بقامتك الممتدة المشرعة للشاطىء والريح ترابطين هناك مثل ناقة ذهبية.

ثم وجدك غياث داود ذات يوم. كان يهم هو الآخر بالتعري ليندس في الماء، يقطع الموج على عادته مسرعا حتى يبتعد عن زحام السابحين الذين لا يجيدون العوم وصياح الأطفال وشتائم أمهاتهم لينفرد في مجرى الماء، يعطيه جسده السخن وارتعاشة الأسى في عروقه المتقدة فيخال نفسه في عرس من الفرح والندى الطري وأمامه تتراقص شاذروانات مرحة المياه.

أحجم عن خلع ملابسه حياء، وأعاد إطباق أزرار قميصه القصير الكمين، وهو يراك ترمينه بتلك النظرات المقتحمة المنتظرة. ولكنه لم يبتعد بل ظل مرابطا هناك فكأن قدميه قد حرنتا وأصبحتا لا تعودان إليه بل إلى واحد من تلك التماثيل الأشورية المركونة في متحف بغداد.

وبقيت نظراتك وراءه لا تعطيه أي فكاك حتى يتنفس ويتحرر ويغطس في الماء ويبرأ من العرق الحار المنسفح من جسده.

وضع يديه في جيبي بنطاله وتظاهر بمراقبة الشاطىء والسابحين، ولكن كركراتك كانت تصله، فكأنها الصوت الوحيد الذي يتردد، أنصت إليها جيدا. وظل في تظاهره وبين فترة وأخرى يلقي بنظرة من طرف عينيه ليتمعن أكثر فيك ويشبع نهمه من حسنك المضيء، وانتبه إلى فتاة صغيرة كانت تقف بجوارك، وخمن أنها أختك، فلها لون بشرتك وشيء من سحر عينيك.

وود أن يقترب منك ليسألك : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وأية أرض طيبة أنبتتك ؟

ولكنك استسلم لحياء لم يعرفه وخوف مضمخ برهبة لا قرار لها. وهو أمام طلتك التي لم ير لها مثيلا من قبل في مسرى حياته القاحلة التي لم تمنحه مرأى امرأة واحدة بدون عباءة، ماعدا أولئك النسوة اللواتي يشاهدهن في الأفلام وهن يتحركن ويرقصن ويمنحن القبل لرجال وسيمين مفتولي الأذرع.

ولكن أنت التي لم ير لك مثيلا لا في السينما ولا في المجلات الملونة التي تضم صور أحلى فاتنات الدنيا.

* * *

لم تتحرك من مكانك، وانتبهت إلى عرقك المتصبب بغزارة فاستخرجت منديلك وأخذت تمسح وجهك وعنقك وذراعيك، وبين فترة وأخرى تبعث إليها بنظراتك المتسائلة الولهانة وهي ماضية في كركراتها وعلى بعد بضعة أمتار منك.

لقد شعرت بك، ومنحتك اهتمامها. هكذا أيقنت، عندما بدأ الظلام بالحلول أمسكت بيد اختها واستدارت مبتعدة ببطء فتبعتها، اجتازت المسناة الكونكريتية التي بنيت لحماية المدينة من الفيضان عندما يعلن الفرات عن غضبه المكتوم.

وعندما وصلت الشارع المسفلت الذي أضيئت أنوار مصابيحه الكابية راحت تحث الخطى وهي ممسكة بيد أختها التي كانت تجاهد من أجل مجاراتها في مشيتها. وكانتا تتكلمان بشيء إذ أن نثار كلماتهما كان يصل إلى أذنيه دون أن يستطيع التقاط موضوع حديثهما.

ترك بينه وبينهما مسافة قصيرة، ودفع بجذعه النحيل إلى الأمام حتى يستطيع أن ينقل خطواته بحذر بين برك المياه، وقطع الحصى والطابوق وروث البهائم.

انعطفت في شارع ضيق على اليمين وواصل ملاحقتها. ثم توقفت أمام أحد البيوت وخمن أنه بيتها. امتد ذراعها العاري لتلتقط يدها مطرقة الباب، وطرقته مرتين. أما هو فلم يتوقف عن المشي ولكن خطواته تباطأت حتى أصبح قريبا منها، وقبل أن يفتحوا لها الباب لتدخل التفتت إلى ناحيته وفتحت عباءتها وهي تحمل وجهها ببسمة عريضة، والتقطت عيناه مرأى ذلك العنق الأغيد الذي تطوقه قلادة لماعة، زاد في بريقها الضوء المنسكب من المصباح الكهربائي المثبت فوق باب البيت، كما التقطت عيناه أيضا تلك القامة الممشوقة الممتدة التي يسورها فستان أزرق سماوي عاري الذراعين. وكتم شهقة داهمت صدره وكادت أن تنفجر منه بصوت ملتاع، ومضى مبتعدا دون أن يقوى على الإلتفات. ولم يخفف خطواته إلا بعد أن سمع صوت انطباق الباب الكبير الذي سبقه صرير عال، وأخذ

يجاهد من أجل أن يستعيد تماسكه ويلملم أشلاءه التي انسفحت وتبعثرت وهو يداهم بهذه الفتنة النادرة.

في طريقه تمتم برضا :

ـ إن ما حدث كان فأل خير، ولكن من يعطي المجال لهذا الفقير المدمى ؟

* * *

مرت عدة شهور وهو وراءها مسحور هائم. وعاشق لا يقوى على كتمان ما في قلبه، حدث عنها الليل والسماء، وصلى بصدق في كل مساجد المدينة، بدأها واحدا واحدا، كما حدث عنها المعارف والأصدقاء، وكتب لها الرسائل العديدة ولكنه لم يجد الوسيلة لإيصال واحدة منها إليها علها تعرف ما ألم به في هواها الجارف، وعرف ابن خالته بالأمر. وقرأ بعض رسائله غير المرسلة، وعلمت خالته بحبه هذا، تحسّرت وعضت على يدها وهي تقول :

ـ ربنا لم يخلقنا أغنياء، ولكن اصبر فالمكتوب لك لن يكون لغيرك

وأخذ بعض أصحابه يتهامسون بلقب جديد أطلقوه عليه ببراءة :

ـ مجنون فاتن عثمان

أمسك ذات يوم بأحدهم وضربه ضربا مبرحا وهو يحذره :

ـ لا أريد لشفتيك القذرتين أن ترددا هذا الاسم المقدس، أفهمت ؟

وقال لخالته :

ـ لست عاشقا لها فقط، بل انني مريض بها، فهل لك أن تعينيني في البحث عن الدواء ؟

وقصدت الخالة أحد رجال الدين ليخط له آية الكرسي بماء الزعفران، وغلفتها بقطعة قماش نظيفة ورجته أن يضعها في جيبه عل السلام يحل في قلبه المذبوح.

* * *

ضمر عوده، واتسعت آماد أحزانه، وحاول أن يستجيب لاقتراح ابن خالته بأن يرتمي في العمل السياسي ويغرق فيه أكثر حتى يسقط نظام الرعب والطبقات. ويضيف:

- ومن يدري لعل يوما يأتي تجدها فيه أمامك منسلة من كل العوائق التي تبعدها عنك؟ ويكون الطريق ممهدا لك لتطلب يدها وتقترن بها؟ وآنذاك ستحسم ملحمة العذاب التي تصطلي فيها بلا رحمة.

ويقول له:

- هل ينبت الريحان في السبخ؟ وهل يورق ليل الشتاء الطويل المدلهم؟ وهل يتمخض الأسى عن أعراس وأهازيج؟ كل هذا لن يحدث. اذن سأحاول أن أبرأ من هذا الداء الوبيل.

ويصمت ابن الخالة دون أن يجد ما يرد به.

وأخذوا غيابا منها قرابة الأربعين يوما، ضمته غرفة اعتقال خانقة، حشر فيها مع اللصوص واللوطيين والقتلة. حتى نافذتها الوحيدة تقع في أعلى الجدار ولن تطالها قامته الطويلة.

ولكن فاتن عثمان كانت معه في سجنه، تضيء الليل بنور عينيها الواسعتين.

ويسأل عنها كل من يزوره ويأتيه الجواب من ابن خالته بأنها مازالت كما تركها. تواصل الذهاب إلى المدرسة، ولم تنس شاطىء النهر. لم يوقفها عن تأمله لا الصيف ولا الشتاء، لا القر ولا الزمهرير فكأنه معبودها الوحيد الذي تحمل له القرابين والنذور نشدانا لتحقيق أمنية استعصت على القلب.

وعاد ابن خالته ليوضح له في يوم آخر بأنها قد افتقدت حيويتها وأصاب وجهها شيء من الوجوم، وأصبحت عيناها تنقبان في كل الوجوه التي تلتقيها وكأنها تبحث عن شيء أضاعته. وأخبره أيضا أنها كادت أن تستوقفه لأنها كانت تراه ملازما له دوما، وأقسم على ذلك.

ثم عاد وقال:

ـ مرة همت بأن تستوقفني، ماذا تريد مني ؟ أليس ذلك من أجل أن تعرف أين أنت ؟ وأية ريح أخذتك وغيبتك ؟

وبعـد أن خرج من معتقله كان أول شيء فكر فيه أن يراها، فكأنها الـرديف الـوحيد لحريتـه المستلبـة، ولم يكن ذلـك عسيرا. وقد شهقت للمفاجأة وهي تداهم بقامته المنتصبة في رأس شارعها على عادة الشبان العشاق في تلك المدينة، إذ كانوا يقفون في رأس الشارع المؤدي إلى بيوت حبيبـاتهم، وقـد رفع كل واحد منهم ياقة قميصه إلى أعلى وأحاط عنقه بمنديل ملون ربطه من المنتصف. أماوسطه فيحيطه حزام عريض شبيه بأحزمة الجنود، وأحيانا يبالغ البعض في تطريزه بمسامير لماعة، وكل هذا بتأثير أفلام رعاة البقر التي تعرضها سينما المدينة، وخير مقلد لها ذلك الفتى الطويل العنق الذي كان يحمل اسم « كزار » يوم كان يبيع اللب والفستق والبندق في طبق يدور فيه بين رواد السينما، ولكن اسمه تحول إلى « نزار » بعد أن ازدهرت تجارته بعد سنوات ليصبح المالك لهذه السينما.

التفتت إليه كلهـا، وتقـدمت خطوات باتجاهه، وتحفز لملاقاتها وربما لمصافحتها، ولكنها انتبهت فجأة لما هي فاعلة، فأمسكت بعباءتها كعادتها عند العنق وانفتلت ماضية في طريقها وقد استعادت حيويتها وانشراحها القديم.

* * *

. . وتجرأ ذات يوم وسلمها أول رسالة. كانت رسالة طويلة من عشرين ورقة رصت سطورها رصا. وقد اختار لحظة خلا فيها الشارع من المارة ليقترب منها وهو يردد بصوت حيـي :

ـ فاتن، لدي رسالة لك.

وأجابته على الفور وكأنها تنتظر هذا منه :

ـ هاتهـا.

أخـرجهـا من بين دفتي الكتاب المدرسي الذي كان يحمله وسلمها لها ثم انصرف مسرعا مخافة أن تحط عليه عين.

وقـد أثـارتها رسالته، جعلتها تلتهم حروفها وهي تذرف الدمع، ولم تصدق أن بإمكان انسان أن يحب مثل هذا الحب الفاجع، لم يترك شيئا دون أن يحدثهـا عنـه، والـده وأمـه واخواتة وزوجات أبيه وخالته وابنها وزوجها والسماوة والناصرية والسجن والحب.

لقد صاغ حروف هذه الرسالة في ليل المعتقل، وفي ساعات الشوق والاختناق، ونزف فيها الكثير من دمه، وتمنى لو انها تعي كل كلمة فيها، وتلم بالوضع الحائر المرتبك الذي ينغل فيه.

كانت تلك أول رسالة يكتبها لامرأة، وانتظر أياما لعلها تبادره بالرد، ولكنها لم تفعل وبدلا من ذلك اقتربت منه ذات مساء وهمست له بجملة قصيرة ظلت حية في قلبه، ساخنة كنبضاته :

ـ وأنا أحبك يا غياث.

وطار. بارح جسده أرض المدينة. وهام في سماوات الخيال. عانق غيوما وطيورا من حرير. واستمع إلى أغنيات مرحة غريبة. ولم تغره اكمام النخل ولا غصون الأشجار، لا برودة مياه النهر ولا أنسام المساء على الهبوط، وظل في تحليقه ونعيمه.

حدث ابن خالته فعلق على ذلك :

ـ حسنا، ها أنت تعرف بأن حبك لم يكن من طرف واحد، وقد سمعت من فمها الكلمة التي انتظرتها أشهرا.

وكز على أسنانه بحرقة وتساءل :

ـ ولكن ماذا بعد ؟

ـ لست بحاجة إلى طرح الأسئلة اليوم المهم أن تعيش هذا الحب وتنعم به، ومن أجـل ذلك عليك أن تفكر بطريقة ملائمة لملاقاتها والتحدث معها، و . .

وتمتم غياث وقد قاطعه :

ـ لا تغرقني في الحلم أرجوك، فلم تعد لي ساعدان تقويان على العوم. ثم صمت بعـد ذلك، وفرش أمام ابن خالته وجها أبكم تأكله الصفرة

والتساؤلات. مما دعا ابن الخالة لأن يقول :

ـ هكذا هو الحب في هذه المدن الخائنة، الخائفة، لن تطمح بأكثر من نظرة أو كلمة جميلة، وان تطور ذلك إلى رسالة فهذا أمر كبير. ولكن السؤال كيف تحافظ الحبيبة على الرسالة ؟ وماذا يحدث لو عثر عليها أبوها ؟ أو أخوها ؟

وينطق غياث داود مواصلا اشهار أساه :

ـ انها فتاة متمناة. لعل العشرات غيري يريدونها ويترقبونها، ولعل بينهم من يملك كل المؤهلات وعلى استعداد لأن يقدموا ما يريده أبوها الذي يعرفه كل سكان المدينة بأنه جشع لا يتكلم الا بلغة النقود، وهو يرابط في حانوته الكبير ليبيع التبغ والسكر والشاي لأبناء القرى القادمين إلى المدينة.

ويقول ابن الخالة حاسما هذا الحوار :

ـ ولكنها اختارتك، وهذا هو المهم في الوقت الحاضر ؟

* * *

فاتن عشهان تزوجت من طبيب حل في المدينة قادما من بغداد، وقد استأجر بيتا قريبا من بيتها ليكون عيادة ومسكنا له. وعبثا نحاول أن نجمع خيوط شباك الحزن التي كبلت غياث داود آنذاك. وكانت الخاتمة لهذه المأساة المدغمة أن تقيأ دما وحملوه إلى المستشفى ليرقد هناك أربعة أيام.

رآها مرة بعد أسابيع فوجدته مهدما منكسرا، اقتربت منه دون أن تأبه بالأنظار، ونادته بصوت مستنجد :

ـ سامحني يا غياث أرجوك، ليس لي دخل فيما حدث، انها ارادة أبي وفخره بأن ابنته قد تزوجت من طبيب، أتمنى لك أن تنتصر على حزنك وتسعد في حياتك.

كان صوتها مرهما منح الجرح المحترق برودة لم يعرفها. مد لها يده مصافحا، اقتنص منهل الخير وشحنة الدفء والحب. ثم سحبت يدها ببطء واستدارت منصرفة.

بعد ذلك بأيام غادر إلى بغداد لينضم إلى الجامعة. غادر الناصرية وهو

لا يفكر بالعودة إليها، أخذته السياسة والدروس، ولكن الشوكة ظلّت تخز القلب.

* * *

فاتن عثمان ماتت.

ظنها غياث داود دعابة من ابن خالته. ولكنه أقسم على ذلك. لقد احترقت. هذا ما حدث. كانت في المطبخ تعد الطعام لزوجها وهي بثوب النوم الحريري الخفيف. هبت النار فجأة في آلة الطبخ الغازية، فأمسكت بثوبها. ظلت تصرخ مستنجدة وهي تهرول داخل البيت. ولكن النار كانت متشبثة بها. فتحت الباب وخرجت إلى الشارع كتلة من اللهب المشتعل، ومن فمها يتردد صوت محتضر، ولم تركض مسافة بعيدة حتى كبت على وجهها والنار تواصل التهامها.

رآها بعض الجيران فأسرعوا إليها حاملين الأغطية وجرادل الماء، وبعد أن أطفأوا النار حملوها إلى المستشفى وفي صدرها يضرب قلب متباطىء لم يلبث ان كف عن ذلك بعد أقل من ساعة.

ألقى عليها الزوج المكلوم نظرة أسى، صفع جبينه مرات وهو يطلق اسمها بحشرجة ثم تداعى على الأرض غائبا عن الوعي.

ـ 13 ـ

استقر الشاعر بجانب غياث داود الذي كان يندس آنذاك في مقهى « الأنترناسيونال » محاطا بالثرثرة والدخان. وضع كتبه على الطاولة بعد أن أطلق زفرة سخط.

وانتبه غياث داود إلى التغيير في هيئته وسببه حصده لشعره الكث الطويل.

سألـه :

ـ ما الذي حصل ؟

وعرف الشاعر مغزى سؤاله لذا قال في مرح جديد عليه :

ـ مجرد ترميمات لهذا الهيكل المتداعي المسمى بالجسد، اقترحت علي احداهن ذلك فاستجبت لما أرادت، انها مشروع حب قد يثمر، أليس من الظلم أن لا أملك امرأة واحدة في هذه المدينة الغاصة بالاناث ؟ هل لاعبو الكرة والمغنون أفضل مني ؟

وضحك غياث داود، ليس من أجل ما تفوه به فقط، ولكنها رغبة فاجأته في أن يتخلص من شيء يعسكر في ظلمة أعماقه. وكركر من جديد حتى كاد الشاعر أن يستنكر منه ذلك.

ابتلع غياث داود بقايا ضحكته، وأخذ ينقر بسبابته على الطاولة وفق ايقاع لا يخضع للحن.

ألقى نظرة على حزمة الكتب التي أمامه. لفت نظره الكتاب الذي صف فوقها بغلافه التجريدي الأنيق. مد يده والتقطه. مكثت عيناه برهة تتأمّلان الغلاف ثم بدأ بتصفحه متمهلا قارئا سطرا أو أكثر من كل صفحة.

قال الشاعر معلقا :

ـ انه شاعر من وطنك

ـ أعرف ذلك، وما أكثر ما انجب وطني من شعراء

ضحك الشاعر وعلق :

ـ مازلت أتذكر تعليقا لأحد المستشرقين قال فيه إن عدد شعراء العراق بعدد نخيله.

وقاطعه غياث قائلا :

ـ إلا أنا. أشكل الاستثناء الوحيد في هذه القاعدة.

وعاد لتقليب صفحات الديوان، ثم تمتم :

ـ أعرف اسم هذا الشاعر جيدا، سمعت به في السجن أول مرة. كان بعض السجناء يحفظون قصائده ويرددونها. ومرة قرأت له ديوانا كاملا، وأظن أنه الديوان الشعري الوحيد الذي قرأته في حياتي، كان اسمه « أباريق مهشمة » على ما أظن، ولكن بيني وبينك لم أستطع أن أفهم كل ما أراده، كان شعره جديدا علي تماما.

وتلقف الشاعر الحديث قائلا بلهجة العارف :

ـ أظنه أول ديوان له، أما هذا الذي بين يديك فآخر ما صدر له، سرقته من المكتبة قبل قليل.

وضحك غياث وهو يقول :

ـ سيمسكون بك يوما أيها اللص الظريف

ـ أحس أن الكتب معروضة للسرقة لا للبيع.

ـ سأراك مكبلا يوما يقودك شرطي بشاربين ضخمين

ـ انني حاذق في سرقاتي، لن يكتشفني أحد أبدا.

وعاد غياث داود للقول مغيرا لهجة الحديث:

ـ اتمنى لو أملك الوقت للقراءة، الوقت لا يتسع الا لقراءة الصحف والمجلات وما أكثرها هذه الأيام، تصدر في كل مكان، بيروت وباريس ولندن، ثم قبرص أخيرا وهكذا، زد وبارك، ولكن النغمة واحدة، والجهة التي وراء كل مقالة معروفة، وهكذا ينصرم النهار ليأتي نهار جديد

ومعه صحفه ومجلاته أيضا.

ثم أطبق الكتاب وأعاده إلى مكانه بينما جاءه صوت الشاعر وهو يقول :

- أما أنا فلا أقرأ الصحف وهذه فضيلة اعتز بها، أما المجلات فأكتفي ببعض الأدبيات فقط.

وانتبه غياث إلى انه مازال يواصل امتصاص قطعة الحلوى المخبأة تحت لسانه، وود أن يسأله عن سرها ؟ ولماذا لا تنفد ؟ ولكن الشاعر سرعان ما يستلم الحديث ليواصل أو يبتدىء، لا فرق، انه مشحون ويريد أن يفرغ بعض أحماله، ولعل المدينة هذه لا تضم من يقوى على الاصغاء إليه وسماع أحكامه النافذة غير غياث، لذا يدور بين مقاهي شارعي بورقيبة وباريس. يمكث بضع دقائق في « افريقيا » وساعة في « المغرب » أو « الروتندة »، أو أي مقهى شعبي آخر غاص بالرواد ليكرع زجاجة بيرة مع صحن من اللوز المملح الذي يبيعه باعة متجولون في سلال صغيرة وهم يصفرون صفرات خفيفة اعلانا عن بضاعتهم. وان لم يكن لديه ثمن زجاجة البيرة يكتفي بارتشاف فنجان قهوة والثرثرة مع زبون لا يعرفه عن أمور عامة تتعلق بالأسعار والسياحة وحالة الطقس، وبعد أن يكل ينفلت خارجا باتجاه مقهى « الانترناسيونال » أو مقره الرسمي كما كان يسميه.

وأمام غياث داود يفجر كل غضبه الذي يمور في هيكله النحيف، ولو كان بيده معول لما ترك كرسيا عامرا ولا طاولة أو قدحا في رحاب هذا المقهى المكتظ.

امتص قطعة الحلوى، ابتلع ريقه وأعلن باشتعال :

- حسنا، ها هو الوضع العربي على ما هو عليه، وها نحن نشرب البيرة ونرتشف القهوة ونكتب الشعر الذي نطمح ان نغير فيه وجه العالم، هكذا نقول في ندواتنا وأجوبتنا التي ندبجها للصحف، دون أن نفطن لهذه

المفارقة المضحكة في القول، فكأن وجه العالم جدار بالامكان أن نطليه كل يوم بلون، أما أنت فلعلك أسعد حظا لأنك لا تكتب الشعر، ولعل من هنا سر تماسكك وترقبك لشيء لست أدري ما هو بالضبط على أيةحال، ولكن ماذا بعد ؟

ومسد بيده على شعره المجزور مرتين ثم استأنف القول ليجيب بنفسه على التساؤل الذي أطلقه :

ـ هناك أفكار عظيمة، هذا أمر لن نشك فيه، ولنكن واضحين أكثر ونقول هناك أحزاب ثورية عظيمة أفرزها النضال العربي ضد القمع والسلب والتنكيل، ولكنني خائف على هذه الأحزاب قبل أن تصل إلى السلطة ويكبر خوفي عليها بعد أن تصل حيث تتناهى إلى أذني أصوات أجراس الخطر.

ونطق غياث داود ببساطة :

ـ وهل أنت ضد أن يحكم الثوار ؟

ـ كلا، ولكن شريطة أن يكون الثوار ثوارا فعلا، ولكن الكثيرين يكسفوننا، فقد يناضل البعض ويسجن لا ايمانا منه برسالة، ولكن لأن في رأسه شيئا ذاتيا، أو سمِّه مأربا شخصيا وليست هناك أية وسيلة لتحقيقه إلا الانخراط في العمل السياسي وضمن أحد الأحزاب التي ترفع الثورية شعارا لها.

ـ ولكن هذا البعض سيكتشف لا محالة، وهذا يحدث كثيرا وفي كل الأحزاب، استقرىء تاريخ الثورة البلشفية مثلا، لن تخلو حركة سياسية ثورية من هؤلاء، أصحاب المآرب والغايات الذين قد ينجحون في الوصول إلى مراكز متقدمة في فترة من الفترات، ولكن هذا لا يعني أنهم سيمكثون فيها دوما

ويوضح الشاعر قائلا :

ـ نحن غير مختلفين اذن ؟ ولكن يبقى الشيء الأهم في هذه المعادلة.

ويضيف قبل أن يدع المجال لغياث للتساؤل عن هذا الشيء :

ـ انه الشعب. لا تنس هذا، فكم من الآثام ترتكب باسمه، كم من البيانات والخطب ؟ وهو حائر مكدود، لا يبحث إلا عن لقمة ووسادة، بينما يجني من يسمون أنفسهم بالمدافعين عنه الثمار، فكأن نضالهم أو سجنهم كانا منّة على هذا الشعب وليسا رسالة ودورا، ومن هنا تأتي المطالبة بالثمن.

وعاد غياث ليسأله ببساطة أيضا :

ـ وماذا تقترح في مثل هذه الحال ؟

ورد بحزم :

ـ لا أقترح شيئا محددا، لأنني خارج اللعبة كلها، ولكن الفرق بيني وبين الذين في داخلها انني اشاهد كل شيء بوضوح، ولنفترض أن لدي اقتراحا أو حلا أو تشخيصا، فمن يسمعني ؟ وأنا في موقع غير مؤثر، مجرد كاتب غيابات لطلاب احدى المدارس الثانوية، هذا كل شيء.

ونطق غياث :

ـ انضو، وقم بالتغيير اذن ؟

وصفق الشاعر بيديه وقال :

ـ ولمن أنضوي ؟

ـ هذا بلدك، وأنت أدرى به، وبتركيبة أحزابه.

واحتشد صوت الشاعر بالغضب وهو يردد :

ـ كأنك لا تفهمني، أنا لا أتحدث عن هذا البلد، بل عن الوضع العربي كله، وهذا ما يهمني، هل فهمت الآن ؟

وهنا أطلق ضحكة عالية فكأنه أراد بها أن يخفف حمى هذه المناقشة، ثم عاد إلى ديدنه في امتصاص حلواه وهو يدير عينيه بين أكوام الرواد الذين وقف بعضهم في انتظار من يغادر حتى يستولوا على طاولته.

وتمتم الشاعر :

ـ ألا تحس بأننـا في سجـن اختيـاري ونـحـن ننحشر في هذا المكان ؟ لديك سيارة فلماذا لا تحملني إلى مكان بعيد ؟ إلى سيدي بوسعيد مثلا ؟ أريد أن أتنفس أحرام علي هذا ؟

ـ وبعــد ؟

ـ نشرب البيرة ونقلب الدنيا.

سعيدة بنت المنصف تريد أن ترحــل ؟ في رأسهـا شيء، ولكن إلى أين ؟ أي ضمان تملكـه ؟ بماذا تقتحم المدن المغلقة تلك ؟ في آخر لقاء لي معها كررت ذلك مرات، وسألتها :

ـ أتهددينني ؟

ـ قالــت :

ـ ولماذا تظن ذلك ؟

ـ اذن ماذا تريدين ؟

وتمتمت محتارة :

ـ لا أدري ، المهم أن بقائي هنا أصبح متعذرا.

ـ وكيف ستذهبين ؟

ـ سأستـدين، سأبيع هذه القلادة، وهذا الخاتم، أبيع معطفي وأحذيتي وأهرب.

ويقول لها بشيء من التأنيب :

ـ المال ليس مشكلة ، سأشتري لك بطاقة حتى بلاد الأسكيمو، ولكنني أتساءل أي نوع من الذهاب سيكون ذهابك ؟ وأي هدف وراءه ؟

تمتمت منكسرة :

ـ أرجوك يا غياث أن تكف عن محاكمتي.

كنا على وشك الوصول إلى بيت عمها. أوقفت السيارة ثم فتحت لها الباب لتنزل بعد أن طبعت على خدي قبلة فاترة متمنية لي ليلة سعيدة.

* * *

كان المطر ينث ناعما، وقد أقفرت الشوارع من المارة، ولم يعد فيها إلا عمال التنـظيف وهم يرتدون البدلات الواقية من المطر والتي تحيلهم إلى

أشبـاح غريبـة تتحـرك في دكنة الأزقة والشوارع العريضة حاملة براميل واكياس القمامة بسرعة وهمة.

فتحت المذياع. كان هناك من يتكلم عن الموسيقى العربية ومقاماتها ويعزف على عوده بين فترة وأخرى للتدليل. حركت المؤشر حتى استقر على أغنية غربية مهـرجة، وتركتها لتعربد في جوف السيارة المغلق ولتخدش أذنـيّ اللتين لم تعودا تطيقان الانصات لشيء.

ومضيت باتجاه بيتي، وعندما وصلته وجدته يغط في الظلام، أركنت السيارة أمام الباب وخرجت منها، فتحت باب الحديقة، بعد ذلك باب البيت، أشعلت الأنوار كلها، ونظرت إلى ساعتي فوجدت أن هناك بعض الوقت لأنفقه أمام شاشة التليفزيون.

كانت في صدري صرخـــة غضب، وعـواء ذئب محاصر، اكشر عن أنيابي، أشهر أصابعي بأظفارها الطويلة، وأبحث عن وجه آمن لأشوهه وأوغل فيه طعنا وتمزيقا، ألغ في دمائه، وألطخه بالوحل والدخان.

سعيدة بنت المنصف، ألعن كامل السعدون، ألعن اليوم الذي رأيتك فيه، من أنت حتى تسوريني بهذا الشكل ؟ تضيقين علي الخناق ؟ حتى كرهت المدينة ونفسي. أود لو أفر، أهرب بعيدا، لئلا أسمع عنك شيئا.

كان حسان صبحي يعلن دوما :

ـ داو المرأة بالمرأة.

ويضيف الرسام المتوحد بلهجته الحازمة :

ـ لا تقل داو المرأة بالمرأة، بل اقتل المرأة بالمرأة، فالمرأة العصية أو العبء بحاجة إلى القتل وليس المداواة، هكذا أقول، وهذا ما أفعله دوما، كلما أحسست بأنني قد دخلت في الجـد في علاقتي مع احداهن أهب فزعا كالملدوغ لأبحث عن الثانية، ولذا لم أرضخ لامرأة طيلة حياتي، وأتحدى أية امرأة عرفتني أن تقول بأنني قد عرضت عليها الزواج يوما، ولذا بقيت هكذا مستوحشا ووحيدا مثل اطلال بعلبك القريبة من قريتي.

حسنا يا حكمة حسان صبحي تعالي. ويا حكمة الرسام المتوحد تعالي

أيضا، آن لكما أن تقتحما رأسي المخبول علكما تنقذانني.

مددت يدي في جيبي واستخرجت دفتر تليفوناتي بحثا عن رقم قد تكون أعطتني اياه امرأة، اية امرأة، وأخذت اقلبه متمهلا قارئا كل اسم فتوقفت أمام أحد الأرقام، وتذكرت صاحبته، حسنا، لقد بدأت مرحلة العلاج.

وضعت آلت التليفون على ركبتي وأدرت الرقم، وجاءني الصوت، وخمنت انه صوتها لأنها تعيش وحيدة مع ابنها وأخيها فقط. وعرفتني من لهجتي غير التونسية، وهتفت :

- أنت غياث داود، كنت أتوقع أن تكلمني. ولكني أعذرك لكثرة أعمالك، فالجامعة العربية خلية نحل.

ثم أضافت مداعبة :

- ولكن كل مؤتمراتها لم تصلح خلافات العرب المتزايدة.

وقلت لها :

- اذن أنت عارفة بوضعي جيدا، ولكن ها أنني أجد الفرصة لأكلمك لسبب واحد هو انني مشتاق لرؤيتك.

وكان صوتها كالمخمور وهي تقول :

- ولكن ليس اليوم فالوقت متأخر.

واتفقنا على أن نلتقي في مساء اليوم التالي لنسهر معا. أطبقت التليفون وأنا أهتف :

- لتذهب سعيدة بنت المنصف إلى الجحيم.

واتجهت إلى غرفة نومي، وأخذت أخلع ملابسي وأعلقها في المشجب، حتى أصبحت بملابسي الداخلية فقط. لبست بيجامتي وعدت ثانية إلى غرفة الجلوس لأواصل النظر إلى التليفزيون الذي تركته مفتوحا، كانت هناك مغنية بشعر همجي منثور تصرخ مسعورة، ولا أقول تغني فهذا أبعد ما يكون عن الغناء الذي اقترن عندي بالحزن والتأمل، أركنت ظهري على مسند الأريكة ورحت أراقبها.

سألتني سعيدة بنت المنصف مرة :

ـ إذا ذهبت ما الذي يبقى لديك مني ؟

وقد أجبتها محاولا ارضاءها :

ـ تبقى ذكراك. أليست هذه كافية ؟ بعض الناس يمرون بنا ولا تبقى حتى الذكرى، أليس هذا الأمر لعينا ومفجعا ؟

ـ إنه شيء لعين ومفجع فعلا، ولكن من المؤسف انه يحدث كثيرا، أما أنا فلي ذاكرة ملعونة، تحتفظ أحيانا بدقائق وتفاصيل ثانوية وغير هامة عند بعض الناس، ولكن هذه الذاكرة ألغت آخرين بكليتهم فكأنهم ما كانوا ولم يمروا بي.

بعد ذلك فتحت حقيبتها وقدمت لي صورة شخصية لها تظهرها وهي تبتسم. ثم قالت :

ـ لعل هذه الصورة تذكرك بي كلما بهت وجهي في رأسك وكادت ملامحه أن تضيع.

وألقيت على الصورة نظرة متأملة. ثم مددت يدي في جيبي واستخرجت محفظة نقودي ودسستها فيها وأنا أعلق :

ـ أنت أجمل من هذه الصورة، لقد ظلمك المصور.

ـ ليس المهم ان أكون جميلة أو غير جميلة وانما المهم أن تتذكرني ولو من خلالها.

ثم أردفت :

ـ لم أكتب لك حرفا على قفاها. لم أعرف كلمة تصلح لهذا.

ـ ليس هذا بالمهم، ابنسامتك في الصورة تحمل الكثير من الكلمات.

وامتلأ صوتها بالحماس وهي تسألني :

ـ وأين ستضعها ؟

ورددت بعجل :

ـ لقد وضعتها وانتهيت، أو قد استخرجها وأضعها في درج مكتبي.

ثم غيرت من لهجتي وأنا أسألها بشيء من الود :

ـ هل تقترحين مكانا آخر ؟

ونطقت غير مطمئنة :

ـ هذا الأمر يخصك، أما أنا فقد انتهت مهمتي بعد أن قدمتها لك.

ستبقى لي منك هذه الصورة، تطالعني كلما فتحت الدرج بحثا عن شيء أودعته فيه، أو كلما فتحت محفظة نقودي لأدفع ثمن حاجة اشتريتها، وقد أفعل ذلك وأنا في ذروة غضب فتتلقفها أصابعي وتمعن فيها دعكا وتمزيقا ثم أرميها في صندوق القمامة وأنتهي منها ومما علق منك بي.

تساءلت سعيدة بنت المنصف بصوت عاتب بعد فترة من التأمل وكأنها انتبهت إلى شيء فاتها :

ـ ولكن ألا تجد لها مكانا أنسب ؟

ـ أين مثلا ؟

ـ في بيتك.

وأحسست بأنها قد فاجأتني بطعنة مباغتة. عضضت على شفتي، وكتمت صرختي ولم أعلنها. وضعت يدي على الجرح وحاولت أن أستريح وأستعيد توازني.

في بيتي يا سعيدة بنت المنصف ؟ ووجه أميرة حسين أين يذهب ؟ انه وحده الماثل هناك. وفي قلبي، وفي هدير دمي، وفي غرفة نومي، يلازمني في تلك الصورة الحبيبة المؤطرة باطار ذهبي، صنعه لي صائغ صابئي صديق، يدي على كتفها وهي جالسة، وأنا واقف جوارها، التقطنا الصورة في ليلة زفافنا، وكانت فيها تبتسم تلك البسمة التي رأيتها على وجهها ذات يوم في موقف الباص لتضيء عتمتي وتعلمني الحب الآمن والحبور، ولتجعلني أسيرها وعاشقها الذي لا يرتوي. في الصورة تبتسم حبيبتي كما كانت تبتسم دوما في الحياة، وربما في الممات أيضا إذ انني لم أقو على النظر إلى وجهها بعد أن أخرجوها جثة من صالة العمليات. كانت عيناها تعدان بالفرح والضوء وأنا جوارها عابس مزموم، تناولت الصورة من يد المصور وتملتها طويلا قبل أن تقول :

ـ ما بك هكذا ؟ من يراك يتصورني قد تزوجتك بالقوة، ولم يدر انني رأفت بحالك وقبلت الزواج منك، أنظرني أنا، هكذا يجب أن تكون وجوه العرسان.

وقلت لها مؤكدا :

ـ والله لو رفضني أهلك، ورفضتني أنت قبلهم، لجئت بجواد واختطفتك وأردفتك ورائي، وهربت بك إلى الصحاري والقفار لأسكنك في خيمة وأجعلك تحلبين الماعز وتحملين حزم الحشائش على رأسك

وضحكت من قلبها وعلقت :

ـ ان خيالك واسع يا غياث ا لا تنسَ بأن هناك رجال شرطة وطائرات هليوكوبتر ورادارات و . .

وقبلتها على جبينها وأنا أهمس لها بحب :

ـ ولكنك رضيت بي فلم هذا الصداع ؟

أميرة حسين، غاليتي، كانت دنيوية إلى حد التألق والانشداه، تحب العطر والثياب، وتضحك من قلبها وهي تعلق على كل عثراتي الصغيرة التي اقترفها في لحظة انشغال أو التفكير بشيء.

حملت الصورة في حقيبة سفري، دارت معي المدن والفنادق، وكانت أول شيء أستخرجه لأضعه أمامي قبل أن أفعل ذلك بثيابي، لأستلهم المعنى والصدق من ذلك الوجه الذي خذلني غيابه المباغت، وليقيني من الانجراف وراء الأفعال والقذارات الفادحة التي قد ينقاد إليها رجل محطم مثلي.

سعيدة بنت المنصف، لا وجهك، ولا أي وجه آخر يشفيني من داء أميرة حسين، من حزني المكتوم الأبديّ عليها، وعلى ذلك الطفل الذي لم تزر رئتاه نسمة هواء واحدة.

أميرة حسين فجيعتي واحتضاري حتى يوم الله.

ضحك الشاعر وبكى، وقرأ لي قصائد كثيرة، بعضها من ذاكرته، وآخر كان مدونا في أوراق مدعوكة تملأ جيوب معطفه الواقي من المطر،

وأصغيت له، ولم أعلق بشيء، كانت بيني وبين الكلمات مسافة، حتى الهـراء الذي تسطره سعيدةبنت المنصف وتلقيه على مسمعي لا أصغي إليه، أهز رأسي وأنا أفكر في شأن آخر، رغم أنها تخاطبني أنا بالذات في كلماتها.

حملته إلى فندق « سيدي بوسعيد » وجلسنا أمام البار، فوق الكراسي العالية لنتطلع إلى السفوح الخضراء التي ترصعها البيوت البيضاء وغابات الـزيتـون الكثـة، وكنت أسبح في هذا الشمول النقي مواصلا سحب أنفاسي لأنقي دمي من صديده.

تذكـرت أشيـاء كثـيرة انـطفـأت وأخرى مازالت تعتلق في الذاكرة والـوجـدان، وشربت كثيراً، زجاجة تتبعها زجاجة من بيرة « سيلتيا » التـونسية المثلجّة. وكانت الكؤوس تواصل شحني بفرح سري، يفتح عيونه وأشداقه، ويطلق قهقهاته الهامسة ولكنني لا أعرف كيف أحتفي به ؟ وأعلن عنه ؟ فقد جبلت على الهم والخذلان.

قال الشاعر ومازالت الحلوى الملعونة تحت لسانه رغم البيرة والشعر والدخان:

ـ اسمع يا غياث، أريدك أن تساعدني بأمر، ليس لي الاك من مساعد بين هؤلاء.

وقلت له مؤكدا :

ـ إذا كنت قادرا.

قال وكأنه يترنم باحدى قصائده :

ـ ماذا يعني عمر الماجري في هذا البلد الذي يقرب تعداد نفوسه من السبعة ملايين ؟ ولا أقول من هذه الأمة التي ستصبح مئتي مليون ؟

وأجاب عن سؤاله :

ـ لا شيء، صفر على الشمال، ومن هنا أحاول أن أترك اثرا، أو ظلا، أو ايـة علامـة، تدلـل على انني قد عشت في الـربع الأخير من القرن

العشرين، أليس من حقي هذا ؟ لقد فعلت أنت ذلك من خلال العمل السياسي، ولأكن دقيقا أكثر من خلال الانتماء إلى حزب، ووصلت إلى ما أنت عليه بفضل هذا الانتماء، ثم بفضل كفاحك الشخصي وقدراتك، أما أنا فليس لي الا الشعر، والخلاصة هي انني أريدك أن تعينني على طبع ديواني الأول.

وقلت له ببرود يناقض حماسه :

ـ وكم تريد ؟

وهب إلى الرد على الفور :

ـ مئة دينار تكفي.

وتمتمت من بين أسناني :

ـ ما أبخس المبلغ

وقفز من مكانه بخفة وطوقني بذراعيه وكاد أن يقلب كرسيه ذا الأرجل الطويلة وهو يقول :

ـ وهكذا سيكتب اسمي على الورق، على الحجر، لا على الماء كما قال بدر شاكر السياب

وقلت له مداعبا :

ـ ولكنني اعترض على اسمك. عمر الماجري. انه يصلح لمنصب رسمي كبير، اكثر من صلاحيته لشاعر، يرتكن إلى الكلمات ويختبىء بينها، تقاتله ويقاتلها بهسيس لا يسمعه أحد

عاد إلى مكانه، وحط فوق الكرسي وهو يقول :

ـ ماذا أفعل إذا كان أبي قد أطلق علي هذا الاسم حبا بعمر بن الخطاب ظنا منه انني سأنشر العدل في الدنيا أيضا، ولكنني ولحد الآن لم أنشر غير الفوضى والخراب، أما الماجري فهو لقب العائلة الذي لا فكاك منه.

وقلت له :

ـ إن جدي الكبير كان لقبه العاتي، وقد أغراني هذا اللقب عندما كنت في المدرسة الابتدائية، وأخذت أكتب اسمي غياث داود العاتي، حتى شهادة البكالوريا من المدرسة الابتدائية، تحمل هذا الاسم، ولكنني شطبت العاتي منذ المدرسة المتوسطة لأبقى غياث داود فقط، وهو مجرد اسم حيادي، من الممكن أن يكون لوزير أو لمعلم مدرسة أو لبائع متجول

وضحك الشاعر وقال :

ـ على أية حال انني لا أجد مسافة بينك وبين اسمك، كان لي زميل في المدرسة الابتدائية يلقب بالشجاع، ولكنه كان صغيرا مذعورا، وقد فعلها ببنطلونه مرة عندما صرخ فيه مدرس اللغة الفرنسية

وضحكنا، وشربنا نخب الأسماء والألقاب، الصالح منها والطالح، الخائر والقوي، فمصيرنا كلنا إلى التراب والدود كما تقول حكيمة بنت الشيخ جابر فما الجدوى ؟

ربتّ على كتف صاحبي وقلت له :

ـ لا أحمل المبلغ معي الآن، ولكنني سأعطيك اياه غدا، زرني في مكتبي ان استطعت ؟

أخذ رشفة من كأسه وأعلن وكأنه يبوح بسر خفي :

ـ سيكون الديوان مهدى لك.

وأضاف مؤكدا :

ـ وباسمك الصريح.

وابتسمت في وجهه وأنا أعلق :

ـ وماذا تقول عني ؟ وأنا لست بشاعر ولا ناثر ؟

وهب قائلا :

ـ سأهديه لغياث داود الانسان، ألا يكفي هذا ؟

- 14 -

قالت سميرة حليم بصوتها الجذلان :

ـ الاثنين القادم عيد ميلادي .

وسألها غياث بخبث :

ـ وكم عاما ستبلغين ؟

قالــت :

ـ لا يهم ، انني أصغر منك على أية حال .

وقهقه بصوت عال وهو يضع قطعة « جبس » في فمه ويتأمل وجهها الأبيض الطري والتماع الشعر الأسود القصير الذي يتوجه .

كانا ينزويان في بار فندق « الكومودور » فهو مكانهما المفضل كلما أصبح التحـرك متعـذّرا نحو مطاعم ومقاهي البحر. تركت سيارتها أمام شقته وجاءا خطوا إلى هنا .

لقد داهمت وحدته عصر اليوم ، ضغطت على الجرس فهب من نومه ، وفتح لها الباب وهو منكوش الشعر، لم يسأل عن الطارق ليسمع صوته ويشخصه ، ولم ينظر من عين الباب الصغيرة ، كما نصحه أصدقاؤه حفاظا على سلامته ، وقد ضحك آنذاك وقال :

ـ إذا وجدوا ان قتلي مهم سيقتلونني حتما ، في شقتي ، في الطريق ، في المقهى ، ولكن يبدو انهم لم يقرروا ذلك حتى الآن .

أخـذهـا بين ذراعيه وقبلهـا على جبينها ، ثم على شفتيها ، واستنشق رائحتها الطيبة بملء صدره ، ومضى بها إلى غرفة النوم رأسا فكأنها قد جاءته من أجل ذلك ، وكان ممتلئا بالرغبة في امتلاكها إذ مر عليه أكثر من أسبوع وهي بعيدة عنه ، جاءه صوتها مرة من « عاليه » وكان بعيدا كأنه قادم من آخر الدنيا ودعته للحاق بها ، ولكنه اعتذر مرددا :

ـ ليتني أقدر

ثم تمنى لها أياما سعيدة ، شكرته وأطبقت سماعة التليفون .

عانقهـا بشوق. قبّل منها الصدر والأقدام ليحيل برودها الظاهر إلى جحيم، فكان أن اتقدت ومنحته الكثير.

دخلا الحمام سوية بعد ذلك لينسكب ماء الدش الدافىء على جسديهما العاريين. ارتديا ثيابهما وخرجا إلى الشارع، وكان الظلام قد خيم وصوت اطلاقات رشاش تأتي من بعيد، من جهة الأسواق التجارية، هكذا قدرا.

تمتمت سميرة حليم :

ـ هدموا المدينة، لا تبقوا فيها شيئا، أولاد الـ . . .

وزفـر غياث داود بحزن وهو يمسك بيدها مهدئا وهي تخطو بجانبه فارعة مشتهاة.

ودلفا في فندق « الكومودور » ليحتسيا الويسكي وينصتا لذلك المغني الشاب الذي يعزف على جملة من الآلات الهوائية في وقت واحد وصوته يقذف بالأغنيات.

سألهـا :

ـ ماذا تريدين أن أهديك ؟

قالـت :

ـ باقة ورد تكفي. وإذا شئت أن تبالغ فزجاجة عطر.

ـ حسنا يا عزيزتي، سأهديك أغلى زجاجة عطر في بيروت.

وضحكت سميرة حليم من قلبها، ثم أمسكت بيده المكومة على الطاولة أمامها، هصرتها بأطراف أصابعها وهي تسأل :

ـ وأنـت متى يحين عيد ميلادك ؟

وأطلق ضحكة عالية، طرب لوقعها الخلي فأعادها ثانية، بينما ارتسم على وجهها شيء من التساؤل، وأراد أن يقول لها بأنه لا يعرف اليوم الذي ولد فيه، وأن حكيمة بنت الشيخ جابر تقول بأنه ولد في يوم الجمعة الذي تلا مقتل الملك غازي، فمن يعرف تاريخه يوم الجمعة ذاك ؟ رحمها الله. لم تكن تعرف تاريخا ولا وقتا، إذ كانت تؤرخ للأحداث بالعام الذي ولدت فيه بقرتنا توأمين، أو بالعام الذي قطعوا فيه النخلة التي كانت تتوسط باحة

الدار، أو بالعام الذي أمطرت فيه السماء ثلجا على شكل كرات صغيرة فكسرت سيقان الزرع وهكذا.

أما الزمن ومواعيد الصلاة واشعال التنور فتعرفها من خلال عصا تغرسها أمام الدار و حركة ظل هذه العصا.

كانت حكيمة بنت الشيخ جابر سهلة مثل موال حزن ينفثه صدر فلاح عاشق في فلوات السماوة لتسمعه حبيبته المنتظرة في كوخها القصبي.

وأعادت سميرة حليم سؤالها :

ـ لماذا تضحك ؟

وحاول أن يحمل رده بلهجة جادة وهو يعلق :

ـ أبدا، ولكن كل الذي أردت أن أقول، ما الجدوى من الاحتفال بأعمارنا وهي منقرضة زائلة ؟

قالت :

ـ الحق معك، ولكن من حق الإنسان أن يبحث عن المناسبة، أية مناسبة ليعمدها بفرح أو احتفال.

ـ لن أستطيع أن أحاججك فأنت دنيوية بشكل مجنون.

ـ مادمنا أحياء فعلينا أن نغرق في كل جميل وعذب حتى ولو اختنقنا فيه.

ورفع كأسه إلى أعلى وهو يهتف :

ـ في صحة كل ما هو جميل في هذا العالم، في صحة بيروت التي تحب رغم أنف القتلة واللصوص وأبناء العاهرات.

وشربت سميرة حليم كثيرا تلك الليلة، وخرجا مترنحين في ساعة متأخرة من الليل، استوقفته وهي تمسك بيده وتقول :

ـ اسمع يا غياث، قل ما تشاء عني، ولكنني أشتهي ان أكون بين ذراعيك في هذه اللحظة

ابتسم وقال لها وعيناه تجوبان في دكنة المكان :

ـ لم تعد بيننا وبين الشقة الا خطوات.

لم يكن لدي ما أصنعه، فتحت زجاجة بيرة وشربت نصفها، واشتهيت

ان أدخن سيكارة، أخرجتها من العلبة ووضعتها في فمي فعلا وهممت باشعالها، ولكنني انتزعتها وكسرتها إلى نصفين ورميتها في المنفضة التي مازالت فيها أعقاب سكائر ثلاث دخنتها سميرة حليم ليلة أمس. على امتداد عمري، بسنواته القاحلة والحبلى بلحظات التشنج والارتباك لم ألجأ إلى السيكارة، وهذا الصدر لم تداهمه موجة دخان واحدة لذلك ظلت أنفاسي هامسة نقية لا تعكرها سعلة أو حشرجة مرارة، ومن هنا كبر عجبي عندما اقتنصني ذلك الوجع العاتي في اليوم اللعين، حيث حملتني جليلة عباس لأرقد في المستشفى مكبلا في غرفة العناية الفائقة، ولتظل يدي على صدري شهورا وأنا أدور بين عيادات الأطباء بحثا عن تشخيص للحالة اللعينة التي كانت تأخذني.

كان المساء نديا، وشارع «السادات» مازال يمور بالحركة . .

ان الناس يتحدون ولا يراوحون في أماكنهم، أو يختبئون وراء أبواب بيوتهم، الرغبة في المضي والاستمرار هي الأقوى والأشد، ورغم توقف وشلل جوانب كثيرة فان هناك الجديد الذي ينبت ويظهر.

كنت قد حلقت ذقني وخضبت وجهي بماء الكولونيا لذا كان لملمس الهواء لوجهي حنان وصفح يبعد عن العروق كل الوصب والعناء، واشتهيت ان أغني، ان استحضر واحدة من تلك الأغاني القديمة التي كان يرددها «حضيري أبو عزيز» في حفله الأسبوعي الذي تبثه إذاعة بغداد على الهواء مباشرة في ظهيرة كل يوم جمعة، وكان سكان العراق ينتظرون هذا الموعد لينصتوا إلى «بلبل الريف» كما كان يسمى ذلك المغني، ويتجمعون في البيوت التي تمتلك جهاز راديو يدور على بطارية كبيرة.

تذكرت أغنية شائعة له عن بائع الورد، غناها مرة في فيلم مصري وهو بزيه العراقي الجنوبي، العقال واليشماغ والعباءة، وأخذت أتمتم بكلماتها وأنا آخذ طريقي صوب منزل حسان صبحي.

تعب القلب، وتحجرت كلمات الأغاني، ولم تعد فيها تلك القدرة على اختراق جدران الأسى وتفتيت جليد الخذلان.

استقبلتني زوجته بلهجتها الشامية المرحبة :

ـ أهلا غياث، اشتقنا لك، أين أنت ؟

وتمتمـــت :

ـ في هذه الدنيا.

وضحكت من تعليقي وهي تقول :

ـ أعرف انك في هذه الدنيا ولست في الآخرة، ولكنك لم تزرنا منذ فترة ؟

وكانت انذاك قد انسحبت إلى جانب المدخل لتفسح لي المجال حتى أدخـل، أطبقت البـاب وقادتنـــي إلـــى الصالون الذي ملأته بأصص نباتات الظل ذات الأوراق الخضراء الكبيرة.

قلت لها وأنا أرمي بجسدي على المقعد :

ـ ها انني قد جئت.

ـ مرحبا بك

ـ وأين حسان ؟

ـ ممدد في الفراش، سأوقظه حالا.

وهنا سألتني.

ـ ولكن قبل ذلك قل لي ماذا تحب أن تشرب ؟

وقلت على الفور :

ـ قهوة، فليس في بيروت ألذ من قهوتك.

ابتسمت بانشراح وغـادرتني. وبعـد لحظات جاءني حسـان صبحي مرحبا وهو مازال مرتديا بيجامته. صافحني ثم استأذن ليرتدي ملابسه.

نهضت وفتحت جهاز التليفزيون، كان يبث برنامجا للأطفال، يظهر فيه عدد منهم وهم يحيطون بمقدمة البرنامج الصبوحة الوجه التي تقص

عليهم حكاية عن أرنب أبيض، وهم يفغرون أفواههم ويحبسون أنفاسهم في انتظار ما يحدث لهذا الأرنب الذي سقط في شباك صياد.

دخلت زوجة حسان وهي تحمل في يدها صينية، حملت منها فنجانا ووضعته أمامي وهي تقول :

ـ هاهي القهوة.

فرددت.

ـ شكرا.

وبدأت أرتشف قهوتي بالتذاذ، وأراقب وجه مقدمة البرنامج الجميل وهي تنسجم في حديثها مع الأطفال، وكانت الكاميرا تنقل بين فترة وأخرى وبلقطات كبيرة صورة وجوههم المنصتة.

قالت الزوجة معلقة :

ـ كلنا أرانب بيضاء، وقعت في شباك صيادين قساة.

وهززت رأسي مؤيدا وأنا أتساءل :

ـ ولكن كيف الخلاص ؟

قالت بجزم :

ـ لا خلاص أبدا.

ودخل حسان صبحي وهو يسأل زوجته :

ـ أين قهوتي ؟

ـ اجلس أولا، وسآتيك بها، انها في الركوة.

ثم نهضت متجهة إلى المطبخ، وظل حسان بجانبي وهو يحني رقبته قليلا إلى الأمام وكأنه يراقب شيئا.

سألته :

ـ كيف أنت ؟

وتمتم بقرف واضح :

ـ متعب، والصداع بدأ يداهمني من جديد، البارحة ذهبت إلى

المستشفى، حللوا دمي، وخططوا دماغي، وقالوا لي بأن لا شيء، أما السبب الذي يجعلني في هذا الوضع فهو القلق والتعب النفسي.

وقلت له:

- مازلت أنصحك بأن ترحل من هنا. لا تكن مثاليا.

وحرك يديه بحيرة وهو يردد:

- وأين أذهب؟

- إلى الخليج مثلا. أنت من خيرة الفنيين في الصحافة العربية، وهناك سيدفعون لك الأجور مضاعفة.

وهز يده وقال بتردد:

- قضيت قرابة العشرين عاما في هذه المدينة حتى كونت هذا البيت، اشتريت الأرائك واللوحات والثلاجة والأسرّة والتليفزيون والسجاجيد، وولد ولداي، وغرست زوجتي كل هذه الأصص، واشترت ابنتي حوض الأسماك ذاك. ان هذه المدينة هي الحاضر بالنسبة لي أنا وزوجتي، وهي الماضي كذلك بالنسبة لولديّ إذ لم يعرفا مدينة غيرها، انها ذاكرتهما الحية فكيف تريدني أن أمحوها وأذهب لأبني من جديد في مكان ما هناك؟ المسألة ليست سهلة كما تظن.

دخلت زوجته ووضعت فنجان القهوة امامه وهي تقول:

- جعلتها خفيفة، فقد نصحك الأطباء بالاقلال من شرب المنبهات.

ورد عليها:

- أطباء أغبياء، نسوا أن هذا الرأس المخدر لن توقظه إلا هذه الفناجين الحبيبة.

وارتشف قهوته على عجل وهو يسألني:

- ما رأيك في أن نخرج؟

- إلى أين؟

- إلى شاطئ البحر، أحب أن أمشي على قدمي وأتنفس هواء البحر فهو

وحده القادر على انتشالي من تعبي وصداعي.

وخرجنا بعد أن ودعنا زوجته، تركناها لبيتها وزهورها وولديها اللذين كانا يلعبان الكرة انذاك في الفسحة المجاورة للعمارة.

قال حسان صبحي وهو يضغط على زر المصعد :

- أدور وأدور ثم أعود إلى هذه المرأة، انها الوحيدة القادرة على احتضاني بكل متاعبي وخطاياي، لقد خنتها مئات المرات وهي تعرف ذلك جيدا، ولكن كبرياءها تمنعها من اطلاق أية كلمة عتاب، خنتها مع صحفيات مبتدئات وسكرتيرات ومحترفات وعاملات تليفون وحتى خادمات في بيوت وراقصات الملاهي، انها تعرف كل هذا، ولكنها لا تنبس بحرف وكأنها تجد في عودتي إليها في ساعة متأخرة من الليل قناعة بأنني لها، وأن كل ماعداها مجرد محطات باهتة.

وغادرنا المصعد بعد أن فتح بابه، ثم قصدنا سيارته ودلفنا فيها، أدار المحرك، ثم أرجعها إلى الوراء حتى استقامت في الطريق العام، بعد ذلك ضغط على آلة البنزين فراحت تمخر في الشارع مسرعة.

قال مواصلا الحديث عن زوجته :

- يوم رأيتها أول مرة كانت بثيابها المدرسية مثل عصفور بريء أسمر، وهي تصاحب أختي إلى بيتنا لتدرسا سوية، ووقعت أسير براءتها فخطبتها وتزوجتها وحملتها من دمشق إلى بيروت ليكون هنا مقامها الأخير.

كنا نتجه نحو البحر والظلام قد عم الشوارع. ولم يعد فيها الا أنوار باهتة تتسرب من نوافذ العمارات العالية المتراصة.

وعندما وصلنا الشاطىء أوقف السيارة وهو يعلن :

- هنا مكان جميل.

وخرجنا لنقف أمام البحر الذي يلوح داكنا، وأمواجه العالية ترتطم بصخور الشاطىء بهدير مسموع.

حرك حسان ذراعيه أماما وخلفا، وملأ صدره بالهواء وهو يقول

بهمس :

- مر دهر منذ أن اقلعت عن الرياضة، وها هو الترهل يهددني.

وأخذت أتنفس أنا الآخر، استنشق الهواء ذا اللفحة الباردة بعمق، ثم قلت :

- نصحني طبيب صديق مرة بأن الرياضة حل لكثير من المصاعب، ليس الصحية فقط بل والنفسية أيضا، وقال إن الذين اعتادوا المشي عدة كيلومترات على أقدامهم كل يوم هم أكثر قدرة على التركيز من غيرهم، وهم اضافة إلى ذلك غير مهددين بأمراض هذا العصر، من ضغط دموي إلى تصلب شرايين وسكتة قلبية.

وصرخ حسان صبحي :

- أبعدنا عن هذا الحديث أرجوك.

ثم انفتل عائدا نحو السيارة بخطواته المتمهلة المتثاقلة فتبعته، وبعد أن دخلنا قال :

- لنهرب من هنا حتى لا يحصدنا رشاش ما فنصبح مجرد رقمين في سجل ضحايا بيروت.

ـ 15 ـ

أضع الهاتف فوق ركبتي وأدير الرقم المطلوب فيأتيني بعد لحظات صوت سامي المنذر وهو يسألني :

ـ من أين تكلمني ؟

وأرد عليه :

ـ من بيتي

ويقول :

ـ هل تأتي إلي أم آتي أنا إليك ؟

وأجبته :

ـ سآتي إليك أنا، لأنني قد فرغت من ارتداء ثيابي وليس لدي أي ارتباط عاجل.

ـ أهلا وسهلا.

ـ وخرجت متوجها صوت بيته، ولو لم أكلمه قبل مجيئي لما فتح لي الباب مهما ألححت في قرع الجرس، إذ كان يعلن دوما :

ـ لن أفتح الباب لطارق لا أعرفه، من يدري ماذا يخبىء لي ؟

ويعود ليوضح موقفه :

ـ لا أريد أن انتهي ببساطة، أريد أن تكون خاتمتي حدثا كبيرا.

ثم يبتسم بانشراح نادرا ما يعرفه وجهه الموحش ويتساءل :

ـ أليس الحق معي ؟

فأهز كتفي وأقول :

ـ ربما.

وأضيف وأنا أحرك سبابتي كخطيب بارز :

ـ ولكن لا تنس يا صديقي أن الموت هو الموت مهما كانت الطريقة.

فيعلق محاججا :

ـ أنت تتحدث عن النتيجة أما أنا فأتحدث عن الأسباب.

وقد قطع حديثنا ذاك وقوفنا أمام محل لبيع المبردات لنقتل ظمأ صيف تونس في جوفينا.

ضغطت على زر الجرس وفتح لي الباب. كان عاريا تماما على عادته كلما دخل البيت، صدره المشعر وبطنه الذي يتكور أمامه والذي نسج من أجل إذابته والقضاء عليه مشاريع عديدة في الريجيم والرياضة ولكنه لم يلتزم بها كلما جلس أمام مائدة عامرة وبيده كأس مترعة.

صرخت فيه:

ـ ما هذا؟

فوضع يده على ذلك الشيء الجاثم فوق عش من الشعر الداكن السواد، وهو يقول:

ـ أمارس طقوسي البيتية على عادتي، أغمض عينيك إذا لم يعجبك منظري.

ثم استدار بعد أن أطبق الباب وراح يخطو أمامي مسرعا هو ومؤخرته المشعرة.

وقبل أن يدخل غرفة نومه قال:

ـ أمامك الثلاجة وخذ ما تريد، فواكه، مبردات، أما أنا فسأرتدي ملابسي على عجل.

وذهبت نحو الثلاجة وفتحتها، التقطت برتقالة وحملتها إلى غرفة الاستقبال، وأخذت أقشرها بيدي واجدا في هذه الطريقة البدائية لذة لا حدود لها.

وبعد دقائق خرج علي وقد ارتدى بدلة أنيقة جعلت طلته مشرقة فعلقت:

ـ ما هذه الأناقة؟

ورد مسرعا؟

ـ من أجل خديجة بنت الهادي فقط.

وتمتمــت :

ـ رائع أن نجد أنفسنا وقد ملأنا ذاكرة انسان ما وعبأنا حاضره بحكاياتنا وملامحنا.

ويضيف بتأكيــد :

ـ وتكبر الروعة عندما يكون هذا الانسان من طينة خديجة بنت الهادي النادرة.

وبعد أن فرغت من التهام البرتقالة ذهبت لأغسل يدي وصوته يتبعني :

ـ اليوم لدي موعد معها وغدا أيضا، والبارحة كان لي موعد كذلك، أريد أن أراها كل يوم، لقد صغر هذا العالم، صغرت تونس كلها حتى أصبحت وجها أبيض لامرأة في الخامسة والعشرين اسمها خديجة بنت الهادي.

لم يكن سامي المنذر يحسب لهذه العلائق حسابا من قبل وهو يغرق في همومه الجادة، وقصائده التي ترصد الثورات أينما اندلعت حتى عرف خديجة بنت الهادي. لم يكن واثقا من طبيعة العلاقة بادىء الأمر لذا كان يقدم خطوة ويؤخر أخرى. ولكنها فاجأته ذات يوم بقولها :

ـ إن لك صفات الفارس الشهم وهو أمر بتنا نفتقده في الرجال اليوم ولذا بدأت أميل إليك، ومن يدري ما هي عاقبة هذا الميل ؟ لعلها تقودني إلى حب حقيقي لم أعرفه من قبل وأنا أخرج من تجربة زواج مرة كبلتني بطفلتين وصداع لا ينتهي.

وقد قال لها :

ـ على الرجل أن يكون حقيقيا، هذا ما تفرضه عليه أصالته، وصميميته هي التي تقوده لأن يكون الرأس والمنار في عالم متداع منهار يندر أن نعثر فيه على بذرة صدق وصفاء.

ابتسمت في وجهه، ثم أمسكت بيده وقربتها من صدرها، وبعد أن طبعت عليها قبلة عاجلة أطلقتها.

وقد نقل لي وقائع هذه الحكاية كلها فيما بعد ونحن نجلس متقابلين في مطعم « السعدي » نقضم اللوز المملح ونلتهم قطع الأخطبوط المنقعة بالزيت والبهار.

كان سامي المنـذر مضمخا بجذل ندي وهو يتذكر كل ملمح منها، ويحـدثني عن أنفها الدقيق وعن حمرة شفتيها الصغيرتين، وعن الطفولة السمحة في وجهها المستدير، كما يعيد على مسمعي كل حوار تبادلاه، وقبل أن نغادر شقته قال :

ـ سأكتب هذه الليلة أول قصيدة لي في أول ديوان حب أكتبه في حياتي بعد أكثر من عشرين عاما من الشعر الحجري الذي أقحل قلبي و أحاله إلى صحراء مجدبة.

* * *

قال :

ـ دع سيارتك مركونة، ولنذهب بسيارتي.

وامتثلت لما أراد فليس من عادته أن يأمن لأي سائق، حتى رحلتنا تلك إلى أعماق الجنوب التونسي أصر فيها على أن يقود السيارة بنفسه ساعات طوالا.

دارت بنا سيارته متمهلة في شوارع منطقة « المنزه » وكنت أعلق على كل وجه جميل نراه وكان يقاطعني :

ـ لن أرى أي وجه عدا وجه خديجة بنت الهادي، انه وحده الوضوح وسط فقدان الرؤية هذا في عالم العتمة والضجيج.

ثم اتجه مبتعدا عن منطقة « المنزه » لنمر من أمام بيتها في « أريانة » مرقت سيارته خاطفة من هناك وهو يحاول أن يخبىء رأسه ويعلق :

ـ لا أريدها أن تراني.

ثم ضحك من قرارته وهو يرفع رأسه من جديد بعد أن ابتعدنا عن البيت الذي لمحته خطفا بنوافذه الزرقاء وأشجاره التي تعلو قاماتها على ارتفاع السياج.

ابتلع ريقه وقال :

- لا أدري لماذا أتصور نفسي وكأنني ذلك العاشق المراهق الذي يمر من أمام بيت حبيبته في ساعة متأخرة من الليل، يتحسس بأنامله الباب الموصد وبرودة الجدران فيؤدي صلاته ويمضي ليحتضن اللوعة والاكتئاب ويتوسدهما.

طائر السماوة من جاء به إلى الغراف ؟ طائر المجرة ؟ طائر الحزن والانسحاق ؟ ولكنه جاء، ولم يعرف أن في انتظاره اطلاقة صياد، سددها إلى صدره فأسقطه مضرجا، حمله فرحا ليحيله إلى مازة شهية تقتل في بلعومه لفح العرق الحار.

طائر السماوة، حكيمة بنت الشيخ جابر لم تعد تغني، ولم تعد تترنم بسيرة سيد الشهداء، ناحت أعواما ثم كفت عن ذلك، لم تعد هناك جدوى، عاشت وانتهت وهي مصلوبة هناك في تلك الغرفة الطينية التي لم تغادرها في سنوات عمرها الأخيرة إلا في ساعات النهار الأولى لتجلس تحت الشمس حيث ترفو فتقا في عباءتها الصوفية الشوكاء، أو لتخيط شقا في ثوبها الأسود، الأسود دائما، لا أحد يدري من أجل أي حزن ؟

حكيمة بنت الشيخ جابر قد تغزل الصوف أو تفلي ثيابها بحثا عن قملة ممتلئة لتقصعها بمقت أو تكشط صوابها المتراكم بأظفارها الطويلة المسودة الأطراف.

حكيمة بنت الشيخ جابر، هل لك أن تهديني إلى طريق ؟ إلى جواب ؟ لتستيقظ حكمتك الطاهرة وصوتك الشجي وانطقي بالحكم، لعلي أكف، نعلي أرى، فأنا حائر اليوم.

زينب عزوز

التقيا أول مرة أمام مائدة عامرة، يتوسطها صحن كبير مليء بالرز وقد جثم عليه خروف محشو، كانا مخمورين، شربا الكثير في ذلك الحفل الدبلوماسي الصاخب.

وجدها وبيدها صحن فارغ وهي تحاول جاهدة أن تنتزع قطعة من لحم الخروف الشهي الذي تنبعث منه رائحة طيبة تجعل اللعاب يسيل من الفم.

ظل يراقبها برهة ثم أطلق قهقهة عالية فاستدارت إليه متسائلة :

ـ لا أعرف كيف يقطعونـه ؟

واقترب من الخروف المحشو وغرس أصابعه في فخذه وانتزع منه قطعة لحم كبيرة ووضعها في صحنها وهو يعلن :

ـ ها قد حلت المسألة.

فوجدت في اختراقه للأصول طعما جديدا للتعامل، وبعد أن شكرته قال لها موضحا :

ـ هكذا يقطع هذا اللحم.

كان يفعل ذلك دوما، في حفلات الأعراس والختان القديمة يوم كان صغيرا يدب في أزقة السماوة ويلبي مع أبيه دعوة، يتهيأ لها فرحا لأنه سيأكل اللحم والرز المنقع بالأدام والذي لم يكونوا يسكبونه في صحون بل على بوار نظيفة تفرش على الأرض.

وود لو يواصل اختراق جسد الخروف الملقى، ولكنه انتبه إلى الأعين اللاهية بالأكل والأحاديث مخافة أن تمسك به، فانتزع قطعة أخرى وضعها في صحنه ووقف بمحاذاتها مواصلا حديث الطعام.

قـــال :

ـ هذه أكلة لا أظنكم تعرفونها في تونس، في العراق نسميها بالقوزي وفي الأردن بالمنسف، ولكن مع الفرق أن اللحم يقطع ويضاف مع الرز

واللوز والسمن الحيواني واللبن المخثر.

وعلقت :

- ونحن لدينا الكسكسي أيضا، ألم تأكله ؟

- كثيرا، وبكل أنواعه، لم آكله في تونس فقط، بل وفي طرابلس والجزائر والرباط أيضا، أكلته حتى في باريس وفي مطعم في السان ميشيل.

ثم أخذا يخطوان باتجاه الشرفة، وانتحيا جانبا وهم يطلان على البحر الذي يخيم عليه الهدوء، وكفت أمواجه الهادرة عن الوثوب على الشواطىء.

كانت بيضاء كالجمار، ولها شعر أسود فاحم وعينان شهلاوان، عقصت شعرها إلى الوراء فبان جبينها الأبيض فاسحا المجال لهالتي عينيها حتى تطلان وتغمران المكان بالطيب والرياحين.

عرف اسمها ومحل عملها وتبادلا أرقام تليفونيهما في انتظار أن يلقتيا في موعد آخر وبعيدا عن هذه الأجواء الرسمية الصاخبة كما قال لها.

* * *

زينب عزوز ان سعيدة بنت المنصف تحتضر في قلبي، وانني سأعلن موتها يوما، وليس هذا اليوم ببعيد، تريد السفر، حسنا لتمض، ولكن هل يعني ابتعادها أنها ستتقلص في الذاكرة وتضمر حتى الموت ؟ يا حكمة صديقي الرسام المتوحد تعالي، اقتل المرأة بالمرأة، سأفعل ذلك، سأضرب رأس زينب عزوز برأس سعيدة بنت المنصف، سأهشم كل ما بنيته وما ثرثرت به وأنا معها، سأقارع هذه المرأة الخصم، المرأة الجسد، المرأة السفر لأعود كما كنت غياث داود المقفر الناحل المعمد بالنفور والهجران، أقطع تذكرة متى ما شعرت بانسداد الأبواب وأفر إلى مدينة ما، إلى مدريد، إلى لندن، إلى باريس، إلى روما، أستجم وأتنفس، أحط في غرفة صغيرة ولا أتصل بأحد أعرفه، أجلس في مقاه، وأدخل مراقص ومشارب، وقد أقود إلى غرفتي سائحة مفلسة أو عاهرة تعرف كيف تؤجج فحولتي. ولكن سعيدة بنت المنصف كبلتني.

ماذا فعلت ؟ وماذا علي أن أفعل ؟ من السماوة، إلى الناصرية، إلى بغداد، ومن ثم القاهرة وبيروت، وها أنا هنا اليوم، قد أمكث عاما آخر أو أرحل بعد غد لألتحق بعاصمة جديدة، أو لأعود إلى بغداد لأقطن ذلك البيت الصغير في غربي بغداد والذي يستأجره اليوم خبير باكستاني في شؤون صناعة الصلب، البيت الذي كاد أن يشهد خاتمتي لو لم تكن معي جليلة عباس.

سعيدة بنت المنصف، إنك تحتضرين الآن، تطلقين اخر أنفاسك، وقلبك يردد نغمته الأخيرة، العبي كل أوراقك، قامري بما عندك، لأراك يوما كسيرة ذاوية تسحبين خطواتك نحو مدينة الفئران متذكرة أياما مضت ووجوها غابت وعوالم بعيدة من يعينك على رؤيتها من جديد ؟

سعيدة بنت المنصف، انني لا أغلق في وجهك الطريق، ولكنني أترحم عليك وأنا هنا أرتشف قهوتي وأترقب مجيء زينب عزوز لأحملها بعيدا لمكان لم نحدده بعد.

* * *

وجاءته زينب عزوز، كانت فرحة باللقاء، وشعرها الأسود قد ربطته بمنديل يتلألأ بحمرة قانية، بينما يحتضن جسدها المائل إلى الامتلاء فستان أحمر أيضا، له حمرة حبات الرمان وبريقها.

هب واقفا وصافحها. ثم سألها :

ـ هل تجلسين ؟

قالت :

ـ لا ، فالمقهى ضاج.

وأضاف غياث داود :

ـ وأناقتك الرائعة هذه تليق بأغلى مطاعم تونس.

ثم انصرفا باتجاه سيارته المركونة أمام المقهى.

أخذت السيارة تشق طريقها مجتازة شارع بورقيبة باتجاه منطقة حلق الوادي.

قال بعد فترة من الصمت كادت أن تطول :
- إنني سعيد لأنك لبيت دعوتي
وغمزته بعينيها وهي تقول :
- تقصد دعوتك المتأخرة جدا ؟
وأجاب بدفاع :
- الحق معك، ولكنك تعرفين كثرة المشاغل والارتباطات.
وعلقت :
- إنني أداعبك فقط. ولكن يجب أن تعلم أنني منذ أن التقيتك أحسست بالتعاطف معك، ولا تنسَ بأنني قد طبعت على خدك قبلة عندما ودعتك وهذا الأمر لا أفعله حتى مع أناس قد تمر على معرفتي بهم عدة أشهر.
ثم مدت يدها نحو المذياع وفتحته، وداهمها صوت أجش يتحدث عن زراعة الزيتون فأغلقته مسرعة، ثم وجهت إليه السؤال :
- هل عندك أشرطة لأغان من بلدك ؟
وأجابها :
- بالتأكيد.
- إنني لم أسمع الا ناظم الغزالي وتلك الأغنية التي تبثها إذاعتنا في فترة الصباح فأطرب للحنها دون أن أفهم أية كلمة منها.
وإستخرج شريطا، ووضعه في الآلة وهو يقول :
- سأسمعك أغنية تمزج ما بين القديم والحديث، أو إن شئت الدقة أنها أغنية قديمة بتوزيع حديث.
وهتفت :
- رائع. أحب هذا النوع من الأغاني.
- وإن لم تعجبك سأسمعك أغنية تونسية.
- دعنا من الأغاني التونسية الآن، لنسمع أغنيتك أولا.
وبدأت آلة التسجيل باطلاق الأغنية، وحاول أن يراقب صداها على

وجه زينب عزوز ولكنه لم يستطع أن يتمعنه جيدا، ومع هذا فقد كان موقنا أنها تصغي باهتمام، فراح هو الآخر يدندن بكلمات الأغنية، وحاولت هي أن تقلده، ولكنها لم تفلح في ذلك لذلك أخذت تطلق قهقهة عالية كلما فشلت في تقليده.

عبرت بهما السيارة دروب حلق الوادي والكرم ومضت صوب قرطاج ومرقت من أمام المطعم الصغير الذي كان يرتاده مع سعيدة بنت المنصف، وأحس وكأن عيني نادله القصير تخترقان الزجاج والعتمة لترتسما أمامه بعتاب مر.

قــال :

ـ سنذهب إلى مطعم نبتون. ما رأيك ؟

وأجابــت :

ـ كما تحب.

ـ ولكنني أريد رأيك ؟

ـ انه مطعم مناسب.

ـ حسنــا.

واستدار يمينا متجها صوب المطعم.

* * *

شربا كثيرا. بدءا بالويسكي، وعندما حضر السمك المشوي طلبا معه النبيذ التونسي الأبيض، وأتيا على زجاجتين، وثرثرا وضحكا بأعلى صوتيهما حتى لفتا إليهما الأنظار.

وعرف أنها من أم فرنسية، وأبوهــا تــزوج بأمها يوم كان طالبا في باريس وعاد بها إلى تونس بعد تخرجه، وبعد أن توفي قررت البقاء، فقد عرفت البلد جيدا وأحبته. وعرف أيضا انها كانت متزوجة من ايطالي كان يعمل في تونس في احدى شركات السياحة وعندما قرر العودة رفضت ان تصاحبه فكان أن طلقها.

وقالــت :

ـ انني أحب هذه المدينةوراضية عن وضعي وعملي وعلاقاتي فيهاَ، وليس لي مزاج في العيش بين قوم غرباء أجهد من أجل أن أعثر على معارف لي بينهم.

وأراد أن يقول لها :

ـ انك نقيضة سعيدة بنت المنصف التي لا تنشد غير الهرب بعيدا فكأنها محاصرة بجيش من العقارب والثعابين.

ولكنه ابتلع ريقه، وغرس الشوكة في جسد السمكة ليلتقط منها لقمة سائغة يرميها في معدته لتقاوم لفح الكحول.

وتمتم ببضع كلمات، فسألته وهي تمعن النظر في وجهه بعينيها اللتين لونهما الخدر بعتمة طفيفة فما عادتا تبرقان كما كانتا.

ـ ماذا قلت ؟

وبعد أن ابتلع لقمته ومسح فمه بالمنديل أجاب :

ـ لا شيء، ولكنني طلبت من السماء أن ترحم صديقا لي.

وتساءلت بشيء من الاستغراب :

ـ وما الذي ذكرك به الآن ؟

قال مبررا :

ـ انها الخمرة، تنبش الرأس، وتقلب كل ما فيه، وتجعلنا نرى الناس يمشون على أيديهم بدلا من أرجلهم.

وضحكت وقالت :

ـ انهم يمشون على أيديهم فعلا، أتشك في هذا ؟ أنظر.

وراحت تشير بيدها إلى الجالسين وجلهم من السياح الأروبيين وهي تكركر بالضحك الخلي.

ـ أغبياء، يأكلون ولا يدرون بشيء

وضع في فمه لقمة جديدة، ثم سألها :

ـ بأي شيء تريدينهم يدرون ؟

وردت على الفور وهي مازالت تقهقه :

ـ لو كنت أدري لسكتّ .

فوجد حنجرته هو الآخر تقهقه برنين عال .

* * *

خرجنا مترنحين، كانت ممسكة بيدي ، ملقية علي بكل ثقلها، ويخيم فوقي جسدها، بحرارته التي أخذت تداهمني بأمواج فيتدفق الدم في صدغي ويسرع قلبي في وجيبه .

وفتحت لها باب السيارة وتركتها تصعد، وعندها انفتلت إلى الباب الآخر وفتحته، وعندما أصبحت وراء المقود، وجدتها وقد رمت ظهرها إلى الوراء وهي تسألني :

ـ ألا يندفع هذا الكرسي إلى الوراء أكثر ؟

وقلت لها :

ـ دعيني أفعل ذلك .

ومددت يدي وأمسكت بمحرك المقعد، وأحسست انني أغرق فيها، أنفاسها تلسع عنقي ، وعطرها في أنفي وصدري ، وتباطأت في عملي مستلذا فماكان منها الا ان انكفأت فوقي وطوقت عنقي .

وقربت وجهي من عنقها، شممته بانتشاء، ثم قبلته فأطلقت زفرة عالية ، ثم سحبت رأسي وأعطيتها ذراعي لتلقي بجذعها فوقه ، بعد ذلك وجدتني أطوقها بقوة وأفسح المجال لشفتي اللائبتين حتى تستقرا فوق شفتيها .

حدث كل هذا ونحن مازلنا أمام المطعم . وحاولت أن أعود إلى محرك السيارة فأمسكت بيدي لتوقفني عن ذلك وهي تصرخ :

ـ قبلني أكثر. أرجوك .

فقبلتها كثيرا، مررت شفتيّ على وجهها وعينيها وجبينها وشفتيها ونحرها، وأطلقت شعرها المشدود بالمنديل الأحمر، وأبحرت أناملي في ذؤاباته الطليقة .

قالت بصوتها الشهي المخمور :

ـ ألا ترغب في أن تنام معي ؟
ولم يفاجئني سؤالها، لذا غرست شفتي في أذنيها وهمست :
ـ جـــدا .
وعادت لتقول :
ـ ولكن ليس اليوم .
ـ لماذا ؟
ـ غدا، أفضل .
أدرت محرك السيارة وهي مازالت متشبثة بي، مطوقة عنقي، ورددت ممتثلا :
ـ كما تريدين .
وأنفقنا وقتا طويلا ما بين قرطاج وتونس، إذ كنا نتوقف بين آونة وأخرى لنواصل عناقنا الحار، وعندما أوصلتها إلى بيتها كنا قد اتفقنا على لقاء الغد .

* * *

سعيدة بنت المنصف . كنت تتـوقعـين أن انـطلق يومـا ، أن تأخذني البراري التي جئت منها، لذا همست لي بشيءمس الاكتئاب مرة :
ـ من يضمن أنـك لن تنساني ؟ أو لأكن سيئة الظن أكثر وأقول من يدري بأن لك علاقات أخرى اليوم وأنا معك ؟
وهززت رأسي وقلت :
ـ رغم أنك تهرفين بكلمات لا معنى لها فانني أصارحك القول وأعلن بأن ليس هناك ضمان في شيء، ثمة أحداث تتبلور ضمن ظروفها الخاصة المستجـدة، ومن هنـا فإنني لا أستـطيع أن أقدم أي ضمان لك ولنفسي وللآخرين، كما أنني أسألك أنت هل تضمنين أننا سنلتقي ثانية .
ورفعت أمام وجهها يد غريق على وشك أن يبتلعه الموج ورددت :
ـ انني استبق الأحداث دوما، دع تساؤلاتي جانبا .
وأضافـت :

ـ ثم إنك رجل سهل الاغراء.

وسألتها مازحا :

ـ هل تعتقدين ذلك ؟

ـ كيف عرفت هذا الفوج من النساء اذن ؟

ـ وهل حدثتك عن احداهن مرة ؟

وأجابت مدافعة :

ـ ليس بالضرورة أن تحدثني أنت فأنا أقرأ النهم في عينيك كلما مرقت من أمامك امرأة.

ثم سحبت يدها التي كانت تكثر من تحريكها أمام وجهها وكأنها قد أطلقت آخر أنفاسها، ولم تعد تقــو على المقاومة فاستسلمت للموج والفناء.

سعيدة بنت المنصف رحمك الله.

* * *

قالت زينب عزوز :

ـ ألا يعجبك أن تمارس الجنون مرة ؟

وقال باستغراب :

ـ أمارس الجنون مرة ؟ وهل تتصورينني عاقلا ؟

وضحكت بصـوتهـا الشبق المغنـاج، وفتحت حقيبة يدها وأخرجت مفتاحا مررته أمام عينيه وهي تقول :

ـ انظر، هذا هو مفتاح شقتي التي استأجرتها قبل شهرين، ولكنني لم أنتقل إليها، فقد عدلت عن ذلك.

أعادت المفتاح إلى حقيبتها وواصلت القول :

ـ انها شقة عارية تماما، لا كؤوس ولا صحون ولا فراش أو وسائد، حتى الماء والضوء أشك في أنهما لم يقطعا حتى الآن ولذا جئت معي بشمعة.

وأراد أن يعـرض عليهـا الذهاب إلى بيته. ولكنه أحجم عن اطلاق

عرضه حيث بزغ أمامه وجه سعيدة بنت المنصف فجأة، إذ لعلها تداهمه. في لحظة ضجر ويأس.

وعادت زينب عزوز لتقول :

ـ ولكن علينا أن نشتري بعض الحاجيات قبل أن نذهب إليها.

وقـال :

ـ حسنـا.

واشـتريا بيتزا ودجاجة مشوية وبرتقالا ولبنا وزجاجة ويسكي

كانت الشقـة عارية فعلا وصامتة في حي جانبي معزول. سبقته في الدخول وضغطت على زر الكهرباء فاعتلق الضوء، وشهقت فرحة، ثم هرولت صوب الحمام بعد أن رمت أكياس الطعام على الأرض. وفتحت الصنبور فانطلق منه الماء. شهقت مرة أخرى وهتفت بفرح :

ـ كل شيء على ما يرام.

بعد ذلك حملا ما اشترياه إلى الغرفة التي من المفترض أن تكون غرفة نوم. وكانت تطل على الشارع بنافذة زجاجية عريضة.

وضعـا ما اشـترياه على الأرض المفـروشة بـ « الموكيت » وجلسا وهما يسندان ظهريهما إلى الجدار وكأنهما يستردان أنفاسهما بعد رحلة مضنية.

قـال لهـا :

ـ ها نحن معا أخيرا.

أدارت إليه وجهها الذي يفح سخونة، وقبلته رأسا على شفتيه بقبلة سريعـة لم تلتق فيها الشفاه الا للحظات. وانصرفت بعد ذلك إلى فتح الأكياس واخراج محتوياتها.

وفتح هو الآخر زجاجة الويسكي وهو يسألها :

ـ بماذا سنشرب ؟

ونطقـت :

ـ بالغطـاء.

وردد :

ـ فكرة هائلة .

وعاد ليضيف :

ـ لقد قالوا الحق عندما أعلنوا أن الحاجة أم الاختراع .

وسكب في غطاء الزجاجة حتى ملأه وقدمه لها ، أخذته منه ، تمعنت به ثم رفعته إلى أعلى وهي تهتف :

ـ في صحتنا .

ورمته في جوفها دون أن تعقبه بقطعة برتقال أو لحم ، ولكنها استخرجت علبة سكائرها وأرثت واحدة منها .

قال :

ـ الضوء حاد ونحن مكشوفان للعابرين .

وأجابـــت :

ـ سأشعل الشمعة اذن بدلا عنه .

وراحت تبحث عن الشمعـة في حقيبتهـا اليدوية ، استخـرجت كل محتـوياتهـا ، وانتبـه إلى علبة حبوب منع الحمل ، أعادتها على عجل إلى حقيبتها وهي تردد بلا مبالاة :

ـ انني أتناول هذه الحبوب اللعينة على سبيل الاحتياط فقط ، مثل لقائنا هذا ، ولا تتصور بأنني أضاجع العشرات .

ولم يجد ما يعلق به على قولها . وراقبها حتى أشعلت الشمعة ونهض ليطفئ ضوء المصباح وليعاود الجلوس إلى جانبها ويداهما تتناوبان غطاء الزجاجة المليء بالويسكي .

لم يتحدثا كثيرا ، ولكنها دخنت كثيرا ، وشربت كثيرا ، وكان هو بجانبها يضيف المزيد من الحطب إلى النار التي يعلو لهيبها .

قالـت :

ـ لن أنام معك الآن . لم أصل إلى النقطة التي يجب أن أصلها ، وبعد ذلك أين تفر مني ؟

طوقها بذراعه ، وسحبها إليه ، ضمها إلى صدره بقوة ، وتساءل :

ـ وكيف أعرف ؟

ـ حتى اسكر تماما.

ـ لا أريد أن أضاجع جثة، أريدك الآن وأنت نصف صاحية.

واستجابت لعناقه، التفتت إليه، ارتمت كلها فوق صدره، بشعرها الطليق وسخونتها ورائحة الخمرة والتبغ التي تفوح منها.

ومضى وقت طويل وهما يسبحان في يم العناق، ينقب كل منهما في جسد الآخر وكأنه يبحث عن مواقع التألق والاتقاد فيه، طرحها على الأرض، وأخذ يجردها من ثيابها قطعة قطعة، وكانت تصرخ بكلمات لم يفقه كل معانيها، وخمن أنها خليط من الفرنسية والايطالية، وأراد أن يكم فمها حتى لا يسمع صوتها العابرون، ولكنه تراجع عن ذلك وتركها لتعطي وتفرغ ما في جسدها الملسوع من رغاب، ولم يمض وقت طويل حتى اخترقها واصلا إلى ذلك الفردوس الوارف الذي كم فكر في طعمه ومناخه وهو يقف أمامها في تلك الشرفة المطلة على البحر في ذلك الحفل الدبلوماسي الضاج.

انسحب من فوقها. ألقى نظرة مجهدة على ثيابها وأحذيتها المرمية في الغرفة، وإلى أكياس الطعام المشرعة، وإلى الشمعة الوحيدة التي تنوس بذؤابة عزلاء لتقارع كثافة الليل، وألقى عليها هي الأخرى نظرة فوجدها تطرح ظهرها على الجدار عارية، وساقاها منفرجتان وكأنها تتهيأ لمضاجعة أخرى. جسدها ينسكب بروعة، ويورق بياضه كالبلور، راقب كل هذا وأطلق ضحكة ثم أعقبها بثانية وصمت بعض الوقت حتى انفجر بشتيمة كبيرة، نبش فيها قبور أهل سعيدة بنت المنصف دون أن يفكر في أن يهيل عليها التراب من جديد.

سعيدة بنت المنصف، آن له أن يتقبل العزاء.

ـ 16 ـ

تضيق بيروت، تخرس فيها الألسنة والأصوات، والناس يرابطون في بيـوتهم لينصتـوا إلى القـذائف التي تنخل المدينة، والتي باتوا يميزونها ويعرفون أنواعها واتجاهاتها ومواقع اطلاقها.

مر يومان والموت والانتظار هما اللذان يخيهان، وينفذان إلى الأجواف والمسامات فتختض الأجساد ويعسكر العلقم في الأفواه.

من حسن حظي انني قد ملأت ثلاجتي بالمعلبـات والبيض والجبن والحليب، وضعت فيها الكثير الذي قد يكفيني اسبوعين أو أكثر وكأنني أتـوقـع هذا الحصـار الـذي لا أدري إلى متى سيستمـر؟ حتى يتعب المتحاربون وينكفئوا وراء متاريسهم ليدعوا الناس تخرج لتتنفس الهواء.

لو كان أبو مراد هنا لداهمني بقولته الخالدة:

ـ ماذا تفعل هنا؟

وأبادره بالجواب قبل أن يكمل:

ـ أخصي الكلاب وأشنق القطط السوداء.

أنـطرح على الكنبـة، وأفتح التليفزيون فأجده يبث الاعلانات عن النستلة والسكائر والأثاث وملابس الجينز، فكأن كل شيء سائر على ما يرام، وأن أبناء القحاب الذين يطلقون صواريخهم في الفضاء لتسقط على البيوت والجنائن والأطفال قد غابوا، حملوا رشاشاتهم وحواجزهم الثابتة والطيارة ومضوا.

أغلق التليفزيون وأذهب إلى التليفون وأرفع سماعته فأجده هامدا لا نفس فيه. كنت أشتهي أن أكلم حسانا أو سميرة أو أبا مراد، أي صوت يأتيني فأحس بأن هناك احياء يتنفسون فعلا وأن هذه القذائف تذهب إلى فروج أمهات الذين يطلقونها.

أردت أن أغني، ولكن صوتي مداهم بالاختناق، أردت أن أصرخ، أن أقوم بأي فعل أعلن فيه عن وجودي الذبيح في هذا اليباب الذي ترصعه أجساد وقذائف الحثالة والأوباش والسفلة الذين سرقوا طهارة المدينة وعاثوا فيها.

ارتديت ثيابي على عجل وفي نيتي أن اتجه صوب منزل حسان صبحي فهو قريب، وما علي إلا أن أسلك الدرب الجانبيّ نحوه، ولكنني توقفت وعدلت عن هذه الفكرة، عدت وخلعت الحذاء والقميص، ثم الملابس الداخلية، وبقيت عاريا، تأملت جسدي في المراة وصرخت :

ـ أين أنت يا أبا مراد ؟ انني كلب فمن يخصيني ؟ انني قط أسود فمن يشنقني ؟

تجمعت في زاوية الغرفة واحتضنت الأرض وانتحبت، جاءتني أميرة حسين ومسدت بيدها على شعري، ذرفت علي دمعة ومضت، ونهضت حكيمة بنت الشيخ جابر لتوقد التنور، حتى تقدم لي رغيفا ساخنا، تحرك جسدها الذاوي ودبت فيه الحياة، وراحت خطواتها اللاهثة تسرع ما بين الزاوية التي تكدس فيها الحطب والزاوية الأخرى التي وضع فيها التنور. ناديتها مرة واثنتين ولكنها لم تسمعني. كانت منشغلة بخبزها وتنورها، وناديت هناء محمود، امرأتي الأولى، الامتلاك المطمئن في غرفة أنيقة وعلى فراش وثير، هناء محمود التي أضعتها في لحظة غضب وعناد، ولكنها اعتذرت عن الرد، كانت منحشرة في صدر سيارة زوجها الشحيم، وفي المقعد الخلفي يتجمع أولادها الستة، كانوا هم همها ومبتغاها فلم تأبه لتكرار ندائي . . ناديت . . طلبت كل الأسماء والوجوه التي عرفتها وأعرفها اليوم، حتى جليلة عباس التي خلفتها في بغداد دون أن أحمل معي عنوانها. وعندما طلبته منها ضحكت وقالت : ولماذا تريده ؟ أجبتها : لعلني أكتب لك. قبلتني على خدي وقالت : تعلّم أن لا تلتفت إلى الوراء، أمامك القاهرة، أم الدنيا كما يقول المصريون

فادخلها، اجعل عروقك تتشبث في كل شبر منها، وآنذاك ستنسى من كانت جليلة عباس ؟

حاولت أن أستجمع بقاياي التي ساحت فوق أرض الغرفة، أمسكت بالجدار ونهضت متثاقلا بجسدي العاري الذي أخذه الخوف والذبول، وتحركت، راحت خطواتي تتعثر في الممر فطالعني باب الحمام المفتوح فدخلته وفتحت رشاش الماء إلى أقصاه ونقعت جسدي بمائه، وعادت إلي الحياة تدريجيا فتنفست ملء صدري وأطلقت صوتي بالغناء.

- أعرف أخوين أعدم كلاهما، الأول لأنه ثائر مناضل، والثاني لأنه عميل وجاسوس، فهل لك أن تضحك ؟

- انها حالة من خلط الأوراق في بلدنا، أليس كذلك ؟

الرسام المتوحد وجدته أمامي، وكنت خارجا من حصار الموت لتوي، كف المتحاربون فجأة، فخرج الناس، فتحت المخازن والأسواق وتحركت السيارات لتملأ الشوارع بأصوات تزميرها، وانطلق الباعة منادين على بضائعهم التي تبدأ بالخضروات والفواكه لتنتهي بالملابس والأحذية وزجاجات الويسكي والسكاير المهربة.

رأيته في شارع الحمراء وهو يضع يديه في جيبي بنطاله ويتطلع إلى بعض البدلات الرجالية من وراء واجهة أحد المخازن، أصبحت قريبا منه وبدا لي كالملك المخلوع وهو بعيد عن عرشه الأبدي في مقهى الأكسبريس فكأنه ولد وعاش هناك.

التفت إلى الوراء فرآني وأطلق صيحة فرح، ثم صافحني بحرارة :

- الحمد لله على سلامتك

ثم شكرته وسألته :

- وكيف أمضيت أيام الحجر الأربعة ؟

أجاب :

- في الرسم والسباب.

وتحرك جسدانا ليشقا طريقهما في زحمة السابلة وهو يسر لي :

- لن يوقفني شيء عن انجاز معرضي القادم في طوكيو، سأصطحب اللوحات بنفسي لأكتشف عالم الشرق البعيد بسحره وغموضه وأسراره وبفتيات الجيشا الملونات الوجوه والثياب.

فداعبتـه :

- لقد خب جوادك فوق أجساد نساء كل الدنيا، ألم يكفك هذا ؟

وقهقه بخفوت رغم الصفرة التي تنفرش على وجهه الوسيم وقال :

- كل امرأة سر، لا تنس هذا، وان امتلاكها يعني اكتشاف كنه هذا السر، وأنت تعرف بأنني رجل كثير الفضول في هذا الجانب لذا تجدني أواصل التنقيب بلا هوادة في أجسادهن لعل وعسى.

ثم عاود القهقهة وهو ينعطف بي نحو مقهى الأكسبريس، ودخلناه كفاتحين مخذولين، ورحنا نبحث عن مائدة مناسبة بين موائده الفارغة لنرمي فوقها برفاتينا المثقلين.

ولم يلبث ان انضم إلينا صحفي صديق وهو محمل بصرخة غضب ضد الحجر الذي وقعت فيه هذه المدينة.

كنت أعرف تشرده حيث انشطرت حياته إلى نصفين بعد أن انشطرت بيروت هي الأخرى إلى نصفين أيضا. هو في بيروت الغربية يقطن شقة صغيرة تقع في الطابق الأخير من عمارة عالية تطل على البحر مع كتبه واسطواناته، وأهله في بيروت الشرقية ولم يعد يلتقط أخبارهم الا من القادمين، حتى والده مات دون أن يطيق توديعه إلى مثواه الأخير أو يجلس في بيته ليستقبل المعزين.

وعندما أعلنت له عن أسفي وحزني العميقين على ما حدث قال بلا مبالاة وكرب :

- لست الا حالة صغيرة من حالات الموت والدمار التي عاشها ويعيشها هذا البلد الذي كم ظنناه آمنا.

طلب فنجان قهوة، ويده المرتجفة كانت تحمل سكارته إلى فمه بعجل، ينفث دخانها قبل أن ينفذ إلى رئتيه ليأخذ نفسا آخر، ثم يهشمها بانفعال في المنفضة ليستخرج أخرى ويفعل بها نفس الشيء.

كان يكتب في السياسة العربية ولكنه أعلن قبل أيام وبعد أن شرب قرابة زجاجة ويسكي أمامي وأمام حسان صبحي وكنا في شقته المعلقة :

ـ لن أكتب في السياسة العربية بعد. سأكتب عن الممثلات والأفلام والكتب الجديدة، وسأترجم أيضا، أما السياسة في هذا الوطن الذي نفاخر بامتداده من المحيط إلى الخليج فلا يمكن لأحد أن يفهمها، والأحداث لا تخضع للتسلسل ولا للمنطق ولا لأي استنتاج، ثم من يضمن ان هذا المقال قد يغضب هذه الجهة أو تلك فيصعد إلى شقتي مسلح مأفون ليصب جحيم رشاشه علي فينثرني أشلاء ويولي هاربا دون أن يجرؤ على ايقافه أحد ؟ اكتب مع من ؟ وضد من ؟ وكل الأحداث قد تشابكت والأوراق قد اختلطت، انني لا أفهم شيئا، انني أكبر غبي، ودماغي قد توقف عن العمل تماما.

* * *

انتبه الرسام المتوحد إلى الصحفي وسأله :

ـ مالـك ؟

ورد مسرعا وهو يبرم شفتيه :

ـ متعــب.

وأضاف وهو يقضي على بقايا السيكارة في المنفضة التي أمامه :

ـ أفكر أن أذهب إلى لندن أو باريس للعمل في احدى المجلات التي تصدر هناك، لم يعد البقاء ممكنا هنا.

وعلق الرسام المتوحد بنفس هدوئه :

ـ الحق معك.

ثم التفت إلي وسألني.

ـ وأنت يا غياث ؟

قلـــت :

ـ هناك امكانية لأن أتحول إلى الجامعة العربية في تونس، ثم ان المنظمة التي أعمـل فيها لن تبقى في بيروت. هناك اقتراحات بنقلها إلى أماكن أخرى لم تقرر بعد.

ونطق باصرار :

ـ غادروا أوكـاركم، طيروا، ابحثوا عن افنان جديدة، أما أنا فباق هنا، وإذا ما مسحت بيروت تماما في يوم من الأيام فستكون جثتي تحت انقاضها.

ثم استخرج من جيب سترته حزمة من الرسائل ووضعها على الطاولة أمامنا وقال :

ـ ان النـاس لا يفقـدون الأمـل، ولـذا يكتبـون للصحيفـة رسائل يطالبونني فيها بأن أكتب لهم ومن أجلهم المزيد، يكتبون من طرابلس وصيدا وصور والبقاع وكل القرى الصغيرة، ان هؤلاء هم الضمير لهذا البلد الذي يريدون ان يغيبوه، ولكنه حاضر وباق رغم أنوفهم، يتحدى الحقد والأسلحة، انهم الوجه الجميل الذي لابد وأن يطل زاهيا من وسط الركام.

وضرب بيده على الطاولة وهو يكز على أسنانه ويضيف باصرار :

ـ لذا لن أخذل هؤلاء الذين آمنوا بلبنان، وسأكتب لهم ومن أجلهم، وسأجمع ما كتبته حتى الآن في كتاب، أقذفه في وجه الموت والرداءة.

ثم أخذته نوبة سعال حادة، ناس لها صدره الذي قارب الستين وهو يصارع ويتحدى. ورغم انني عرفته منذ شهور ونسجت بيننا هذه الألفة العجيبة التي تثير تساؤل واستغراب رواد المقهى وعماله الذين لا يرونه يوما وهو يجالس انسانا الا نادرا. ومع هذا فانني موقن بأنني لم أكن أعرفه، وانني قد أغادر هذه المدينة وفي داخلي تساؤلات أخرى تظل ماثلة عنه.

قـــال :

ـ أكثر من ثلاثين معرضا في أيام عزّ هذا البلد، ولوحات أخرى مثلت لبنـان في عدد من المعـارض العـالميـة، من باريس إلى فينـا ومـوسكـو والأسكندرية والكويت، وأشياء أخرى كثيرة فماذا بعد ؟ ولكنني رغم كل هذا مازلت محاصرا في هذا المقهى، أو شقتي الغـامضة، ولا أدري أي قنـاص ضجـر ينتـظرني يوما ؟ أو أية متفجرة غرسها ارهابي سائل في سيارتي أو تحت نافذتي ؟ أو اية اطلاقه يسددها إلى صدري أحد الحثالة الفســاق فأنتهي ببرود ؟ والمؤلم انني قد لا أجـد من يتعـرف على جثتي ويحملها، آنذاك سيكون مثواي حفرة مجهولة

قال كامل السعدون ذو المؤخرة المرصوصة الحمراء :

ـ أطلق شاربيك لتكون مناضلا، كانت هذه وصفة عربية، أو عراقية ان شئت الدقة، أتذكر هذا ؟

وضحك بصوته المزغرد ثم أضاف كالشارح والمبرر :

ـ هل أقول انني وقعت في الفخ ؟ كلا، لا أريد أن أقول ذلك، لأنني أكره ان أندد بما عشته، فقد كنت حقيقيا وشريفا في نواياي وتطلعاتي، ولذا حملني ذلك لأن أتشرد ما بين دمشق والقاهرة وبيروت والكويت. وفي زمن النفي والرحيل هذا عرفت الكثيرين، أسماء كبيرة، لنقابيين وقادة أحزاب ومنـــظمات، ولـكنني فجعت بهم، وكلما صافحت أحـــدهم رددت في سري : سامح الله الأمة العربية

كنا يومذاك وحيدين في بار منزو من بارات شارع السعدون قصدناه لنحتفـل بمناسبة اطلاق سراحه، وقد تركته يفرغ حزنه وغضبه اللذين ادخرهما في أيام الاعتقال، وقد قال فيما قاله :

ـ كان النضال بالنسبة لي مهمة وشرفا، ولم أجعله غامرة على طريقة البعض قد تقودني إلى منصب مرموق، بل كان احتمالي الأكبر انها ستقودني إلى قطع العنق. والمؤلم ان ما بين البطل والخائن فاصل صغير، لا تقرره أنت، ولا تقرره أحكام ثابتة، بل يقرره من يمسك بالزمام.

ثم تحدث بعـد ذلـك عن الـوضـع العـربي ومؤشراته وذكر كيف ان الانقـلابات العسكرية التي ابتلي بها العالم الثالث عموما قد سرقت من الثورات شاعريتها. ثم أضاف موضحا كالحكيم :

ـ أما اليوم فهناك إلى جانب الانقلابات العسكرية خطر آخر سيلتهم العالم ان لم يتم الانتباه إليه جيدا والعمل على ايقافه رغم ان مده قوي وعات.

فسألته مستوضحا :

ـ وما هو؟

صفق بيده وردد ببساطة :

ـ التطرف، لا اليساري فقط بل والديني أيضا وهو الأكثر خطرا.

وفي تلك الليلة أعلن كامل السعدون قراره الأخير بأنه اختار أن يغادر البلد ومبرره انه يحاول في ذلك اعادة ترتيب التناقضات والأسئلة الصعبة التي تتقاتل في رأسه.

وقـــال :

ـ لن اختار بلدا عربيا هذه المرة، سأجرب عالما جديدا، أبدأ بأوربا وربما إلى افريقيا أو أمريكا أو أي مكان آخر، وليس لي من سلاح غير رأس أعتقد بأنه يفكر جيدا ومعرفة وثيقة باللغة الألمانية.

ونفذ كامل السعدون قراره بعد ذلك بأسبوع.

- 17 -

حمل إليه البريد بطاقة المعايدة التي سبق وأن بعث بها إلى أرنستينا هولزمان بمناسبة العام الجديد، وقد كتبت عليها حروف باللغة الألمانية لم يفهم معناها، ولكنه خمن ان عنوانها قد تغير، وتساءل في داخله عن المصير الذي آلت إليه تلك الغابة الكثة من الشقرة والرغاب الفائرة ؟ هل لحقت بزوجها ؟ هل ماتت بحادث ؟ هل غيرت محل سكنها ؟

وتذكر علي النجار فكتب له وسجل له إضافة إلى عنوانها رقم هاتفها الوحيد الذي يحتفظ به، ورجاه ان يبحث له عنها ويرسل له الجواب عاجلا.

أنا وسعيدة بنت المنصف نرقص، نتعانق بحميمية ونطوف على أجنحة اللحن الهادىء الشفاف، وكانت تلتصق بي، وأنا أحاول أن أجعل من جسدي مظلة لها، وهي المحمومة اللائبة التي تتعثر في صدرها المشاغل والطموحات التي لا تعرف الانفراج.

كنا في روما، وفي مطعم فخم، ترددنا في دخوله بادىء الأمر وقد اعترضت سعيدة بنت المنصف بقولها :

- قد يكون غاليا جدا ؟

وسحبتها من يدها وأنا أرد :

- وهل رواده الغلاظ أفضل منا ؟

كانت رقصة منسجمة، أوغلنا فيها، وسكبنا ما في أعماقنا المهمومة من خدر ونار.

كانت صغيرة وحنونة وكنت طويلا ومخمورا، أحاذر ان لا تضيع خطواتي وتفقد الايقاع، أما هي فكانت النغمة نفسها، تذوب لي، يحملها التيار نحو سفوح من الحنان وغابات من الدفء واللذة.

رقصنا مرتين، ثلاثا، وعندما جاءت الأنغام الصاخبة السريعة قادتني من يدي وهي تهمس لي :

ـ لنتوقف عند هذا الحد، لقد كبرنا على مثل هذه الرقصات.
ـ مازلنا صغارا يا عزيزتي، والمسألة لا تتطلب إلا أن نهتز كيفما اتفق؟
ضحكت وقالت:
ـ أكره الفوضى.
وشربت سعيدة بنت المنصف كثيرا، وبكت، وطرحت ذراعيها على المائدة، وأسقطت رأسها فوقها. لم أعلق بشيء، وظللت أراقب الراقصين، وهم يعجون بالفرح والاهتزاز، ويعلقون بلغات مختلفة، لعلهم يداعبون بعضهم بعضا بها ويستحثون العازفين على مواصلة العزف.
رفعت وجهها إلي، تأملتني مليا، زرعت في وجهي عينيها الشهلاوين وقالت وكأنها تستفزني:
ـ لماذا لا تضحك انك انسان خلي بلا هموم؟
وقلت لها ببساطة:
ـ وهل أنت واثقة من ذلك؟ ثم هل تريدينني أن أبكي؟ ان كنت راغبة فاني على استعداد لذلك؟
ورددت بصوت متباطىء:
ـ ثوري الأمس، برجوازي اليوم؟ ترى لماذا تفسدون بسرعة. مثل البيضة التي تترك في جو ساخن فترة؟
وأطلقت ضحكة عالية بعد ذلك ثم هزت رأسها وهي تتأتئ مستريحة لما تفوهت به.
عادت لتأمل وجهي والقول:
ـ ولكن البرجوازيين الصاعدين يأتيهم الهرم مسرعا، وتكون تباشيره سمنة وربما صلعا وأمورا أخرى قد لا تبدو للعيان.
وحاولت أن أفهم ماذا تريد بالضبط فسألتها:
ـ وبعد؟
ـ ولكنني أراك تقاوم، تحاول أن تبقي قامتك منتصبة، وخصرك

ضامرا، لا تأكل المعجنات ولا الحلوى، ولكن أين المفر؟

ولا أدري لماذا لم أشعر بأية عدوانية نحوها، وهي تختارني أنا بالذات هدفا لهجومها هذا.

اركنت رأسها فوق ذراعيها اللتين طرحتهما على الطاولة أمامها، ثم عادت ورفعته من جديد وهي تضيف وكأنها قد نسيت شيئا:

ـ انك تحاول أن تبقي رمقا في جسدك المطروح أمامي آمنا وخليّا لا يشغله هم، فكل شيء لك، تتناول مرتبك بالدولار ومن الأليكسو في القاهرة إلى الأيكوا في بيروت ثم إلى الجامعة العربية في تونس، ومن يدري فربما إلى اليونسكو بباريس أو إلى الأمم المتحدة في نيويورك؟ ان خطك التصاعدي مرسوم ومعروف فهنيئا لك، أما أنا فلا أريد شيئا غير ان أنام الآن. تصبح على خير.

ولم أعلق بشيء، بل طلبت فاتورة الحساب، وبعد أن دفعتها نهضت وسحبتها من يدها. كانت مخمورة تماما وعاجزة عن الحراك، وعندما أصبحنا في الشارع أوقفت سيارة تاكسي لتحملنا إلى الفندق.

(الصديق العزيز غياث داود

تحية ومودة.

لقد اتصلت بالرقم المذكور فلم يرد علي أحد. وكررت ذلك مرات حتى رد علي رجل وأخبرني انه لا يعرف امرأة بهذا الاسم، وضحكت لأنك كمن يبحث عن ابرة في بيدر من القش، فالمساكن والعناوين وأرقام التليفونات والأزواج والزوجات والعشيقات والأحبة هنا يتبدلون بأسرع مما يمكن أن تتصور.

كما ان تقدمي في السن حال دون ترددي على المقاهي والبارات التي من الممكن أن أصادفها فيها، ولذا لا يمكنني أن أمدك بأي نبأ عنها اليوم، ومن يدري لعلني أعرف شيئا في يوم قادم؟ وسأبادر آنذاك بالكتابة إليك فورا فهي امرأة لا تنسى فعلا.

انني هرم يا صديقي ومريض، فاجأتني عشرات الأمراض فما علي الا أن أتمدّد في الفراش وأملأ جوفي بالأدوية المختلفة، ومن حسن حظي أن معي هذه البلغارية المخبولة التي ارتضت بي زوجا، وأنا لست بقادر على أن امنحها شيئا غير الود الصافي.

لقد كبرت مائة سنة أخرى منذ اليوم الذي رأيتني فيه آخر مرة، هكذا أشعر، وهكذا أنا فعلا، ولكن العمل الوحيد الذي بدأته جادا هو امتثالي لاقتراحك واقتراح الأصدقاء الآخرين في كتابة مذكراتي عن كبريات الأحداث السياسية والاجتماعية التي عايشتها قبل أن أتوجه إلى منفاي الاختياري هنا. وأعتقد أن هناك أشياء مهمة ستتناولها مذكراتي وهي البقايا العالقة في ذاكرتي رغم انني أفتقد هنا إلى المصادر التي كانت تضمها أوراقي ووثائقي التي توزعها أبنائي بعد مغادرتي للبلد. وأتمنى من الله تعالى أن يمد في عمري ولو سنتين أخريين حتى أفي بهذا الدين وأقول كلمتي الأخيرة للأحياء من أبناء وطني ولأولئك الذين سيولدون، شهادة من انسان أحبهم وأحب وطنه فكان أن ناله عذاب هذا الحب.

تحياتي وتمنياتي

المخلص علي النجار)

وجده في حانة «فريشو» (*) وهو يحشر جسده مع العشرات في انتظار أن يملأ جوفه بالبيرة، وكان يتأبط حزمة من الكتب والأوراق، ولم يكن العثور عليه صعبا في مثل هذا الوقت حيث تضيق المدينة، وتصبح مجرد بضعة مقاه وحانات.

وانتزعته من الصخب والزحام وخرج به وهو يتساءل:

- من يجرؤ على البقاء في مثل هذه الحانة؟

(*) اسم حانة في العاصمة التونسية.

ـ وردد الشاعر ببساطة :

ـ أنــــا .

وضحك غياث داود وهو يستحثه :

ـ هيا بنا، لنهرب من هذا الاكتظاظ، هناك الشواطئ والمقاهي البعيدة .

وامتثل الشاعر معلنا :

ـ حسنــــا .

وبعد ان استقرا في السيارة سأله غياث :

ـ كيف حالك في العمل ؟

قال وقد بدأ يمتص قطعة الحلوى :

ـ بعد ان انتهى من تسجيل أسماء الطلاب الغائبين أنزوي وراء مكتبي المتواضع في احدى الغرف الصغيرة التابعة لادارة المدرسة والتي حشروني فيهـا مع أربعـة موظفـين آخرين لا يشغلهم شيء غير الثرثرة والتدخين وشرب الشـاي والقهوة، ولكن من حسن حظي انني أستطيع ان أخلق عالمي الخـاص ولـو كان ذلك في حدود المتر المربع الواحد الذي يشغله مكتبي فأكتب وأقرأ. وقد أنجزت قصيدة جديدة إذا كنت راغبا سأقرأها لك .

أخـذت السيارة طريقها باتجاه قرطاج، وقد بدأ الظلام يفرش دكنته الدبقة على الكائنات والأشياء فقال غياث مجيبا :

ـ ليس الآن، دع ذلك إلى أن نستقر في مكان .

ثم عاد وسأله :

ـ وما هي أخبار الديوان ؟

امتص قطعة الحلوى، استطاب طعمها وكرر ذلك ثانية قبل أن يقول :

ـ أخذ طريقه إلى المطبعة، ولكنني خائف .

ـ ولماذا هذا الخوف ؟

ـ أخاف أن يمر عابرا فكثيرة هي الكتب التي ترمي بها المطابع ودور النشر، ولكن كم منها ما يثير الانتباه ؟ ويهتم به القراء والنقاد ؟ هذا هو السؤال المرير الذي يجابهني كلما دخلت إحدى المكتبات لأرى مئات الكتب مصلوبة على الرفوف والتراب متراكم فوقها فأتصورها شواهد فوق قبور أصحابها، وأمتلىء بالهلع وتندثر في داخلي أية رغبة في طبع كتاب.

لم يعلق غياث داود بكلمة مناسبة، لكنه ابتسم في وجه صاحبه وأخذ يراقب الطريق الممتد طويلا وأضواء السيارات المسرعة التي تمخر فيه.

أطلق غياث واحدة من قهقهاته العالية التي يتظاهر فيها أن يكون خليا ثم أخذ يربت بيده على مقود السيارة وهو يدندن بأحد الألحان المندثرة التي كانت ترددها حكيمة بنت الشيخ جابر وهي مزروعة في كوخها أو تحت الشمس، تنبت هذه الألحان فجأة، تتخطى السنوات والغبار وركام الأغنيات الحديثة لترفع رؤوسها وتعلن عن وجودها في حنجرة هذا الرجل المتداعي.

ردد غياث داود في سره :

ـ كلكم شعراء، أنت وسعيدة بنت المنصف وسامي المنذر، لماذا لا تبحثون لكم عن متنفس آخر ؟

والتفت إلى صديقه الذي كان يواصل امتصاص حلواه ويتابع الطريق وقال وكأنه لا يوجه كلامه إلى أحد :

ـ عندما يكثر الشعراء وتغزو قصائدهم الصحف والمجلات ومحطات الاذاعة والتلفزيون أضع يدي على قلبي وأتصور أن أمرا جللا قد حدث أو سيحدث لهذه الأمة، وما الشعراء الا النادبون في مأتمها مثلهم مثل تلك المرأة التي كانت تقطن في محلتنا في السماوة ومهنتها الوحيدة هي ندب الموتى، يأتون بها كلما مات أحدهم لتبكي بصوتها الأجش النائح من لم يعرف طعم البكاء في حياته، ولكن المضحك أن كلمات الندب تعيدها نفسها في مأتم آخر مع استبدال اسم الميت وأقربائه.

وهز الشاعر رأسه وقال :

ـ أؤيدك، وأن الأمر الجلل قد حدث فعلا، والا ماذا تسمي ما هو حاصل ؟ الحدود القطرية تتأكد، والدعوات العنصرية والطائفية تعلو، وأنور السادات زار القدس وتبادل التمثيل الدبلوماسي مع الصهاينة، وفلسطين ولبنان والجزر الثلاث وسبتة ومليلة والجولان ومواقع أخرى وأخرى يطول حديثها.

وبعد ذلك تابع :

ـ ثم انكم يا أحبتنا العراقيين تساهمون بمنح القاب شعراء لنظّامين لا قيمة لهم وتحشدونهم في مربدكم السنوي. هل من المعقول ان في هذه الأمة كل هذا الزحف المغولي من الشعراء ؟

ونطق غياث محرجا رغم انه ليس مسؤولا عن حال الشعر والشعراء :

ـ ومن هنا خوفي، أحداث كبيرة مرت وتمر، وآمال عدة تجهض وليس لنا من حصاد غير القصائد العصماء.

ـ ولكن لا تعتبر هذا مأخذا على كل الشعراء، دعنا من مرتزقة البلاطات وأبقنا مع المجروحين الحقيقيين والذين يصرخون من شدة صليل جراحهم، فهم صوت الضمير الباقي وسط هذا التلوث والاختلاط، ارحم الشعراء الفقراء ارجوك ولا تأخذهم بذنوب غيرهم.

ثم زفر غياث بقوة، وعض على شفته، وضحك بعد ذلك، ولما انسحبت بقايا الضحكة من صدره نهائيا قال :

ـ اسمع يا صديقي، انني مصدوع وضجر، وهذه الأحاديث تزيد وضعي تفاقما، ولذلك فان همي الأول الآن هو أن افتح عيني جيدا حتى أرى طريقي لأوصلك بسلام إلى ذلك المقهى العلوي في سيدي بوسعيد لنشرب الشاي الأخضر بالنعناع.

ورد الشاعر محتجا :

ـ وهل انتزعتني من الحانة لتسقيني الشاي ؟ تعرف جيدا بأنني في مثل هذه الساعة لا أستبدل زجاجة البيرة بأموال الدنيا كلها.

وردد غياث مستجيبا :

- إلى البيرة اذن، لا أريد أن أكسفك.

- أنتم كالمطب أيها المشرقيون، هذا هو رأيي. لماذا تزوجت ذلك الرجل بسرعة ؟ ولماذا تزوجت صديقتي لطيفة رجلا آخر جاء من جهتكم وحاضر في احدى قاعات العاصمة عن الثورة والفداء وحرب التحرير الشعبية والغد العربي المشرق فانبهرت به، وتزوجته بعد ثمانية أيام. صدقني، كانت فتاة حية، تحمل شهادة عالية في الفلسفة من فرنسا، وتعمل في التعليم الجامعي، ولم تترك ندوة الا وحضرتها، ولا محاضرة الا وكانت في طليعة المناقشين فيها. سافر قبلها، واستقالت من عملها ولحقت به، دارت بين عمان ودمشق وبيروت باحثة عنه، وعندما عثرت عليه قابلها بتجهم ووجوم، ثم طلقها بنفس السهولة التي تزوجها بها. عادت إلى تونس كسيرة، لا عمل لها، ولا أسرة، فأسرتها تقطن في أقصى الجنوب. أخذت تؤم بيت الطالبات خفية لتنام مع شقيقتها الصغرى في سرير واحد، ثم ساعدها الحظ بأن جاءها عقد عمل من الخليج وسافرت إلى هناك.

أخذ غياث ينقر بأطراف أنامله على الطاولة التي أمامه في انتظار أن تقول كل ما عندها حتى يفهم القصد الذي تدور حوله، ولكنها كفت عن الكلام وأخذت ترتشف فنجان قهوتها بهدوء مما دعاه لأن يتساءل :

- ماذا كنت تريدين أن تقولي بالضبط ؟

وانبست بلهجة فيها شيء من الصراحة التي لم يعرفها منها :

- أريد أن أقول أشياء كثيرة، ومنها ان حبي لك ما هو الا ضعف لم أعتده، ولكنني قد أهدمه في لحظة ما وأمحو كل شيء.

- وهل تتصورين ان ذلك ممكن ؟

ورددت بهدوء :

- ولماذا لا ؟

وتركته أقوالها حائرا يدير رأسه بين رواد المقهى ويتأمل الوجوه المنكبة على زجاجات البيرة والمبردات وفناجين القهوة محاولا أن يعثر على كلمة يقولها أمام عنف هذه المتفجرة التي رمتها في طريقه هذه المرأة الصغيرة الجالسة جواره بوداعة طالبة حيية بشعرها الأشقر الطويل وعينيها الشهلاوين وذراعيها الأبيضين اللذين كم شرب السخونة من مساماتها.

توقفت عن ارتشاف قهوتها وعاودت القول :

ـ والسؤال الذي أجابه به نفسي اليوم هو كيف أحيل هذا الضعف إلى ثبات ومواصلة ؟

وسألها ببرود محاولا الوصول إلى قرار؟

ـ وهل أنت نادمة ؟

هزت رأسها نافية وقالت :

ـ لم أعتد الندم على شيء أقدم على عمله بمحض اختياري، ولكنك تستطيع أن تقول عني بأنني أشبه بالأسيرة فماذا تنتظر مني غير البحث عن حريتي ؟

ركز عينيه في عينيها، حدجها بنظرة لم تفقه ماذا كان يريد بها، ثم نطق مصدرا حكمه :

ـ سعيدة بنت المنصف، انت غبية حمقاء.

- 18 -

حط الليل. وطائر السماوة قد مضى. أعطى جناحيه للآفاق وللسماوات المضمخة وراح. عدنا إلى قفصه فوجدناه خاليا إلا من كأس الماء وبقايا حبوب وذروق معلقة بقضبانه الجريدية.

طائر السماوة. بغداد. بيروت. القاهرة. الدنيا. طائر الأرق والقحط، اِمض في الدروب الزلقة، ولا تحاذر من شيء، أطلق كل ماخبأته حنجرتك من ألحان، ندد بأيام الأسر والمكوث في مساحة صغيرة لا تمنح جناحيك القدرة على الانطلاق ولا لحنجرتك القوة على التغريد.

حط الليل. وخرجت طواطم مذعورة. انتصبت فوق الرفوف في الساحات العامة وفي مفارق الطرق والمتنزهات، وفوق قمم الجبال والسفن التي تجوب أنهر العرب الجارية منذ الأزل.

حدث كل هذا وأنت مسافر، مبحر، تصافح غيوما من فرح وسماوات من حرير، ولن يطيق فنن ولا زهرة أن يغرياك فتركن إليهما من جديد.

طائر السماوة. من يقول وداعا ؟ ومن يقول أهلا وسهلا ؟

حملتهما السيارة منطلقة من شارع الحمراء ومتجهة صوب البحر حيث سيتوقفان أمام فندق الريفيرا بعض الوقت، يقزقزان اللب. أو يشربان المبردات من السيارات الصغيرة المخصصة لذلك والمركونة على الأرصفة كدكاكين متجولة. ثم يتأملان الشمس وهي تغرب بعيدا وراء المياه المترامية. .

تنفست سميرة حليم بنشوة وقالت وكأنها تلقي بأبيات قصيدة ناعمة :

- الحياة تستحق أن تعاش يا غياث، وحرام أن نفقدها بطريقة بشعة.

وكان ينتصب جوارها ويده على كتفها وهو يصغي لما تتفوه به، وأضافت :

ـ لقد أخذت هذه الحرب العشرات، وأصبح الآخرون مهجّرين يعيشون في حال سيء، في العمارات التي لم يتم بناؤها وفي الخيام وبيوت الصفيح وعلى الأرصفة.

ثم مدت ذراعها لتطوق خصره كما تحب دوما وهما يتمشيان أو يتوقفان أمام شيء لفت انتباههما. وواصلت البوح بعد ذلك :

ـ مرات ألعن الحرب لأنها ستأتي على الأخضر واليابس في الأخير وأود لو تنتهي ليتنفس الناس ويرمموا بيوتهم ويجمعوا موتاهم المشتتة قبورهم، ويعود المهجرون والهاربون إلى مدنهم وقراهم. ولكنه حلم، لقد فرز كل شيء وعرف، ولم يعد هناك شيء مخفي، والسؤال الذي أردده دوما هو لماذا نتقاتل ؟ لم كل هذا ؟

رفعت ذراعها عن خصره وانسلت مقتربة من المسناة الكونكريتية وجلست فوقها بينما ظل غياث في مكانه مطلا عليها من علٍ.

وعادت إلى القول :

ـ وفوق هذا كله مدافع اسرائيل وطيرانها الذي يعيث بأجوائنا وأمور أخرى وأخرى أعجز عن تذكرها، كما أنه ليس كل ما يعرف يقال.

تبتلع ريقها وتضيف كالمنتحبة :

ـ أواه يا غياث إنني يائسة فمن أين لي بومضة أمل واحدة ؟

يخطو باتجاهها، ويمد لها يده وينهضها وهو يبتسم في وجهها، تلقي برأسها برهة على صدره فيضمها بحنان، ثم يطلقها لتمضي صوب سيارتها. وبعد أن يجلسا فيها، تنطلق بهما، وتواصل السير على شاطىء البحر الذي كان يمتلىء بالباعة والماشين.

التفت إليها وقال مداعبا :

ـ أين سميرة حليم الضاحكة دوما ؟

وأجابت وهي تمسح وجهها براحة يدها :

ـ إنها معك، ولكن الجرح المخبأ أخذ بالصليل فكفى مكابرة

وتصنع الإبتسام والمواساة وهو يسألها :

ـ والآن نريد أن نغير الجو بسماع أغنية، فماذا عندك ؟

قالت :

ـ ليس عندي غير أغاني فيروز، اختر شريطا من هذه التي أمامك وضعه في الآلة.

وأضافت كالموضحة :

ـ سأظل أديرها حتى تتقطع لأستبدلها بأخرى.

وأخذ صوتها يستعيد هدوءه وهي تواصل القول :

ـ في كل فترة تراني مغرمة بصوت، مرة بنصري شمس الدين، وأخرى بوديع الصافي، وقبلهما بصباح، لماذا لا ؟ كل أصوات الجبل والبحر والأرز في لبناننا، أما الآن فأنا في المرحلة الفيروزية.

وردد :

ـ حسنا يا عزيزتي، وهل هناك صوت أروع من صوت فيروز ؟

والتقط أحد الأشرطة ودسه في الآلة ثم ضغط فانطلق الصوت :

بعدك على بالي يا قمر الحلوين
يا زهر بتشرين يا ذهبي الغالي

وها هما مع اللحن والسيارة تنهب بهما الشاطىء متوجهة نحو منطقة الأوزاعي :

ـ لكن حبنا مرتبك يا غياث، أتحس بهذا ؟

حكيمة بنت الشيخ جابر ظلت مرابطة في ذلك الزقاق، جاءته أول مرة عروسا من بيت أبيها، ولم تغادره إلا مرات معدودات لزيارة المراقد المقدسة في كربلاء والنجف والكاظميين وبعض الأولياء القريبين، ولكن رحلتها الأخيرة من الزقاق كانت بلا إياب حيث حملوها في نعش خشبي نحو حفرة تنتظرها في صحراء النجف.

يتذكر غياث داود كل تاريخ تلك الأم الرؤوم ويطلق آهة حزن والتياع. لم تر شيئا تلك المرأة الكبيرة، ولم تعرف الفرح، إلا في حفلة زواج أو ختان أو عودة ميمونة من الحج، ولكن سرعان ما يداهمها الحزن العميق فتنطلق

بالنحيب. وغالبا ما يدخل غياث البيت ليسمع صوت هذا النحيب الفاجع الذي يهد القلب والأضلاع. تبكي أختا بعيدة، وأخا قتل في ثورة العشرين وأبا مات في السجن بعد أن قتل فلاحا اعتدى على أرضه، وأما لم تر وجهها إذ غادرت الدنيا وهي مازالت طفلة في السادسة من عمرها.

حكيمة بنت الشيخ جابر لم تعرف الأناقة يوما، وأقصى ما تصنعه في هذا المجال هو أن تضع الزعفران على مفرق شعرها وتخضب يديها بالحناء، يحدث ذلك في ليالي الأعياد لتطرد الشرور عن زوجها وأولادها دون أن تتخلى عن ثوبها الأسود الأبدي. ومرة رفع غياث صوته بالعتاب وهو يقول :

ـ لعلي أعذر أبي إن تزوج عشرا لا أربعا وهو يراك متلفعة بالسواد دوما. حكيمة بنت الشيخ جابر لن يجدي الأنين.

تعال يا أبا مراد، إنني هنا، ابحث لي عن عمل آخر، لقد مللت، أخصيت من الكلاب ما فيه الكفاية، وشنقت من القطط ما فيه الكفاية أيضا، وها أنا أرابط في هذه الشقة الكبيرة ولن تطرد وحشتي أنوارها المعتلقة، ولا آلة التسجيل التي تطلق أغاني العراق الحنونة. كل شيء عجز عن أداء دوره، وهذه المدينة حبلى بالمجهول وسماؤها غائمة أبدا، فهل لك أن تدلني على طريق ؟

طائر السماوة. طائر المجرة. طائر الدنيا. من جاء بك إلى الغراف ؟ ما الذي جاء بك إلى هذا النهير الجميل ؟ أية قوى خفية نادتك لأن تأتي وتلقي برحالك هنا ؟ تعال أيها الطائر الغراد، يا ابن الأنسام والأشجار المتسامقة، يا زرياب أيامنا المبتلاة، امكث هنا فلك الحب والماء، ولك الظلال والحقول، فزرياب يوم غادر إلى هناك نسي الناس خبره، فهل ترضى أنت بهذا ؟ هل ترضى مبارحة واحات النور لتغط في مهاوٍ سوداء كالقطران ؟

أيها الحبيب المترنم ها هي الضلوع قفصك ووكرك فاقترب مني إن

أردت، هاك يدي، تحسسها، وأخبرني : هل أنا محموم ؟ هل أن خيطي الدقيق على وشك الانقطاع ؟ إذن ما الذي يغرسني في هذا الوضع ؟ ويأتي إلى جسدي المضرج بهذا الداء ؟

طائر البعد. طائر الجراح والنسيان، أيها المهاجر بحثا عن عوالم أكثر رخاء وخضرة، كيف لي أن أصاحبك ؟ من أين لي مثل جناحيك حتى أفر وأولي بدلا من أنطفىء هنا ؟ وأتآكل مثل جسم صدىء ؟

ارتديت ثيابي على عجل وغادرت الشقة، وددت أن أمر بالمكتب لإنجاز بعض الأعمال المؤجلة، ولكنني لم أجد الرغبة الكافية للذهاب إلى هناك فحثثت الخطى نحو البحر فهناك ينتهي عالم المدينة لتبدأ عوالم أخرى، تلوح مدن وجزر نائية ترفل على شواطىء البحر الأبيض المتوسط، ولكن ما يجرحني هو أنه ليست هناك سفينة تتهيأ للقلوع وتنتظر أن أرمي بجسدي وحقائبي فيها.

عندما وصلت الشاطىء وجدته يفور بالناس وعربات الباعة وصراخ الأطفال الذين يركبون دراجاتهم أو يتربعون على البلاط ليلعبوا بدماهم ولعبهم الأخرى، وكان هناك البعض ممن يقودون كلابهم، رجالا ونساء، ويمنحونها الحنان المفرط الذي تمنيت أن أجده في قلب إنسان يحمله نحوي في هذه المدينة المنتظرة التي زرعت أرضها وعماراتها بملايين الألغام.

حاولت أن أجد سميرة حليم، كلمتها قبل أن أخرج ولكن لم يرد أحد عليّ، أما حسان صبحي فقد تركته لامرأته وولديه هذا اليوم، ولكن من يدري لعله هو الآخر محاصر في وحدته، فيركب سيارته ويهب ليسلك الطرق المسموح التجول فيها، أو يتوقف أمام شقتي ليضغط على جرسها فيهرول نحوه فؤاد البواب الهزيل ويخبره بأنني قد خرجت. ولكنني أحب أن أكون وحدي. أنصت إلى صوت ضربات قلبي، وإلى صوت خطواتي التي مازال فيها بعض الحماس وهي تلتهم المسافات. وضعت يدي في

جيبي، وانعطفت باتجاه كورنيش المنارة ووجدت لذة في أن أكون رقما ضالا بين الأرقام التي تعبىء الشارع. ورحت أحث الخطى، وأحيانا أحرك يدي في محاولة مني لأن أبرأ من كل بقايا الخدر المعسكر في كياني، ولاح لي ذلك المقهى الصغير الذي يواجه البحر والذي كنا نرتاده أحيانا أنا وحسان صبحي كلما مللنا من الأكسبريس لنشرب البيرة ونتأمل سروب الناس حتى نحس بأن الحياة مازالت ماضية وأن رغبة عشاقها في المضي أقوى من رغبة قاتليها وسجانيها في الاندحار والتلاشي..

بحثت لي عن مقعد فارغ وعندما وجدته ارتميت عليه.

يترصد علامات الغضب على وجه كامل السعدون الأحمر وهو يفرك راحتيه كالمقرور، ويحاول أن ينفث سمومه التي لولا أذني غياث داود اللتين تجيدان الإصغاء لقتلته، كانا يندسان في أحد مقاهي بغداد الجانبية ليلعبا (الدومينو) ويثرثرا، وليتأمل كامل السعدون الوجوه المرابطة في المقهى ويؤشر وجوه المخبرين من بينها فلقد عرفها جيدا لكثرة مواقفه معها ولكثرة مرابطته في المعتقلات والمنافي.

يعلن كامل السعدون:

- إذا لم يأتني اعتقال جديد فسأرحل.

ويسأله غياث:

- وهل تعبت؟

ويردد نافيا:

- لم أتعب ولكنني مللت.

- إنه هروب من الساحة على أية حال.

- أطلق أية تسمية تريد، ولكن هذا هو الحل، قد تكون هناك حسنات وأخطاء، ولكن القارعة الشديدة عندما يكون الخطأ في الانسان نفسه، في تركيبته.

- هذا شيء وارد وله حساباته.

- ومن يفعلها؟

ـ نحــــن .
أتتصورنا قادرين ؟
ـ أعتقد ذلك .
ويقول كالمنتصر :
ـ إذن أنت واهم .
وصفن غياث للحظات ثم قال :
ـ أنت أدرى مني وأعرف بخبايا العمل السياسي السري والتنظيمات، وأحس بأن خبرتي تتضاءل أمام خبرتك .
وردد كامل السعدون بأسى بالغ :
ـ مرات أتساءل مع نفسي هل ضعت ؟ وأين طريقي ؟ وغايتي ؟ فلا أجد جوابا، رحلة حبلى، ثقيلة، كمليون كابوس، مظاهرات واعتقالات وسجـون، أتعرف انسانا مر على كل الأحزاب في البلد غيري ؟ الديني والملحد ؟ اليسار واليمين، القومي والأممي ؟ هكذا أنا، لا انتهازية مني، ولكن بحثا عن جواب، وصدقني بأنني وحتى هذه اللحظة لم أفهم شيئا، ويبدو أنني لن أفهم .
ويتساءل غياث :
ـ أتريدني أن أفهم أنا إذن ؟
ـ ولماذا لا ؟ في هذا المجال يتوقف الأمر عليك، فقد تمكث يوما واحدا في سجن أو في صفوف حزب وتعرف كل شيء، ولكنك قد تلهث مستهلكا كل سنـوات عمرك دون أن تفقه شيئا وتخرج وأنت فاغر فمك كالأبله، وهذا ما هو حاصل لي، ولذا فانك واهم عندما تراني أكثر خبرة منك، لا، لا يا صديقي، إنني ساذج وبسيط، حاول أن تفهم هذا .
ويقول غياث بيقين :
ـ إنني أراك ممتلئا بمعان كبيرة، يقف الكثيرون حائرين أمامها، ولن يغير من رأيي جوابك هذا .
وكان أنذاك يجمع قطع الدومينو ليوزعها من جديد وعلى يمينه ورقة

صغيرة وقلم رصاص استعاره من صاحب المقهى ليسجل به النقاط التي يحرز عليها كلّ منهما في هذه اللعبة غير الحامية .

وعاد كامل السعدون إلى القول مواصلا توضيح ما يؤرقه :

ـ اسمع يا غياث، المهم في كل أمر نقدم عليه هو أن نكون مقتنعين أولا ، حتى تكون تأديتنا له تأدية حبية ، نابعة من القلب والوجدان ، ولقد عشت تجاربي الحزبية وعرفتها في فترة مبكرة منذ أن انضويت تحت لواء ذلك الحزب الديني الذي كان اسمه حزب التحرير، لأصلي الأوقات الخمسة في مسجد المدينة أنا ودشداشتي البيضاء النظيفة ، وأتداول مع رفاقي في التنظيم كتبا مطبوعة عن الرسول والصحابة والخلفاء الراشدين . لقد اقتنعت عن طريق صديق لي أصبح الآن خارج كل الفعالية السياسية منصرفا إلى شؤونه التجارية والبيتية ، اقتنعت بأن أي جهد نضالي سيضيع ويفقد التأثير المطلوب إن لم يكن ضمن تنظيم حزبي .

وألقى بقطع الدومينو من يده ، وأخذ يركز نظراته في عيني صاحبه بينما طرح ساعديه على الطاولة بوضع متقاطع . تنحنح محاولا أن يعيد النصاعة لصوته البليغ النبرات ثم قال :

ـ لم تكن تجربتي في حزب التحرير ناضجة بما فيه الكفاية ، ولكن كان لابد منها ، أغلبنا نبدأ باندفاعات دينية بحكم التربية والعادات ، ولكن هذا الحزب تهدم ، هدم نفسه قبل أن تهدمه السلطة ، ثم جاءت التجربة الأخرى والثالثة ، ولكنني كنت أحس بشكل ما أنني قد حشرت في العمل الحزبي حشرا ، وأن آفاقي وتطلعاتي قد شيدت بمنأى عن كل ذلك ، ولكنني لا أملك خيارا آخر، ومادمت قد انتميت فعليّ أن أؤدي واجبي وأذوب في هذا الكيان الكبير الذي اسمه الحزب ، وأول اجتماع حضرته وأنا أقارع ترددي كان من الممكن أن يكون آخر اجتماع إذ أداره شاب يصغرني ، ويبدو أنه كان يتنطع في لفظ المصطلحات والتسميات السياسية لنحكم عليه بالفهم والمعرفة ، ومازلت أذكر صوته المتلجلج وهو يلفظ الديموقراطية بالديموغراطية ، وهكذا ، والأنكى من ذلك أن الثلاثة الذين

كانـوا معي في ذلك الاجتماع كانوا يقاربونه في الثقافة، فأحدهم سائق تاكسي معـروف في مدينتنـا والثـاني فراش في احدى المدارس الابتدائية والثـالث عاطـل عن العمـل، ولم يكن السائق يعرف كتابة اسمه، أما الفراش فقد تعلم مبادىء القراءة والكتابة عند أدائه للخدمة العسكرية، والثالث العاطل هـو الوحيد الذي يستطيع القراءة والكتابة بشكل جيد فقد أتم تعليمه الابتدائي وتوقف عن المواصلة نتيجة لفقر عائلته وحاجتها إلى معـونتـه، وهكـذا وجـدت نفسي بين هؤلاء أنا الطالب في الدراسة الاعـدادية والذي قرأ من الكتب السياسية والأدبية المئات، ورصد كل السياسـة العربية والعالمية والعراقية أيضا. كان من الممكن أن أشتمهم وأخرج لأنني شعرت بالخرس التام، ولم يعد لساني الذي يتمتع بالسلاطة قادرا على النطق بكلمة واحدة في هذا المناخ، لا أقول هذا تعاليا، ولكن هناك فرقا بين من يجعل من أمر من الأمور هما له وبين آخر ليس كذلك، ومع هذا ارتضيت ما أقدمت عليه، وبقيت وواصلت، قاتلت بكل ما فـيّ من قوة، وأنت تعرف بقية الحكاية، ولكن بعد كل هذا لم أخرج الا بهذه البدلة المتوسطة العمر وبعض الدريهمات التي يقدمها لي والدي في أول كل شهر.

كانت تلك الأحـاديث القاتمة الغضوبة هي صرخة كامل السعدون الأخيرة التي هيأته للمضي بعيدا.

كانت تجلس في المقهى، وجـدتهـا هنـاك عنـدمـا دخلت، ولم يكن الـرواد قد تقاطروا بعد، كانت تدخن بعصبية ورأسها مطرق إلى الأمام، ولم تكن تأبه بأحد من الجالسين الذين أعطت ظهرها لهم، وجاء جلوسي أمامها أمرا غير مقصود.

ظللت أراقبها، واتقد في داخلي فضول لم أعرفه من قبل لألـمّ بحالتها والسبب الذي جعلها في هذا الوضع.

لم تكن صغـيرة، وتبـدو وكأنها تقترب من الثلاثين، شعرها الأسود منكـوش، ولكنه يمنح وجهها الأسمر الحزين حرارة ووسامة خاصة،

كانت ترتدي بنطلونا من الجينز وقميصا أبيض بخطوط عريضة زرقاء، وقد طوت كميه حتى مرفقيها، أما حقيبتها اليدوية فكانت كبيرة بعض الشيء وقد وضعتها على الطاولة أمامها.

نظرت في ساعتي، كانت تقترب من السادسة في هذا اليوم الصيفي والشمس مازالت عالية ترمح هناك وراء العمارات السامقة التي تصفعني كلما حاولت أن أرمي بصري بعيدا في أفق سمح، وافتقدت الرسام المتوحد، وخمنت أنه قد يكون مريضا، أو قد حصل ما كان يتوقعه لأقرأ خبر موته في اليوم التالي في إحدى صحف هذه المدينة الكثيرة، أو أن لوحة قد شغلته وغرق في عالمها أو ألوانها، أو امرأة يؤكد فيها فحولة لم تسلبها الأيام وتعيد البهاء لشيخوخته الوسيمة، المهم أن لديه ما يفعله حتما، أما أنا فلا شيء، سوى الجلوس وراء مكتب في إحدى العمارات العالية المطلة على البحر، لأقرأ تقارير عن الجوع في العالم وحملة الأمم المتحدة من أجل القضاء عليه وإطعام كل الأفواه الشاكية والشعوب التي يهددها القحط والانقراض، وعندما تقترب الساعة من الثانية ظهرا أخرج لأندس في أحد مطاعم الحمراء، أتناول وجبتي وأسرع إلى شقتي لأستلقي في فراشي ساعة أو أكثر، أخرج بعدها إلى المقهى، وهكذا أواصل هذا الديدن الثقيل.

لم تفارقها نظراتي، ولكنها لم تأبه بي، كأن ما يشغلها أكبر من عيني رجل، لا شيء لديه يفعله لذا وجد في وجهها الجميل منبعا لتحقيق رغبة تعربد بين فخذيه، ووجد في ذعرها وارتباكها إشارة لصيد سهل قد يقع في الشباك بسهولة، فسميرة حليم ليست كل النساء، إنها إمرأة واحدة، ولا يمكنني أن أظل ابزق فيها تشنجي دوما، لابد من امرأة أخرى وثالثة وهكذا، إنه القراع الأزلي الذي اقتحمته دون أن أفكر في التراجع.

لم تكن نظراتي وقحة، بل كانت هادئة مستفسرة لا ذنبية فيها، لذا أخذت تعتادها بمرور الدقائق، وأخذت نظراتنا تتعانق للحظات، كل

منها تسأل عن مرام الأخرى، وقد خمنت أنها قد ردت على بسمتي عندما ابتسمت لها. ولكن حزن وجهها الأسمر متلاطم وشاسع ويغرق أكبر الابتسامات، لذا نهضت وتحركت صوبها، وعندما وقفت أمامها وجدت قامتي عاجزة عن المكوث منتصبة، وقد اعتراني الكثير من الخجل والتردد والخوف وكأنني مراهق صغير يريد أن يكاشف أول فتاة يعرفها بحبه، أو ليسلمها رسالة كتبها على غفلة من والديه، لذا انحنيت إلى الأمام وأسندت يدي إلى الطاولة وبدوت كخطيب خائب لم يستطع أن يقنع الجمهور المحتشد بأقواله فراح يصفر له ويرمي عليه القشور والبيض.

نهضت هكذا دون أن أعرف لماذا ؟ وماذا أريد ؟ رفعت إليّ عينين وطفاوين، يتوسدهما حزن الأمم المغلوبة والقبائل المهاجرة، حزن الشيعية العجوز وهي تنصت إلى حكاية مقتل الحسين في يوم عاشوراء المشؤوم.

كان في عينيها تساؤل واستغراب. وحاولت أن أجمع شتاتي وانسحب، أفر من المقهى والمدينة، أذهب بعيدا، أخترق الحواجز والمتاريس والأماكن المحرمة لتنهيني رصاصة قناص أو يبددني رشاش منتظر أشلاء.

ولكن صوتها جاءني متماسكا، وكأنه يجاهد من أجل أن يخرج من أعماق بئر :

ـ نعم ؟ هل هناك شيء ؟

وقلت متلعثما :

ـ آسف، خمنت أنك زميلة كانت معي في العمل.

وابتسمت. تنفس وجهها الذاوي. وقالت وكأنها تأمرني:

ـ اجلس.

فجلست دون أن أبدي اعتذارا فكأن دعوتها قد أتت على حيرتي ومنحتني الخلاص والسلام.

* * *

جلس أمامي، وكان يدفع جذعه إلى الأمام قليلا، ويضع يديه فوق ركبتيه، وكأنه يهم بالنهوض، فعدت وقلت له :

ـ لماذا لا تجلس جيدا ؟

وهنا أسند ظهره إلى متكأ الكرسي وابتسم، أمرهم محير هؤلاء الرجال، إنهم يورطون أنفسهم في مثل هذه المواقف وتظل الحيرة تتقاذفهم دون أن يعرفوا مدخلا أو مخرجا، أراد أن يقترب مني فدعوته، لماذا لا ؟ ربما يكون وحيدا مثلي، فعلى هيئته شيء من اللاأمان ومن التساؤل الغامض، إنني أعرف هذا، ولذا ارتسمت صورته تدريجيا في عيني، تماما كما يحدث للحيتان الكبيرة عندما تلتصق صورة وجه ما في عيونها فانه لن يغيب عنها أبدا، رأيت ذلك في فيلم عرض ببيروت قبل سنوات، ولكن الفرق أن ذلك الرجل قتل وليدها فلم تهدأ إلا بعد أن قتلته وأخذت بالثأر، كان البحر ساحة صراعها الأبدي، قلبت سفنا وشقت أمواجا حتى حاصرته بين الثلوج في إحدى مناطق القطب الشمالي وأتت عليه، أما هذا الرجل الجالس أمامي بحياء واحد من طلابي الصغار فانني لا أعرفه، وليس هناك بيني وبينه أي حساب ينتظر التصفية، إنه وديع وقلق وحزين، يريد أن ينهض، ولكنني سأبقي عليه لأثرثر معه قليلا، ومن يدري بعد ذلك بأنني قد أطرده وأركله على قفاه ؟ أو قد أضع يدي بيده لنشق معا شارع الحمراء ؟ أو نندس في مطعم خافت الأنوار وننصت للموسيقى الناعمة ونحن نتناول طعامنا باشتهاء ؟

نطـــق :

ـ اسمي غياث داود.

وقلـت لـه :

ـ وأنا سحر نحاس.

قـــال :

ـ أنا موظف في منظمة الأيكوا.

وقلت متسائلة :

ـ وما هي هوية هذه المنظمة ؟

أجاب موضحا :

ـ انها اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا، وهي تابعة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي، أحد الأجهزة الرئيسية في الأمم المتحدة.

وتمتمت :

ـ إذن أنت شخص مهم ؟

وكركر في ضحكة اختض لها جسده كله. ثم تساءل بشيء من المرح :

ـ هل يبدو علي هذا ؟

وقلت وأنا أبرم شفتي :

ـ ليس تماما.

فعاد ليضحك من جديد مستعيدا تدريجيا وضعه الطبيعي، وبعد أن كف عن الضحك سألني :

ـ وأنت ؟ ماذا تعملين ؟

وقلت :

ـ معلمة في الجنوب.

وهكذا انتهت مراسيم التعريف، فعاد ليغط في حيرته لأنه ليس لديه ما يقوله لي، وهو يواجه بجديتي وصرامتي اللتين لم يتوقعهما، فعدت وسألته :

ـ لهجتك ليست لبنانية ؟

قال :

ـ أنا من العراق.

وفرحت لذكر اسم هذا البلد فهو ملتصق في خيالي، اقترن بالطفولة والتحليق على أجنحة بيضاء وبسط سحرية، في ليالي شهرزاد، وحرامي بغداد، وعلاء الدين والمصباح السحري، وتساءلت : هل من الممكن أن

يكون حفيدا للسندباد ؟ يا لي من غبية أقول حفيدا وكأن السندباد قد مات قبل أشهر فقط، حسنا ليكن من سلالته، لعله كان أسمر مثله، وجهه دبغته الشمس والأسفار، وعيناه أتعبهما التحديق في المسافات الشاسعة والتطلع إلى الأبعاد الخابية التي لن تطالها العين، ولكنه أمامي متعب وذاهل، مأخوذ بالصمت والحيرة، ولذا اِلتفّ حول نفسه منتظرا أن أصدر عليه الحكم.

قـــال :

ـ لفت نظري وضعك ؟

وأعاد توضيح ما تفوه به :

ـ رأيتك وحيدة، لا تألفين الأشياء من حولك، حتى وجوه رواد هذا المقهى، حيث أعطيتهم ظهرك، ولذا أطلت إليك التأمل، ورسمت صورا مختلفة لأسباب الحالة التي أنت فيها.

ولا أدري لماذا بدأت أهدأ ؟ وأختار كلماتي بدقة قبل أن أرميه بها، إن وضعه يعطيني أمانا ما رغم أنني لم أعرفه من قبل، وقد أنساه بعد مغادرتي المقهى، ولن يبقى من ملامحه شيء في رأسي المكتوي.

وقلت له بصوت أبقيته ثابت النبرات :

ـ ماذا تنتظر من انسانة سقط صاروخ اسرائيلي على مدرستها وقتل سبعة من طلبتها الصغار ؟

وصاح ملتاعا :

ـ يا للمصيبة

ـ هكذا أنا، فررت من هناك، لم أستطع رؤية أجسادهم الصغيرة الممزقة وهم يخرجونها أشلاء من تحت الركام، ولا دفاترهم وأقلامهم المبعثرة، ولا عيون أهليهم النادبة، ولم أصل إلى بيروت الا قبل ساعة، هربت دون أن أعرف لماذا جئت ؟ وكم سأمكث ؟

وانتبهت إلى أنني قد ثرثرت كثيرا فقلت باعتذار :

ـ أرجو أن تسامحني إن صدعت رأسك بشكواي.

هز رأسه وقال بمرارة :

ـ لماذا هذا البلد دون غيره ؟

وقلـــت :

ـ هذا قدرنا، وعلينا أن ننتظر.

صفق بيديه حانقا وصاح :

ـ تنتـــظرين ماذا ؟ المـــزيـــد من القتـــلى ؟ المـــزيـــد من القصف والخراب ؟ المزيد من . .

ورفعت يدي أمام وجههي في اشارة مني لايقافه عن مواصلة القول. وبعد أن صمت قلت بقرف بائن :

ـ الحديث عن وضعنا بات عقيما ولا مجديا، ولذا فنحن يائسون، ومع هذا باقون، إلى أين نذهب ؟ البرجوازيون والسياسيون الكبار رحلوا، لديهم أمـوالهم وارتبـاطاتهم، أما نحن فليس لدينا شيء الا قوت يومنا وايـمانا بهذه الأرض، وليس بيننا من يملك ثمن تذكرة طائرة تقله إلى أقرب مطار.

قـــال :

ـ تتكلمين بلسان الجميع ؟

وقلت له موضحة لا مدافعة :

ـ نحن الفقراء ضمائر لبعضنا.

نادى على النادل وطلب لنا قهوتين، ثم صفن بعد ذلك، وهامت عيناه في المكـان، تأملتـا الجالسين والمارة والجدران وأصص الزهور وواجهة المخزن الواقع على يسارنا. أما أنا فكنت أدخن وأرمقه بطرف عيني بين فترة وأخرى محاولة أن أواجهه بالكثير من الأسئلة التي تشغلني. ولكنني أكف عن ذلك، فمن هو بالنسبة لي ؟ ومن أنا بالنسبة له ؟ انني لا أكف عن هذه الـرغبة في اختراق حياة الآخرين وغربلتها خلال دقائق، لقد

عودني البعض منهم على ذلك فأفسدوني، إنهم لا يعرفونك، ومع هذا يحدثـونـك عن أمـوالهم وأولادهم وأقـربائهم، ومرة جمعتني سيارة مع إحـداهن، حدثتني حتى عن عدد المرات التي يجامعها فيها زوجها كل أسبـوع، أنـاس طيبـون، وحياتهم سهلة مثل ماء ينبع من سفح جبل ليسقي الأرز والزيتون والبرتقال، أما هذا الرجل الجالس أمامي والذي استقـر على كرسيـه آمنـا بعد أن تبدد تردده الذي واجهني به فلا أظنه سيفصح لي عن شيء مهم، أو أن حياته نفسها باهتة لا طعم فيها ولا تستحق الحـديث، وهكـذا سيـظهر سندبادي الأسمر مجرد نوتي عليل أمضى الـرحلة وهو ممدد في قاع السفينة بين البضائع والأحمال وجسده تدوسه أقدام البحارة والمسافرين.

قـــال :

- لأنني أحببت بلدكم فانني أعمل جاهدا من أجل أن أرحل عنه، يعذبني كثيرا أن أرى احتضار أحبائي بعيني دون أن تكون لدي القوة على اسعافهم.

قلت كالآمرة :

- اِرحـل، اِرحـل.

ثم ابتسمت له، التقت عيناي بعينيه فكبر اطمئناني إليه وترسخ، ورد على بسمتي، ولعله تساءل في سره عن معنى هذه الابتسامة التي زففتها له بسخاء.

ثم انكفأت على نفسي، وعدت إلى تململي وعذابي مما حدا به لأن يسألني :

- ما رأيك أن نتعشى سوية ؟

وأجبته على الفور :

- لن أستطيع أن أرفض دعوتك.

هكذا استجبت لما أراد بسرعة فقد منحته ثقتي، وعلمني وجهه الآمن

أن أقول ما في صدري، فنحن مسافران، كلانا محمول في عربة قطار أو طائرة أو مشيا على الأقدام وذاهبان إلى مكان ما هناك، فعلينا أن ننصت لبعضنا، ان نزفر حرقة الداخل واكتواء الأعصاب لعل رؤوسنا المصطلاة تركن إلى وسادة أو متكأ.

واقترح أن نخرج فوافقت وخرجنا بعد أن أصر على دفع قائمة الحساب. وسلكنا شارع الحمراء الذي كان يكتظ بالناس والصناديق الفارغة وأكوام القمامة وعربات الباعة. وقال كالمعتذر :

ـ لم أشتر سيارة في بيروت، هكذا كان قراري منذ أن حللت هنا وبعد أن سمعت من أصحابي حول ما حصل لسياراتهم من سرقات وتلغيم وبنزين مغشوش.

قلت معلقة :

ـ حسنا فعلت.

وواصل القول بلهجة الاعتذار نفسها :

ـ ثم إلى أين أذهب بالسيارة وأماكن التحرك محدودة ؟

كنت أمشي بجانبه أنا وحقيبتي اليدوية الكبيرة وبنطالي الجينز وقامتي التي توازي قامته حتى أنه عندما يلتفت إلي تصبح عيناه في مواجهة عيني تماما لينساب بينهما هذا الخيط السري من التآلف والود.

سألني :

ـ أتفضلين مطعما معينا ؟

قلت :

ـ الذي تختاره أنت. المهم انني جائعة، ومازلت على فطور الصباح.

وأضفت وقد حطمت كل السدود بيني وبينه :

ـ ولكن دعنا نذهب مشيا.

ـ أفضّل هذا، فلم تعد في بيروت سيارة تاكسي واحدة جديدة، كلها من بقايا العثمانيين.

وأضحكني تعليقه، وأشعرني أن الهمّ مهما كبر من الممكن إزاحته أو تخفيفه على الأقل إذا استطعنا أن نحشر أنفسنا في عالم الآخرين، وحاولنا أن نشاطرهم همومهم ونواياهم مهما تفهت وصغرت، فكيف بي وأنا مع هذا المخلوق الودود الذي مازالت له فروسية خرافية ورغبة في أن يرسم ملامحه على جدران هذ العالم المتآكل ؟

* * *

قلت لها :

- سنحتفل بتعارفنا اليوم، وعليك أن تعترفي بشجاعتي فلولاها لما اقتربت منك وكلمتك

وضحكت من قلبها ثم شكرتني ورمت نظراتها إلى الأمام وهي تخطو بجانبي بهمة دون أن ينتابها التعب رغم المسافة الطويلة التي قطعناها مشيا.

وأردفت :

- ليست لبيروت هذه قلوب كثيرة ومتناقضة . ولكن لها قلبًا طيبًا واحدا يتمثل فيك.

وعلقت بابتسام :

- أرجوك أن تضعني في حجمي الحقيقي، فأنا مجرد معلمة في مدرسة ابتدائية تحب وطنهامثلها مثل الآخرين.

- ليس كلهم، ولو كانوا يحبون وطنهم مثلك لما نحروه. ومن هنا تصورتك في مثل هذا الوضع، ولم أتصور واحدا من أولئك الذين يغتالون الأمن والصبر.

بعد ذلك اقترحت عليها أن نذهب إلى فندق « السمرلاند » وهزت رأسها موافقة وهي تقول بخبث مرح :

- وهل كل موظفي الأمم المتحدة يقصدونه ؟

وقلت بانشراح :

ـ الضائعون والوحيدون مثلي فقط.

ـ إنه كبير على معلمة بسيطة، لنذهب إلى مطعم مروش أو إلى مطعم الاسطمبولي ؟ أو إذا أردت أن نرتفع قليلا فإلى مطعم اليلدزلار

وقلـت مصـرا :

ـ هذه أول مرة أراك فيها ويجب أن نلتقي في مكان جميل وفاخر.

وواصلت اعتراضها المشاكس:

ـ ما في القلوب أهم من الأمكنة، فقد نكون في صحراء وقلوبنا ملأى وفي السمرلاند وقلوبنا قاحلة ؟

وقلـت لهـا :

ـ والخير كل الخير في أن يتوافق امتلاء القلوب مع روعة المكان، أليس كذلك ؟

وبشت في وجهي وهي ترد :

ـ لن أختلف معك في هذا

ودخلنا الفندق، وقصدنا مطعمه، واخترنا مائدة مناسبة، وكان المطعم خاليا من الرواد لذا كان ترحيب النادل بنا كبيرا.

رددت :

ـ لقد تعبنا، ساقاي تؤلمانني

وقلـت :

ـ سترتاحين، اجلسي كما تحبين، ولا تراعي أي بروتوكول.

ثم عدت وسألتها :

ـ أتشربين الكحول ؟

وهزت رأسها قائلة :

ـ أفضل العرق اللبناني.

ووافقتها وقلت :

ـ سأشاركك في ذلك فما أعذب عرقكم إنه يساوي كل ما في الدنيا

من خمور.

وعندما حضر النادل، طلبت منه أن يحضر لنا تشكيلة من المازات مع زجاجة من العرق الجيد تركت له اختيار نوعها، فامتثل لطلبي وراح يحث خطواته ليهيء لنا ما أردناه.

كانت تجلس بجانبي، إذ أننا لو جلسنا متقابلين لأصبحت المسافة بيننا كبيرة، ولاحتجنا لأن نرفع صوتينا أكثر حتى يفهم كل منا ما يتفوه به الآخر ويصغي إليه جيدا لاسيما وأن مكبرات الصوت كانت موزعة في عدة جهات من المطعم وهي تبث الموسيقى الغربية الراقصة.

وانتبهت إلى رجل أوربي، هكذا خمنت من شقرته وهو يجلس أمام البار وبيده سيكارة وأمامه كأس من الويسكي، كنا نحن الثلاثة رواد هذا المطعم الفخم فقط في هذه الليلة التي تشبه كل ليالي بيروت المرعبة منذ أن اندلع القتال ذات يوم ولم يستطع أحد إيقافه.

قالت:

- المطعم فارغ، لعلنا جئنا مبكرين.

وقلت:

- لا أحد يصل إلى هذا المكان، الناس تلازم بيوتها في مثل هذه الساعة، أما نحن الذين لا نخاف شيئا ونرمي الحبل على الغارب فلن يمنعنا عن المجيء شيء ففي حساباتنا يتساوى الموت بالحياة.

وعلقت:

- جميل أن يكون المرء شجاعا، والمريع أن يكون يائسا، الموت بشجاعة هو غير الموت بيأس وخنوع، والحياة التي ننتزعها ونعيشها بامتلاء هي غير الحياة التي تمنح لنا ضمن شروط قد نستنكرها ولا نقرها في أعماقنا.

ودفعني تعليقها إلى أن أعلق أنا الآخر بقولي:

- الحياة الحرة الشجاعة هذا ما أنشده، ومن هنا فإنني لا أريد أن

أحدثك عن تطبيقي لهذا المبدأ في مسيرة حياتي ونحن في أول لقاء، وأعدد لك مزاياي وخصالي. وأقول لك بأنني ارتميت في تجارب كبيرة ومبكرة ودفعت الثمن باهظا، لندع التفصيلات إلى وقت آخر، ولكن المهم في الأمر هو أنني أمامك الآن وقد أبدو لك هادئا وقانعا، استطعت النفاذ من خرم الابرة ولم يتم هذا بذكاء ولكن بالصدفة فقط.

وأمسكت سحر نحاس بيدي، ضغطتها وتركت أصابعها الدافئة راقدة فوقها، كأنها تريد أن تهدئني وتمدني ببادرة عطف واهتمام.

ومكثنا هكذا برهة حتى أقبل النادل وهو يحمل صينية كبيرة ملأى بصحون المازة، وأخذ يوزعها بمهارة على المائدة العريضة، ثم وضع زجاجة العرق في الوسط.

ألقت عليها سحر نحاس نظرة وتمتمت :

ـ عرق كسارك، ما رأيك به ؟

وقلت :

ـ ليس لي رأي، ولعله أفضل نوع، لذلك طلبت منه.

وقالت :

ـ إنه نوع جديد، لم أشربه من قبل، ولكنني سمعت به، ثم إنني لست خبيرة بالمشروبات ولا أستطيع أن أميز بين طعم نوع وآخر.

وقهقهت بعد ذلك، فقهقهت أنا الآخر، قهقهت تلك المرأة التي كانت تنهش السكائر وفناجين القهوة وترمي السماء بالحجارة والسخط. وضحك غياث داود المرمي على الضفاف بعد أن انتزع بقاياه من ذلك التاريخ العريض المحمل، فارغ اليدين إلا من الأتعاب والجراح الممضة التي تعاقبت وتوالت ولكنها عجزت عن نسف هيكله ا ذي ظل له البعض من الرغاب والكثير من الحماس.

وشربنا الكأسين الأولين نخب اللقاء، وقد ابتدأ الانتعاش يفترش وجهها ويغذي حركاتها وهي تفرغ من المازة المتنوعة في صحنها وتأكل بنهم

وشهية.

تساءلت واللقمة مازالت في فمها :

ـ ماذا تقول عني في قرارتك ؟

وأجبتها متسائلا أنا الآخر :

ـ ماذا تتوقعين ؟

وانتظرت حتى ابتلعت لقمتها وقالت :

ـ يا لها من امرأة هكذا وبسهولة تنبسط وتضحك معي وأنا الغريب الذي لم تعرفه إلا قبل ساعتين فقط ؟

وقاطعتها بقولي :

ـلن أقول مثل هذا الكلام أبدا، ولكن الشيء الوحيد الذي أريد قوله هو أنني سعيد بك، ومتآلف معك، وأحسك وكأنك جزء مني، ولست غريبة عني على الاطلاق.

وعادت لتمسك بيدي، ضغطت عليها بأطراف أصابعها، ثم رفعت يدها، وخمنت أنها طريقتها في الشكر والتهدئة، ولكنني لم أفعل شيئا يذكر حتى أستحق ذلك، كان علي أن أشكرها أنا لأنها ارتضت أن ترافقني وأن تهدم الوحشة التي تقرضني وتنخرني.

شربنا كثيرا، وضحكنا كثيرا، وكنت أتألق سعادة، ولعلني في حالة شبيهة بتلك الحالة التي عرفتها في ذلك المساء الصيفي في واحد من أيام بغداد عندما أمسكت بيد أميرة حسين لأضع في اصبعها الناعم خاتم الخطوبة.

* * *

خرجنا من الفندق والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ووجدنا في انتظارنا أمام باب الفندق سيارة تاكسي كان غياث قد طلب من إدارة الفندق احضارها.

جلسنا في مقعدها الخلفي. وسأل السائق :

- إلـى أيـن ؟
وبادر غياث بالاجابة :
- إلى شارع السادات.
إنه ذاهب إلى بيته حتما، رغم أنه لم يخبرني عن مكانه، أما أنا فإلى أين ؟
وهنا صحوت وعرفت بأنني لا مكان لي، قربت فمي من أذنه حتى لا يسمعنا السائق وهمست له :
- يجب أن تعثر لي على فندق أولا.
وتســاءل:
- في مثل هذه الساعة ؟
ثم صفن قليلا، وأردف بلهجة قاطعة لا تقبل النقاش :
- ستأتين معي فبيتي كبير.
وقلــت :
- مستحيل.
وتساءل باستغراب. :
- أليست لديك الثقة بي ؟
- نعم، ولكن.
ونطق وكأنه يصدر حكما لا مجال لنقضه :
- هذا الأمر سنناقشه فيما بعد، المهم أولا أن نصل البيت.
وأخذت السيارة تسرع بنا في الشارع المظلم، والبحر عن يسارنا يغط بالهدوء والدكنة. وتوقفنا أمام حاجز للتفتيش، اكتفوا بالنظر إلى وجهينا ثم أعطوا الاشارة للسائق بأن يمضي.
فتح غياث باب الشقة، ثم أشعل الضوء ودعاني لأن أدخل، ترددت ثم خطوت. أطبق الباب بعد ذلك وهو يقول :
- سأعطيك غرفة نومي، أما أنا فسأحمل لي وسادة وغطاء لأنام في غرفة

الاستقبال.

وقلت له :

- نم في فراشك، وأنا سأنام هناك.

وقال معترضا على اقتراحي :

- لم أفعل هذا مجاملة، هيا ادخلي.

ومشى أمامي ليدلني على غرفة النوم فتبعته وأنا أحمل حقيبتي بكلتا يدي والتردد يكبر في داخلي.

كانت الغرفة واسعة وفراش النوم فيها يسع لشخصين، وضعت حقيبتي على طاولة الزينة وواجهني وجهي المتعب المخمور وهو يرتسم على المرآة أمامي. وامتدت يدي لتعيد شعري المنكوش إلى الخلف.

وجاءني صوته :

- ليس لديك ثوب نوم بالتأكيد سأعطيك احدى بيجاماتي، لن يكون منظرك مضحكا فيها فنحن متماثلان في الطول والامتلاء.

وخطا صوب خزانة الملابس وفتحها، ثم استخرج منها بيجامة وضعها فوق الفراش. وحمل أخرى كانت معلقة في الشماعة ومعها وسادة وغطاء استخرجهما من الخزانة أيضا وقبل أن يخرج قال :

- الحمام على اليمين.

وأضاف :

- قد أخرج مبكرا، وأنت مازلت نائمة، ثمة بيض وحليب وزبدة في الثلاجة، وفي الخزانة التي في المطبخ تجدين الخبز والقهوة والسكر وكل ما تحتاجين إليه. وسأكلمك من المكتب عندما تصحين، والآن تصبحين على خير.

وأطبق الباب وخرج، وبقيت وحدي في الغرفة الواسعة، اقتربت ثانية من المرآة لأتأمل وجهي، وهنا انتبهت إلى صورة لغياث مع امرأة، كان يضع يده على كتفها، وكانت المرأة تبدو جميلة، نادرة الفتنة، فخمنت أنها

زوجتـه، ولكن أين هي الآن ؟ ترى هل خافت من بيروت فغـادرتهـا وتركته ؟ ربما يكون الأمر كذلك، فأهل لبنان أنفسهم قد فروا منه فكيف بالغرباء ؟

خلعت ثيابي وعلقتها في الشماعة، ثم ارتديت البيجامة وأنا أبتسم في قرارتي من منظري فيها واندسست في الفراش بعد أن أطفأت الضوء.

* * *

خرجت مبكرا كعادتي لأمضي إلى مكتبي مشيا، أتنفس هواء الصباح وأرى الـوجـوه المتحـدية وهي في طريقها إلى أعمالها، وقد تركت سحر نحاس نائمة، وقررت أن لا أطلبها حتى تتعدى الساعة العاشرة.

دخلت مكتبي، وكان وجهها في رأسي مجموعة من الكلمات البيضاء، وشكوى تحني الضلوع وتدفع بالدمع إلى مآقي العيون، سلسلة ليست طويلة من الأحداث، منذ أن رأيتها في المقهى، حتى أطبقت عليها باب غرفة النوم، ولكنها ساخنة ونابضة وحية مثل التحدي الذي أبقى هذه المدينة على الخارطة، وأبقى لها أسواقها وبيوتها وأناسها ومطارها وسماءها وصحفها وبحرها وجبلها وأرزها.

وبعد أن تعدت الساعة العاشرة أدرت رقم الهاتف، وظل يرن فترة طويلة، وخمنت أنها ربما تكون قد غادرت بعد أن تركت لي ورقة تحتوي على كلمات امتنـان وشكـر. ولكن صوتهـا النـاعس قد أوقف كل هذه التخمينات وهي ترد :

ـ آلـــو.

وهمست لها :

ـ صباح الخير.

ورددت بغبطة :

ـ من ؟ غياث ؟ متى خرجت ؟

وقلـــت :

ـ منذ ثلاث ساعات تقريبا أيتها الكسولة

ورددت :

ـ كنت متعبة، وسكرانة أيضا، ولذلك غلبني النوم.

وسألتها بحنان فائض :

ـ هل تناولت فطورك ؟

ـ في الصباح لا أتناول الفطور عادة، وأكتفي بفنجان من القهوة.

ـ سأكون عندك في حدود الساعة الواحدة ومعي تشكيلة من ألذ مشويات بيروت وقالت :

ـ لماذا تشغل بالك ؟ ما أكلناه البارحة يسد رمقنا لأسبوع.

ـ إنني رجل أكول. وسأجعلك مثلي.

وضحكت، وودعتها بأحلى ما استطعت أن أستحضره من كلمات، ثم أطبقت سماعة التليفون.

فركت يدي ببعضهما، ووددت أن أرقص، نعم، لماذا لا أفعل ذلك ؟ ألم أكن أرقص في صغري وأقلد الغجريات اللواتي يأتون بهن في الأفراح ؟ أهز وسطي وكتفيّ، ولكنني أعجز عن تأدية ذلك بإتقان فأفطس من الضحك ؟

* * *

ها أنا وحيدة في هذه الشقة الواسعة التي تصلح لعائلة كبيرة لا لغيات وزوجته فقط. طفت في غرفها الفارغة واحدة واحدة، بعد أن أخذت دشا ساخنا وصو بنت جسمي مرتين. ثم دخلت غرفة صغيرة تضم خزانة للكتب صف فيها قرابة المائة كتاب، وقلبتها واحدا واحدا، فوجدتها كلها في السياسة والاقتصاد والتاريخ وصداع الرأس، وليس بينها كتاب واحد ذو موضوع طري من الممكن أن أقرأ بضع صفحات فيه. ثم وجدت هناك آلة تسجيل وبقربها مجموعة كبيرة من الأشرطة لمغنين ومغنيات من العراق لم أسمع بأسمائهم من قبل، ما عدا ناظم الغزالي

الذي تنتشر أغانيه في كل أنحاء لبنان.

جلست وراء المكتب وحاولت أن أسمع بعض هذه الأغاني، ولكنني وجدتها كلها نواحا وحزنا وحسرات، ولم أستطع أن أجد بينها أغنية واحدة تجعلني أبرأ من فداحة المصاب الذي جعلني أفر من قريتي وألجأ إلى بيروت.

أوقفت آلة التسجيل ثم دخلت غرفة النوم وارتديت ثيابي، وسرحت شعري ثم أعدت ترتيب الفراش. بعد ذلك ذهبت نحو المطبخ وغسلت الصحون والملاعق وفناجين القهوة. وعندما فرغت من كل ذلك حملت المذياع الترانسستور وخرجت إلى الشرفة. جلست على كرسي موضوع هناك ثم فتحت المذياع وأخذت أصغي إلى الهراء اللذيذ الذي كانت تبثه إذاعة مونت كارلو حتى دق جرس الباب فنظرت إلى ساعتي وعرفت أنه غياث حتما.

أغلقت المذياع ونهضت لأفتح له الباب. كان محملا بالأكياس فصرخت فيه:

- ما هذا؟

- طعام وفواكه، أتريديننا أن نموت جوعا؟

وأخذت منه بعض الأكياس وحملتها إلى المطبخ وهو يتبعني. وهناك بدأت أفرغها. كانت مليئة باللحم والخضروات والفواكه. فقال وهو يراقب ما أصنعه:

- مطعم مروش في طريقي، لذا جئت لك بالكباب والشيش طاووق والشاورمة مضافا إليها الحمص بطحينة والتبولة، فهل نسيت شيئا؟

ونطقت مداعبة:

- طعامك هذا يكفي قبيلة لا مخلوقين فقط لم يعطهما الله حتى كروشا كبيرة لتمتلىء به.

وبدأت بتحضير المائدة في حين قصد غياث الحمام ليغتسل وصوتي

وراءه وأنا أقول له :

ـ عندما أفرغ سأناديك.

ورد :

ـ أمرك يا سيدتي.

* * *

جلست أمـامي، وكـان وجهها الأسمر نضرا، وقد رحلت عنه مسحة الحزن التي رأيتها عليه يوم أمس.

أخـذت ألتهم طعامي بشهية وأنا أستحثها لتفعل مثلي. قالت وهي تهيء لقمتها :

ـ زوجتك جميلة.

واختنقت، وابيضت عيناي، وهوى ذراعاي لينطرحا على المائدة أمامي.

وعندما لاحظت ما حصل لي تساءلت كالمذنبة التي تدافع عن نفسها :

ـ غياث ؟ ما بك ؟

وحاولت أن أتجمع من جديد، فاستطعت ذلك بعد جهد، وقلت لها :

ـ نعم، إنها جميلة فعلا، ولكنها.

وكبرت حيرتها وهي تستحثني بالسؤال :

ـ ولكنها ماذا ؟

وقلت حاسما :

ـ ماتـــت.

وكفت عن المضغ وهي تحاول أن تعرف المزيد :

ـ كيــف ؟

وتمتمــت بانكســار :

ـ كما يموت الناس.

ولم تقتنع بجوابي فعادت لتسأل :

ـ هل طلقتها وأصبحت بالنسبة لك في حكم الميتة ؟

وقلت لها وقد انسدت شهيتي إلى الطعام :

ـ لو كان الأمر بهذه الصورة لهان، ولما احتفظت بالصورة التي تجمعنا معا في ليلة زواجنا.

وتمتمت بحسرة :

ـ رحمها الله.

* * *

لم أشأ أن أسأله كيف ماتت ؟ لأنني أحسست بأنه لا يطيق أن يتكلم في مثل هذا الموضوع الذي سينكأ جراحه النائمة، ولكنني كنت أهرب نحو ذلك الوجه الجميل وأتأمله، ومرة وجدت أناملي تمسد زجاجة الصورة الباردة وإطارها الذهبي البارد هو الآخر، وتمثلتها حية أمامي، تشكو من شيء يعذبها فأجد لزاما علي أن أواسيها وأسمعها كلمة طيبة.

مكثت عنده ثلاث ليال. غسلت ثيابه وكويتها له، وأعدت ترتيب البيت وفتحت النوافذ للشمس والهواء في انتظار مجيئه من عمله، وبعد أن نتغدى ويأخذ قسطا من الراحة نخرج لنتمشى على البحر ثم نتناول عشاءنا في أحد مطاعمه قبل أن نعود إلى الشقة لنتابع برامج التليفزيون.

في صبيحة اليوم الثالث صحوت قبله، كان باب غرفة الاستقبال مشرعا، ووجدته ممددا على الأريكة التي لا تتسع لطوله لذا تقرفص في مكانه، اقتربت منه ثم انحنيت وقبلته على جبينه ففتح عينيه وهو يتساءل :

ـ سحـــر ؟

وجلست بجانبه على حافة الأريكة، وأخذت أمسد شعره بأناملي، فتساءل :

ـ ما الذي أيقظك الآن ؟

فأجبته ببساطة :

ـ لأنني أريد أن أسافر إلى أهلي .

واعتدل جالسا وكأنه فوجىء بقراري :

ـ بهذه السرعة ؟

وقلت له مذكرة :

ـ إنهم يبحثون عني الآن ، وربما لم يتركوا مركزا للشرطة إلا وسألوه .

وسألني بتوسل :

ـ ولكن هل تعودين ؟

وقلت له :

ـ هذا إذا لم ينهني صاروخ أو تأتي علي متفجرة .

وتمتـــم :

ـ كفي عن هذه الكلمات أرجوك ، واسمعيني ما يفرح .

ـ أكره التفاؤل الكاذب ، علينا أن نضع كل الاحتمالات .

طوقته بذراعي وأطبقت خدي على خده وهمست له :

ـ ومع هذا فنحن لم نكف عن الضحك والأكل والحلم .

وطوقني سندبادي الحزين هو الآخر ، وتوقفنا عند هذا الحد إذ كان فيه أمان لكلينا .

قلـت لـه :

ـ غيـــاث .

ـ نعـــم .

ـ سآتيك يوما بزوجي حتى تتعرف عليه .

ورفع ذراعيه عني ، ثم أبعدني عنه قليلا وتأملني وكأنه غير مصدق بما تفوهت به ، وردد :

ـ هل أنت جادة ؟

فقلـــت :

ـ وهل في الأمر غرابة ؟

وصفع براحة يده على جبينه وقال :

ـ لم أعد أحتمل أن يتلاعب بأعصابي أحد، فأنا متعب وشبه منهار، ولا قدرة لي على الصمود بعد.

قلت وكأنني أوضح له :

ـ أحببته وتزوجته قبل عام تقريبا، ولكنني لم أره الا لماما حيث يأتيني لساعتين أو ثلاث، يقضي وطره مني، ثم يرتدي ملابسه القتالية ويحمل رشاشته ويمضي، لم أسأله في أية جهة هو ؟ ولا مع من يقاتل ؟ ولكنه كان يردد على مسمعي دوما : الشيء الوحيد الذي لن أفعله هو أنني لا أفكر بإطلاق الرصاص على لبناني مثلي حتى لو كان ينوي قتلي.

وابتلعت ريقي مستجمعة قدرتي على مواصلة النطق وتابعت :

ـ هذه المرة انقطع عن المجيء منذ أكثر من شهر، من يدري فربما يكون قد قتل ؟ ولكن في هذه الحالة سيأتونني بجثته، وهذا لم يحصل، ولعلهم قد بعثوه في مهمة خارج لبنان.

أبعد الغطاء عن ساقيه ووضع يده على جبينه مفكرا، وكأن كلماتي قد تناثرت في رأسه وأصبح بحاجة لأن يستجمعها ويفرزها من جديد.

وبعد أن أحسست بأنني لا أمتلك المزيد من الشرح عن هذا الأمر نهضت وأنا أقول :

ـ سأحضر لك الفطور.

ونطق منخذلا :

ـ وهل لدي القدرة على ابتلاع لقمة بعد ؟

ثم نهض متباطئا وهو يواصل القول :

ـ سأحلق ذقني أولا، لن يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق.

ومضى صوب الحمام بينما مضيت أنا صوب المطبخ.

* * *

لم تترك لي عنوانها، وقد فاتني أن أسألها عنه، لم أتصور أنها سترحل بهذه السرعة أو أن ما عشناه طيلة الأيام الثلاثة كان مجرد حلم زال وانتهى. ولكنني تذكرت بأنني قد أمليت عليها رقم هاتفي في المنزل وكذلك رقم هاتفي في العمل ودونتهما في ورقة دستها في حقيبتها الكبيرة، وقد وعدتني بأن تكلمني، أما هي فليس في منزلها هاتف ومدرستها أتى عليها القصف.

مضت سحر نحاس ولم تنس أن تقبلني على جبيني، وتأخذني بين ذراعيها للحظات وتضغطني إلى صدرها بقوة، ولا أدري لماذا ظلت يداي مسبلتين أمام هذا الفيض من الود ؟

بعد ذهابها بأقل من أسبوع جاء أمر تعييني في تونس وقد هيأت نفسي للرحيل خلال بضعة أيام، لبيت عدة دعوات من أصدقاء وأصغيت لكلمات محبة دفعت بي للبكاء.

قال لي صديقي الرسام المتوحد :

ـ ابحث لك عن ولادة جديدة.

وعلق حسان صبحي :

ـ ودعنا نحن لموتنا المحتوم.

أعطيت ملابسي الزائدة لفؤاد بواب العمارة، أخذها مني وهو يقول :

ـ ماذا أصنع بها وطولك ضعف طولي ؟

وسكرنا ليلة أنا وأبو مراد في مطعم الاسطمبولي، وقد بكى وكأنه يحضر مأتمي لا وداعي إلى حيث لا أزيز رصاص ولا تربص قناصين.

أما الكتب فقد أعطيتها كلها لحسان صبحي، قرأ عناوينها وهو يردد :

ـ يا لصداع الرأس، أتتصور بأنني سأضع مثل هذه الكوابيس في مكتبتي ؟

ولكنني لم أستطع أن ألتقط رقم هاتف سميرة حليم التي كانت تمضي إجازة في بيتها في الجبل، لذا تركت لها رسالة وداع صغيرة عند حسان

صبحي الذي حملني في سيارته إلى المطار، حشرنا فيها أربع حقائب كبيرة هي كل أموالي المنقولة في هذه الدنيا، ومضيت. ولعل سحر نحاس قد أدارت رقم هاتفي في البيت مرات ولم يرد عليها أحد، وربما لجأت إلى رقم هاتفي في العمل فأخبرتها عاملة التليفون بأنني قد رحلت.

سحر نحاس، هل راحت إلى الأبد وانمحت ؟ ولكن من يدريني لعل بيروت تبرأ يوما فأعود إليها وأنا مطمئن بأن رأسي سيظل رابضا فوق كتفيّ ؟ قد أكون في مقهى، أو شارع، أو مطعم فإذا بي أمامها وجها لوجه، وقد أجدها أرملة ترتدي السواد فأمد يدي إليها مواسيا، ثم أرفع صوتي بالقول :

ـ سحر نحاس، هل تتزوجينني ؟

ولكن قد يموت هذا الطلب الرجاء في صدري، وقد تموت سحر نحاس أيضا بانفجار أو قذيفة فتندثر تحت الأنقاض ولن أرى وجهها أبدا.

سحر نحاس ـ بيروت، كيف أقول وداعا ؟

- 19 -

سعيدة بنت المنصف وخديجة بنت الهادي التقتا، كان ذلك في مساء صيفي وعلى مائدة من مطعم « الرمال »، لقد رتب سامي المنذر هذا اللقاء وهو يقول لغياث داود :

- فكرة جميلة أن تتعارفا، كان يجب أن يتم التعارف قبل هذا الموعد، ولكن لا بأس.

وقد نسجت بين الاثنتين الفة صافية، وبسرعة وجدتا أحاديث طويلة راحتا تتبادلانها، أما سامي المنذر وغياث داود فكانا يصغيان إليهما تارة دون أن يفهما ما تقولانه بالضبط وهما تتحادثان باللهجة التونسية تارة واللغة الفرنسية تارة أخرى.

همس غياث في اذن صاحبه :

- عجيب انسجامهما هذا رغم انني أرى ان كل واحدة منهما تشكل عالما بعيدا عن عالم الأخرى، خديجة الراضية بوضعها وعملها وطفلتيها، وسعيدة برأسها المحتشد بالمشاريع والأفكار وعشقها للتنقل والفرار ؟

ولم تنتبها لما تفوه به غياث عنهما، إذ انه كان ملما بحالة خديجة من خلال أحاديث سامي عنها، كما كان سامي ملما أيضا بحالة سعيدة من خلال أحاديث غياث عنها.

ولكن سامي المنذر كان الأكثر حديثا عن هذه المحبوبة النادرة، ويبدأ ذلك بعد ان يتناول كأسا أو اثنتين من الويسكي من أجل ان يزيح كل ترسبات الخجل المزمن في داخله.

ومنها قوله عنها :

- هل كتب علي أن أشقى إلى الأبد ؟ هكذا تقول لي خديجة مرات ؟ وتضيف : تصور يا سامي بأنني لن استقر الا بعد عشرين عاما على الأقل، وبعد أن تكبر ابنتاي وتتزوجا أو تعملا ؟ انذاك أكون قد

اقتربت من الخمسين فما الذي يتبقى لي من هذا العمر ؟

وقولها له أيضا :

ـ كنت جبانة، لذا علـي أن أتحمل نتائج جبني، هددني بالقتل ان لم أتزوجه، ولم أجد من ألجأ إليه ليحميني منه، فأبي عجوز وأخي يدرس الطب في لندن وأختي مشغولة بزوجها وأولادها. لذا قبلت الزواج به، واختلفت معه منذ أول ليلة، كان حيوانا فعلا، مزقني، ثيابي، وجسدي، وعندما كنت أصرخ كان يتلذذ بذلك، وقد تجرعته قرابة العامين، آخ، أرجــوك يا سامي أن تسكتني، انهرني، الــطمني على فمي، وقـل لي اخرسي، افعل شيئا.

أحاديث طويلة حفظها بدقة، وكأنها واحدة من قصائده التي يلقيها في المنـاسبـات أمـام جمهور عريض لتتلقف الآذان كلماتها بانفعال فتنطلق الأكف بالتصفيق، ولكن ما لم يبح لغياث به قولها له :

ـ كأنك الرجل الأول في حياتي، انني عذراء يا سامي رغم انني انجبت ابنتين، كانت علاقتي به اغتصابا، أما أنت فشيء آخر.

سكت غيـاث وسـامي بعض الـوقت وتـأمـلا مليـا خديجة وسعيدة الماضيتين في الحديث، ثم طلبا زجاجتي بيرة جديدتين، أخذ غياث رشفة من كأسه ثم نظر إلى وجه خديجة الأبيض الدقيق فرآه يقطر براءة وطفولة فعذر سامي لانشغاله وجنونه بها.

ـ والعجيب يا غياث أن حبي لها لم يكن على حساب زوجتي وأولادي، ولم يؤثر فيه بل عمقه أكثر وأعطاه خصوصيته وأبعاده المتميزة، حتى انها تسألني دوما عن الأولاد وأمهم وتتمنى أن تراهم وتجالسهم، ومرة طلبت صورهم فحملتهـا لها، قبلت كل الصور واحدة واحدة بما فيها صورة زوجتي فماذا تسمي هذا ؟

ـ ليست لدي تسمية جاهزة، ولكن لعل هذا مبعثه قناعتها بعلاقتها معك ضمن الوضع غير الطبيعي الذي عليه كل منكما، دون أن تطمح

في المزيد، كأن تأمل بأن تتزوجها يوما.

ـ هذه الحالة تدفع بي إلى اليأس غالبا لذلك أقسو عليها، ولكن سرعان ما انتبه لما أصنعه فألوم نفسي وأعتذر منها، وأنزل السباب على أجدادي لأنني لا أريد أن أحافظ على هذه النعمة التي أغط فيها.

سامي المنذر، الرجل العذب، بنوادره وطقوسه الفريدة، وبداوته التي لم يستطع أن يكبحها إذ سرعان ما تعتلق بعد كأس أو كأسين فلا يلذ له الطعام الا بيديه، ولا يتمتع به ما لم يمضغه بصوت مسموع، ولا يأبه لاستنكار البعض لهذا الأمر، ويرد على احتجاجهم:

ـ أكره السكاكين والملاعق، انظروا.

ويرفع يده إلى أعلى مفردا أصابعه الخمسة الممتلئة ويواصل:

ـ ان لذة الأكل بها لا تعادلها لذة.

سامي المنذر هذا هو واحة الأمان التي يعود إليها غياث داود كلما أمضه السير وأكل مآقيه تراب الصحاري الغضوبة، لم يمر على تعارفهما الا أشهر قليلة، الا أن لقاءهما الأول جعلهما قريبين من بعضهما.

قال له غياث داود:

ـ اسمك ليس بالغريب عليّ، كنت أقرأ لك بعض القصائد في الصحف.

قال سامي المنذر بحنق ظاهر:

ـ لا تذكرني بهذا أرجوك، انهم لا يعترفون بشاعريتي ولا قصائدي يقولون عني انني كلاسيكي وموضة قديمة، ولكن مع هذا لن أهرب وسأظل أكتب مادمت أحس أن ذلك ارضاء لحاجة وتأدية لواجب.

ومرة سأله غياث مداعبا وهو يراه يدور في الشقة عاريا تماما:

ـ وعندما تكون في بيتك مع امرأتك وأولادك هل تتعرى هكذا ممارسا ما تسميه بطقوسك المقدسة؟

ويهز رأسه مؤكدا:

ـ لن آبه بهم، لذا يختفون في غرفهم كلما رأوني أطل بجسدي العاري شتاء أو صيفا لا فرق، أدخل المرحاض وأحلق ذقني، وأحيانا أؤدي بعض التمارين الرياضية ان كان لدي متسع من الوقت، لامتني زوجتي حتى تعبت ثم كفت عن اللوم ورضيت بالحال وأمرها للّه، أما الأولاد فيظلون مختبئين حتى يتأكدوا من انني قد ارتديت ثيابي، يرسلون الصغير ليستكشف الأمر وهو الذي يعطيهم اشارة الخروج.

يسحب نفسا طويلا يعبىء به رئتيه. يزفره بعد لحظات ثم يواصل القول :

ـ ما أروع أن تخرج هكذا « طيازي » (*) بلا لباس ولا حتى ورقة توت فكأنك قد ولدت لتوك، جرب أن تفعل ذلك فستحس براحة لم تعرفها من قبل.

وربت غياث على كتفه وهو يقول :

ـ انني اخجل حتى من نفسي حين أتعرى وباب غرفتي موصد إذ أحس كأن الجدران والأشياء قد أصبحت لها أعين مفتوحة على سعتها من أجل مراقبتي والتعرف على أعضاء جسدي.

فقاطعه وقال ببوح :

ـ رغم انني من اعداء السفر، ولم أشاهد من هذا العالم الواسع غير بغداد وتونس فانني أرغب مرات أن أقطع تذكرة سفر وأذهب إلى أحد نوادي العراة لأجعل مؤخرتي المشعرة تعلمهم كيف يكون التعري.

وقهقه غياث وقال له :

ـ بامكانك أن تحقق هذا ببساطة، كلها بضع ساعات طيران لتكون في واحدة من جزر الدنيا التي تضم مثل هذه النوادي

وحرك يده أمام وجهه وقال :

(*) عاري الجسم باللهجة العراقية.

ـ قلت لك انها مجرد رغبة، ولكنني لا أستطيع أن أفارق خديجة بنت الهادي، تعلمت على فراق زوجتي وأولادي أما هي فلا.

* * *

سألـه غيـاث.

ـ طعامك برد، لماذا لا تأكل ؟

أجــاب :

ـ لا أستطيع، شهيتي مسدودة.

وتساءل غياث باستغراب :

ـ سامي المنذر يرى الطعام ولا يهجم عليه ؟ من يتصور هذا ؟

وأشار بيده إلى خديجة وقال موضحا :

ـ انهـا السبـــب.

وسأله غياث مستزيدا :

ـ كيــف ؟

وأوضح له وهو يحرك بيديه تارة ويوقفهما عن ذلك تارة أخرى :

ـ تصور يا غياث انني رغم رغبتي العارمة في الأكل والشراب فانني أمامها أعجز عن سرط لقمة واحدة بسهولة، وأحسها وكأنها قد جرحت بلعومي ان فعلت ذلك

فيـردد غيـاث :

ـ ولو تزوجتها لأصبحت أرشق رجل في الدنيا ؟

ويصفق بيديه ويقول :

ـ يا ليت، ولكن كيف أستطيع ذلك ؟

ثم ينتبه إلى خديجة وسعيدة وحديثهما الذي طال أكثر من اللازم فينقر بطرف سبابته على المائدة ويقول :

ـ بمـاذا تتآمـران ؟

فتلتفتان إليه، وتهب خديجة إلى القول :

ـ لم نتآمر على أحد، ولكننا كنا نتحدث عن آخر صيحات الأزياء في باريس. فأنا شغوفة بمتابعة مجلات الأزياء، ويعجبني أحيانا أن أضع تصاميم بنفسي.

وردد سامي المنذر :

ـ انني أؤيد غياثا، وقد تصورت فعلا انكما تنسجان مؤامرة كبيرة.

وتساءلت سعيدة بنت المنصف :

ـ ضد رجال الأرض أجمعين.

وضحكوا جميعهم وكأنهم مفرغون من كل هم، بعد ذلك رفع غياث كأسه إلى أعلى وهو يقول :

ـ نخب هذا اللقاء الجميل الذي دعانا إليه سامي مشكورا.

ورفع الأربعة كؤوسهم، ثلاثا منها ملأى بالبيرة، ما عدا كأس خديجة فقد كان مليئا بعصير البرتقال، فهي لم تعرف من قبل طعم البيرة، ولا الـدخان، ولا الحياة الحافلة، حتى الرجل لم تعرفه كما يجب الا عندما عرفت سامي المنذر، ويوم رأته أول مرة لم يلفت انتباهها بسرعة، فقد كان مظهره اعتياديا بقامته الممتلئة المائلة إلى القصر، ولكن بعد أن تحدث معها انشدت إلى هدوئه وحيائه اللذين عاملها بهما، ولم تصدق ان في هذا الزمن الفاتك هناك من بقي هكذا محتفظا بتعاليه وتسامقه.

كانت تعد له ورقة التأمين على سيارته، وقد وجهت إليه بعض الأسئلة التي يتطلبها أي حديث عابر تفرضه عليها طبيعة المهنة وهي تستقبل يوميا العشرات.

كان يتلجلج في كلامه وهو يداهم بوجهها الصريح وصوتها ذي اللثغة الفاتنة.

وبعد ثلاثة أيام من ذلك اللقاء رأته ثانية في السوق العربي، بالقصبة كان يقلب مجموعة من الفساتين الشعبية دون أن يعرف كيف يميز الجيد بينهـا، اقـتربت منـه وحيته، فمد لها يده مصافحا، وعرضت عليه أن

تساعده في الشراء، وقد أنفقت معه قرابة الساعة اشترى خلالها كل ما أراده لزوجته وأولاده، وقبل أن يصافحها مودعا قال :

ـ أعدك بأنني سأحمل لك هدية من بغداد.

وقد وفى بوعده وجاءها بقلادة ذهبية صغيرة على هيئة قلب نقشت في داخله ملوية سامراء.

ودخل عليها ذات صباح فرحبت به، وأخبرها انه قد عاد قبل يوم واحد، وأضاف بنفس الصوت المتلجلج الذي يجاهد من أجل البوح بكلماته عندما يكون أمامها قائلا لها بأنه قد حمل لها الهدية التي وعدها بها. ولم ينتظر ان تعلق بشيء إذ سرعان ما دس يده في جيبه ووضع أمامها صندوق الهدية الصغير.

ترددت برهة ثم مدت يدها والتقطت الصندوق وهمت بفتحه ولكنه قال لها برجاء واضح :

ـ ليس الآن، افتحيه بعد أن أخرج.

ثم صافحها واستأذن منصرفا بعد أن استجابت لطلبه.

وقبل أن يمر على وصوله إلى مكتبه وقت طويل رن هاتفه وعندما رفع السماعة جاءه صوت نسوي يسمعه لأول مرة وهو يسأله :

ـ أريد أن أكلّم الأستاذ سامي المنذر من فضلك.

ورد عليها متلهفا لمعرفة مرادها :

ـ أنا هو، تفضلي.

فهبت قائلة :

ـ وأنا خديجة، خديجة بنت الهادي.

وتمتم مرحبا بانشداه :

ـ أهلا وسهلا.

وعادت لتسأله :

ـ هل تذكرتني ؟

وهنا حاول تذكرها، وفجأة بزغ وجهها الأبيض الصغير أمامه، خمن ذلك من رنة الصوت واللثغة المغناج، ولكن الذي حيره ولم يجعله يجزم بأنها هي هو التساؤل الذي داهمه حول الذي أعطاها رقم هاتفه.

وقال :

أظن انني تذكرتك ؟

تظن ؟ أو تجزم ؟

ثم قهقهت بصوت خافت ودخلت في الموضوع وهي تقول له :

- كلمتك من أجل أن أشكرك على الهدية، لماذا كلفت نفسك بهذه الهدية الغالية ؟

وهنا تأكد من صاحبة الصوت أكثر فعلق على ما تفوهت به :

- كل ثمين يرخص بالنسبة لك.

وعادت إلى ترديد كلمات الشكر والامتنان، وقبل أن تودعه أعطته رقم هاتفها وهي تقول :

- رغم انه مكتوب في معاملة تأمين سيارتك ؟

وهنا وجد في نفسه الجرأة لأن يقذف على مسمعها بتلك الكلمات التي كثيرا ما يستعملها أصحابه في مكالماتهم الهاتفية عندما يبدأون بنسج علاقة جديدة مع امرأة.

وسألهـــا :

- وكم أتمنى أن تجدي الوقت لنخرج سوية يوماً

وردت :

- انني لا أرفض دعوتك، ولكن دعها لوقت آخر.

وكسفه اعتذارها فعاد ليوضح بصوت أقرب إلى التوسل.

- انني وحيـد هنـا، وقد اطمأن قلبي إليك، لا تسأليني كيف ؟ فأنا نفسي لا أدري لماذا ؟ ولهذا تجرأت وعرضت عليك طلبي، لعلنا نتعشى أو نتغدى سوية كما تحبين أنت.

وهنا قالت وكأنها اطمأنت إلى نواياه :

ـ غدا، وأفضل أن نتعشى سوية، ففي فترة الظهر لن أغادر المكتب واكتفي بأكل سندويش أحمله معي من البيت.

وانتظرته في المكان الذي حدداه وحملها إلى فندق أميلكار، ومن ذلك اللقاء انطلقت شرارة البدء ونسجت بنود حكاية الطلع وماء الورد وجرار الطيب.

* * *

القت خديجة بنت الهادي نظرة قصيرة على سامي وسألته :

ـ لماذا لا تأكل ؟

وكان يطأطىء رأسه ويتأمل الصحون التي مازالت ممتلئة في حين كان رفاقه يواصلون المضغ.

وقـــال :

ـ انني شبعان. لقد تناولت غدائي مبكرا.

وهمس غياث في اذن سعيدة :

ـ هكـذا هو، لا يستـطيع أن يتناول طعامه في حضرتها، ولكنها ان نهضت لدقيقة واحدة سيأتي على كل ما في الصحون.

وابتسمت سعيدة وقالت :

ـ يتصرف ببداوة وحياء نادرين، فكأنه لم يكلم امرأة من قبل.

وتذكر ما فاه به يوما أمامه :

ـ هل أقول عن حياتي انها ضاعت ؟ ولم يبق لي الا امرأتي فقط هي المتنفس الوحيد لفحولتي، كل يوم نفس الأكلة دون أن نفكر في التغيير ؟

ويقول له غياث مستحثا :

ـ ولماذا لا تغيّر يا أخي ان كان عندك فائض من طاقة ؟

ـ لدي الكثير، صدقني، ولكن ام الأولاد تستحوذ على كل شيء، أما هنا فانني ألجأ إلى ممارسة العادة السرية أحيانا، نعم، أفعل ذلك في مثل

هذا العمر، لا أستطيع ان أتقبل مضاجعة عاهرة لا أعرف حتى اسمها الحقيقي ولا امرأة لا يربطني معها أي ود.

ويقول له غياث :

ـ والآن ها هي خديجة معك فما عليك الا ان تظهر شطارتك.

يصفق بيديه ويقول :

ـ ولكنني وقعت في نوع من الغرام المجنون.

يربت غياث على ساقه ويقول :

ـ الغرام المجنون أن تروي جسدها أيضا، وأن تمنحها من هذا الدفق المخزون في جسدك. آنذاك ستكون لعلاقتكما مسارات أخرى أروع وألذ.

وقفت بهما سيارة التاكسي أمام فندقهما في روما، نزل قبلها وفتح الباب ثم دعاها للخروج، ولكنها كانت مخدرة لا تقوى على الحراك، سحبها من يدها فاستجابت له، وهي غير قادرة على الوقوف عندما أصبحت خارج السيارة، ربت بيده على خديها وهو يصرخ فيها :

ـ سعيدة، سعيدة.

وفتحت عينيها ورددت بصوت متهاوت :

ـ أريد أن أنام.

ـ لقد وصلنا إلى الفندق، هيا تحركي.

ولكنها كانت عاجزة عن ذلك، وهم بأن يحملها على كتفه، ولكنه خمن ان منظرهما سيثير عمال الفندق لذلك سحبها بقوة وأخذ يدفعها أمامه وهو يمسك بكتفيها حتى لا تسقط، وبعد ان أخذ مفتاح الغرفة عاد ليدفعها صوب المصعد.

وبعد أن غادرا المصعد حملها على كتفه، كانت خفيفة الوزن لذا لم يجد صعوبة في حملها وكأنها وسام لمعركة غابرة لم تعد الذاكرة العجوز تحتفظ بوقائعها الخرافية.

فتح باب الغرفة واتجه بها نحو السرير وألقى بها فوقه، وانكفأت على وجهها بعد أن طرحت ذراعها تحت رأسها، وانصرف هو لخلع ملابسه حتى بقي بالداخلية منها.

القى عليها نظرة متمعنة وانتبه إلى تنورتها المنحسرة التي تكشف عن ساقيها الأبيضين، وتصورها امرأة غريبة لم يمتلكها يوما أو ينفث سخونته بين فخذيها عشرات المرات، وهدرت الرغبة في شرايينه من أجل أن يمتلكها في هذا الوقت ويتعرف على طعم جسدها وهي مخدرة، نصف ثملة، نصف نائمة.

قلبها على ظهرها ثم انطرح فوقها، ووضع شفتيه على شفتيها، وراح يمتصهما غير آبه برائحة الخمرة التي ينفثها فمها، ثم بحث عن لسانها وراح يمتصه أيضا، وأحس بها وهي تتأوه بين ذراعيه، ولكنه ذلك التأوه المتهاوت البعيد الذي يبدو وكأنه صادر عن امرأة أخرى غيرها.

دس يديه حتى احتضنتا ظهرها ورفعتاها إلى أعلى ليزداد التصاقها به، ثم رفع تنورتها إلى أعلى ودخلها هكذا وهي بكامل ثيابها، وبعد أن فرغ نهض من فوقها، وتركها ممدّدة دون أن تكون قد شعرت بما فعله بها، وتمدد هو الآخر بجانبها وسرعان ما غط في اغفاءة عميقة ولم يفتح عينيه إلا على صوت حركة في الغرفة فرآها تجمع ثيابها في حقيبتها فسألها :

ـ ماذا تفعلين ؟

قالت بصوتها المتهالك :

ـ أريد أن أذهب.

ومسح بقايا النوم عن عينيه وهو يسألها بلهجة حانقة :

ـ إلى أين ؟

وردت على الفور وكأنها تتشاجر معه :

ـ إلى أي مكان.

وأعاد رأسه إلى الوسادة وهو يتمتم :

ـ أنت غبية لا تفكرين، والا كيف تخرجين وأنت مازلت سكرانة وليس

معك نقود في مثل هذه الساعة المبكرة ؟

والتفتت إليه ورمته بنظرات لبؤة محاصرة وصاحت :

ـ سأبيع جسدي ، أليس من أجله جئت بي إلى هنا ؟

وعندما سمع كلامها قفز من مكانه وأمسك بها من شعرها وقلب رأسها إلى الوراء وكأنه يريد أن ينحرها ثم صفعها بكل ما في يده من قوة وانفتل جسدها من وقع الصفحة وسقطت على الأرض .

بعد ذلك رفعها بين ذراعيه ودخل بها إلى الحمام وألقى بها في البانيو وفتح رشاش الماء وتركها تلبط تحته وخرج لينطرح على الفراش ثانية بكل هدوء .

وظل ينصت لصوت رشاش الماء الذي استمر أكثر من عشر دقائق ثم توقف بعد ذلك ، وما هي إلا لحظات حتى خرجت عليه وهي تغطي جسدها العاري بالمنشفة وشعرها المبلول تتدلى ذؤاباته الطويلة على كتفيها وصدرها .

أخذت تتأمله وهي مازالت واقفة في باب الحمام ، وعندما التقت عيناه بعينيها قالت له بصوت بدأ يتحرر من الثمالة والارتخاء :

ـ غياث داود انني احبك ، أتفهم هذا ؟

وضع معطفه فوق ركبتيه واختار مقعدا في الصفوف الخلفية من قاعة المحاضرات حيث سيتحدث بعد دقائق ضيف عربي عن الوضع في الخليج العربي ، وقد تلقى غياث داود بطاقة دعوة لحضور هذه المحاضرة من الجمعية التي دعت إليها .

وعندما رآه أحد المشرفين وهو في مكانه المنزوي هذا عرفه فتقدم منه راجيا اياه ان ينهض ليجلس على احد المقاعد الأمامية ، فاعتذر لأنه يفضل أن يبقى في هذا المكان فقد تطول المحاضرة وهو مرتبط بموعد هام .

وأراد أن يقول له :

ـ انني أقرف من رؤية وجوه اولئك الصغار وهم يتسابقون للجلوس هناك ، وليس لهم من هم الا ان تظهر صورهم على شاشة التليفزيون وكأنهم على رأس المهتمين بشؤون السياسة والفكر ، الطواويس المخصية

كما كان يسميهم كامل السعدون وهو يوضح بأن لينين كان أول من يحضر كرها في التصفيق والهتاف.

دخل الشاعر إلى القاعة، وبينما كانت عيناه تبحثان عن مكانين شاغرين له ولرفيقته انتبه إلى غياث المندس وحيدا ويده على خده وكأنه يفكر في أمر هام.

خطا صوبه وعلى وجهه ابتسامة جذلى وهو ينادي :

- من أرى ؟

والتفت إليه غياث ونهض لمصافحته، في حين أمسك الشاعر بيد رفيقته التي كانت تحمل حزمة من الكتب وقدمها لغياث قائلا :

- ليلى

وردد غياث :

- تشرفنا.

مما حدا بالشاعر لأن يقول :

- انها المعجبة التي حدثتك عنها، انظر إليها جيدا بصفتك خبيرا في النساء، أليست فاتنة ؟

فضحك غياث وهو يغمزه بطرف عينه ويقول :

- انها تستحق ان تقص من أجلها ذراعيك لا شعرك فقط.

وردد الشاعر مؤكدا :

- هذه المرأة هي مجد عمر الماجري الوحيد، ولذلك سأقص حتى شاربيّ من أجلها ان رغبت.

وضحكت ليلى وهي ترمي نظراتها إلى الأسفل، فتنسدل أهدابها الطويلة بسحر أخاذ وخجل دافىء.

ولم يمكثوا في الجلوس طويلا حتى بدأ المحاضر، وحاول غَياث ان يعثر على معلومات جديدة في أقواله، ولكنه لم يجد غير ترديد ممجوج لأقوال كتبت وقيلت مئات المرات لذلك أسند رأسه على يده محاولا الغياب

في عوالم أخرى لا صلة لها بهذه القاعة الواسعة التي تغص بالمستمعين.

أما الشاعر ورفيقته فلم ينتبها لشيء مما قاله المحاضر، اذ كانا يبسبسان بحديث خاص ويقهقهان بكثرة، وفرح غياث من قلبه لهذا الرجل الكدر المندد وهو يجد هذا الوجه الصغير الحلو، والعواطف البكر، لعلها تغسل له اوشال الداخل الآسنة.

وبعـد أن فرغ المحـاضر من القاء محاضرته صحا غياث على صوت تصفيق الجمهور، ونهض منسحبا ولحق به الشاعر ورفيقته.

وعندما أصبحوا خارج القاعة سأله الشاعر:

- إلى أين أنت ذاهب؟

وحرك غياث كتفيه إلى أعلى وهو يجيب:

- لا أدري

- هل عندك مانع أن أكون رفيقك لهذه الليلة؟

- وليلى؟

- ستذهب إلى بيت الطالبات فلديها امتحان غدا.

ورحب غياث بفكرته، وصافحتهما ليلى ومضت طائرة على أجنحة من الورد في كرنفال من الضوء والخضرة.

وتوقفا أمام مقهى الانترناسيونال فوجداه مكتظا بشاربي البيرة، واقترح الشـاعـر ان يبحثـا عن مكان في مقهى آخر، وأشار إلى مقهى افريقيا فاستدارا متجهين نحوه.

قال الشاعر بعد أن تذكر ان تحت لسانه قطعة حلوى لذيذة وعليه أن يمتصها ويستلذ بطعمها:

- هناك قرار حاسم اتخذته.

وتساءل غياث الذي نقل معطفه من يد إلى يد:

- ومـا هـو؟

- سحبت مخطوطة الديوان من المطبعة.

وسأله غياث باستغراب :

ـ ولماذا فعلت ذلك ؟

وأجاب باصرار :

ـ لأنني أحسست ان بيني وبين الشعر الحقيقي مازالت مسافة. لا أريد أن أطبع ديوانا ولن يقرأه إلا البعض ممن أهديه لهم بنفسي، وعبثا أحاول أن أجد له صدى آخر غير اخبار صغيرة في بعض الصحف المحلية التي لا يعرف بها أحد خارج حدود تونس.

وأراد غياث أن يقول له :

ـ أين فهمك الدقيق للمشكل من إصرار سامي المنذر على كتابة الشعر المقفى المصفى رغم معرفته بأن الآخرين لا يعيرونه أي اهتمام ؟

ولكن الشاعر عاد لامتصاص قطعة الحلوى من جديد ثم راح يواصل القول شارحا موقفه الشجاع :

ـ انني أكتب الشعر كمتنفس فقط، وإذا وجدت متنفسا آخر أنسب إلي منه وأقرب فانني سألجأ إليه حتما، لست محترفا يبحث عن الوجاهة والاسم المرموق، وقد يحوله بعض الرسميين إلى شبه متعهد حفلات يلقي بقصائده من وراء مكبرات الصوت في أية مناسبة مهما تفهت فيصفق له الأغبياء والفارغون.

وأطلق غياث ضحكة عالية، ملأته بالحياة والانشراح الحقيقي، ثم التفت إلى الشاعر وعانقه وهو يقول :

ـ انك انسان نادر يا عمر الماجري، نعم، وفي كل موقف ويوم أزداد محبة لك، وأشعر بأنني كنت مقصرا معك لأنني لم أعرفك على حقيقتك جيدا، ولعل العذر في انني رجل ذو رأس مشتت ومهموم، لذلك لم أستطع التركيز على أمر، فاعذرني وكن واثقا بأنني معك، السند والصديق دوما.

عانقه الشاعر هذه المرة وقبله على خده وكانا يسيران متمهلين تحت

الأشجار في الممر الذي يتوسط شارع بورقيبة الفسيح .
وعنـدما دخلا مقهى افريقيا عثرا فيه على مكان مما دفع الشاعر لأن يهتف بجذل :
- أن تعثر على مكان في مقهى وفي مثل هذه الساعة يبدو الأمر كالمعجزة.
وحطا على المقعدين المتقابلين قرب الواجهة الزجاجية التي تطل على الشارع المكتظ بالمارة وأغلبهم من الموظفين الذين غادروا أماكن عملهم .
امتص الشاعر قطعة الحلوى متمزا بها قبل أن يقول مواصلا حديثه :
- ولذا سأعيد إليك المائة دينار، لم تعد لي حاجة بها .
وقاطعه غياث بقوله :
- لا أريدها، انها لك، اسكر بها، أو اشتر بها هدية لصديقتك الجميلة .
وصفق الشاعر بيديه وقال مؤيدا :
- سأفعل ذلك والله، وسأشتري لها عطرا وحذاء وكتبا .
وهنـا جاءهمـا النـادل المبتسم الـطويـل ببـدلته السوداء وسألهما عن مطلبهما. وطلب غياث قهوة، في حين طلب الشاعر زجاجة بيرة. وبعد ان انصرف النادل قال :
- لماذا تصر على شرب القهوة ؟ انها لا تسكر أبدا بل تجعلك صاحيا أبـدا في هذا العـالم الذي يؤرق الصاحين ويعذبهم، والديدان التي في الرأس لن تدوخها غير البيرة .
وقال غياث شارحا حالته :
- لا أشرب الكحول الا عندما أكون في حالة متطرفة لا بين بين كما أنا عليه الآن، يجب أن أكون في منتهى الحزن، أو منتهى الفرح .
ووضع أمامهما النادل ما طلباه، وأصر الشاعر على أن يدفع الحساب،

فوافق غياث على ذلك، وبعد أن انصرف النادل قال بصوت بطيء وكأنه يبوح بشيء يؤرقه :

ـ كلي ثقة يا غياث بأننا كأدباء عرب لن نكتب أدبا متميزا في هذه الفترة المختلطة، وأنا شخصيا أقرأ بلغتين وبمتابعة مستمرة، أقرأ بالفرنسية لأدباء من أوربا وافريقيا وامريكا واليابان اضافة إلى الأدباء الفرنسيين أنفسهم، واقرأ بالعربية لأدبائنا المعروفين، ولذا أصدرت هذا الحكم الذي قد يراه البعض جائرا، ولكن هذا هو الواقع مع الأسف، ولذا سحبت ديواني من المطبعة وأوقفت رفيف حلم كم داعبني منذ سنوات.

أخذ جرعة من كأسه وامتص معها عذوبة الحلوى التي قتلت مرارة البيرة، ثم مسح فمه وشاربيه بأطراف أصابعه وواصل القول :

ـ أدبنا على نوعين، أما مهادن وسلطوي أو خائف ومقموع، لأن القمع الذي عاشه المثقف العربي جعل في رأس كل واحد منا شرطيا وليس هناك من يحاول قتل هذا الشرطي البغيض قبل أن يبدأ الكتابة، وهنا مقتل ابداعنا العربي كله وخصوصا المكتوب منه، وبودي أن أصرخ في كل مؤتمر أدبي وقبل أن يبدأ المؤتمرون الحديث أن اقتلوا الشرطة الصغار الجاثمين فوق رؤوسكم وأفئدتكم حتى تبدعوا. لم يكن في رأس المتنبي شرطي ولا في رأس همنغواي أو أبي نواس لذلك أعطوا وبقوا، أما نحن فعلينا السلام.

ابتسم غياث وقال مؤيدا :

ـ ان مصيبتنا في هؤلاء الشرطة الصغار والذين هم غالبا كبيرو الفعل، يسكنوننا منذ الطفولة ويحولون كل فعل نقدم عليه إلى تابو وذعر، في السياسة والدين والجنس، نعم، ارث مئات السنين من العلائق المريضة المتشابكة. من تحدث بصراحة عن الكبت واللواط والسحاق والاستمناء والاغتصاب ومضاجعة الحيوانات ؟ هل تذكر لي كاتبا واحدا فعل هذا من أجل أن نصحو ونبرأ ونكون طبيعيين ؟ أوف يا صديقي. ان الحديث يطول، والمهم الآن أن تشرب البيرة وتلعن أعداءنا نحن الطيبين دوما وأبدا.

وأفرغ الشاعر كأسه في جوفه دفعة واحدة وهو يصرخ :

ـ في صحة غياث، غياث العزيز الرائع

غياث داود هيا انهض فلم تبق لك إلا قامتـك الضـامـرة وفـوداك الأبيضـان، وهناك مدن وقلاع وشواطىء وزهور ونساء وطائرات وخمور وسجون وأحزان وأحزاب فانتفض وقل كلمة شافية.

غياث داود سيتبـدد دمك، تتوزعه القبائل الملثمة، ولن يأخذ بثأرك أحد، كثر الأعداء والخصوم فأين الطريق ؟

حط الليل، ليل آخر، ولكنه سيمضي ليأتي ليل جديد، ينطبق عليك بكل ضراوته الشنيعة ودبقه الذي يضرس الأسنان وينتف الشعر ويقلع الأظافر.

كم من الوجوه غابت ؟ ولكنـك ساكت بلا اذعـان. تهادن التشـاؤب والانسراح، ومـا عليك الا أن تفكـر باطـلالات قادمة، لهثت طويلا، قارعت، عرفتـك المسـافات والمنافذ، كبرت في داخلك أشياء واختنقت أخرى، فهل في حنجرتك صرخة استنجاد ؟

ـ اسمع، هذا أنا أمامك الآن، أطوي ذراعي حول صدري وأصغي لكل ما تقول، قل كل ما عندك، أما أنا فلست إلا مواطنا مرعوبا من هذه الأرض الرؤوم التي نسميها حبا وتحديا بالوطن العربي، في عروقي ينبض مجد، خلفاء، فتوحات، رايات وتكبيرات، وفي صدري كل ما في العربي السمح من نبل وكبرياء وضوء، فهل عرفتني ؟

ـ ولكنه زمن عنين ؟

ـ وهذا ما يفجعني.

أستـدير بسيارتي الفـرنسية الزرقاء متجها صوب البحر، إنه وجهتي وملاذي، وعتبات العالم التي أستطيع أن أتوقف عندها ملقيا بكل أحمالي ومحاولا أن أسترد أنفاسي.

في بيروت كان البحر ملاذي أيضا، حيث يبدأ الوعد المدفون وتبرق البشارة والترانيم التي لا تلتقطها الآذان بسهولة، ولكنني في القاهرة لم أجد

هذا الفضاء المائي، بل وجدت النيل بكل جبروته وكبريائه ولذا كنت أهوى وضع يدي في جيبي والتنزه في كورنيشه الطويل وأنا أصفر بأحد الألحان القديمة التي لم يأكلها الصدأ في رأسي، ولم أكمل الشهرين هناك حتى انسحبت، أغلقت مكاتب الجامعة واتجهت صوب بيروت. اخترتها لأنها مازالت في رأسي تلك العذراء التي لم يسلبها طهارتها كل الذين وقفوا في طابور طويل منتظرين دورهم في امتلاك جسدها، نسيت الحرب والقبائل والزعماء والأموال التي تصب من كل الجهات لتغذي المسلحين وتسحق الأمن والوئام، وصلتها وأنا أبحث عن بيروت الأولى، معبودتي التي وجدت شفاهها معفرة بالطلاء والكحل المائع يسيل من عينيها وأسمالها لا تستر بقايا الفتنة في جسدها المغتصب.

سيارة فارهة تنهب الطرق المسفلتة، ولكن غياث داود القديم ذاك كان يقطع دروب السماوة والناصرية وبغداد سيرا على قدميه، إذ كانت كل المسافات قصيرة مهما بعدت وترامت، وللناس ثقة بأقدامهم وقدرتها على المشي والمواصلة، كانوا يذهبون حتى إلى الحج أو إلى زيارة المراقد المقدسة في كربلاء والنجف والكاظميين وهم يحملون أمتعتهم في خروج على أكتافهم ولن يوقفهم حر ولا قر، أما اليوم فقد فسخنا الركود والماء المبرد ومكيفات الهواء ونحن وراء مكاتبنا أو في بيوتنا.

مكي المضمد، هكذا كان اسمه ذلك الرجل القصير المائل إلى الشقرة والنحافة فكر يوما بأن يريح قدميه فاشترى فرسا بيضاء، وبهذا قد خالف أبناء مهنته الذين كانوا يدورون بين بيوت مرضاهم على دراجاتهم الهوائية. وكان الناس غالبا ما يفتحون عيونهم ليروا مكي المضمد وهو يمتطي فرسه وخلفه حقيبته الجلدية التي تضم عدة العمل وهو في طريقه لأن يزرق أحد مرضاه بابرة أو ليستبدل ضماد جرح آخر. وقد ابتكر الصبيان أهازيج عديدة حوله وحول فرسه التي يرتبط معها بعلاقة نادرة، وغالبا ما كان يقودها إلى مشارف بستان « زامل » لتأكل العشب والبرسيم أو يقودها إلى شاطىء النهر ليحممها بالماء والصابون ويلتقط القراد الذي قد يلتصق

بجلدها، وقد ذهبت أفكار البعض بعيدا وراحوا يتحدثون عن العلاقة الجنسية التي تربطه بهذه الفرس، لاسيما وأنه قد تعدى الخمسين ولم يتزوج.

تنطلق السيارة هاربة، ومكي المضمد تخب فرسه في الأزقة والشوارع دون أن تعترض طريقها سيارة أو شرطي مرور، فقد كانت المدينة خالية من السيارات والسيارة الوحيدة في المدينة كانت يومذاك ملكا للمتصرف ولن يخرجوها من مرآبها الا نادرا.

تخب الحياة، ونحن فوق ظهورها فرسانا منهكين، تنتظرنا القرى والتلول والخيام والقطعان والغزوات، تنتظرنا النجوم والكلأ الأخضر ونباح كلاب الرعاة وغناء البوذية واطلاقات الصيادين.

غياث داود، هل تتصور أننا سنصل إلى مكان ؟

قال سامي المنذر بعد أن أنهى طقوسه وارتدى ملابسه :

- أنا رجل حقيقي يا غياث، لا أعرف المناورة ولا اللف ولا الدوران، أحببت خديجة بنت الهادي هذا أمر لا مفر منه، وكان يجب أن لا يحدث لي هذا، ولكنني هويت وانتهيت كما يقول سيد درويش في أغنيته الشهيرة، وربما تكون عدة عوامل قد تعاونت على ترسيخ هذا الحب وجعله حقيقة أواجهها كل يوم ولا طاقة لي على حلها أو الافلات منها. وقد فكرت بجدية عدة مرات بالاستقالة والعودة إلى بغداد، أترك كل العمل الوظيفي ولن أعود إليه، وهناك أفتتح مخزنا أو ستوديو تصوير أو أي عمل حر آخر، ووسط انهماكي في حياتي البيتية ومشاكل زوجتي وأولادي أتناسى خديجة بنت الهادي أولا ثم لعلني أنساها كليا بمرور الأيام وأفيق من هذا الحلم، ومن يدري فقد يكتمل ديواني الذي أكتبه عنها وبدأت قصائده تترى منذ أول لقاء خرجنا به معا، أوقفت السيارة على الشاطىء وتمشينا معا، وتركنا أحذيتنا تغوص في الرمل ونحن نستنشق هواء البحر، وكم وددت لو ألمّ شعرها الأشقر القصير الذي تنثره الريح على عكس شعري الأكرت القصير الذي لا تحركه أعتى الزوابع .

ثم يمضي نحـو الثلاجة، ويستخرج زجاجة مبردات كبيرة وكأسين فارغين، يملأهما ويقدم لي واحدا ويحتفظ بالآخر وهو يواصل حديثه :

ـ لقد كتبت عنها حتى الآن تسع قصائد، وهذا عدد كبير رغم انني لم أعرفها إلا منذ أربعة أشهر فقط.

وابتسمت له.وأنا أعلق :

ـ ولكن ماذا تقول في انسان تجمد، وأصبح كتلة خرساء، حجرة، أو قطعة من الجليد ؟

كرع كأسه دفعة واحدة وبعد أن فرغ من ذلك تجشّأ بصوت عال وقال :

ـ هذا الانسان هو أنت.

وهززت رأسي مؤيدا ثم قلت :

ـ المهم أنكم كلكم تملكـون المشاريع للأيام القادمة، العودة للبيت والأولاد، وكتابة الشعر، ولكن هل تساءلت يا سامي يوما حتى لو مع نفسك : ماذا يريد غياث داود ؟ وأين ستكون خاتمة مطافه العليل ؟

وصفق سامي بيديه وقال :

ـ وهذا ما يحيرني فيك، ويحزنني أمرّ الحزن.

وأضاف وكأنه عثر على جواب :

ـ عد يا أخي أنت، لماذا لا ؟ ثم انك مازلت فتيا قادرا على أن تبني حياة جديدة وأن تبدأ

ونطقت بجزم :

ـ لقد أوصدت كل الأبواب أمامي بعد غياب أميرة حسين، أفهمت هذا ؟

ـ 20 ـ

(الصديق مروان حيدر

تحية شوق واعتزاز

أيها الرسام المتوحد، هكذا عرفتك، وهكذا أسميك فاسمح لي بذلك، لأننا في الأخير وحيدون أمام أنفسنا، وأمام ذلك المتربص اليقظ الذي اسمه الموت.

شهور مرت، وأنا بعيد عن بيروت، ولكنها فيّ تهدر في شراييني مثل الدورة الدموية، فكيف الخلاص منها ؟

لم أكتب لك، لأنني لا أعرف ماذا أكتب بالضبط، كنت يومًا أرتكن إلى ظلك الوارف وأنصت إليك، وأراك وأنت تتألق ثم وأنت تخبو، نثرثر أحيانا، نملأ المدى الذي يفتح فمه لابتلاعنا بأي حديث، ونجبر أنفسنا على الضحك لأتفه نكتة، من أجل أن نوحي لأنفسنا بأننا كنا أحياء.

أحاول اليوم جادًا أن أجري في تيار هذه المدينة التي يدعونها بالخضراء، وهي خضراء فعلا، شواطىء طويلة نقية الرمل، ووجوه طيبة تكدح من أجل أن تعيش، ونساء رائعات إذا أحببن يعطين كل شيء.

أمد شروشي تدريجيا لعل شجرتي اليابسة تتفجر عن غصون مدلاة وأوراق زاهية وثمار شهية، أطمح في أن يتحقق هذا، لعل البوم الناعق في رأسي يضجر ويفر فأستريح، إنه البحث عن هدنة، هكذا أريد، منذ أن غادرت العراق بعد أن أعطيت الكثير والكثير وانخرم مني صمود هذا الجسد الذي لم يعد قادرا على القراع والتحدي، لعله الكبر، لماذا لا ؟ الأربعون، رغم أنك لا تؤمن بالزمن وتحاول أن تلوي عنقه ليخر تحت قدميك راكعا. وغير العمر هناك المرض، ثم التعب، أتعرف ما معنى أن يتوقف الراكض فجأة عن الجري ويجد أن العشرات قد أصبحوا أمامه، فيخبو حلمه في الفوز ويصبح لا هم له الا استرداد أنفاسه والبحث عن مخبأ يواري فيه هزيمته ؟

أن أعرف هذه المدينة يعني أنني سأحبها، فالمدن مثل النساء، ولقد وقعت في هوى بيروت منذ ان كنت أمر بها عابرا وأنا ذاهب من بغداد أو عائد إليها، أغير تذكرة سفري حتى يكون لي في بيروت مكوث قصير، ولكن وضع هذه المدينة يوم عشت فيها لم يكن يسمح لها بأن تعطيني كل ما عنـدهـا، لذلك أحالتني إلى مجرد متسكع حزين، أركن إلى المقاهي والمـطاعم وعيـون الأصدقاء علني أعثر على أمان افتقدته، وأبدد عسرا أطبق على صدري وكاد أن يخمد أنفاسي.

تهنئـة حارة على صدور كتـابك، قرأت عنه في المجلات والصحف القـادمـة من بيروت، ويبـدو أنـه قد وجد أصداء طيبة، وقد شعرت بالكسـوف لأنك لم تبعث لي بنسخة منه تحمل توقيعك، ولعلك فعلت ذلك، ولكن البريد أضاعها، أو شاء الموزع أن يحتفظ بها بعد أن أغراه غلافها وطباعتها الأنيقة.

ولكنني مع هذا حصلت على نسخة من مكتبات تونس، حملتها وكأنني قد عثرت على كنز رغم أنني قد قرأت جل ما هو منشور فيها، ولا أعتقد بأنك قد أضفت أي جديد. وذهبت إلى مقهى في واحدة من أحلى ضواحي تونس، وبدأت أعيد قراءته، وكأنك جالس معي في أمسية بيروتية، أقرأ وأرتشف الشاي الأخضر المعطر حتى كدت أن أتمه.

أيهـا الصـديق، أكرر تهنئتي، فقد كنت فارسا في كلماتك، شرعت أمامي أبواب بيروت كلها، وطفت معي في مرابض المحنة وأشرت لي وجـوه الرجال الصامتين من أمثالك وأمثال عمو حسان صبحي. أنتم الذين تجدون في اللون والكلمة متنفسا وسلاحا بهما تقارعون المتفجرات والحقد والدمار.

أعانقك بحرارة وآمل أن التقيك.

المخـلص

غياث داود)

(العزيز حسان صبحي

تحيتي وشوقي العارم

صديقي الذي أذكر، ورفيقي في لحظات الحصار والكسوف وتهاطل القذائف، ولحظات الحب أيضا، الحب النابض المشتعل، والحب الآخر المستل المسروق بنقود وغرف في عمارات مجهولة وأجساد لم نشعر بالشوق لها مرة.

حسان صبحي، صديقي في الغار والنصر - اضحك - في الشروق والكسوف، ها أنا أناديك من هنا والعجز يمسك بي فأحار أن أطلق حكما أو صرخة، أناديك حتى تأتي وتصغي إلي وتفرش لي بساطا من الود علني أتربع فوقه وأستريح.

حسان صبحي . . .

هنا عرفت امرأة، وعرفت أخرى، وقد أعرف ثالثة أو ألفا، ولكن لماذا أفعل هذا؟ لماذا هذا التلاطم المهووس ؟ لماذا هذا التنقل بين مياسم زهور الحقول المشتتة ؟ وأية خلية سأبني لأودع فيها الشهد والرحيق ؟

تعرف أيها القلب الوارف انني انسان انزرعت هكذا، القوا بنواتي فنبتت، اقتلعوها مرارا، غرسوها في واحات بعيدة، ثم نقلوها إلى شطآن، وحدائق منزلية، لعبوا بها حتى جفت. فصارت تبنا تطاير مع الريح. وها أنا أحاول أن أستنهض ذراعيّ لتتحركا وتبددا الكثبان والسدود وتعبدا الدرب أمام هذا الجسد الخائر المبتلى بالصدق والدهشة.

حسان. انني لا أشكو، ولكنني أريد أن أتكلم، أن أهذي بهذه التصورات غير المترابطة علني أستريح، فتمعن في كلماتي أرجوك، رغم انني بالنسبة لك كتاب مفتوح، ليس فيه جملة غامضة واحدة، هكذا أعتقد بجزم.

لم أخطط لشيء، ولذلك ضعت مثل ماء لم يهيأ له مجرى، فلم يسق زرعا أو يروظمأ، تبدد هباء وراح.

في السياسة ارتميت وأعطيت، وفي الحب كذلك دون أن أتساءل ولو

مرة واحدة مع نفسي : وماذا بعد ؟ كما يفعل الآخرون الذين يقننون مساراتهم ويحسبون حسابات للحاضر والأيام القادمة، ولذا أصبحت اليوم أقطر وصبا واستنجادا وحيرة، الوجوه تنحسر وتغيب، والرغبات كذلك، وهذه الأشواق التي كانت تمنح الجوانح أغطية من القرنفل والبخور قد فترت، ولذا تراني أهيم على وجهي، أزرع عيني في الأرض وكأنني أبحث عن شيء أضعته وأمشي دون أن أحدد لي وجهة، أجلس في مقاه بعيدة، أشرب البيرة والشاي المعطر وقد أثرثر مع بعض الفضوليين الذين تلفت نظرهم لهجتي التي توزعت ما بين كل اللهجات المحلية العربية فأصبحت خليطا مضحكا، أعطي اسما غير اسمي وبلدا غير بلدي، ومرات أفر إلى مدن تونس البعيدة، إلى القيروان وسوسة وطبرقة وقابس وبنزرت وغيرها، ولكنني أمل وأقفل عائدا وليس معي غير آلة التسجيل التي لا تتوقف عن الدوران مادامت السيارة ماشية مجترة عشرات الأغاني العراقية التي كم حاولت أن أجعلك تستسيغها وتبتلع نصال الحزن والأنين المتوارث فيها فلم أفلح.

حسان صبحي

لماذا لا تساعدني في ايجاد جواب ؟ إلى أين أعطي وجهي ؟ وماذا أريد ؟ وعن أي شيء أبحث ؟

ترى هل كنت أبحث عن حكيمة بنت الشيخ جابر ؟ أم أميرة حسين وولدي الذي لم أر وجهه ؟ هل أبحث عن سميرة حليم ؟ أم تلك الوجوه التي تقاطرت مثل قرى يمر بها قطار مسرع ؟ هل أبحث عن السماوة ؟ والناصرية ؟ وبغداد ؟ عن الطيور التي غادرت أوكارها وضلت، أغراها نداء الرحيل والمسافات والمجهول فاستجابت لشيطانه ؟

هل أبحث عن رأسي الذي قطعه الفاتحون وعزلوه عن جثتي، ثم حملوه وراحوا يبحثون عن ثمنه بين المطالبين بالثأر وبالقصاص مني ؟

حسان صبحي، أرجوك أن لا تصمت، انطق، لا تتشاغل بالصداع ولا بالهموم البيتية والعمل ورغيف الخبز.

وبعد . . هل ترغب أيها العزيز أن تزور هذا البلد ؟ تعال إذن ، فانه بلد طيب، وبـامكـانك أن تسير وقامتك على امتدادها، وأن تبتسم في الوجوه التي تصادفك، فليس بينها من يخبىء لك مكيدة أو مسدسا أو متفجرة. ارفع يدك بالتحية ولاتنزلها، ارم بكلمات الغزل والاعجاب التي تبرع فيها، ومن يدري فلعلك تجد معجبة بشعرك الأبيض وقامتك الممتلئة الماشية بتثاقل واشمئزاز.

حسان صبحي، اكتب لي عاجلا، وحدثني فأنا مشتاق

أخوك

(غياث داود)

ـ 21 ـ

دخل غياث مكتبه بعد أن توقف بضع لحظات أمام المصعد ليرد على تساؤلات زميل سوداني ظريف بادره بالقول عندما رآه :

ـ أنت بيننا ولست بيننا يا غياث يجب أن نعرف الزوايا التي تختبىء فيها حتى نخرجك منها.

وقد ابتسم في وجهه ورد :

ـ ليست هناك أية زوايا ولا خفايا.

ـ إذن انضم إلينا يوما لنشرب كأسا، أو نلعب الورق، أو نخرج في نزهة.

صافحه غياث وهو يقول :

ـ أعدك بأنني سأنفذ ذلك قريبا.

طلب فنجان قهوة كعادته كل صباح قبل أن يبدأ يومه، ثم أخذ يقلب الصحف الصباحية الموضوعة أمامه على المكتب، وحاول أن يجد شيئا عن الوطن البعيد، خفقة الجوانح، وترنيمة الشوق الدفين في القلب المبتلى والمصطلى بألف نار، كما حاول أن يجد شيئا عن لبنان الجرح والوئام، لبنان سحر نحاس والرسام المتوحد وحسان صبحي وسميرة حليم، والباعة المتجولين وماسحي الأحذية وصائدي السمك، لبنان الأرز والزيتون وفيروز والبحر.

وتوقف عند تعليق نشرته احدى الصحف في صفحاتها الداخلية حول الوضع اللبناني ومما جاء فيه : (من المفارقات العجيبة التي تدعو إلى الدهشة والاستغراب أن الحرب على الساحة اللبنانية كلما أوغلت في عمر الزمن كلما أضيفت إليها عقد جديدة، وعلا الصدأ عللا قديمة، وكثر المعنيون بها وبإيجاد الحلول لها، وتعدد الفرقاء، محليين وعربا ودوليين).

وتوقف عند هذا الرأي مقتنعا إلى حدكبير بما ورد فيهثم تخطى الصفحة

إلى صفحات أخرى، وتوقف عند الصفحة الثقافية حيث استقرت عيناه على اسم سعيدة بنت المنصف وهو يعلو موضوعا تحت عنوان (إليك) وخمن انها صاحبة هذا الموضوع، وبدأ بقراءة ما كتبته : (في يوم مضى قررت أن لا أحب، أن أسلم قلبي للرّهبنة لعل فيها الخلاص.

لكن الفرق بين ذاك اليوم وهذا أن الشمس كانت تغري شفتي على الابتسام وتملأ قلبي بالتحدي والسخرية حتى من الحب نفسه، ولكن ما بالي اليوم هكذا ؟

أحبك، لقد قلت هذه الكلمة، نطقت بها، وأعطيتهاحريتها بعد أن حبستهــا في صدري زمنـا. ولكنني مع هذا أضيف بأنني سأمضي ولن أحاول أن أراك، وأمعــن في قراءة ملامحك التي أدمنتها.

سأحملك عذابا مثل كل عذاباتي التي لا نهاية لها، رغم أن لكل شيء نهاية، الليل والنهار، الشتاء والصيف، وأعمارنا أيضا.

أعلنهـا عاليـة : أحبك، وليس هذا ضعفا ولكنه عذاب لذيذ، قد يبكيني اليوم لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئا، لكنه قد يكون مدعاة للفرح والابتسام في يوم لاحق عندما تأخذ الأمور مجرى آخر.

أنت أيها الأخرس الواجم بماذا ترد علي ؟).

وعرف أنها هي، ليست هناك امرأة غيرها مسكونة بهذه المودة البيضاء، وهذا التأرجح الحائر، بهذا التودد والرضا اللذين نادرا ما تكون عليهما امرأة بعد أن نسفت كل القناعات وحركت الأحجار الصلدة سكون المياه واخترقت كبرياءها ورسوخها.

سعيدة بنت المنصف، ليتني كنت شاعرا، أو ناثرا، أطيق أن أخط بعض السـطور عن الكلف واللوعـة وأرسلهـا لهذه الجـريـدة ردا على كلماتـك، ولكنني لا أطيق، فاغفري لي، انني اخرس وواجم تماما كما وصفتني، في رأسي أفكار أطيق أن أتكلم عنها أياما ولكنني لا أستطيع أن أصوغها في موضوع، قاتل الله المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول، والجار

والمجرور، وإن وأخواتها، وكان وأخواتها، وكل هذه السدود التي تجعلني أحاذر من كتابة سطر.

في الليلة الفائتة كانت معه، خرجا سوية، ابتدأت رحلتها بالتوجه نحو البحر، فالمدينة صغيرة وليس هناك من ملجأ إلاه، الظل والصديق. وتوقفت السيارة هناك، صمتا دهرا وهما يتأملان الشاطىء والنخلات وعمالا بعيدين يعيدون اصلاح سيارة حمل معطوبة، وبكت سعيدة بنت المنصف، وتركها تفعل ذلك، أما هو فقد بحث عن أغنية تلائم هذا المشهد الكئيب فلم يجد في المذياع غير أغنية محلية لم تتعامل معها اذناه بانشداد وطرب لذا ضغط على الشريط المودع في آلة التسجيل فانطلق ذلك الصوت العراقي المفجوع، صوت داخل حسن الشجي الذي كان يراه في شوارع الناصرية في زياراته لعائلته التي لم تغادر معه إلى بغداد عندما أخذته الاذاعة للعمل فيها، وتذكره وهو يخطو بقامته الطويلة وعباءته ومسبحته ذات الخرزات الكبيرة التي تتدلى من يده ولا تفارقها فيبدو وكأنه زعيم قبيلة غامضة. ولكن سعيدة بنت المنصف مدت يدها وأوقفت آلة التسجيل وهي تنبس من بين دموعها :

- أغانيكم قاتلة، يكفيني ما أنا عليه من حزن.

ثم فتحت باب السيارة وخرجت، خلعت حذاءها وحملته بيدها وراحت تخطو فوق الرمل، وبعد أن قطعت بضعة أمتار استدارت عائدة وهي تقول :

- إنني جائعة جدا.

وقال لها :

- وأنا لم أتغد هذا اليوم، لم أحتمل أن أذهب إلى المدينة المزدحمة لأبحث لي عن مطعم، فاكتفيت بتناول بعض الفواكه، ولكنها سريعة الهضم، لذا فرغت معدتي.

لبست حذاءها ثم ركبت السيارة، فأدار المحرك لتبتعد بهما عن

الشاطىء، اقتربت منه حتى التصقت به، قبلته على خده، ثم أمسكت بيده، وبقيت على وضعها هذا حتى أصبحت السيارة في شارع قرطاج. ثم ابتدأت حديثا عن ضرورة الوفاء والاخلاص لمن نحب، وأخذ يصغي إليها وكأنها تتكلم نيابة عن جدتها، ولم تنس أن تقول بأن الرجل سيتعهر حتما إن عرف أكثر من امرأة في نفس الوقت، تماما مثل المرأة التي تعرف أكثر من رجل في نفس الوقت أيضا. وضحك غياث بقهقهة عالية ثم صمت، ولم تستفزها ضحكته بل مضت في الحديث غير آبهة دون أن تفكر في خاتمة له أو تربطه بواقعة معينة تتعلق بها أو بأحد معارفها.

وود غياث أن يخبرها بحكاية زينب عزوز تلك المسعورة المهرجة التي ظلت تطارده بعد تلك الليلة الليلاء، تطلبه في التليفون، أو تكتب إليه الرسائل، ولكنه كان لا يرد، بل يتهرب منها بشتى الأعذار، ولكنها وجدت في نفسها الجرأة فيما بعد لأن تحسم هذه العلاقة المبهمة، واعتبرتها واحدة من نزواتها الكثيرة التي تقترفها بعد أن يحتلها الخدر والسكر فكتبت له قائلة : (أرفض أن أسأل بعد عن انسان جبان مثلك، لم يجد في نفسه الجرأة لمواجهتي بشجاعة ليخبرني عن السبب الذي جعله يتعامل معي هكذا، وأنا الذي أعطيته كل شيء ومنحته ما لم امنحه لأي انسان بهذه السهولة، اذهب فلست نادمة عليك أبدا). قرأ سطورها مرتين، ثم دعك الورقة ورماها وتنفس، بارتياح، وتمتم :

- إنها غبية فعلا، تفهم الأمور جبنا أو شجاعة، ولا تفهمها حيرة وبحثا ونشدانا لمجهول وتعويضا وفحولة و . . . وها هي سعيدة بنت المنصف مثلها، تدير نفس الاسطوانة، الأفكار نفسها، ولكن الصياغة هي التي اختلفت فقط.

قالت :

- والمهم أنني سأسافر يوم الاثنين القادم.

وتساءل :

ـ هذا قرارك الأخير ؟
وهزت رأسها مؤكدة :
ـ نعم، وقد ابتعت التذكرة أيضا.
وقال بخفوت وهو يرفع يده اليمنى عن المقود ويحركها أمام وجهه ببطء :
ـ رافقتك السلامة.
بعد ذلك زمر لسيارة اعترضت طريقه، ثم عاود سؤالها بنفس هدوئه وخفوت صوته :
ـ لماذا تتركين أمورك معلقة وتسافرين ؟
وصاحت كالملسوعة :
ـ أية أمور تعني؟
وقال ببرود وقد عادت يده إلى الارتفاع عن المقود والتحرك أمام وجهه :
ـ زوجـــك.
وهبت فزعة عندما سمعت هذا القول، وأخذت تنتف شعرها وتصرخ :
ـ الكلب، احتقره ولا أريد أن أسمع باسمه.
واحتفظ بنفس تماسكه وهو يقول :
ـ كل هذا لا ينفـع لأنه مازال زوجك أمام القانون، ولم تحصلي من المحكمة على قرار الطلاق منه، ولذلك فإن بإمكانه لو أراد أن يمسك بك من شعرك ويقودك إلى بيته ذليلة صاغرة، أفهمت ؟
وأطلقت صوتها بالنحيب، وهي تضرب بقبضة يدها على صدرها :
ـ لا أريد أن أفهم شيئا، سأقتله ان حاول الاقتراب مني أو ايذائي.
وردد غياث بسخرية :
ـ حسنا. اقتليه ان كنت عازمة على ذلك، وأعدك بأنني سأزورك في

السجن واحمل لك الفواكه والحلوى.

وصرخت ملتاعة :

ـ يا لبرودة أعصابك

ابتسم وهو يعيد يده الطليقة إلى المقود ويتابع :

ـ لن أزورك إذن.

وكانت السيارة قد اقتربت من المطعم فاستدار عائدا وهو يقول بلهجة مؤنبة :

ـ كفي عن هذا التهريج السخيف، فالبكاء لن يحل لك مشكلا، وامسحي عينيك حتى يتسنى لنا أن ندخل المطعم.

مدت يدها إلى علبة « الكلينكس »واستلت منديلا منها وبدأت بمسح دموعها، قرب وجهه منها وقبلها على جبينها ثم على عينيها وقال :

ـ أعرف انك مجنونة، ولكنني مع هذا لا أستطيع التخلي عنك.

* * *

يقلب المعاملات التي أمامه، ويبحث عن أوليات بعضها في الدرج، ثم يكتب المعلومات المطلوبة فوق ورقة مستقلة يرفقها بها ويضعها في ملف بعد ذلك وينادي على الساعي ليحملها إلى الجهة المختصة.

حط الليل. جاء الخصم فلن نتبادل العناق على مرأى منه، حط الليل وفرت الطيور الآمنة، وانفجرت في النهر آلاف المفرقعات، وطاف السمك القتيل على سطح الماء فتلاقفته أيدي الصيادين ومناقير طيور الغاق.

حط الليل. وأنت تتمدد على الأرض فوق السجادة الملونة التي اشتريتها من مدينة القيروان، وعيناك تراقبان جهاز التليفزيون وهو يعرض أغنية لمغن تحبه سعيدة بنت المنصف، وقد أخبرتك كيف سقط ميتا أثناء تأديته لإحدى أغانيه فوق المسرح فأصاب الهلع الجمهور والعازفين.

تتلفن لسامي المنذر فلا تجده. لعله مع خديجة بنت الهادي الآن، في بيتها، أو في أحد المقاهي، يزرع عينيه الصغيرتين في حمرة وجهها الدقيق

ويصب من أجلهـا أبيات الشعـر، وتحسده لأنه استطاع أن يعطي هذا الفيض من الحب، لأن لديه ما يعطيه، أما أنت فمجدب لن تنبت في صحـرائـك شوكة، وستمضي سعيدة بنت المنصف دون أن تأخذ منك شيئا، لقد أصبحت العلائق بالنسبة لك وليدة لحظتها، ولكنها سرعان ما تتبدد وتخبو بمجرد أن يختفي الوجه الذي ظننت انك أحببته من أمامك، كل وجوه الأحباء ماتت، ولم يبق حي إلا وجه أميرة حسين الميتة، أية لعبة غامضة هذه تسحق رأسك المثقل ؟

ترتدي ثيابك على عجل وتخرج، كانت الشوارع فارغة تقريبا لذلك تترك السيارة لتنطلق بأقصى سرعتها، لن توقف سرعتك اشارات المرور ولا الحفر التي تملأ الشوارع، تصعد نحو فندق هيلتون، ثم تستدير عائدا فتدخل في غابات البليفدير وتتجه نحو شارع الحرية وتنعطف بعد ذلك متجها في شارع محمد الخامس، وفي طرفه تنعطف شمالا وتواصل المضي حتى تتوقف أمام فندق البحيرة، تخرج من السيارة ثم تغلق بابها، وتخطو متهاديا لتجلس على أول كرسي صادفك في المقهى الذي يتصدر مبنى الفندق.

يأتيك النـادل فتـطلب ثلاث زجاجات بيرة دفعة واحدة، ويستغرب النادل ذلك لأول وهلة، ويظل يتملاك ظنا منه انك غير جاد فيما طلبته، ولكنه يذعن لما تريد وينصرف وهو يهز يده ويتمتم مع نفسه ببعض الكلمات.

أنت هنا، والأهل هناك، تفرقوا ما بين السماوة وبغداد كبروا وتزوجوا وأنجبوا، ولكن سؤالهم عنك يكبر، هكذا يخبرك أخوك الذي يكبرك بعامين فقط وهو لا يكف عن الكتابة إليك بانتظام ليعطيك الأخبار كلها فتهدأ وينتابك فرح طفيف لأنك مازلت تشعر بالانتماء لأولئك الناس الطيبين الذي يرقبون بنود حياتك وتحركاتك في هذه الدنيا، ولكنهم لم يستطيعوا العثور على جواب. وقد يؤرقهم وضعك هذا، ولذا واجهك عمك ذات يوم بالقول :

ـ ماذا تريد يا ولـدي ؟ ابحث لك عن زوجة وعش مثل الآخرين، نحن لسنـا دائمين لك، وعليك أن تخلف وراءك من يبكيك، ويواري جثمانك التراب.

تبتلع القول، يقطع في داخلك عروقا آمنة، ويرسم أمامك عوالم من القطران والسبخ والنار.

تبتسم في وجهه وتقول له مطمئنا :

ـ رأيك صحيح، وأعدك بأنني سآخذ به.

ومات العم، كما مات داود من قبله، وماتت حكيمة بنت الشيخ جابر وفي قلبها أمنية صغيرة طالما رددتها على مسمعك وهي أن تظل حية حتى ترى أولادك.

حكيمة بنت الشيخ جابر، لقد فسدت، خولط في رأسي، واختنقت زهوري قبل أن تتفتح أكمامها فسامحيني.

يأتي النـادل بزجاجات البيرة الثلاث فتنقده ثمنها، وتبدأ بكرعها مسرعا وأنت تمسح فمك براحة يدك، وكان النادل قد ابتعد عنك عدة خطوات ولكنه ظل يرقبك، يدفعه الفضول لمعرفة ماذا ستصنع بالزجاجات الثلاث دفعة واحدة ؟

شرب غياث الزجاجات، عبها في جوفه، ونهض وقد بدأ الترنح يقتنص خطواته، لحقت به احدى العاهرات، ولكنه صرفها بعد أن أصرت على أن يعطيها شيئا تتعشى به، ناولها خمسة دنانير وارتمى في سيارته.

كامل السعدون إلى متى تظل هاربا ؟ تؤرقك التساؤلات التي لم تجد لها جوابا، أيها الخارجي الذي لم يستوعبك دن ولا قارورة ولا أفكار، لا أدري اية مدينة تضمك الآن ؟ حتى رسالتك التي حملتها لي سعيدة بنت المنصف لا تشير إلى مكانك بالضبط، ومن أهم ما قلته فيها : (ان الحياة تمضي، وأسئلة أخـرى تستجـد، فيثقـل الرأس، وينهك الجسد، ولكن الاصرار والأمـل في شيء لم تتحـدد ملامحـه بالضبط هما اللذان يبقيان معششين في العروق ولا يبارحانها، ولعل ذلك ان حدث يوما فانه يعني

الفناء والغياب) .

ـ مرة حكم العراق واحد ، أتدري كيف كان يدعو وزراءه للاجتماع ؟

ـ كيـــف ؟

ـ يهش بيده عليهم وهو يردد : يا الله وزراء عندنا اجتماع ، يا الله ، هيا عجّلوا . فيمتثلون لما يريد وأمرهم لله ، فهو الوحيد الذي يصر على ارتداء بزته العسكرية ونياشينه وأوسمته العديدة التي لا يدري أحد في أية معركة نالها ؟ لقد جاءهم يوما على متن دبابة وهو على استعداد لأن يركبها ثانية ليوجه قذائفها نحو من يقف في وجهه أو يعصى أوامره .

ـ هل نضحك ؟ أم نبكي ؟

ـ ما ألذه ذلك السكر البرجوازي النبيل حيث تمتلىء معدتك بزجاجة كاملة من الشمبانيا الفرنسية الفاخرة بدل عرق الماستكي والمازة البدائية التي تتكون من « اللبلبي » (*) و« الجاجيك » (**) .

ـ آخ منك يا ابن المياه الآسنة التي يلبط فيها الدود وحلاوة التمر واللبن الرائب في أحسن الأحوال.

ـ كان لدينا معلم اسمه حسن جوزة ، وليست جوزة هذه اسم والده أو عشيرته ولا حتى أمه ، بل انها لقب ألصقناه به نحن طلبته الصغار. كان قصيرا وممتلئا للحد الذي كان يتعذر عليه التنفس أو فتح عينيه على سعتهما، وكان يرتدي السترة الكالحة نفسها في الشتاء والصيف ، ولا يمر يوم يأتينا فيه إلى الصف الا وهو يملأ أحد جيوب سترته بالتمر القسب والآخر بالجوز غير المقشر، ولن يتخلى عن هذه العادة يوما ، ولا أدري ما مقدار ذخيرته منهما.

ـ وماذا يفعل ؟

(*) اللبلبي : الحمص المسلوق.

(*) (*) الجاجيك : الخيار (الفقوس) أو الخس المقطع والممزوج باللبن وهو مازة للشراب مثل اللبلبي .

ـ انتظر سأكمل لك حكايته. كان يطلب من أحدنا أن يقرأ الدرس فيرد وراءه الآخرون بصوت واحد. وينصرف هو إلى استخراج التمر ودسه في فمه، أما الجوز فكان يستخرج واحدة بين فترة وأخرى ويضغط عليها بأصابعه القصيرة اللحيمة فتنكسر بسرعة وبطقطقة مسموعة وينكثها في راحة يده ليخرج منها اللب الذي سرعان ما يرميه في فمه ليلحقه بالتمر الذي كانت أسنانه قد تناهبته، ويظل هكذا حتى يفرغ جيبيه، أما النوى والقشور فكان يضعها فوق أقرب رحلة له، وبعد أن ينتهي من تناول وجبته هذه التي لا أدري هل هي فطور؟ أم غداء سابق لأوانه ؟ أم انها بين بين وتلهية لبطنه الكبير؟ يطلب من أحدنا أن يحمل فضلاته إلى صندوق القمامة.

وتجد الأفواه نفسها مستسلمة لضحك لن تكف عنه بسهولة. كامل السعدون، قل لي هل تحن إلى تلك الأيام الخوالي ؟ يوم كنا نخرج معا إلى شارع أبي نواس لنندس في احدى حاناته المكتظة، نشرب العرق الماستكي، فالزحلاوي لم يكن معروفا يومذاك، أو بيرة « ديانا » و« فريدة » المثلجة، ونصغي إلى لغط الآخرين فتلتقط اذناك منه الكلمات المضيئة التي تخترق أسوار الثمالة والتعب، حيث يعطي كل زبون لنفسه الحق في أن يفعل ما يشاء مادام قادرا على دفع ثمن مشروبه، كأن يبكي أو يلقي بالنكات أو يغني، وكنت تردد وكأنك تكتشف أمرا غامضا :

ـ هؤلاء المتعبون هم ملح الأرض، تأملهم جيدا، أفراحهم ليست مستحيلة التحقيق وآمالهم ليست صعبة المنال، لذا كانوا ومازالوا يرفدونني بالمعاني والتباشير.

وغالبا ما تعقد معهم علاقات وتدخل في أحاديث لا طاقة لأحد غيرك بالانغماس فيها، وتتركني وحدي أعب الكؤوس وأتأمل الوجوه المحتشكة، والأزياء الخليطة.

وعندما يقترب الليل من منتصفه نخرج من الحانة لنبحث لنا عن عشاء

يسد الجوع الشاسع الذي لم تردمه المازات الثقيلة، ونتوقف غالبا عند بائع « الفشافيش » (*) وقد تبادر إلى مساعدته في تحريك المروحة اليدوية أمام النار حتى تتقد جيدا وتسرع في الشيّ، وأنا أرقبك وأبتسم لتأتيني بالأسياخ ومعها الخبز والبصل والطماطم موضوعة في صينية كبيرة وأنت تصرخ :

ـ المناضل يعشق كل شيء في الحياة، بما في ذلك الطعام اللذيذ، ففي السجون لا يوفرون لنا هذا.

أما ان كنا نملك المزيد من النقود فنذهب إلى باعة السمك المسكوف (*) لنختار واحدة من سمك دجلة الحبيب، نختارها وهي مازالت حيّة تلبط في الحوض، ونراقب عملية شيّها باهتمام واللعاب يسيل من فمينا وكأنه يستحثنا على الانتهاء من اعدادها بسرعة، حيث لا نترك منها شيئا حتى الجلد نلتهمه، وكذلك العظام، وخصوصا عظام الرأس التي تحب مصمصتها، انني أذكر كل هذا وأحن إليه، فهل أنت مثلي ؟

ـ ليس لي الاه، نعم، دخلت به مدنا ومخادع وغابات، وأكرمته كما يجب أن يكون الكرم لأعوضه عما فات، ولعله يغفر لي انني قد بريته في ذلك الحين من الدهر بالاستمناء المحموم.

ـ غياث داود، لماذا لا تكف عن هذا الهراء ؟

(*) الفشافيش : اللحم والكبد والقلوب المشوية بأسياخ.

(*) المسكوف : المشوي وفق الطريقة العراقية الشائعة.

ـ 22 ـ

في رسالته التي حملتها سعيدة بنت المنصف يقول كامل السعدون : (لم أهرب من شيء رغم انني لم أجد الداعي لبقائي، وأتصور ان خصومي قد كثروا، ولم أعد أميز بينهم، حتى أنا أصبحت خصماً لنفسي، أتتصور هذا ؟ وقد تعددت الأسباب لذلك، ومن هنا كان قراري في أن أغادر ليس بحثا عن حل، لأن ليست هناك مشكلة معينة، ولكن من أجل أن أرى دنيا أخرى، غير دنيانا العربية التي تسكعت على امتدادها، إما لاجئا أو سائحا مفلسا يحاول أن ينفذ إلى الضمير، ويتأكد من انه كان على حق فيما أعطى وفيما هو على استعداد لأن يعطيه لاحقا.

أمضيت كل سنوات عملي السياسي معارضا، وكثرت أعوام سجني عندما كثرت وجوه الحاكمين الذين مروا على هذا البلد، ولم تكن تلك لعبتي، بل كان هذا ديدني، يستفزني أي خطأ صغير ويقلب قناعاتي، ويتأجج سخطي عندما أكون في الوضع الذي كنت أظنه الأمثل، وانني قد عملت من أجل تحقيقه، لذا لا تتوقع مني أن أجعل من المعارضة متاجرة أؤديها دون أن أعي عواقبها، لا أريد أن أكون اداة بيد أحد، يحركني لتحقيق مآربه، ثم يرميني جانبا عندما يستنفدني ويحس بأنني لم أعد أصلح لشيء، وهذا أمر وقع فيه الكثيرون ممن عرفتهم في حياتي التي أفاخر بقولي عنها انها حافلة وممتلئة. لا أريد أن أعد خائنا يا غياث، فأنا عاشق مجنون لهذا الوطن، أفهمت ؟ ليس في عرف من أعارضه فقد يراني هكذا، وربما يكون من حقه أن يصدر علي هذا الحكم لأن قناعاتي تتقاطع مع قناعاته، ولكنني أريد أن أظل وطنيا حتى الشهادة في عرف الكادحين والفقراء وأهل الله الذين أنتمي إليهم وجدانيا وطبقيا).

ويعود ويضيف في مكان آخر من هذه الرسالة التي لا أحد يدري كيف تسنى له أن يكتبها والقطار ينهب حقول سويسرا الخضراء وأمامه امرأة

جميلة مثل سعيدة بنت المنصف : (لي طروحاتي التي كم تقاطعت حتى مع الأحزاب التي انتميت إليها طائعا ومخلصا لا باحثا عن شيء، وهل كان من المحتم أن يحصل لي هذا ؟ ان لم يكن مع هذا الحزب فمع ذاك ؟ لقد أعطيت الكثير ولكنني أزعق كالملديغ عندما أرى عطائي مبددا، والمرات العديدة التي عرفت فيها السجن والاعتقال ربما تكون قد توزعت على عدد الأحزاب التي مرت بهذا البلد الذي نحب، وقد أمسك بي ذات يوم ضابط شرطة على شيء من الذكاء ـ تصور ـ من ياقتي وهو يصرخ بي كالمستنجد :

ـ ألا تقول لي من أنت ؟ وماذا تريد ؟ حتى تريحنا وتريح نفسك ؟

وقد ضحكت في وجهه وقلت له :

ـ انني عربي من العراق، أنشد أن ينعم الكل بالأمن، ولا يستلهم رجالكم من بيوتهم ويرمونهم في المعتقلات أعواما دون جرم ثابت، أو يقومون بتصفيتهم جسديا، أو . . .

وقد لطمني على وجهي ذلك الكلب الأجرب، فقد عرف انني قد أصبت منه مقتلا، وأظهرته على حقيقته مجرد منفذ صغير لتعاليم أسياده الأغبياء.

أعتقد يا غياث بأن الخلل فيّ وليس في الأحزاب، فهل من المعقول أن يكون الجميع على خطأ الا أنا ؟ ثم من أنا في النتيجة ؟ ان عذابي لم ينته ولن ينتهي أيضا. وربما أكون مخلوقا منسكبا بشكل لم يعد تطويعه واعادة صبه على هيئة أخرى مسألة هينة، لاسيما وانني قد تعديت الأربعين اليوم.

لقد كان بعض الأذكياء الذين يحاورونني بمحبة يرونني مثاليا، سأعيش وأموت دون أن تدخل صدري نسمة من الهواء الذي أحلم به، ويؤكدون لي أن الأحزاب مهما كانت براجمها وممارساتها لن تكون في منأى تام عن أمراضنا التي توارثناها قرونا، وسنجد فيها روح القبائل

وعصبياتهـا وهذا أمر ليس عراقيا ولا عربيا فقط بل انسانيا، ويحدث حتى في الأحزاب الأوربية وفي الدول المتقدمة الأخرى، ويضربون لي مثالا بكيم ايل سونغ طاووس كوريا الشمالية الذي يهيء ابنه لوراثة عرشه الاشتراكي.

لقـد خرجت في الوقت المناسب وأنت تعـرف ذلك، وبجواز سفر عراقي، أعتـز به وأجدده في أية سفارة من سفاراتنا. لقد تكدست في داخلي جراح وأسئلة، تجمعت فوق بعضها ولم أعد أطيق، ولكن ما أريد قوله لا تراجعا بل قناعة: انني لا أغلق الطريق على أحد إذا كان قادرا على فعل شيء، وعلـي أن أفسح له المجال - هل تضحك لأنني أتحدث بلهجة المتكلم ؟ - فلست من أولئك الذين يصرخون أما أنا والا فلا، وإذا مت ظمآن فلا نزل القطر، وليتحرك من يجد في نفسه القدرة على ذلك).

ويقـول أيضا: (لا أقول ان اللعبة ليست عادلة، وأنا الذي كنت طرفا دوما، ولم تعكر صفائي إلا تلك الاختلاطات التي أعقبت الثورة الحلم عام 1958، يومـذاك بدأ الاهتزاز، وكثر اللاعبون، وأصبحت أمج الطريقة، ولكن التيار كان أكبر منا، كان هناك دفع من أجل احداث الشرخ والتمزق اللذين لا يلتئمان بهذه السهولة، ومن المؤسف انهما قد كبرا، وهذه حقيقة لامفر منها.

لم أخرج بشيء، لأنني لا أريد شيئا لي، بقدر ما كنت أريد شيئا بل أشياء للوطن كله، للفقراء والفاتحين أفواههم جوعا وهتافا، ورأيت أناسا يصعدون، وآخرين ينزلون، وأحيانا الوجوه نفسها تتكرر ولكن بأقنعة أخرى ومنطق جديد حسب ما تقتضيه الظروف، وكم رأيت من مخلوقات هلاميـة تتـألق. وعنـدمـا بحثت عن الأسباب أخذني القرف، كرهت المزاحمة والتطاحن واللهاث والمثل الباهظة، هل تضحك إذا تذكرت ان عراقنا العظيم، عراق حمورابي ونبوخذ نصر، وكل الأفذاذ قد حكمه يوما عسكري باهت، لا طعم له ولا لون ولا رائحة وقد استلم الحكم بالوراثة

من أخيه ؟

وهكذا كادت أن تتناهبنا العساكر وتدمرنا الانقلابات.

غياث داود، هل اللعبة أكبر منا ؟).

قال الرسام المتوحد مخاطبا غياث داود :

ـ كلما أمعنت فيك النظر تصورتك فنانا، كأن تكون نحاتا بارعا بأناملك الفارعة هذه، أو عازف بيانو أو كمان، كما أخالك رساما في بعض الأحيان، وبودي أن اوجه إليك الدعوة لتحل في مرسمي وأضع أمامك معدات الرسم وأقول لك : هيا إبدأ.

ويضحك غياث مما تفوه به مروان حيدر، ثم يرفع يده وكأنه يحمي وجهه من قوة تداهمه وهو يعلن :

ـ ولكنك تعرف انني بعيد عن كل هذا، لقد أخذت حياتي منحى مغايرا، ربما يكون خاطئا منذ البداية.

ويعود ليسأله :

ـ ألم تحاول ان تجرب ممارسة فن من الفنون مرة ؟

وهز رأسه وكأنه تذكر شيئا كاد أن يطمس ويندثر :

ـ بلى، حاولت الرسم مرارا، وقد انضممت إلى مرسم المدرسة يوما، ولكنني لم استمر حيث كان نداء السياسة أعلى في وقت كان فيه العراق والوطن العربي يموران بالأحداث الكبار، كما تعلمت العزف على الناي ولكن أصابعي التي تراها فارعة قد تخشبت الآن ولم تعد تمتلك تلك الطلاقة والخفة، وحاولت الكتابة كذلك حيث سطرت بعض الخواطر، ولكن هذا أمر يحصل للجميع، تصور يا مروان بأنني حتى النساء اللواتي أحببتهن لم أفكر بالكتابة إليهن، ماعدا واحدة فقط، كتبت لها رسالة، عاشت سطورها في رأسي في أيام الاعتقال أو اطلاق السراح، في النوم والصحو، ولم أكن أريد أن أقول لها فيها الا كلمة أحبك، هذا كل شيء، ولكن هذا استغرق أكثر من عشرين صفحة، وعلى الرغم من انها قد أخذتها مني وقرأتها حتما إلا أنها أحرقتها أو مزقتها فيما بعد، قبل أن تتزوج،

وقبل أن تنتهي بتلك الطريقة المأساوية، أما النساء الأخريات فكنت أفضل أن أكلّمهن، أقول كل ما عندي مواجهة، وكانت هذه الطريقة أنجح وأجدى وأتت بنتائج.

ويصفق الرسام المتوحد بيديه وهو يقول مشخصا :

ـ لم تفتك الفرصة بعد.

ـ ولكن المهم أنا حيث فقدت الرغبة في تعلم أي شيء جديد.

وينطق الرسام المتوحد وكأنه يدافع عن رأيه :

ـ ومع هذا فأنت تعيش حياتك كفنان وهذا يكفيك اليوم، أيامك تختلط، البوهيمية بالتشرد بالنفي الاختياري بالقليل من الجنون، بالسكر، بالبحث عن المرأة بأمور أخرى كثيرة يصعب علي تعدادها الآن.

ـ تستطيع أن تقول عني بأنني عشت وأعيش بتلقائية، ولا أدري لماذا اكتشفت أن أقرب الناس إلى قلبي، أو جل أصدقائي هم من الفنانين ؟ حتى زوجتي الأولى كانت تحاول الرسم، وقد تعرفت عليها في معرض مدرسي ألا يعني هذا تعويضا عن شيء أردت أن أكونه ففاتني الوقت عن تحقيقه ؟

وهز الرسام المتوحد رأسه موافقا وقال كالموضح :

ـ يبقى الفن كالوهم الذي نحاول به أن نقارع شبح الموت في أعماقنا، فان استطعنا ان نجد البديل في فعل آخر تكون النتيجة واحدة، تبقى أمور أخرى هي موضوع نقاش دوما كالدور الذي من الممكن أن يلعبه الفنان نضاليا مثلا، وهو دور محدد في رأيي مادمنا نعيش في مجتمع متأخر، أو حضاريا وهو الجانب الأهم فكثير من بلدان العالم النائية التي لا نعرف حتى أماكنها في الخارطة ولا نعرف شيئا عن طبيعة الحكم فيها ولا أسماء من يحكمونها نعرفها ونردد اسمها من خلال رسام أو روائي أنجبته، وأنا أسألك هنا وأنت السياسي والموظف في احدى منظمات الأمم المتحدة كم جنرالا حكم كولومبيا ؟ أو ما هو اسم حاكمها الحالي ؟ لن تعرف هذا، ولا أنا ولا حتى المختصين بشؤون أمريكا اللاتينية، ولكن جل

المثقفين والقراء في العالم يعرفون ان هذا البلد قد أنجب رجلا طيبا اسمه غابـريال غارسيا ماركيز، يعمل في الصحافة، ويكتب الرواية فكان أن جعل اسمه واسم بلده منتشرا في كل أنحاء العالم، هنا ضربة الفن وعظمته التي يتقازم أمامها المهرجون ونائحو المآتم وصغار السياسيين.

وقال غياث مؤكدا :

ـ مرة زاملني في المعتقل كاتب قصة شاب، له ثقة عالية بنفسه، وقد برز جدا في السنوات الأخيرة، وأذكر أنه كان يردد قولا جاء فيه إننا نعرف بتهـوفن ولا نعـرف من كانـوا وزراء في زمانهلسبب واحد هو أن الوزير يأتي بقرار سياسي، ويخرج بقرار سياسي، وسرعان ما ينساه الناس، وكم رأيت من وزراء سابقين يسيرون محنيي القامات ولا يلتفت إليهم أحد، أما الفنان الكبير والحقيقي فهو وليد الأمة في أوج تألقها الحضاري.

وهتف الرسام المتوحد :

ـ اذن نحن متفقان ؟

وتساءل غياث ببساطة :

ـ ومن قال لك انني اختلف معـك في هذا الأمـر ؟ ولكن ماذا يفعل العاجز الذي لا قدرة له على شيء ؟

ولو لم تدخل المقهى سميرة حليم ببسمتها المشرقة لكان مروان حيدر قد أوغل بعيدا في هذا الحديث الجاد الذي جعله مليئا ومعتدا بما أعطى وبما سيعطي.

قالت كالمعتذرة :

ـ ربما قطعت عليكما حديثا خاصا ؟

وبادرها الرسام المتوحد بالقول :

ـ أبـدا، ثم ان وجود ريحانة عطرة مثلك يجعل جلستنا الموحشة هذه خضراء وطرية.

وقهقهت من قلبها كعادتها عندما تطلق صوتها بالضحك، ومن ينصت إليهايحس وكأنها خلية لا يسكنها هم أو وجع.

وبعد أن نهض غياث وسحب لها كرسيا فارغا من مائدة أخرى لتجلس عليه، سألها :

ـ هـه، ما أخبـارك ؟

قالت وهي تشير بأصبعها إلى صدغها :

ـ الصداع بسبب التدريس اللعين، سأفكر في البحث عن عمل آخر، أي عمل، فليس من المعقول ان لا نستطيع نهر طالب أخطأ وهو يدخل إلى الصف ومسدسه يتدلى من حزامه، أية فوضى هذه ؟

وضحـك الرسام المتوحد تلك الضحكة المترددة التي لا تنعكس على وجهه انبساطا وانفراجا بل تبقيه على انقباضه، ثم تساءل :

ـ وهل هناك عمل آخر لم تدخله المسدسات أو الرشاشات ؟

وفركت يديها ببعضهما ورددت بعسر :

ـ أين نعطي وجوهنا اذن ؟

وواصل الرسام المتوحد محاورتها حيث قال :

ـ لن نعطيها إلى أية جهة، وسنبقيها هنا مصلوبة أمام بعضها، تقرأ صحائف الانكسار وتأمل بوعد لفرح قادم، ربما يكون ذلك بعد عام، أو قرن، المهم ان لا نتعب ونزهق بل نظل مرابطين في مواقعنا.

كانت قلقة، غير مستقرة في جلستها، وعندما قدم لها الرسام المتوحد سيكارة تناولتها منه وراحت تدخن بينما كان غياث يفرش لها وجهه المحمل بابتسامة صعبة.

قربت وجهها منه وهمست له :

ـ أين أنت ؟

ورد عليها :

ـ أماكن التحرك في هذه المدينة محدودة، ولن أضيع فيها، ومن يبحث عني سيجدني بعد دقائق، وكان من الواجب أن أسألك أنا أين أنت ؟

وأجابت بصوت يشوبه الجفاف :

ـ صدقني بأنني لا أدري، فأنا موجودة وغير موجودة في نفس الوقت،

ومن حسن حظي ان لدي سيارة أهـــرب بها إلى الجبـل أو البحـر كلما حوصرت. وكم جئت إلى شقتك وضغطت على جرس بابها ولا من مجيب.
ـ وتليفون البيت مازال ميتاً لا نفس فيه.
وعلقـــت :
ـ وتليفون بيتنا كذلك منذ ان سقطت قذيفة على العمود الواقع في رأس شارعنا والعطب ملازم له، يعمل يوما ويتوقف شهرا، وليس هناك جهة نشكو إليها ليتم تصليحه.
وأضافت وهي تمج دخان سيكارتها؛
ـ والآن جئت إلى المقهى علني التقيك. وقد مررت بشقتك قبل مجيئي ومن حسن حظي أنني وجدتك.
وفتح يديه بحركة تمثيلية وعلى وجهه ابتسامة ودودة :
ـ أهلا وسهلا، فأنا شوقي اكبر لرؤيتك.
ثم التفت وتأمل الرسام المتوحد وهو يحني رأسه إلى الأمام وينظر في داخل فنجان قهوته الفارغ فسأله :
ـ ماذا تصنع ؟
ورد دون أن يرفع رأسه :
ـ أحاول أن أعرف ما هو مخبأ لي في السنوات المتبقية من هذا العمر.
وقالت سميرة حليم :
ـ عليك ان تقلب الفنجان أولا.
ورد :
ـ أريد أن أقرأ الأشياء كما هي وليست مقلوبة.
وهب الثلاثة ضاحكين وهم يحيطون بمائدتهم الواقعة في الطرف الخلفي من شرفة المقهى.
ابتسم الرسام المتوحد وبلع ريقه وألقى نظرة متأملة على صاحبيه وسألهما غير مازح :
ـ لماذا لا تتزوجان ؟

وأوقف سؤاله المفاجىء هذا بسبستهما الخافتة، ورفع كل منهما عينيه ليقرأ السبب الذي جعله يطلق هذا السؤال، فوجدا الجد مازال ممسكا بملامح وجهه المزموم الذي بدأ يتسرب إليه شيء من اليباس والشحوب.

قالت سميرة حليم مجيبة بدعابة :

ـ هل لك دين علينا ؟

ثم حملت صوتها بمرح أكبر وهي تضيف سؤالا آخر :

ـ وهل فينا من قتل أحد أجدادك ؟

وعاد الرسام المتوحد ليقول :

ـ وهل وجدتما سؤالي غريبا ؟

ورد غياث داود :

ـ أبـــدا.

ولم تدعه سميرة حليم يكمل بل أضافت :

ـ امرأة مثلي لا تعرف النظام ولا الاستقرار لن تكون زوجة صالحة وابنة حـــلال.

ثم التفتت إلى غياث وسألته وهي تلكزه بكوعها :

ـ أليس هكذا ؟

ورد غياث مبتسما :

ـ نحن هكذا في أفضل وضع.

وكأنه في هذا التعليق قد ختم كل الأجوبة عن السؤال الذي طرحه الرسام المتوحد جادا. ثم التفت إلى النادل الذي كان يجمع الفناجين والأقداح الفارغة من المائدة المجاورة لهم وطلب منه أن يحضر ثلاثة فناجين من القهوة.

وانصرف النادل لاحضارها بينما ظلوا هم صامتين، يلقي كل منهم نظرة على وجه الآخر دون أن يفكر في اطلاق كلمة مضافة. وبعد أن وضع النادل أمامهم فناجين القهوة ارتشفوها بسرعة.

مسحت سميرة حليم شفتيها بطرف سبابتها فانزاح الطلاء الوردي

الذي يغطيهما ويجعلهما تتلألئان في وجهها الأبيض ذي الملامح الدقيقة.
ثم همست في اذن غياث سائلة :
- ما رأيك في أن نخرج ؟ بيروت هادئة اليوم، ولم أسمع صوت اطلاقة واحدة ؟

فوافق على اقتراحها وكأنها انقذته من أسر الساعات التي انفقها في هذا المقهى الذي حفظ كل موجوداته وأسماء ندله والوجوه التي ترتاده من طلبة وصحفيين ورجال أعمال.

التفت إلى الرسام المتوحد وقال له :
- اسمح لنا يا مروان.
وتساءل مروان :
- أيـــن ؟
قال وهو ينهض :
- لا أدري، انها مشيئة سميرة.
ثم صافحاه مودعين وخرجا.

وبعد ان ابتعدا قليلا عن المقهى وأصبحا قريبين من شارع الحمراء قالت سميرة حليم :
- بودي أن أتسكع في حدائق الجامعة الأمريكية وألعب التنس تماما كما كنت في أيام التلمذة !

ثم نظرت إلى ساعتها وأضافت مستدركة :
- ولكن الوقت متأخر الآن وأبواب الجامعة مغلقة حتما !
وأخذا يخطوان ببطء، وبعد مسافة قصيرة أعلنت :
- لقد تحررت من السيارة اليوم، أردت أن أشغلها فلم أستطع، ربما فيها عطب ما، فأنا لا أتفقد أشياءها الضرورية، كل الذي أعرفه ان أملأ خزانها بالبنزين وأمضي، تركتها وأنا أردد في داخلي : لعل هذا من صالحي لأمشي على قدمي فمنذ شهور لم أفعل ذلك.

وقال ضاحكا :

ـ لقد تساوينا الآن، ولذا لن نبتعد كثيرا.

وأضاف :

ـ وسنتعشى في مطعم الباشا الليلة، انه أقرب مطعم.

فاحتجت بتدله :

ـ ولكنه لا يقدم الضفادع ؟

ونطق باصرار :

ـ لن أجعلك تذوقين ضفدعة واحدة بعد، فكل معاجين الأسنان والمطهرات لن تنظف فمك منها، وان أكلتها لن أطبع أية قبلة على شفتيك الجميلتين رغم تحرقي لذلك.

وردت عليه مشاكسة :

ـ لماذا لا تجرب أن تأكلها مرة واحدة ؟

ـ ولا ربع مرة، لأنها تقترن عندي بالرخص والوضاعة بنقيقها الذي يصدع الرأس وألوانها الكالحة وهي تتقافز في المستنقعات الآسنة القريبة من قريتي كفئران مذعورة، كما انها تنبت الثآليل في يد من يمسك بها.

وتسقسق حنجرتها بضحكة ناعمة مغرّدة وهي تقول :

ـ أنت تتحدث عن ضفادعكم، أما ضفادعنا فشيء آخر، ومع هذا سأمتثل الليلة فقط لما تريد وآكل الطعام الذي تختاره لي أنت.

ومدت يدها لتعيد تصفيف شعرها الأسود المشع رغم قصره والمرح يتسع في حنجرتها العذبة الرنين :

ـ ماذا نفعل ؟ لقد فرت كل العصافير من سماء لبنان، وما نستورده من تركيا منها غال جدا ولا يتوفر دائما، ولذا لجأنا إلى الضفادع.

وعلق غياث :

ـ وهي مستوردة أيضا. كنا نصدرها لكم من العراق يوما أعرف صديقا كان يتاجر بها.

فأطلقت العنان لحنجرتها لتسقسق بضحكات أخرى.

وراحا يخطوان في الأزقة التي تمتد ما بين مقهى الأكسبريس ومطعم

الباشا، وهـي منشرحة طائرة على عادتها غير آبهة بشيء، وكانت نظراتها تنتقل بين السيارات المرصوفة وتعلق عليها :

ـ هذه البيجـو الكسيحـة فيهـا عشرة كيلوغـرامات من تي. ان.تي سنكـون أشـلاء بمجرد أن تنفجر، ولن يعثروا على شيء منا، أما هذه المرسيدس المزهوة ففيها مائة كيلوغرام، ضع يدك عليها وستنفجر، ربما لا تنفجـر الآن. ولكن بعد ثانيتين أو ثلاث مثلا، أما تلك الفيات تأملها جيدا فانني أخمن أن فيها خمسين كيلوغراما، مد رأسك وانظر في داخلها فصاحبها مطمئن على عدم سرقتها بحيث ترك زجاجها الجانبي هابطا دون أن يرفعـه، أو انها بلا زجـاج أصـلا، ربما تكون هناك عبوة عظيمة في صنـدوقها الخلفي، وان لم تكن في احدى هذه السيارات ففي صندوق القمامة ذاك، سأذهب إليه وأرفسه لأتأكد من ذلك.

وتحركت من مكانها باتجاه الصندوق فأمسك بهامن يدها وسحبها إليه بقوة وهو يصرخ فيها :

ـ عـمّ تريدين أن تبرهني؟ على شجاعتك ؟

ـ لا، ولكن على لامبالاتي.

ـ وتتصورينني سأخاف من كل هذا الهراء الذي تقذفينه بوجهي ؟

ـ لا أريد أن أخيفك، ولكن أزواج القحاب قد يكونون فعلا قد أودعوا عبوة ناسفة في هذا الزقاق، والمهم أن نخرج منه بسلام، لم تعد أمامنا الا بضعة أمتار فقط، هيا أسرع.

وخطا نحو احدى السيارات وجلس على مقدمتها وهو يردد بعناد :

ـ سأبقى هنا، حتى تنفجر، ولن أغادر.

فاقـتربت منـه وقبلتـه على خده، ثم طوقت عنقه بذراعيها العاريين فاستنشق الـطيب العذب الذي خضبت به وجهها وعنقها، وقبلته على شفتيه هذه المرة وأمسكت به من يده وقادته فامتثل لها.

طوقت خصره بذراعها بينما أراح هو يده على كتفها اللدن وعادا إلى المشي متمهلين.

قالت باعتذار :

ـ اسمع يا غياث، ان عدم خوفي لا يعني التهور، ولكنها شجاعة من نوع خاص باتت سمة بارزة لدى جل سكان هذا البلد يواجهون بها احتمالات الموت المتوقعة في كل لحظة.

ابتلعت ريقها وعادت لتوضح :

ـ أعتقد بأن الموت هو غياب تام ونوم أبدي هانىء وسعيد هذا كل شيء، وربما أكون قد عرفت مثيله يوما عندما أجريت لي عملية استئصال الزائدة الدودية، زرقة واحدة رمتني في هذا الغياب والانسلاخ من العالم، ولم أتذكر الا صوت الطبيب وهو يطلب مني أن أقول : يا الله ! بعد ذلك تسرب المخدر في جسدي خلال ثوان ورحت، فتحوا بطني، قطعوا الزائدة الملتهبة وخيطوها من جديد، ولم أصح الا بعد ساعات باطلاق سلسلة من الهذيان غير المترابط، ولذا فانني غير خائفة، مطلقا من أن أعيش ساعات الغياب هذه من جديد ولتكن أبدية فلا فرق، لأنها راحة لي بشكل من الأشكال، هل تصدق ذلك ؟

وقال لها معلنا وجهة نظره هو الآخر :

ـ اسمعي يا عزيزتي، ان لامبالاتك هذه ليست صميمية، وهي رد فعل آني على الأحداث، وإذا فكرت جيدا فيما تفوهت به لوجدت ان انشدادنا إلى هذه الحياة أمر لا يمكن التفريط به، هكذا أرى. ولذا ارتميت مبكرا في النضال السياسي الملتهب من أجل أن أقارع الموت وأفقأ عيون أعداء الحياة، أفهمت ؟

ولم ينتظر أن يقنعها أو يزحزحها عن آرائها التي أعلنتها فهذا أمر لن يتم بسهولة ولكنه ضمها إليه بقوة أكثر وطبع على خدها قبلة وهو يردد هامسا :

ـ أنت ودودة وصافية إلى حد لا يصدق.

فتعطيه وجهها وتقبله على شفتيه. تلتصق الشفاه ببعضها برهة، ثم تنسحب بعد أن تفرغ ما اختزنته من وله وانجذاب.

وتقـول لـه :

ـ انني سعيدة بعلاقتنا، سعيدة بها كما هي دون أن أفكر إلى مدى ستصله وتتوقف عنده، لأن مداها الداخلي في أعماقنا وليس في توالي الشهور أو السنوات، وربما تعمل الظروف أحيانا على انجاح بعض العلائق وايصالها إلى ذرى رائعة، فلو عرفتك قبل عام مثلا لما اهتممت بك ولصافحتك ومضيت، ولكنك جئت في الوقت المناسب، على عكس حسان صبحي عندما عرض علي عواطفه فلم يكن ذلك في الوقت المناسب حيث كنت أعيش في علاقة أخرى، أعطيتها كل ما عندي، لقد جئتني أنت وأنا في حالة تستطيع أن تصفها بأنها حالة فراغ، أو انعدام وزن، هكذا أحب استعمال هذا المصطلح بعد أن أصبح ذلك الذي كنت أحبه من أول الفارين من لبنان، وجد في الحرب مبررا لتحقيق مآربه في الجاه والثروة، فسافر إلى افريقيا، ولكنه لم يكتب لي سطرا، ولم أسأل عن أخباره، بتعبير أدق لم يحاول أحدنا البحث عن الآخر رغم ان ما بيننا لم يكن أمرا عاديا، بل كان حبا مهما، وصادقا من جانبي على الأقل، هكذا كنت أعتقد، أو أوهمت نفسي به، حتى جئت أنت، ولكنك حالة غير مستقرة، رغم انني لم أخف من منحك كل شيء بامكاني أن أمنحه، بدون ندم ولا شعور بالذنب، أبدا، ستمضي يوما، وهذا أمر وضعته في حسابي، وسأعود إلى مرحلة انعدام الوزن، وقد يخف وزني فأطير. تأخذني الغيوم والمسافات فأتبدد أو ترميني على شاطىء مسحور.

يأخذها بين ذراعيه، يحسها دافئة وطيبة، فيهمس في أذنها :

ـ من حقك أن تضحكي، وتسخري من كل شيء حتى من الموت نفسه، أما أنا فليس عندي ما أفعله غير أن أمزق ثيابي وأخرج عاريا.

كامل السعدون، أين المفر ؟ انني مشتاق لك، باحث عنك، وان عرفت مكانك سآخذ أول طائرة وآتيك، ولكنك لم تترك لي عنوانا، أخذتك أوربا، أذابتك، ولكن بماذا تواجه صقيعها ؟

كامل السعودن، لست في بغداد، ولا في مدينتك الصغيرة التي تقع على مشارف بغداد حيث يتميز وجهك بين الوجوه السمراء التي أحرقها

الكـدح والحر، ولن تميزك مؤخرتك الحمراء بعد، والتي اكتشفتها أمام المرآة يوما فكانت مفاجأة لك، ان أوربا كلها عبارة عن مؤخرة حمراء أو بيضاء لا شعرة فيها، فكيف تتميز ؟ أليس كذلك ؟

لقد أشعلت فـيّ فتيل الكثير من القذائف وتركتها لتنفجر وتأتي علي، أكون ضحيتها الأولى، فلماذا ترضى لي هذا المصير ؟

لقد أوقعتني في دائك، تسرب إلي تدريجيا حتى سكنني، وخربني، ولم أعد ذلك البريء الذي يتقبل ما يسمعه كحقائق أخيرة، أوقدت فـيّ نزعة المراجعة، واعادة الحساب، والتأشير على الخطأ بدون خوف أو وجل، ولكن لم يعـد لي من شاف الاك، أريـد أن ألتقيـك حتى أنـاقشـك، أحاججك، أشتمك، أمسك بك من ياقتك، وأوطر وجهك صفعا، فقد عثت بي، ونشـرت حبـوب بيدري التي جمعتها سنبلة سنبلة في السبخ والرماد فلن تنبت وتعطي بعد.

كامـل السعـدون، هل نطقت بالحق ؟ ان لم تكن كذلـك ؟ فلماذا عملت خنـاجـرك بأحشـائي ؟ والآن أطلب منك أن تدلني على الدواء فصليل الجراح لم أعد قادرا على مقاومته، انني اتخبط في دمي، والحمى تسكن جمجمتي وشراييني. هيا دلني على الدواء علني أشفى وأستيقظ من خدري وموتي.

لقد أغرقتني، ورميتني في فياف ودروب من الرمل الأصفر الذي يوصد العيـون ويسلبهـا نورهـا وبـريقها، فكيف أستطيع أن أمسك بالمسار وأواصل طريقي.

كامل السعدون، اللعنة عليك، أقولها من قلبي.

أتتذكر يوم قلت لك :

ـ اننـا صديقـان، رغم اننـا غير متشابهين اطلاقا، أنت عرفت كل الأحـزاب، وأنـا لم أعرف الا حزبا واحدا، عشت كل وقائعه منذ أن انتميت إليه، وقدمت له كل ما باستطاعتي أن أقدمه.

وأضفت لك :

ـ ولكن ماذا يحصل إذا خارت قواك فجأة ؟ وأحسست انك غير قادر على الجري ؟ وأن الجموع قد بدأت تتقدمك ؟ وانك إذا ما أخذك العناد وبقيت فستكون في الأخير؟ هكذا أنا، وقد انتبه إلى وضعي صديق لي، سياسي محنك، يكبرني تجربة وعمرا، وسألني سؤالا بسيطا، قال لي : هل تعبت ؟ قلت له : ربما، وعلق : وماضيك ؟ قلت له : انه أنا، وأجاب : ولكنه يصبح في مثل هذه الحالة مجرد ذكرى، والمناضل الحقيقي لا يكتفي بماضيه فقط، وقلت : ولكنه لم يكن ماضيا يسيرا بل عسيرا وقاتلا، ولولا هذا الماضي وماضي آخرين سبقوني أو عايشوني لما كان هناك أي حصاد. هز رأسه وعاد ليسألني :. أريد أن أساعدك. ونطقت على الفور : اذن ابحث لي عن موقع آخر، مكان آخر، فيه أسترد أنفاسي، وألم خيوط حياتي التي تبعثرت، فأنا وحيد الآن، لا أملك شيئا، ولم أر من الدنيا شيئا. وهنا نطق بالكلمة الفصل : هناك من أخذ أكثر منك ومع هذا فان الأمر بالنتيجة ليس مقايضة أبدا، والحل لكل وضعك عندي، سأعمل على الحاقك بالعمل في الخارج، وهناك أماكن عدة، وما عليك الا أن تمهلني بعض الوقت.

وبعد أشهر، حملت حقيبتي متوجها نحو القاهرة، ولعلي بهذه البداية ـ النهاية قد اقتربت منك.

كامل السعدون يوما ما التقينا، جمعنا مقهى « البلدية » أيام عزه، وأيام مجد قاسم صاحبه ذي الكرش والسدارة التركية السوداء التي لا تفارق رأسه، وصغرت بغداد المترامية حتى بت أراك مرارا، في الأسواق والبارات والتظاهرات والمعتقلات أيضا.

يوما ما سبقتك إلى الاعتقال، وجاؤوا بك بعد يومين وأنت تحمل فراشك المطوي تحت ابطك، ووجهك الأحمر ينضح غضبا وازدراء، ولكنهم لم يمهلوك اذ سرعان ما نادوا عليك وأخذوك إلى التحقيق حيث غبت هناك ثلاثة أيام، عادوا بك بعدها وهم يحملونك من يديك

ورجليك، ثلاثة رجال عبوسين، أحدهم مازلت أتذكر اثر طعنة في جبينه، هكذا خمنت، وسألوا عن مكانك فدللتهم عليه، ورموك فوقه وأنت فاقد الوعي وعيناك البنيتان نصف مغمضتين وغائبتين في عالم آخر، وقابل المعتقلون الموقف بوجوم بادىء الأمر، ولكن لم يلبث أن صرخ صوت محتج :

- الويل لكم ان مات.

وانطلق صوت آخر :

- ستدفعون الثمن غاليا.

ولكن الرجال انصرفوا صامتين، أحدهم بصق في يده قبل أن ينصرف وفركها بالأخرى ثم طأطأ رأسه ولحق بصاحبيه.

جلست جوارك، أمسكت بيدك ففزعت اذ وجدتها مقلوعة الأظافر والدم يتخثر فوقها، تركتها وقلبت الأخرى فوجدتهم قد فعلوا فيها الشيء نفسه، وتحولت إلى قدميك، كانتا مقلوعتي الأظافر أيضا. وقمت بفتح زيقك فوجدت جراحا أخرى على الصدر، يا للسماء، لقد قتلوك يا كامل السعدون، تجمع المعتقلون ولكنني رجوتهم أن ينصرفوا حتى يتركوا لك المجال لكي تتنفس بما بقي فيك من رمق.

بقينا ننظر في وجوه بعضنا دون أن نعرف ماذا نصنع ؟ ووجدت حلا مؤقتا في أن أقطر لك الماء في فمك، واستبشرت عندما تحركت شفتاك لتمتصا الماء.

ثم أخذت أمسد الأجزاء السليمة من ذراعيك، وساقيك، والتي لم تطالها الجراح، وبعد ساعات صحوت، فتحت عينيك لتدورا في القن الخانق الذي كدسونا فيه، وخبا الاحمرار المشتعل في وجهك وحل محله شحوب منطفىء، وعندما طالعك وجهي المبتسم حاولت أن ترد على بسمتي، جاهدت من أجل أن تفعل ذلك، ولكنك لم تفلح تماما، وساعدتك حتى تتحرك وتسند ظهرك إلى الجدار.

ونطقت بصوت متهدج لاهث :

ـ أرادوا قتلي أبناء الزنا.

ثم ابتلعت ريقك بصعوبة وأضفت بنفس التهدج اللاهث :

ـ ولكنهم خسئوا.

بعد ذلك عدت لاغماض عينيك ورحت في النوم من جديد، ولم تصح الا بعد وقت طويل، فوجدتك أفضل حالا، عندها سألتك :

ـ ماذا جرى ؟

ولم تحب أن تروي التفاصيل، ولكن أدليت لي ببعض الوقائع خلال الأيام اللاحقة قبل أن يطلقوا سراحي مع بعض الرفاق ويبقوك أنت مع آخرين.

وعرفت أنهم قد علقوك من ساق واحدة في مروحة سقفية، وخمنت ان ذلك ربما يكون قد دام يومين أو أكثر، جلدوك مرارا، ثم حشروا في أستك انبوبا مطاطيا، تقيأت وصرخت وشتمت أول الأمر ثم كف جسدك عن المقاومة، وأصبح مجرد جثة مدلاة ينبض فيها قلب متهاوت بوهن وخفوت.

حملوك بعد ذلك إلى حوض ماء ساخن ورموك فيه، ثم نقلوك إلى حوض ماء بارد، فرغوا فيك كل ما ادخروه من حقد ومقت.

وظللت تردد على مسمعي بشيء من الأسى الذي لم أعرفه منك :

ـ كل هذا لأن هذا الرأس يفكر جيدا، ويعرف كيف يفرز الأشياء، ويظنون انهم بعملهم هذا سيفرغونه مما به ويحشونه بالتبن ويجعلون مني كبشا في القطيع الكبير الذي يقودونه. ان كل ما يظنون انهم قد شيدوه سنقوضه يوما، لأننا الأقوى، اننا حزب ولنا فكر ومنهاج، وهم عصابة ومرتزقة لن تحميهم دباباتهم ولا مخبروهم السريون ولا كل القوى الخارجية التي جاءت بهم.

بعد ذلك تصفق بيديك ويقفز المرح إلى صوتك المهدود وأنت تقول ويدك تربت على مؤخرتك :

ـ ولكن هذه الحمراء المرصوصة لم تسلم منهم ، دسوا فيها أنابيبهم ، انها مجرحة لا أستطيع الجلوس عليها جيدا ، آخ ، لقد نكحوها يا غياث فوا أسفاه.

فأجد نفسي فاغرا فمي بضحكة كبرى .

ـ 23 ـ

سعيدة بنت المنصف، نحن نماطل، يشد كل منا بطرف الحبل، مرة لك وأخرى عليك، أليس هكذا يقولون ؟ لعبة استملحناها ورضخنا لها، وجدنا فيها متعة ما وسط هذا اليباب.

تأتين إلي أو آتي إليك، لا فرق، لا أريد أن احرز عليك نصرا، وأسجل أكبر عدد من نقاط الفوز، ولا أظن انك تريدين ذلك أيضا، يوما ما سنكف، نكتشف ان ما نصنعه عمل بائخ ولا طعم له أو معنى فنولي الأدبار.

سألتنـــي :

ـ هل قرأت ما كتبته في الجريدة ؟

وأجبتهـــا :

ـ نعـم قرأتـه.

وتمتمت بفرح واضح :

ـ أردت أن أفاجئك.

ـ ظننته لواحدة أخرى تحمل نفس الاسم.

ـ اطمئن فليس في هذا البلد الا سعيدة بنت المنصف واحدة.

ثم وضعت يدها على كتفي وعادت تسألني :

ـ وما رأيك بما كتبت ؟

ونطقت مستعذبا لهجتي الحادة التي أقابل بها فرحها :

ـ هــراء.

فتساءلت بتوسل :

ـ بربــك ؟

وأكـدت لهـا :

ـ هات القرآن لأقسم لك.

وترفع يدها من فوق كتفي وهي تهمهم بصوت خافت :

ـ هكذا تشهّر بأعز ما أملك ؟

فعدت لأوضح لها :

ـ لم أشهّـر. ولكنـك سألتني عن رأيي فقلتـه بصراحة، حسنا، ان كلماتك عظيمة، وعليهم أن يسرعوا في منحك جائزة نوبل للآداب ليس لهذا العام فقط، بل لكل الأعوام القادمة.

وابتعـدت عني قليلا، ارتكنت في مقعدها وراحت تتأملني بنظرات ملؤها الأسى وأنا أقود السيارة مسرعا بعد أن غادرنا بيتي قبل دقائق، ثم تمتمت بخيبة :

ـ لقد جرحتني يا غياث.

ربت بيدي على ظهرها وقلت مواسيا ومحاولا تخفيف اثر كلماتي عليها :

ـ أريـد أن أهـاجمـك أيضا، ولا أبقى في موقف المدافع دوما الذي تحصرينني فيه بأقوالك واتهاماتك.

فاقتربت مني وبعد ان قبلتني طرحت رأسها على كتفي وهي تتمتم من بين أسنانها :

ـ أيها اللعين.

وصفنت بعض الوقت، ثم تكلمت بصوت هادىء وكأنني لا أخاطبها هي بالذات :

ـ سعيدة، ان وضعك هذا يحيرني، وأحس انني مسؤول عنك بشكل من الأشكال، لا يهمني تصورك أنت للأمر ولكن هذا ما أحسه أنا وأعلن عنه. انني أرى بأنك عائمة لن تجدي ما تتشبثين به حتى تحتمي من لعنة الأمواج، هناك إشكال ما في حياتك، ولكنك أنت نفسك لا تعرفين ما هو ؟ ولا تعالجين الأمور بمواجهتها بل بالتهرب منها، ولذلك ستغطسين في المزيد من المطبات، وقد تجدين نفسك يوما عاجزة عن المقاومة وآنذاك سيكون انهيارك مريعا.

وأخذت تنصت إلـي بإمعان دون أن تحاول مقاطعتي، أحست ان في داخلي شيئا أريد أن أفصح عنه ولعل فيه ما يعينها فعلا على الوصول إلى جواب.

وواصلت تفريغ ما في صدري من كلمات :

ـ لن تستطيعي أن ترتقي فتقا ولا أن تصلحي خللا لأنك لا تعرفين بالضبط أين مكان هذا الفتق ؟ وأين الخلل ؟ وفي رأيي أن لا تفكري في السفر إلى أي مكان وأن تبقي هنا، تمسّكي أكثر بهذه الأرض، مدي فيها جذورك عميقـا حتى تتشبث وتعـرش في كل ذرة تراب منهـا. آنـذاك ستحسين بألذ طعم، ألا وهو طعم الانتماء الذي لا يعرفه ولا يستعذبه الا المناضلون والشهداء وهم يخترقون الصعاب.

وخزرتها بطرف عيني محاولا أن أعرف وقع كلماتي على وجهها فوجدتها وهي تكاد تحبس أنفاسها لتلتقط كل كلمة أتفوه بها مما شجعني على الاستمرار :

ـ انضوي تحت لواء حزب أو حركة سياسية، حكومية أو معارضة، لا يهم، بل المهم أن تذوبي في الجموع لعل البعض من هذه النرجسية والحيرة البغيضة التي تستحوذ عليك تتلاشى وتذوب.

وبعد أن فرغت من اطلاق هذه الكلمات أحسست بأن علـيّ ان أكف عن مهاجمتها، وانني ربما أكون قد قلت أهم ما عندي.

وقـالت وعينـاهـا مرميتـان إلى الأمام دون أن تستقرا على شيء من موجودات الشارع الذي تجتازه السيارة مسرعة :

ـ أقوالك هذه ترميني في حفرة لا خلاص لي منها.

فقلت لها مؤكدا :

ـ من المؤسف أن أقول لك بأنك مرمية في حفرة فعلا، لعلك أنت ساهمت في تعميقها وليست أقوالي هي التي فعلت ذلك بك.

ثم امتلك صوتها اصرارا مفاجئا وهي تقول :

ـ لماذا لا تصدقون انني قادرة على فعل شيء مهم ؟ وأن لي طاقة على ذلك ؟ أنت وأمي وذاك الذي كان زوجي جميعكم ضدي، غير مؤمنين بي، انكم تتآمرون علي، ولكنني أعرف كيف سأفلت لأبرهن لكم على خطأ تصوراتكم.

ثم كورت قبضتها وأخذت تضرب بيدها على فخذها وهي ترفع صوتها المصر :

ـ المهم انني سأسافر يوم الاثنين كما قررت، أي بعد ثلاثة أيام فقط.

ورفعت يدها إلى أعلى مبرزة ثلاثة من أصابعها لتؤكد ما تفوهت به.

وأجبتها بشيء من اللامبالاة :

ـ لا تتصوري انني سأضع العصي في عجلتك أو أحاول أن أكسر من همتك، ولكنني أعتقد أن من حقك علي أن تسمعي ما أفكر به عنك بصوت عال حتى يتضح أمامك كل شيء.

وهزت رأسها وكأنها قد وافقت على تعليقي وردت :

ـ أعرف، أعرف.

مسحت بيدها على جبينها، ثم رمت خصلات شعرها المنسكبة عليه إلى الوراء، ونطقت بصعوبة وانسحاق :

ـ ليس لي ما يشدني إلى هذه المدينة اليوم غيرك، حتى علاقاتي العائلية ليست قوية للدرجة التي تجبرني على البقاء.

والتفت إليها آنذاك لأراها وقد أراحت جبينها على يدها، وعاد شعرها السبط الطويل إلى الانسدال ليحجب جانب وجهها عني.

رفعت نظراتي عنها وأنا أتساءل :

ـ وماذا تسمين هذا ؟

واهتز شعرها مع حركتها لرأسها بموجة متباطئة وانبست قائلة :

ـ لعله الشيء الذي كنت أقاومه وأخشاه.

وتساءلت بشيء من البلاهة :

ـ ومـا هـو ؟
ونطقـت بحـزم :
ـ الحب، أليس هكذا يسمونه ؟
ثم صفنت برهة وعادت إلى القول :
ـ صدقنـي بأنني لم أعد أعرف شيئا، لم أعد أمسك برأس الخيط، أفهمت ؟
ونطقت بصوت حاولت أن أجعله واضح النبرات :
ـ ولكن يجب أن تعرفي.
وهزت كتفيها بلا مبالاة وانبست :
ـ لم يعد هذا مهما الآن.
ـ وما المهم اذن ؟
ـ أن أبتعـد.

بعد ذلك انفجرت منتحبة وكأن كل الكلمات قد خانتها ولم تعد قادرة على إسعافها للتفوه بشيء، وتركتها لدموعها دون أن أحاول تهدئتها. إنها عطشى لذلك فلترتو.

وحاولت أن أخفف من سرعة السيارة لأستنشق المزيد من الهواء البارد الذي أحسه كدفقة من السحر الأخاذ الذي يدفعني إلى الانتشاء رغم كآبة المشهد الذي وضعت نفسي كأحد ممثليه.

لم تكن حزينة هكذا عندما كنا في البيت. وجدتها قد سبقتني إليه، وقد هيأت لي عدة أطباق من الطعام الأوربي، وقد فوجئت بوجودها فعلا، وبعد أن تناولنا طعامنا ذهبنا إلى الفراش، وتمددت بجانبي، قبلتني كثيرا، في عنقي وصدري وعلى جبيني وشفتي، وأوقدت فـيّ رغبتي المتجددة في امتلاك جسدها الناعم الذي أحسه ينبض تحتي بألف حياة وأنا أوغل فيها، مانحا إياها كل ما عندي من رغاب وفحولة.

ولكنها الآن في وضع آخر، لعل حالتها الدقيقة هي التي تجعلها في هذا

الوضع الذي أجد نفسي فيه عاجزا عن أن أمد لها يدي بأية معونة .

إن كانت تريد عواطف فقد أعطيتها ؟ وإن كانت تريد مالاً فإنني على استعداد لأن أسحب كل ما أملكه في البنك وأقدمه لها ، ولكنها لا تفصح عن غاية أو مبتغى ، فتقتلني معها ، وتورثني المرارة والحزن الذي لا يذبل .

قالت وهي تكفكف دموعها :

ـ حتى متعتي الصغيرة في لقائك ، أو متعتي الكبيرة والرائعة ، لماذا أقول صغيرة ؟ لا أستطيع أن أحققها في أي وقت أشاء ، وقد لا أراك لعدة أيام ، وحجتك أن لديك ارتباطات ، حفل استقبال في هذه السفارة ، وندوة في تلك المناسبة ، وأعذار أخرى كثيرة ، أحس وكأنك تختلقها من أجل أن تهرب مني . ثم ألم تفكر بأنك لم تخرج معي إلا مرات معدودات في وضح النهار ؟ وأمام أنظار الجميع ؟ لأتحدى بك وتتحدى بي ؟ وكل لقاءاتنا تتم في الليل وكأنني مومس اصطدتها من الطريق وتخجل من أن يراك أحد معارفك في معيتها .

ورفعت يدي زاعقا لأغلق هذا الحديث :

ـ كفي عن هذه الأقوال ، إنني عندما أريد شيئا لا أخاف من أحد ولا أحسب حسابا لأية قوة تواجهني ، أفهمت ؟ ولكن وضعك الخاص يدفعني أيضا إلى التكتم على هذه العلاقة ، فلا تنسي أنك مازلت متزوجة . ماذا تقولين لبيت عمك عندما أطلبك في التليفون ؟ هل تقولين لهم إنه صديقي أو حبيبي ، أو أية صفة أخرى ؟ لذلك أحاذر حتى من مكالمتك ، ومع هذا فإنني أعتز بعلاقتنا ، فقد منحتني دما جديدا بعد أن كنت أعاني من فقر الدم والشحوب العاطفي والنفسي ، أفهمت ؟

وقبل أن أكمل قولي ارتمت علي وطوقتني بذراعيها مما جعل مقود السيارة يختل بين يدي . فاضطررت إلى إيقافها ، واستجبت لعناقها الحميم ، ثم أنزلت زجاجة السيارة وقالت :

ـ أود أن أصرخ بأعلى صوتي ، اسمعوا أيها الناس ، ايه الأغبياء

والأذكياء والمتوسطون، إنني سعيدة بنت المنصف، مواطنة من هذا البلد، أحب كائنا خرافيا، مرة يكون جلفا وصلفا وأخرى عاشقا وحنونا، اسمه غياث داود، ومن لا يعجبه الأمر عليه أن يضرب رأسه في أقرب جدار أو جذع شجرة.

ثم التفتت إلـي بعد ذلك وسألتني لاهثة :

ـ هل اقتنعت ؟

حكيمة بنت الشيخ جابر، هيا انهضي، لملمي بقاياك، وانبعثي مثل غيمة من حنـان، وأمطري.

ما الـذي بقـي من ذلـك الجـدث البـعيد في صحـراء النجف الشاسعة ؟ وهل تتحرك عظامك المواراة فيه شوقا أو حزنا لابنك المتعب المدمى ؟ ابنك النائح الذبيح ؟ أو هل تخضّها فرحة ناعمة فتطرد عنها التراب والدود لأن ابنك المشوق، قرة عينك كما كنت تسمينه قد عرف لحظات ناعمة هي النسغ والمعبر في رحلته التي لم يحدد لها وجهة ؟

حكيمة بنت الشيخ جابر، لماذا لا ترقصين تلك الرقصة اليتيمة التي كنت تعـرفينهـا ؟ حيث تتمنـطقـين بعباءتك الصوفية السوداء وتشبكين يديك، وتدعين الأصابع النحيلة تطوق بعضها، وتنفرد سبابتك باطلاق تلك الايقاعات النابضة، ثم تدورين حول نفسك بحركة مغزلية سريعة، وتـتراوح قدمـاك في رفس الأرض التي يتـطاير غبارها بينما يصهل فمك بالزعاريد اللاهثة، أو الغناء الخليط من الهوسات والأهازيج.

حكيمة بنت الشيخ جابر، أصبح عليك أن تبكيني، ابكي فـيّ أياما ضاعت هباء، وبقايا عمر تنبىء بالكدر والصعاب، لماذ جئت بي ؟ هل جاءك داود في لحظة سعد ؟ وهل ردد اسم الله قبل أن يعتليك حتى يكون غرسه ثمارا طيبة ؟ وإن يكن قد فعل ذلك فلماذا خرجت هكذا مثل نبتة شيطانية شوكاء ؟

إنني أتعهـر، أصبح عاهرا فجا، هكذا ترى سعيدة بنت المنصف، لأنني نثرت قلبي أشلاء، رميته فكثرت عليه الطعنات، فكان ان خرج

منهكا منخورا، وضعته على راحة يدي، وقدمته للكثيرات، نزفت، اعتصرت ماء عروقي وأهرقته هباء، فهنيئا لسعيدة بنت المنصف بحكمتها الكبيرة، فلم يعد غياث داود إلا داعرا، إلا عاهرا محموما، يتورم صدغاه، وعيناه تختمران بالشبق والرغاب الفائحة، فحولة مريرة تقترب من الداء والاقتتال، فلم تسلم منه حتى عاهرات المدن الغريبة، في لندن وباريس وجنيف وصوفيا وبراغ، وفي الرباط والقاهرة وبيروت، و . . .

ولكن يا سعيدة يا بنت المنصف، أخبريني، هل تتعهر الفراشات وهي تتنقل من زهرة إلى أخرى ؟ يقودها الطرب والانتشاء والفرح ؟ وهل تتعهر النحلة وهي تمتص الرحيق من أفواه الزهور الملونة لتحيله إلى شهد عذب ؟

سعيدة بنت المنصف، ادفني حكمك البائدة وافتحي عينيك، لملمي هراءك الدبق، وتقبلي ذنوبي ومعصياتي، فهي أنا، واقتلعي كل الفوضى والخراب من هذا الرأس الذي لن يستقر عليه تاج، وهذه اليد التي لن تقبض على صولجان، اشتمي الأجلاف وأبناء العاهرات اشتمي ماسحي الأكتاف ونافخي الأبواق ووعاظ السلاطين، قاتلي اللصوص والمخبرين السريين وملوك الطوائف والمحلين لدماء الفقراء، أما أنا فما عليك إلا أن تصافحيني، تأخذين كفي وتحتضنينها بكلتا يديك كما كنت تفعلين دوما، ثم ضعيها فوق صدرك ليتوازن وجيب قلبك.

سعيدة بنت المنصف هل كتب علينا أن نقاتل حتى الأخير؟ وإن قتلونا فمن يحمل جثتينا إلى مثواهما الأخير؟ أنت إلى مدينة الفئران والوجوه المنقبضة، وأنا إلى جوار داود وحكيمة بنت الشيخ جابر في بحر الرمل المتلاطم هناك

أرحت ركابي في مقهى الانترناسيونال، طلبت فنجان قهوة، ورحت أقلب صحيفة عربية تصدر في لندن، وخمنت أن ثمة أشياء ستجد، وهناك انتظار وترقب وتكهنات، كل هذا على امتداد هذه الأرض الملعونة التي يطلق عليها محترفو السياسة اسم الشرق الأوسط، وتوقفت عند مقالة

تطرح عدة تنبؤات ويختتمهـا الكاتب بالقول إن علينا الانتظار لتتضح الأمور أكثر، كلام عام، ولكن المؤشرات كثيرة، لبنان انغلاق وظلام، اسرائيل تصول وتتوعد باجتياح الجنوب، والمخلصون يستنجـدون ولا من مجيب.

انضم إلـيّ شاب ملتح يعمل في البنك الذي أتعامل معه، ثرثرنا كثيرا في مواضيع متفرقة، عن حوادث المرور ودور الجامعة العربية في إعطاء تونس المزيد من الاندفاع نحو العرب، مشاريع سياحية، وبنوك، أيدي عاملة، ورؤوس أموال، وضرب مثالا بالبنك الذي يعمل فيه كمحصلة لهذا التوجه.

بعـد ذلـك تلقف حديثا آخر، وراح يفرغ كل ما اختزنه في صدره عنه، وأحسست بأنه قد اضطهدني بهذا الحديث وأنا أحاول أن أنفرد بنفسي مع صحيفتـي وقهوتـي، ثم قال بصوت عال :

ـ المشاكل كثيرة، وأكثر مما نظن.

ثم أضاف وكأنه يصدر الحكم الذي فيه الحل دون أن يمهلني لأعلق ولو بكلمة واحدة أشعره فيها بأنني متنبه إليه ومهتم بما يقول :

ـ ولكن أتـدري أين الحـل ؟ إنه في العودة إلى روح الاسلام نعم، هكذا أرى.

ثم نهض وهو يتنفس بارتياح بعد أن أحس أنه قد قال ما كان يريد قوله وصافحني مودعا، وتنفست أنا الآخر بارتياح بعد أن أزيح من أمامي، وعدت إلى جريدتي لأقلب صفحاتها متمهلا، وطلبت فنجان قهوة آخر منتـظرا أن يقتحم المقهى صديقي الشاعر، ولكنني وبعد أن نظرت في ساعتي خمنت أن الـوقت مازال مبكـرا، وأنـه لابـد وأن يكون منشغلا بتسجيـل أسمـاء الـطلبـة الغائبين، أو يكتب قصيدة ساخطة يقاتل بها الاستلاب والتحنيط.

انتظرته نصف ساعة آخر ولم أعد احتمل البقاء في صخب المقهى لذا

طويت جريدتي وخرجت.

وأخذت أخطو في شارع بورقيبة الذي يشكل محور ومركز المدينة، ولكنه قصير بحيث تكفي عشر دقائق لقطعه من أوله إلى آخره، وبدأت أتطلع إلى الوجوه المصلوبة فوق مقاعد المقاهي وإلى واجهات المخازن ولا أدري كيف استقرت عيناي على موظف البنك من وراء زجاج إحدى الحانات وهو يقبض بيده على زجاجة بيرة، ويبدو أنها ليست أول زجاجة يكرعها، إذ كانت عيناه تلوحان مختبطتين، التقطت ذلك فيهما بتلك النظرة العاجلة، وتظاهرت بأنني لم أره، ولكنني انفجرت بضحكة، هكذا نطت من صدري قصيرة لاسعة، وانتبه لها رجل كان يمشي بجواري، فأعقبتها بسعلة مصطنعة حتى أموهها وأواصل طريقي.

سأل سعيدة بنت المنصف :

ـ أمازلت خائفة ؟

وتفوهت وهي غير عارفة بقصده :

ـ منـك ؟

وأوضح لها بقوله :

ـ من الرجلين اللذين جاءا يسألان عنك ذلك اليوم ؟

وهزت رأسها نفيا وقالت :

ـ نسيتهما.

ثم واصلت بسرعة :

ـ رغم أنني عشت في الرعب أياما، ربما لأنني لم أكن مستعدة لاستقبالهما ذلك اليوم، أما إذا جاءا يطلبانني مرة أخرى فأعتقد أن لدي الاستعداد لاصطحابهما لأي مكان يريدان، كل همي أن أعرف هل أنا متهمة ؟ ليس في عرف من أرسلوهما ولكن في عرف الجميع، حتى أستطيع أن ألقي بمرافعتي الأخيرة وأنسحب بهدوء، من مدينة الفئران، ومن هذه المدينة، ومنك، ومن نفسي أيضا.

بعد ذلك رمت بجسدها العاري الا من مايوه أصفر ذي قطعتين في

حوض السباحة. وراحت تعوم وكأنها تعارك الأمواج الخافتة التي يحركها هواء البحر، وعندما صارت في منتصفه نادته :

ـ هيا يا غياث، الحق بي، الماء منعش.

وكان جالسا على حافة الحوض وساقاه تتدليان وجسده الأسمر معرض للشمس اللافحة، جمع جسده ونهض ثم قفز في الماء بخفة وعام باتجاهها، وعندما وصلها أمسك بها من كتفيها وضغطها إلى الأسفل وهو يقول :

ـ سأغرقك وأنتهي منك.

ورددت لاهثة وقد انسدل شعرها المبلل على وجهها :

ـ ليتك تفعل ذلك وتريحني.

ـ تعرفين بأنني لن أقدر، ولكن كل الذي أقدر عليه الآن هو أن أقبلك أطول قبلة في التاريخ.

وأعطته شفتيها فقبلهما على عجل، ثم رفع يديه من فوق كتفيها، تأملهما عجوز أوربي كان يعوم جوارهما وابتسم.

قالـت :

ـ إنها أقصر قبلة في التاريخ على عكس ما أردت.

ثم انطلقا ضاحكين، وأخذ كل منهما يرش الآخر بالماء، وهما يتصايحان بصوتين مفرغين من كل هم.

وكان السياح الآخرون ممددين على الكراسي الخاصة الموزعة حول حوض السباحة متمتعين بالشمس والاسترخاء الخلي، مخدرين بهذه اللذة التي لم تمنحها لهم مدنهم الجليدية البعيدة التي قدموا منها.

لقد حضرا إلى هذه المدينة الساحلية ظهر أمس، رتبا تواجدهما معا بأن حجز كل منهما غرفة باسمه وكأنهما غريبان لا يعرفان بعضهما، ولكن تلك الغرفة التي حجزت باسم غياث داود لم يدخلها أحد أبدا، ومازال مفتاحها ملقى على الطاولة في غرفة سعيدة بنت المنصف.

لم يكن غياث يعرف « طبرقة » من قبل. كل الذي سمعه عنها أنها من مدن الساحل الرائعة وقريبا منها تقع جبال « عين دراهم » التي تشكل

مصيفـا يرتـاده السكان بشكل خاص دون السياح الذين يهمهم البحر والشمس بالدرجة الأولى ليعودوا إلى بلدانهم فخورين بالبشرة السمراء التي اكتسبوها.

ولكن الاقتراح بالمجيء إلى هنا قدمته سعيدة فوجد قبولا عند غياث لاقتلاع الوصب والاحتقان من عروقه.

قالت له وهما يخطوان على شاطىء البحر عاريين :

ـ هذه أول مرة أخرج فيها معك نهارا، والشمس تلسع هامتي، لقاءاتي الليلية بك جعلتني لا أعرف حتى لون وجهك، ورغم أني أزورك في بيتك نهارا إلا أن نوافـذك مغلقة وستائرك مسدلة وكأن هناك كاميرات مجهولة تنتصب في الأماكن المحيطة ببيتك من أجل التقاط صور لكل تحركاتك لتحفظ كوثائق عنك.

قـال لهـا :

ـ عندما أعود إلى البيت أريد أن أسرق أكبر ساعات من الهدوء والتأمل لأوقف نزف الحمى والاجهاد في رأسي.

ـ إنني لا أستطيع الجلوس في غرفة مسدلة الستائر، حتى عندما أنام، أكره الظلام لأنه يخيفني.

ثم ردد وهو يتقلى في هذه المشاعر القانطة :

ـ بدأ ينتابني إحساس جديد في الأيام الأخيرة.

ـ ومـا هـو؟

ـ كأنني محاصر ولا قدرة لي على الفكاك، حتى الأماكن التي أتردد عليها عرفتهـا جيدا، ولم يعد هناك مكان آخر يثير فضولي. قبل مجيئك كنت أهـرب في زيارات قصيرة، لخمسة أيام أو أسبوع، فعرفت كل البلدان والجزر القريبة، الجزائر، المغرب، ليبيا، صقلية، مالطة. أما عندما جئت فقد ألغيت هذه المشاريع حتى الايفادات بت أتهرب منها وأتركها لغيري ممن يلهثون وراءها.

فتسألـه ملحـة :

ـ وبعد أن أسافـر ؟
وأجـاب متهربـا :
ـ قد لا يراني أحد، سأختفي ما بين العمل وأبواب بيتي المغلقة، قد يحدث هذا، أو أي شيء آخر أقرره في حينه.
ثم سحبها من يدها وهو يستحثها :
ـ هيا لندخل إلى الماء.
وهبـت مستجيبـة :
ـ فكـرة عظيمـة.
وأخذا يبحثان عن مواقع آمنة لأقدامهما في الشاطىء الصخري ليتوغلا في البحر الذي كانت أمواجه هادئة.
قال وهو يغطس في الماء حتى رقبته :
ـ يقال إن هواء البحر مليء باليود. وهو الذي ينقي الدم والصدر.
وقالت هي مضيفة لمعلوماته :
ـ وماء البحر أحسن مطهر للعيون، جرب أن تغطس وتفتح عينيك، لا تهتم للسع الملوحة ستعتاد عليها.
وأخـذا يعـومـان ويقهقهـان حتى كلا، وخرجا لينطرحا فوق الرمل متجاورين وأنفاسهما اللاهثة تتعاقب.
قالت سعيدة بعد أن استردت أنفاسها :
ـ أفضّل العوم في الحوض.
ـ ومـا السبـب ؟
ـ لا أدري، البحر يرعبني، أحس بأنني عندما أضع قدمي فيه سأرحل نحو المجهول ولن أعود أبدا.
ونهض نافضا الرمل عن جسده وسحبها من يدها لتنهض هي الأخرى وهو يستحثها بقوله :
ـ هيا إلى الحوض إذن.
وها هما الآن في منتصف الحوض، يتراشقان بالماء منتشيين، وعالمهما

الصغير يتألق ودا ووئاما.

قالـت مقترحـة :

- ما رأيك في أن نركب الخيول ؟

فرد على الفور :

- أفكـارك عظيمـة دوما، أتدرين بأنني لم أركب الخيل منذ أكثر من عشرين عاما ؟ كنت أمتطي حصاننا الأبيض لآتي بالحشيش للأبقار، أو لأؤدي زيارة لقـرية قريبـة، أمـا الآن فلا أظنني قادرا على ذلك بعد أن أصابني الترف اللعين.

وقالت هي :

- أما أنا فابنة مدينة، ولم تتح لي الفرصة لركوب الخيل مرة واحدة، ولذا أفضل ركوب الجمال.

- وهل يوجد هنا جمال ؟

- كل شيء، خيول وجمال وحمير وبغال ودراجات، فالسياح بالنتيجة قطيع من الأغبياء، يريدون أن يمارسـوا كل شيء، حتى الجنس تمارسه نساؤهم مع أي كان، ألم تنتبه لتلك الألمانية الحلوة ؟ لقد قادت إلى غرفتها ثلاثـة شبان تونسيين خلال أقل من ساعتين، هذا عدا الفحول الألمان المحيطين بها.

يصفق غياث بيديه ويقول :

- تصوري أنني لم أنتبه لكل هذا ؟

وتغمزه بعينها وتسأله :

- أتريد أن تأخذ لك دورا معهم ؟

وقال غير متأكـد :

- أيتها الثرثارة الجميلة أنت اليوم تختزلين كل النساء.

وعاد ليحتضنها ويقبلها لتكبر البسمة على وجه السائح العجوز، ثم قال لها :

- هيا إلى الجمال والخيول.

وانتزعا جسديهما من حوض السباحة وراحا يهرولان خارجين، استوقفها كمن تذكر شيئا وقال :

ـ لنأت بالنّقود أولا فلن يركبونا مجانا، ثم ألا نرتدي ملابسنا ؟

قالت :

ـ ولماذا الملابس ؟ فروسية عصرنا أن تمتطي الحصان أو الجمل عاريا فأنت ذاهب إلى نزهة وليس إلى حرب ضروس، انظر لما يفعل الآخرون وافعل مثلهم.

* * *

سعيدة بنت المنصف، دعي الناس يحيون، إنها فرصتهم الوحيدة، ليأتي ذلك الذي اسمته سميرة حليم بالغياب التام، لتضاجع تلك الألمانية عشرة رجال كل يوم، لعلها لن تجد الوقت لمضاجعة رجل واحد فقط في الأسبوع عندما تعود إلى بلدها، قد تكون عاملة في مصنع للنسيج، أو للدهان، أو بائعة في مخزن، تعود متعبة منهكة كل مساء، لا تقوى أسنانها على مضغ لقمة الطعام فتسرع لترتمي في فراشها، كالميتة ولا يوقظها الا صوت المنبه وهو يرن في أذنيها.

داود أبي تزوج فوجا من النساء ولكنّني كنت أقرأ في عينيه الشبق والاشتهاء كلما خطرت أمامه أنثى تمتلك ولو قليلا من الفتنة، وزعيم قبيلة قريبة من مدينتنا تزوج حوالي الخمسين امرأة، لن تصدقي ذلك، ستفغرين فمك عجبا ولكن هذا قد حصل فعلا، جمع زوجاته في قرية واحدة، ويعرف ليلةكل واحدة من خلال راية ترفعها أمام باب بيتها، وقد حدثت ذلك المارق كامل البعدون عنه ذات يوم فتساءل :

ـ وما لون الراية ؟

قلت ببراءة :

ـ قد تكون بيضاء أو صفراء لا فرق.

فعلق بمكر :

ـ تقصد بلون ملابسها الداخلية ؟

فأداعبه بقولي :

ـ ومن قال لك انهن كن يعرفن الملابس الداخلية ؟

كل الذي تعرفه من تحل نوبتها هو الاستحمام في طست كبير، ووضع « الـديرم » (*) على الشفاه و « المحلب » (**) والزعفران على الرأس، والبخـور في مبخرة صغيرة من النحاس تشبه قباب المساجد، وتهيء له عشاء دسما، وبعد أن يتناول عشاءه ويتجشأ تأخذ طريقها إلى الفراش قبله، تنقلب على قفاها فينزل فوقها في مضاجعة عاجلة يعكرها السعال والبصاق.

سعيدة بنت المنصف، المرأة كون، وآفاق، وذلك الزعيم المزواج لن يعرف هذا، ولم يحس بهذا الطعم، ولذا فهو بعيد عن التحليق الصوفي والابحار في غموض الجسد لفك طلاسمه وتفجير أسراره، ولكن لابد من هذه اللذة اللعنـة، لابد، فهذا السحر الناعم قد ينحصر :تطلق عليه النعـوت الواطئة، العيب والخوف والحرام، فيختنق الجسد كمدا وتموت خفاياه وتخرس موسيقاه ويصبح مجرد قرع فوق طبل مثقوب، أو قد ينفجر في حادثة اغتصاب أو انتحار أو جنون أبدي.

يومـا ما كانت مدن العـراق تعـج بمحـلات البغاء العلنية، يرتادها السكـارى والمكبوتون والأزواج الخائفون الذين لم يذوقوا عطاء المرأة مع زوجاتهم، نعم، يحدث هذا كثيرا يا سعيدة بنت المنصف، أحدهم أخبرني يوما أنه لم ير شيئا من جسد زوجته غير وجهها ويديها رغم انها قد أنجبت منه تسعة أبناء، إذ كان لا يأتيها إلا في الظلام، يلجمها الخجل على أن تتعرى أمامه، ويلجمه الخجل هو الآخر على أن ترى شيئا من جسده، أما اليوم فأنت أمامي كلك، شفتاي تعرفان كل مواقع جسدك، وكذلك

(*) الديرم : لحاء بعض الأشجار يصبغ الشفاه بالحمرة.

(*) (*) المحلب : حبوب ذات نكهة يخضب بها مفرق الشعر.

أنـاملي، أعرف فيك مكامن الشبق والاثارة، وأعرف مكان تلك البقعة الحمراء فوق ساقك اليسرى. وبقايا ذلك الجرح في كتفك الذي خلفه سقوطك من شجرة زيتون يوم كنت في السنة الأولى من المدرسة الابتدائية، وأنت تعـرفينني كذلـك، كل شيء فـيّ، حتى الشعيرات البيضاء التي بدأت تنبثق من صدري، وأثر الجرح في ركبتي، والزوائد اللحمية الثلاث تحت ابطي.

نحن مثل كتابين مفتوحين أمام بعضنا، ليس بين سطورهما ألغاز ولا كلمات متقاطعة، هكذا هي الدنيا، من الاستمناء المقيت، إلى معاشرة البغـايا، إلى أخـريات، وصـولا إليك، والتيار مازال جاريا، ولعله في عنفوانه، فنار المجوس لم تنطفيء في هذا الجسد رغم الارهاق والمصائب التي كبلته.

غياث داود الذي أمامك لم يكن الا صرخة في واد، تتردد مرات، وقد يمتصها الصمت، هذه الصرخة قد انطلقت يوما من تلك القرية العراقية البعيدة، والـذي يتنـاهى إليك منها اليوم ما هو إلا صداها فقط، وان أصغيت إليهـا جيدا ستتأكدين من أنها قد بدأت تفقد رنينها، وتتهاوت تدريجيا حتى تخرس إلى الأبد.

كان الجنس أخـذا ونهبـا وتفـريغـا لشرر يتـطاير فيلهب الحـواس والأصداغ، عرفت ذلك في عمليات الاستمناء القاحلة تلك، ومن ثم في معـرفتي لجسـد أول بغي قادني إليهـا شاب أعمى من محلتنـا كان يبيع الحلوى، أعمى ولكن ناره جعلته يعرف طريقه نحو ما يظنه النعيم المرجو ولو كان مع جسد مشاع، يقف فوج من الرجال في طابور منتظرين دورهم لمضاجعته.

كان اسم تلك البغي زهرة، مازلت أذكره حتى الآن، وأذكر جسدها الأبيض الممتلىء القصير المرصع بالوشم، وذراعها اليمنى التي كتب عليها بالوشم أيضا « حبيبي محسن » وكان المقصود به زوجها، وهو أشهر قواد عرفتـه مدينـة النـاصرية، وكـان النـاس يسمونه « محيسن طيز » هكذا

يصغـرون اسمه ويضيفون إليه كلمة طيز الثقيلة هذه، ولا أحد يدري لماذا ؟ ولكن هكذا كان يعرف، وقد تخلت عنه زوجته الأولى لقواد شاب اسمه جبار، لذا ارتضى بزهرة بديلا عنها دون أن يعلن احتجاجه فقد كان جبـار قادرا على أن يحطم رأسه دون أن يجد من يشفع له، حتى رجال الشرطة كانوا يقفون مع جبار لأنه الذي يتولى دفع الأتاوة الشهرية لهم.

دخل عليها بائع الحلوى الأعمى قبلي ثم أشار إلـي أن أدخل بعد أن انتهى منها خلال ثوان فدخلت وبيدي قطعة النقود التي تشكل ثمن مضاجعتها.

تطلعت إلى جسـدهـا الملقى على فراش مهترىء، مازالت آثار المني الكثـيرة متجمعـة فوقـه، وترددت وأنا أتأمل الوشم الذي امتد على كل جسدها وجعله كخارطة لموقعة حربية مجهولة، يقف أمامها مشدوها أعتى الخبراء العسكريين.

ويومذاك عرفت طعم المرأة، ولكن أي طعم كان ؟ كان حامضا وزنخا مثل مستنقع، ولم تترك أحدا من أهلي الا وشتمته تلك العاهرة الشنيعة وهي تريدني أن أنتهي منها بسرعة وأخرج لأفسح الدور لغيري.

وقد صرخـت بـي :

ـ كان على أمك أن تعلمك قبل أن ترسلك إلـي بيد هذا الأعمى الكلب.

لقد كانت تلك الواقعة غصة، ولكن تبعها ما هو أفظع وأنكى، هكذا هو الجنس بحث محمـوم، وآذان تنتصب، وحمـير معافاة تنهق، وكلاب مسعورة نابحة لا تربض هازة ذيولها.

لتنتصب آذاننا، ولتهتز ذيولنا، وترتفع أصواتنا بالنباح والنهيق، لننضم إلى هذا الكرنفال الحامي، المحتشد، الضاج.

قال كامل السعدون يوما وكأنه يود اطلاعي على سر :

ـ أتدري لأي شيء لجأت العاهرات بعد غلق مبغى بغداد العام ؟

وسألته بفضـول :

ـ لأي شـيء ؟

ـ لطريقة قد لا تخطر ببال أحد.

وراح يشرح الطريقة لي وأنا أنصت إليه باهتمام :

ـ قف في شارع معـين من العاصمة بعد التاسعة مساء، واسمه مع الأسف شارع النضال، وستمر بك سيارات تاكسي عاجلة ويناديك رجل يجلس إلى جوار السـائق أن أصعـد إن كنت راغبـا في مضاجعة امرأة، فتصعد، وتنطلق بك السيارة بأقصى سرعتها، ولا تعرف هل المرأة التي معـك سمـراء ؟ أم بيضـاء ؟ نحـيفـة ؟ أم بدينـة ؟ طويلة ؟ أم دحداحة ؟ سليمة ؟ أم تحمل مرضا ما ؟ هذا ما يأتي به نصيبك ولا مجال للخيار، ولكن الفظيع في الأمر أن المرأة المرجوة لا ترتدي ملابس نسائية بل ملابس رجال قرويين، العقال واليشماغ من أجل أن يتم التمويه على رجـال الشرطة الذين انتبهوا إليهم وأخذوا يطاردونهم. ولا يعطونك الا فرصة أقصاها خمس دقائق لتكمل كل شيء وبعد أن تدفع الثمن مقدما، ثم يرمونك مسرعين ليتلقطوا آخر، ومرة حدث أن رموا بأحد أصدقائي بينما ظل بنطلونه في السيارة فراع يركض وراءها وهو عار من الأسفل ولم يتوقف عن الركض والصراخ إلا بعد أن رموا له بنطلونه.

وقلت له بمكر :

ـ أخاف أن تكون أنت هذا الصديق ؟

وقـال :

ـ لا يهم، ولكن المهم أن الأمر قد حدث فعلا، مع هذا اطمئنك بأن لي أجوائي ومزاجي، وهما الأمران اللذان لا أحد يعرفهما عني حتى أنت يا عزيزي.

يومـا ما في تلك الـطفولة الباهتة أحببت نورية سالم، تلك الشهيدة الطيبة التي نحرها أخوها المأفون أمام عينيك، وكنت الشاهد الوحيد لتلك الجريمة الباقية التي تظل وقائعها تنكأ مليون جرح في قلبك الغريق. في ذلـك الزمن كنت تسمع من أقرانك عن تعويذة خاصة يحملها الرجال

فتجعل النساء يطاردنهم ويقعن في هواهم، وكانت هذه التعويذة تسمى بعرق السواحل، أو بعرج السواحل كما كان الناس يتلفظونها بالضبط، وقـد أخبـروك أن والـدك يملـك واحـدة مـن هـذه التعـويـذات، اشـتراهـا بثمن غال من بدوي كان يأتي مدينتـك الصغيرة أحيانا ليبيع الأدوية المتكون أغلبها من الأعشاب البرية، لمداواة العيون وآلام الظهر وتسـوس الأسنـان والحمى وأوجاع البطن والرأس وغيرها من الأمراض والعلل، وسألت أمك عن عرق السواحل هذا فأرتك اياه. كان عبارة عن كيس من الجلد له حزامـان يشـد بهما إلى عضد الرجل، ولم تعرف ماذا يحتوي هذا الكيس المغلق، ورجوت أمك أن تعيرك اياه لبضعة أيام فقط، ووافقت شريطة أن لا يعلم أبوك بالأمر والذي كف عن حمله بعد أن أصبح لديه قطيع من النساء تزوجهن بالحلال غير اللواتي استطاع أن يصل إليهن بنظراته الحادة وقامته الشامخة وسحر عرق السواحل هذا.

لم تحمل عرق السواحل على عضدك الهزيل الا من أجل الوصول إلى قلب نورية سالم، وظننت أنك قد أفلحت عندما ارتضت أن تكلمك رغم أنها قد أوصدت الباب بوجهك، ولكن بعد مقتلها انتزعته ودسته بقدمك مرات، في التراب، فرغت فيه غضبا قاتما، وأعدته إلى أمك كجندي أسير يسلم سلاحه لمحاصريه دون أن يجد ما يتمترس به ليدافع عن بقاياه.

كنت يومذاك كسمكة نيئة انقلبت على قفاها، وامتلأ داخلها بالصديد والـزنجـار، وها أنت اليوم مرابط في هذا اليباس الموجع، يأكل صدرك التحسر المشط، وتنعق في رأسك غربان الشؤم والاندحار.

غياث داود إذا أردت أن تبدأ فإن الحديث يطول، ومع هذا فقل ما عندك، واكشف كل الأوراق التي تستطيع كشفها، فليس هناك من سر يستـأهـل أن تخبئه في داخلك حتى يوم الله، لقد فرغ العالم وابتعدت المسافات، وما عادت الحصيلة الا صورة باسمة لوجه أميرة حسين المسور باطار من تبر ثمين.

ـ 24 ـ

(عزيزي غياث :

اكتب لك من قبرص التي وصلتها قبل يوم فقط، حملت حقيبتي وجئت إلى هنـا، إلى هذا الملاذ القريب الذي ألجأ إليه كلما ادلهم الجو وزادت الأمور سوءا.

هناك أمر أود أن أخبرك به من أجل أن أضحكك، وهو أن سيارتي قد سرقت، أوقفوني على حاجز وطلبوا مني أن أسلمهم مفتاحها فأعطيته لهم بهدوء وبدون أية كلمة احتجاج أو عتاب وانصرفوا بها وتركوني مزروعة وحيدة في طريق مقطوع.

لم يكن تصرفي جبنا مني، ولكن ماذا أفعل وفوهات ثلاث رشاشات مصوبة إلى صدري ؟

بعد يومين عرفت مكانها، وذهبت ورأيتها بعيني جاثمة بين عدد من السيارات المسروقـة الأخـرى، ولكنهم طلبـوا مبلغـا كبـيرا من أجـل استرجاعها، أتتصور هذا ؟ ولكن كل شيء ممكن الحدوث في فترة غياب الدولة والأمن والحماية.

ولذا قررت السفرمن أجل أن أضحك وأنسى ومن ثم أعود إلى بيروت لأمشي على قدمي، فالرياضة مفيدة للصحة أليس كذلك ؟

لقد أرجأت زيارتي الموعودة إلى تونس في الوقت الحاضر فأجور الطائرة باهظة على معلمة فقيرة مثلي مازالت بذمتها أقساط لم تسدد لسيارة سرقت وراحت.

تذكّرني مثلما اتذكرك دوما، ولعل هذا ينفعني بعض الشيء، فأتماسك قليلا في مرحلة انعدام الوزن هذه التي أعيشها.

تحياتـــي

المخلصة

سميرة حليم)

* * *

أبا مراد، تعال وداهم وحدتي، تعال وشاركني في اخصاء الديوك الغبية وأولاد الأفاعي والجنرالات المزهويـن والسماسرة وبنات آوى والعبيد وسدنة المواخير وسارقي الثورات لا الكلاب فقط فهي حيوانات وفية ويجب أن تتمتع بفحولتها وأن لا نحرمها منها.

أيهـا اللبناني الطيب، بودي أن أناديك لتغلق متجرك الصغير الذي يواجه شقتي وتشاركني في كأس من العرق، واحمل لنا معك اللب والبندق واللوز والجبن والزيتون. تعال يا أبا مراد، هل أفتح النافذة وأناديك ؟ فلم أعد قادرا على أن أفعل شيئا لوحدي. انني بحاجة إلى المعونة، فاسدها لي، إذ لم أعـد قادرا على إخصـاء الجميع وحدي، لقد أخصيت ما فيه الكفاية، أما القطط فاترك لي مهمة شنق المزيد منها فأنا قادر على ذلك رغم ان القرف قد أصابني من أداء دور الجلاد وأن لهذه الحيوانات اللعينة سبع أرواح كما يقال.

أبا مراد، يا أبا مراد، ها أنت تخرج من متجرك الصغير، وتقف بقامتك القصـيرة البطينة، ترفع رأسك باتجاه نافذتي، وتظنني بحاجة إلى شيء، سكرا، أو بيضا، قهوة أو حليبا، ولكنني أريدك أنت، أريد انسانا يحل بجانبي فأصغي إلى وقع كلماته وهي تنسكب في أذني. أشير إليك بيدي تحية ثم أقفل داخلا إلى غرفتي، أغلق نوافذها ثم انكفىء فوق السرير.

- اسمع يا غياث، إننا في مرحلة الخطر، المرحلة التي عمل الجميع من أجل أن يضعونا فيها، إنها المرحلة الرمادية، هكذا أسميها، يوما ما كان هنـاك الأبيض والأسـود وكنت تعـرف موقعك، وتعرف الجموع.وماذا تريـد ؟ أمـا اليـوم فقـد وضع الكثيرون السخام على وجوههم وصاروا حداثين، فكيف تفرز ؟ وكيف تشخص ؟ أما الشعارات فقد امتصت، وألقيت قشورها في الهواء، وفرغ كل شيء من محتواه وتركوك تصفق يدا بيد كمن استقر اصبع في دبره.

* * *

(صديقي غياث
تحية واحتراما
ماذا يقول العائد من موت محتم ؟ من مشنقة قطع حبلها المكين صدفة ؟ هكذا أنا يا غياث، لا أدري ماذا أقول بالضبط ؟ ولكن ما أريد أن اطلعك عليه هو أنني قد اختطفت لمدة تسعة أيام، جاء أربعة رجال مسلحين وملثمين إلى بيتي واقتادوني إلى غرفة لم أعرف مكانها بعد أن عصبوا عيني، كان صراخ زوجتي وولديّ يلاحقهم، ولكنهم لم يأبهوا له، حتى الجيران خافوا أن يفتحوا أبواب بيوتهم أو يقوموا بأي فعل يتصدون فيه لهؤلاء الخاطفين، والشجاع فيهم من وجد في نفسه القدرة على التلصص من وراء نافذته ويده على قلبه.

تسعة أيام من الرعب، رأيت فيها الأسرى والقتلى ومشاريع القتلى والمحتضرين والمشوهين رأيت الأهوال ثم أخرجوني بعد ذلك، عصبوا عيني من جديد وحملتني سيارة في منتصف الليل ورمتني على شاطىء الأوزاعي، لم أعرف لم حصل كل هذا ؟ ولكن أحدهم تصدق علي بكلمة قبل أن يغادروني وأخبرني أن ما جرى لي كان مجرد خطأ وأنهم رأفوا بزوجتي وولديّ، إذ كان من المقرر أن يقوموا بتصفيتي منذ أول لحظة اعتقلوني فيها.

تصور هؤلاء الأنذال الأفاكين يعيّرونني هكذا، وكأنهم يتصدقون عليّ بحياتي الباقية، ولكنني عرفت أن الأمر ليس كما ادعوه، إذ همس لي بالحقيقة صديق مقرب من قيادة المنظمة التي اختطفتني، وعرفت أن السبب هو تلك الشقراء، نصف اليونانية التي تفوقني طولا، والتي كانت تعمل ساقية في أحد البارات حيث تعرفت عليها. واستأجرت شقة أمضينا فيها عدة شهور حمراء، وقد أخبرتك بكل الحكاية من قبل. ولما انتهيت منها ظلت تبحث عن وسيلة لتوقعني بها فكان أن حرضت علي أحدهم فالتجأ إلى تنظيمه المسلح لتصفيتي، ولكن استغاثات زوجتي واستنفارها لكل معارفي من المقربين إلى التنظيمات المسلحة ومعرفتها برقم السيارة التي

اختطفوني بها أوصلت إلى الجهة والمكان فكان أن أطلقوا سراحي.

ومع هذا فأنا مصر على البقاء في بيروت، لأعرف ماذا بعد ؟

الجميع يقولون : لا شيء إلا المزيد من الاسوداد والانغلاق التامين، ولكنني آمل بشيء غير هذا.

كل الذي أفكر فيه الآن أن أجد أكثر من مجال للعمل، سأصمم حتى مجلات الجنس الرخيصة، المهم أن يدفعوا لي، حتى أوفر للزوجة والولدين ما يسد رمقهم وما يجعلهم لا يمدون أيديهم استجداء بعد أن أقع في شرك آخر وأذهب ضحية في هذه الملهاة المأساة الغامضة.

غياث داود . . .

هذه بيروت المقفلة، تعطي أحيانا البعض من أسرارها، ولكن بتمهل وعلى دفعات صغيرة رغم غليانها المجنون، هل تفاجأ إذا قلت أن صديقنا الرسام مروان حيدر كان ومازال عضوا في الهيئة القيادية لأحد التنظيمات الطائفية المسلحة ؟ وأن ما حصل من حرق لبعض لوحاته أثر المتفجرة التي حدثتك عنها في رسالة سابقة كان مقصودا، ولعله إنذار بتصفيته هو الآخر من قبل خصوم منظمته ؟

كل شيء متوقع في بيروت. حتى المفاجآت فقدت طعمها ومعناها، وأصبحت باهتة كالتبن.

عزيـزي . .

غدا سأسافر إلى لندن، إليها، لأنفق معها بضعة أيام علني أبرأ من هذه الخضة التي مازالت تسكن جسدي إثر احتجازي في الأيام التسعة العصيبة والتي لم أعرف عددها هذا إلا من زوجتي التي تعدها دقيقة دقيقة وثانية ثانية ثانية.

غياث داود تأكد بأنني أحبك.

أخوك المحب

حسان صبحي)

* * *

أعرف يا حسان بأنك ستنحر يوما، قد ينحرك زوج غيور، أو عاشق يائس وأنت لا تكف أو تهدأ عن ملاحقتهن، وكأنك تأخذ بثأر قديم، ولكن أي ثأر يا ابن الحارات الرطبة ؟ والوجوه المكتوية ؟ يا سليل تلك الطفولة الشاحبة، حيث اليقظة المبكرة والخروج إلى الأعمال المجهدة التي لا تتلاءم مع طاقة جسمك الهزيل، بدأت عاملا في مدبغة للجلود، ومن ثم في محل للنجارة، وتوقفت طويلا مع أبيك في فرن للخبز، وحللت الغاز الكلمات من خلال الدراسة المسائية، وبدأت ترى الدنيا، كبرت واتسعت عيناك، وشحنت بتطلعات أكبر من حدود حارتك الصابرة، فبدأت الرحلة. ولكنك ستنحر يوما، هذا ما أؤكده، لقد أنقذ عنقك مرة، وفي المرة القادمة قد لا ينقطع الحبل، فأراك مدلى أو مضرجا. حسان صبحي. ليتني أعثر لك على تلك الضبعة الشبقة التي حدثني عنها أبي والتي كانت تداهم القرى الآمنة وتسرق واحدا من أقوى الشبان وأفتاهم، تحمله على ظهرها إلى مغارتها البعيدة، وهناك تقوم بلحس راحتي قدميه حتى تدميها لئلا يطيق الهرب، ويظل يضاجعها بعد ذلك أياما دون أن ترتوي وعندما تستنزفه ويصبح ذاويا لا يقوى على الحراك تأكله.

إنك اليوم على ظهر ضبعة، أو أنك في مغارتها مدمى القدمين، ولكن الفم المفترس سيبتلعك، وآنذاك لن يكون هناك من يترحم عليك، أو من يجرؤ على اقتحام المغارة ليلملم عظامك ويدفنها في حفرة آمنة.

ـ 25 ـ
زينـب عـزوز

كانت زينب عزوز أمامي، هكذا تحرك موج المدعوين فانكشفت لي، بيدها كأس من الويسكي، وفي عينيها نظرة لم أستطع أن أفهمها جيدا، فيها موت، وربما عتاب، توسل، انكسار، حقد، احتقار، أو شكوى، خليط كبير لم افهمه، ولم أستطع أن أتهرب منها، وتذكرت تلك الحكمة التي تقول إن خير وسائل الدفاع هو الهجوم، فمضيت إليها، مددت لها يدي فأطرقت، ارتمت رموشها الطويلة إلى أسفل حتى غابت تلك النظرة، ولكنهـا لم تغب طويلا إذ سرعـان ما انفتحت أمـامي من جديد وانزاح الخباء، وحولت الكأس من يدها اليمنى إلى اليسرى لتصبح يدها طليقة قادرة على مصافحة يدي التي مكثت فترة وهي ممدودة نحوها.

سألتهـا :

ـ كيف أنت ؟

برمت شفتيها ثم تمتمت:

ـ وهل يهمك ذلك ؟

ـ ولماذا لا ؟

وسرت رعدة خفيفة في صوتها وهي تقول :

ـ إذن لماذا تتهرب مني ؟

وابتسمت ببراءة مصطنعة :

ـ أنا تهربت منك ؟ أم أنت ؟

واستعادت هدوءها المنخذل وتمتمت وهي تهز رأسها :

ـ عجيـــب :

وقلـت مؤكــدا :

ـ لأنني كنت في المستشفى ألم يعلموك بهذا ؟

والتفتّ إلى الوراء فإذا بسامي المنذر يعطيني ظهره فأمسكت به من ذراعه وجذبته نحوي دون أن استأذن من مرافقه وقلت بصوت حاث :

ـ قل لها يا سامي أنني كنت في المستشفى طيلة الأسبوعين الماضيين ؟

فهز سامي رأسه مؤكدا والمفاجأة قد أمسكت به من هذا الموقف المحير الذي وضعته فيه، ونطق بكلمات مرتبكة :

ـ فعلا، فعلا، كاد أن يموت.

ثم انصرف وعاد إلى مرافقه، فتنفست بارتياح وأنا أتأمل عينيها اللتين عاد إليهما هدوؤهما القديم وانشراحهما الذي رأيته فيهما عند لقائنا الأول في ذلك الحفل الدبلوماسي.

قالت باعتذار :

ـ سامحني، لقد ذهبت بعيدا، تصورتك تتهرب مني ؟

ـ ولذا أطلقت علي شتائمك ؟

ـ أرجوك أن تنسى هذا.

ـ حسنا، سأنسى.

كنا في حفل دبلوماسي أيضا فهي نجمة تتألق في مثل هذه المناسبات، تفرض على الحضور وسامتها وحديثها اللبق، وقد تقع عيناها وهي في نشوة السكر على من تظنه أهلا لمغامرة فكان أن جعلت مني ذلك الفحل المختار يوما.

زينب عزوز، نعم هربت منك. وسأهرب أيضا، انتهيت منك، عرفت جسدك بعد تلك المواقعة فلم يعد فيه ما هو مخبأ، قاتلتك بسعيدة بنت المنصف فكانت أقوى منك وأجهزت عليك فعليك الرحمة والسلام. وما علي اليوم إلا أن أدبر وقيعة جديدة لأقطع عنق سعيدة بنت المنصف فهو اليانع الآن، ولعل تلك الطالبة الحيية التي تتردد على مكتبي أحيانا لتحصل على مصادر حول الصراع العربي الاسرائيلي قادرة على ذلك فلوجهها وبراءتها مذاقان جديدان قد يئدان تعهري ويغفران معصياتي، ولكن بأية لغة سآتيها ؟

لقد ألقيت بالبذور الأولى محاولا أن أعبر طريقي إليها، أن أجعله آمنا، ولذلك سألتها :

ـ ماذا تعرفين عن تونس العاصمة ؟

قالت على الفور :

ـ لا شيء، من بيت الطالبات إلى الكلية، وفي بعض الأحيان، ربما مرة كل شهر، أستجيب لالحاح إحدى زميلاتي وأنزل معها لنتجول في الأسواق ونتطلع إلى واجهات المخازن.

وقلت لها :

ـ ولماذا لا تحاولين الخروج ؟ تعرفي على الضواحي والمدن القريبة مثلا.

وتساءلت :

ـ ليس هناك من يأخذني إليها.

وكأنني وجدت في جوابها مدخلا لأن أقول وأنا أربت بيدي على صدري :

ـ أنا الذي سأفعل ذلك، حددي الوقت وسآتيك لأحملك إلى أي مكان تريدين.

وقالت :

ـ لا أريد أن أشغلك بي، ربما بعد التخرج سأعمل في العاصمة حيث يتسنى لي أن أزور لا ضواحي تونس فقط بل كل عواصم العالم التي حلمت بأن أراها.

وقد لبت دعوتي. ولكنني فوجئت بأنها لم تأت وحدها، بل كانت تصطحب معها إحدى زميلاتها، ولم أظهر أي تصرف ينبىء عن امتعاضي من تصرفها هذا.

جلست بجانبي، وقد ارتدت تنورة بيضاء وقميصا بنيا يظهر بياض وجهها، أما شعرها فقد رفعته إلى أعلى وثبتته بالماسكات بحيث بانت فتنة جيدها الأغيد، ولاحظت أنها قد مررت على شفتيها طلاء من الأحمر الفاتح بحيث يتواءم مع لون بشرتها. وجلست صديقتها في المقعد

الخلفي، وجعلت من نفسي دليلا سياحيا لها. أدور بها وأعـرفهـا على الأماكن،وقد لاحظت البشر مرتسمـا على وجهها الجميل.

وقـد استمرت دورتنا في ضواحي تونس حوالي الساعتين اقترحتا علي بعدها أن نعود. فاستجبت لاقتراحهما وأنا أقول :

ـ أنتما ضيفتاي الليلة. ومن المفرض أن نجلس في مكان لنتعشى سوية.

وبادرت الصديقة بالاعتذار، أما هي فعقبت :

ـ في المرة القادمة ان شاء الله.

ثم سألتهما :

ـ إلى بيت الطالبات ؟

قالـت :

ـ لا. فصاحبتي بيتها في حي الوردية، إنها تونسية من العاصمة وليست غريبة مثلي محشورة مع أربع من زميلاتي في غرفة واحدة.

واتجهت إلى الوردية بعد أن فتحت المذياع على المحطة الفرنسية فانبثق صوت دافىء وحنون رغم أنني لم أفقه الكلمات الفرنسية التي كانت تقولها أغنيته.

وهتفت الصديقة :

ـ خوليو ايغليسياس، إنه فأل حسن أن نسمعه معك فكلانا نحبه.

وانتهت الأغنية وتبعتهـا أغنية أخـرى لفرقة « أبا » كانتا تعرفان كل المغنين والألحان الغربية، أما أنا فلا أفقه شيئا ولا أجيد غير الاصغاء.

وأوصلنا الصديقة إلى دارها ثم استدرنا عائدين، ونحن لانزال نصغي للأغاني التي تتابع الاذاعة بثها، وكان أول سؤال وجهته لها :

ـ إذا لم تكوني واثقة مني لماذا تخرجين معي ؟

وعرفت ما أقصده فقالت كالمدافعة :

ـ إنها أقرب صديقة لي، ولا أدري لماذا أحببت أن أعرفها عليك.

وقلت بصوت واطىء :

ـ ظننتك جئت بها لتحميك من الغول الجالس بجانبك ؟

فضحكت، ثم ربتت بيدها على كتفي وقالت :
- أرجوك أن تنسى هذا الموضوع، ولو لم أكن مقتنعة بالخروج معك لما خرجت سواء أكنت وحدي أو مع زميلتي.
وفي المرة الثانية جاءتني وحدها، أنفقنا أكثر من ثلاث ساعات سوية، ضحكنا وتعشينا، وأنصت إلى أحلامها التي مازالت تطمح في أن تحقق شيئا منها، ثم سألتني :
- ألا تظن أن الوقت قد راح مني ؟ وأن من الصعوبة ايجاد أية فرصة ؟
وقلت لها :
- مازلت طالبة في السنة الثالثة من الجامعة، وأنا الذي أمامك لم أر أول بلد أجنبي إلا عندما أصبحت في السنة الرابعة من الجامعة وضمن رحلة طلابية.
وسألتني :
- وأي بلد كان ؟
- ايران.
سعيدة بنت المنصف، هذه نعيمة بنت محمد، إنها وحدها القادرة على نحرك، ان الأيام لو امتدت بي معها لأغرقتك في مدها، ولما وجدت من يمدّ يده لانتشالك، إنها أفتى وأنقى، هكذا أرى، أما أنت فقد عاثوا بك، وخربوك. ولا جدوى من ترميم بقاياك أبدا.
سعيدة بنت المنصف، هيا ارحلي، فنعيمة بنت محمد بدأت تزحف لتغزوني وتحتل كل بقاياي.

اعتــــراف

كيف لامرأة مثلي أن تستعرض رجالها ؟ هل هم أهلة لامعة ؟ أو أوسمة أكلها الزنجار ؟ هل هم صعود ؟ أم عثرات وانطفاءات ؟ هل هم أتراح قاحلة ؟ أم أفراح زائلة لا يمكن أن تمكث في القلب والمسامات ؟

لأرجىء كل هذه التساؤلات وبمعزل عنها أقول أن الرجل الظل والرجل الفحولة يظلان مثل استراحتين لابد منهما. ليس بالنسبة لي فقط، بل بالنسبة لأية امرأة كانت، لأن لهذا الغضب الفائر في الدم حقه، ولهذه الوحدة الطاحنة التي تطيش من لسعها سهام العينين حقها أيضا. ومن هذه القناعة المنطلق، من هذا اليقين الحتمي عرفت أكثر من رجل، نعم، لماذا لا ؟ إنهم تجاربي مهما صغرت وتفهت فهي لي ومني، وهي هذا الماء المتدفق من ينبوعي الذي أعطى ما عنده بدون خوف أو وجل، انهم ليسوا كل من عرفت: فالذين عرفتهم كثيرون، ولكنني سأتوقف عند نماذج منهم ضمن مراجعتي لوضعي وبحثا عن جواب لسؤال بات يؤرقني. وهو سؤال بسيط جدا : من أنت يا سعيدة بنت المنصف ؟

يوم تركت غياث داود يغادر روما عائدا إلى تونس مكثت ليلة هناك وغادرت في صباح اليوم التالي متجهة نحو باريس بواسطة القطار.

شيء صغير أحب أن أذكره هنا هو أنني لم أنهض لوداعه، ولم أمد له يدي مصافحة، فأنا أكره هذه الطرق، وظللت مستلقية في فراشي. وبعد أن أعد حقيبته خطا صوبي وانحنى علي ثم قبلني على جبيني وهو يتمتم بكلمات ناعمة، حمل حقيبته بعدها وخرج، ومكثت بعد ذهابه على وضعي لعدة دقائق انفجرت بعدها بالبكاء.

لم أشأ مرافقته إلى تونس، رجوته أن أذهب لأرى أخي، ولكنني أردت أن أختبر نفسي من وراء هذا الابتعاد. ولم يعترض رغم أنني قد لمحت ثمار اليأس يانعة في عينيه، والجزع من هذا القرار الذي فاجأه، وأذكر أنني قبلته ومسحت بيدي على جبينه وأنا أهمس له :

ـ لن أتأخر طويلا، وهي فرصة فقد وصلت إلى هنا وأصبحت قريبة من فرنسا.

وسألني ان كنت بحاجة إلى شيء، فكذبت عليه حين قلت له :

ـ أبدا. إن النقود التي جلبتها معي لم تدعني أصرف منها مليما.

وأرجعت إليه أوراق النقود التي قدمها لي بالحاح دون أن أعرف

مقدارها .

ولم أجرؤ على ان أقول له أن المبلغ الذي في حقيبتي ضئيل ، وأنني أعتمد على أخي في تزويدي بما أستطيع أن أعود به إلى تونس أو أتبضع به من أشياء نسوية صغيرة قد تهفو إليها نفسي .

وعندما وصلت إلى الحدود الفرنسية ارتصفت أنا وحقيبتي أمام موظف الجوازات ليختم جواز سفري سامحا لي بالدخول ، وعندما وصل إلي الدور سألني عن الغاية من زيارتي لفرنسا فأخبرته ، ثم سألني إن كنت قد قطعت تذكرة العودة إلى بلدي فنفيت ذلك . وهنا أعلن وكأنه يمسك بي متلبسة بجرم بأن لا حق لي في الدخول ، وتوسلت إليه بأنني أعتمد في هذا على أخي وهو الذي سيشتري لي التذكرة ، والا ما الغاية من مجيئي إلى بلدكم ؟ ولكنه وحسما لهذا الحوار الذي طال بعض الشي أحالني إلى الضابط المسؤول لينظر في الأمر . سحبت حقيبتي وخطوت خارجة من الطابور ، وسألت عن مقر الضابط فدلوني عليه .

طرقت بابه وسمعت صوته يأذن لي بالدخول . وجدته يجلس وراء مكتبه وقد وضع فوق عينيه نظارة طبية وأمامه مجلة ملونة كان يقرأ فيها ، سألني عن مطلبي فأخبرته به . صفن بعض الشيء وحك رأسه مرارا قبل أن يقول لي :

ـ اجلســـي .

فجلست . وهنا أبعد النظارة عن عينيه ووضعها فوق المجلة ، وأخذ يطيل في تأملي . لم يكتف بالنظر إلى عيني فقط ، وإنما إلّي كلّي ، من حذائي إلى شعري وكأنني أمامه بضاعة يحاول أن يقدر قيمتها .

وهنا نطق .

ـ هذا شيء ممنوع ، القانون لا يسمح لنا بأن ندخلك إلى بلادنا .

ثم أضاف دون أن يكمل :

ـ ولكـــن

ونهض من مكانه مستندا على المكتب بكلتا يديه ، فبان جسده طويلا ،

مائلا إلى الامتلاء، ووسيما إلى حد بعيد. نظر من النافذة بعد أن وضع يديه في جيبي بنطاله العسكري، فتذكرت فيه صورة أحد ممثلي السينما، وجاهدت أن أتذكر اسم هذا الممثل.

سألتـــه :

ـ لكن مـاذا ؟

وهنا رد :

ـ هنـاك حـل

فبادرت أسأله متلهفة :

ـ مـا هـو ؟

وأجاب على الفور بصوت واثق :

ـ أن تمكثي الليلة هنا، وغدا صباحا نختم جواز سفرك وتغادرين.

ـ وأين أمكث وليس في هذه النقطة الحدودية حتى فندق صغير ؟

أخرج يديه من جيبي بنطاله واستدار إلـي بكامل جسمه، فلمحت امتلاء طفيفا في بطنه من شأنه إذا استمر أن يفسد قوامه الرجولي وقال :

ـ عنـــدي.

ـ عنـدك ؟

فقـال مؤكـدا :

ـ نعم. لدي غرفـة في عمارة قريبـة ألجأ إليها في أوقات الراحة إذ لا يمكنني زيارة عائلتي كل يوم وهي تقطن على مسافة ستين كيلو مترا من هنا ؟

فعدت أسأله متبالهة :

ـ ولماذا لا تختمونه الآن ؟

وكأنه اكتشف هذا التغابي الذي أتظاهر به فقال :

ـ لأنني أريد بقـاءك معي الليلة ثمنا للمخالفة القانونية التي سأقدم عليها وربما بسببها سأخسر وظيفتي.

وأحسست كأن يدا ضخمـة أوصـدت فمي، ونط من مداهمتهـا لي

بؤبؤاي، بلعت ريقي بصعوبة وأنا أتساءل بخيبة :

ـ هكذا إذن ؟

وأعاد يديه إلى جيبيه وأعطاني ظهره لينظر من النافذة وهو يقول :

ـ الأمر متروك لك، ولا تنسيْ بأنك لست أول امرأة أعرفها وأسهّل أمر دخولها، ولكن كل شيء بثمنه.

ـ والرجولة والـ . .

ورفع صوته صارخا بي :

ـ اخـرسي، ماذا تريدين أن تثبتي لي ؟ هل تعتقدين أنني أصدق ادعاءك ؟ كلكن تدخلن من أجل التسكع في باريس لأغراض نعرفها جيدا، على أية حال انني أقايضك فان لم توافقي هيا اخرجي وعودي من حيث أتيت، وإن وافقت سأرافقك إلى غرفتي لتستحمي وترتاحي.

لا أريد أن استمر في ادراج حوارنا اللاحق ولا على الرمال التي تناثرت فأغلقت عيني. ولكن ما حصل أنني قبلت عرضه أخيرا، وأعطيته جسدا ظننت أنه سيكون باردا، ولكن ذلك المارد الخبير قد أشعله فكانت ليلة.

عند عودتي إلى تونس حدثت غياثا عنه، ولكنني توقفت عند حدود طرحه للمقايضة، وبأنني استطعت بلباقتي أن أثير حميته وشهامته فختم جواز سفري وتركني أغادر وقد صدق غياث ذلك وأنا أوضح :

ـ لقد حاول ذلك الفرنسي الفج معي ولكنه لم يستطع.

وهناك رجل آخر تعرفت عليه في أيام معرفتي الأولى لغياث ولم تمض على دخولي إلى تونس إلا أيّام. كان شابا عصريا يجيد الكلام، ويمتلك ذخيرة كبيرة من الأسفار، دخلت مكتبة والده لأسأل عن بعض الكتب التي قرأت عن صدورها ولم أستطع أن أجدها في المكتبات العربية بباريس ولندن، فبدأ معي حديثا وأعطاني الكثير من الوقت والاهتمام، وربما مكثت هناك أكثر من ساعة وقبل أن أنصرف دعاني ببساطة لتناول طعام الغداء سوية فوافقت على عرضه رغبة مني في الاستزادة من حديثه الملم بكل ما يعني الكتب ودور النشر والمؤلفين ولعله لمس ضعفي ومقتلي في هذا المجال.

ورافقته بسيارته المارسيدس الفارهة التي يندر أن يمتلك تونسي مثلها إلى فندق هيلتون وتناولنا غداءنا في مطعمه، حيث عب عدة كؤوس من الويسكي وهو لا يتوقف عن الكلام. ولكنه كان ناعما خفيف الظل رغم كل شيء، أما أنا فقد اكتفيت بكأس من المارتيني جعلني أحتفظ بتماسكي وهدوئي، ولأنني أيضا أكره تناول قطرة واحدة من الكحول وقت الظهيرة حتى في أشد الأيام برودة.

وبعد أن خرجنا من الفندق وأخذنا مكانينا في سيارته قال لي مقترحا :

ـ أنا أسكن وحيدا على مقربة من هنا، ما رأيك في أن نعرج على البيت لنرتاح ونستمع إلى الموسيقى فلدي مكتبة ضخمة تبدأ من الموسيقى الكلاسيكية وتنتهي بأغاني كل البلدان العربية، اضافة إلى الكتب النادرة التي لا يملكها إلا القلائل.

وتساءلت :

ـ بهذه السرعة أدخل بيتك ؟ لقد قبلت دعوتك على الغداء واستمتعت بوقت جميل معك وهذا يكفي لحد الآن.

فرد ملحا :

ـ ولماذا تتحرجين ؟ أنت انسانة متحررة وعشت في أوربا وعرفت الناس.

فقلت باستغراب :

ـ لم نعرف بعضنا جيدا، بهذه السرعة.

فقال مدافعا عن تصرفه :

ـ نحن في زمن لم نعد نملك فيه الوقت الفائض لنضيعه بالمقدمات وصولا إلى غاياتنا.

وأجبته بلهجة محتجة :

ـ دعني أنزل هنا، انني لا أتعامل بهذا المنطق.

وأوقف سيارته فعلا وقبل أن أفتح الباب مغادرة تبعني صوته وهو يقول :

ـ لاشك انك غبية ومثالية، وستندمين على هذه الفرصة التي لا أمنحها لأية فتاة بسهولة.

نزلت وظللت مغروسة في الدرب الخالي منتظرة قدوم سيارة تاكسي وقد أخذني غثيان ودوار جعلاني أشعر بأن الطعام الذي تناولته لم يكن الا سما وعلقما.

بعد أن جلست في سيارة التاكسي متوجهة صوب بيت عمي تساءلت مع نفسي:

ـ ماذا لو لم يستجب لرغبتي وينزلني ؟

وتوصلت إلى جواب شبه أكيد بأنني ربما أكون بين ذراعيه الآن، ولتبدلت خارطة علاقتي بغياث داود وأصبحت عشيقة ملحقة ببلاط هذا الشاب الثري المتباهي الذي يكدس حزم النقود في جيبه، وتحركاته تنظمها سيارة فارهة لا أدري كم ألفا من الدنانير دفع ثمنا لها ؟

أود أن اضحك، أن أقهقه واكتسح هذا العالم بضحكة مدوية أعلن فيها احتجاجي على كل شيء فيه، ولكنني لا أستطيع فحنجرتي ناعمة وصوتي متهاوت نائم لا يعرف الصحو، ولذا أخذت بنبش هذا الرأس المخبول، وتحسس هذا الجسد المبتلى أحاول أن أعرف كم مرة منحته لهذا الرجل أو ذاك ؟ راضية أو مرغمة، ولكنني أمام غياث داود لم أتحدث إلا عن زوجي وعن المنصف، أما الآخرون الذين يرد ذكرهم فانني أشير إلى أنهم حاولوا معي ولم يفلحوا، وقد وجدت نفسي أردد هذه الكلمة أمام أكثر من رجل يسألني عن رجل آخر، فأقول له بأنه قد حاول ولم يفلح، ولكن الحقيقة ان جل الذين حاولوا قد أفلحوا، ولعلني أدافع بقوة عن ضعف لا أستطيع الفرار منه، وهي انني امرأة سهلة المنال غالبا وهذا أمر يقتلني.

هناك وجوه رجالية عبرت ونسيتها ولم تمكث في رأسي وقلبي وامضة مثل قوس قزح، ومن الوجوه التي أذكرها وسط هذا الاكتظاظ الخانق وجه ذلك الصحفي الأمعط الفخور بجديلته المدلاة على جبينه وبنطلونه الجينز وعلاقاته التي تمتد واسعة بين الدبلوماسيين العرب والأجانب أيضا اضافة

إلى أوساط القرار السياسي والاقتصادي في فرنسا حيث يقيم ويعمل. وكنت أرى اسمه بارزا وكبيرا يتصدر مقالاته السياسية التي تنشرها احدى المجلات العربية الصادرة في باريس مع صورته. وعلى الرغم من أنني لم أقرأ شيئا مما كتبه إلا أنني أخذت بتألقه واسمه اللامع الذي يبدو فيه وكأنه يبتز المجلة كلها وليس رئيس تحريرها فقط الذي يعجز عن استغلاله ودفعه للكتابة في الوجهة التي يريدها تحقيقا لمآرب وأهداف وارتباطات تسيّر مجلته في الخفاء للدرجة التي جعلت رصيده بالبنوك الفرنسية عامرا بملايين الفرنكات. كان يدخل مكتب المجلة صارخا فوضويا مبددا وقار بعض المحررين الشيوخ الذين أعطوا المهنة كثيرا، ويوما دخل إلى غرفة رئيس القسم الثقافي وكنت هناك أحمل بعض كتاباتي عله يوافق على نشرها لي فقدم لي نفسه بطريقة امتزجت فيها الجرأة بالثقة والوقاحة وخفة الدم كذلك فانشددت إليه، وشاركته في أحاديث طويلة، وكان يبدو في حديثه ساخرا من كل شيء حتى من الكلمات التي يكتبها، وقد سألني أثناء الحديث :

ـ هل تقرئين ما اكتبه في مجلة الدعارة هذه ؟

وأقول باعتذار :

ـ أبــدا.

ثم أضيـف موضـحة :

ـ أرجو أن لا تفهم هذا استصغارا لما تكتب، ولكن السياسة بالنسبة لي لعبة شائكة ومدغمة وأنت تكتب فيها.

وقال صادقا :

ـ انك تحسدين على وضعك هذا. أما أنا وكثيرون غيري، فقد أفسدونا منذ الصغر، أحزاب، ومظاهرات، واستعمار، وعملاء، ولم نر طريقنا أو نسحب أنفاسنا براحة، ولذا أنصحك بأن لا تحاولي قراءة شيء في السياسة، لأنها هراء، وتحريك لخيوط مخبوءة من قبل عدة جهات، وكل هؤلاء الأوباش المرابطين في مكاتب هذه المجلة ومجلات كثيرة غيرها لهم

ارتباطاتهم وكل واحد يقبض من أكثر من كيس، دول خليج على شمال افريقيا على امريكا على روسيا حتى كوريا الشمالية لم تسلم منهم.

وضحكت من تعليقه وأنا أحس نحوه بألفة غريبة، وعندما استأذنت بالانصراف أعلن بأنه سيغادر هو الآخر فقد فرغ من تذبيج مقالته العتيدة التي يحارب بها الاستعمار ويندد بجرائمه في كل مكان.

وعرض علي أن يوصلني بسيارته للجهة التي أريد فوافقت، ولكنني لم أعرف إلى أين أذهب والمساء لم يحل بعد؟ ومازال أمامي متسع من الوقت للعـودة إلى تلك الغرفة الكئيبة التي استأجرتها مع عائلة فرنسية بعد أن اختلفت مع زوجي وغادرت بيته.

وعندما اقترح علي أن نعرج على أحد مقاهي السان ميشيل وافقت على الفور.

كان اسم المقهى « اودومـاغـو » وقد أخبرني انه أحد مقهيين يرتادهما الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر ليتأمل كنيسة « سان جرمان ديبري » التي تقع قدام المقهى ويقرأ صحيفته أو يرتشف قهوته.

ولعله بهذه المعلومات يريد أن يشعرني بأن باريس الواسعة هذه لم تعد عصية عليه وأنه يعرف كل شيء فيها وعنها.

شرب كل منا زجاجة بيرة وكان منشغلا باعادة جديلته إلى الوراء كلما انسكبت على جبينه.

ولم نمكث طويلا في المقهى اذ اقترح علـي أن نمشي فالجوارب ويساعد على ذلك، فوافقت ونهضنا متجهين صوب حديقة اللكسمبورغ وأخذنا نتمشى فيها بتؤدة وسط عشرات الرواد الذين يملأون رحابها.

قـــال :

- انني أستغلك اليوم، لم أمش منذ أسابيع رغم ان الطبيب ينصحني بذلك لأنني أعاني من ديسك بسيط ومن شأنه أن يتطور ان بقيت هكذا بلا حركة. من السيارة إلى المكتب، إلى المقاهي، وعلب الليل.

وقمنا بدورة داخل الحديقة ونحن ننثر رؤوس أحاديث عدة ونحاول أن

نجمع خيوطها المترامية. وان تطرق إلى ما نحن عليه كأمة وما هو عليه كلبناني من بلد يعاني منذ سنوات يأخذ بالتنديد بها حصل ويعلن عن تشاؤمه مما سيحصل لاحقا.

وتعدّدت لقاءاتي به طيلة اسبوعين. وأبدى اهتماما كبيرا بي أنا التي كنت أظنه رجلا زئبقيا لا يمكن جمعه في راحة يد، وقد همست لي صديقة صحفية بكلمات أمدتني بالثقة وهي أنني قد استطعت أن أصل إليه وأمتلكه فعلا حيث قالت :

ـ يبدو انك يا سعيدة قد روضت هذا الجواد الجامح، ولكن حذار منه فقد يلقي بك من فوق ظهره فرغم اقترابه من الخمسين فهو مازال مهرا، أفهمت ؟

وعرفت معه باريس، مرابع الليل، والشوراع الصغيرة والمقاهي، وعندما عرض علي ذات يوم أن أرى عرينه ـ كما قال بالضبط ـ وافقت على الفور، وذهبنا إلى هناك ذات مساء، ويبدو انه كان واثقا من مجيئي فقد وجدت زجاجة الشمبانيا والمازات اللبنانية والأنوار الخافتة في انتظارنا.

كانت شقته تقع في الطابق العشرين من احدى الضواحي الراقية في باريس. وقد ذكر لي اسم الضاحية ونسيته، ولها شرفة تطل على عالم من الأنوار والأشجار والعمارات المختلفة الارتفاع، وقد أسرعت إليها قبل أن استقر على أي مقعد لأتأمل منها هذه الروعة وعندما لحق بي همست له :

ـ أين هذا المكان الجميل من غرفتي التي تنطمر في الطابق الأرضي ؟

وقال :

ـ انها لك. سأعطيك مفتاحها ان أردت.

وشكرته وأنا أضيف :

ـ انها تصلح لشاعرة مثلي أكثر من صلاحيتها لكاتب سياسي مثلك، ولكن حظ كتاب السياسة أكبر.

وعلق.

ـ لأنهم أقدر على الابتزاز.

ـ ابتزاز مـن ؟

وختم الحديث وهو يستدير داخلا إلى الشقة :

ـ هذا أمر مازلت صغيرة عليه.

وتبعته لأجلس أمام المائدة العامرة، وسارع في فتح زجاجة الشمبانيا بصخبه المعهود . وهو يعلن :

ـ سنشرب نخب سعيدة بنت المنصف هذه الليلة.

وانطلق صوت السدادة، وسكب في كأسي ثم في كأسه ورفعناهما إلى أعلى بعدة أنخاب، وكنت فرحة طائرة، وسعيدة تماما كما هو اسمي، وجاء بزجاجة ويسكي بعد أن انتهت زجاجة الشمبانيا، وهكذا أخذت أعوم في بحر من الخمور المتنوعة وجاهدت من أجل الوصول إلى الضفة فلم أطق وانطفأت على مقعدي.

فتحت عيني في ساعة متأخرة من اليوم الثاني لأجد نفسي عارية ممّدة في فراشه وهو الآخر عار بجانبي وقد أعطاني ظهره وراح في نوم عميق.

ونهضت فزعـة، تمتمت بكلمات شتيمة وهلع، صرخت، ولكن كل شيء كان متأخرا، إذ لم يأبه بي وكل الذي فعله أن وضع الوسادة فوق رأسه لئلا يسمع صراخي.

وخمنت أنـه قد أمضى ليلته وهو يطارح جثتي المخمورة الغرام وكنت أتمنى لو أن الأمر قد تم بغير هذه الصورة.

ارتديت ثيابي على عجل وخرجت ومن يومها لم أر وجهه ولم يتناه إلى سمعي أنه سأل عني بعد ذلك أو حاول البحث.

قالت صديقتي تلك بفضول :

ـ ما لكما لا تلتقيان ؟

وقلت لها مبرزة :

ـ لم ننسجم تماما لذلك قررنا الافتراق بهدوء.

ورددت صديقتي بلهجة غير مقتنعة :

ـ سعيدة بنت المنصف لا تكذبي. ولا تسوقي الأعذار البائخة، إنني

أحدس بما حصل، لقد وصل إليك وانتهى منك، هذا هو شأنه دوما. عندما يطارد امرأة يتحول إلى كلب يتدلى لسانه لهاثا وعندما يمسك بها سرعان ما يهرب منها ويختفي، حاولي أن تسألي عنه الآن سيقولون لك بأنه في الكويت أو لندن أو بغداد أو أي عاصمة أخرى ماعدا بلده لبنان فرأسه هناك مطلوب من الجميع، من اليسار واليمين. -

رن جرس الهاتف في بيتي صباحا وكنت أتهيأ للخروج إلى العمل، ورفعت السماعة فإذا بصوت سامي المنذر يأتيني متهالكا متحشرجا حتى كدت أن لا أعرفه.

- سامي، ما بك ؟

- تعال إلي، إنني أموت.

- سأتيك حالا.

وأطبقت سماعة الهاتف وذهبت إليه، وقفت أمام باب شقته المعلقة في العمارة العالية وضغطت على الجرس فجاءني متمهلا، سمعت خفق نعله البطيء وهو يتوجه نحو الباب ليفتحه لي.

كان يضع منشفة فوق رأسه وقد ارتدى معطفه السميك فوق بيجامته، ووجهه الممتلىء مكسو بشحوب وصفرة فبادرته بالسؤال :

- ما الذي حصل ؟

قال وهو يفسح لي المجال حتى أدخل :

- وقعت فجأة، ضيق نفس وبرد ودوخة و . .

فداعبته بقولي :

- إنها الشيخوخة، وعليك أن تعترف بذلك، لي صديق كان يسمي هذا بمرحلة العد العكسي.

وراح يخطو أمامي متجها صوب غرفة نومه، كانت مسدلة الستائر وأنوارها مطفأة، وقد شممت رائحة الرطوبة الزنخة التي تخيم عليها.

أشعل الضوء قبل أن ينطرح على فراشه بينما أخذت مكاني على حافة

السرير جواره.

قـــال :

ـ وفـوق هذا زوجتي لا ترتضي مغـادرة بغـداد والابتعاد عن أهلها وعملها وصديقاتها لتنضم لي، وعذرها أنها في انتظار المولود الجديد ولا تريد أن تضعه في الغربة.

وقلت له مقترحا :

ـ يجب أن آخذك إلى الطبيب.

ورد :

ـ هذا ما كلمتك من أجله.

وابتلع ريقه بصعوبة وهو يسحب الغطاء ليغطي كل جسمه ولا يبقى ظاهرا منه إلا رأسه الملفوف بالمنشفة. وأضاف :

ـ تعرف يا غياث بأن مجيئي إلى هنا لم يكن إلا نزوة، وليس بمشيئتي الكاملة، أغراني أحد الأصدقاء الذين احترفوا العمل في الخارج بأن أقدم مطلبا لأعين في إحدى الدرجات الشاغرة بالجامعة العربية، فأسرعت وأنا غير مصدق، ومضت شهور نسيت فيها الأمر قبل أن أبلغ بقرار التعيين، وهـا أنـا كما تراني ثم جاءتني خديجـة بنت الهـادي لأراهـا في صورتين متناقضتين فتارة هي المبرر والطعم الحلو لبقائي وأخرى هي المتممة لمسيرة الألم والوحشة والانقياد نحو المزيد من التخبط والضياع والأسى. إنني شاعر يا غياث، قد أريد من الأشياء أكثر مما فيها، وعذري أن هذا التوق المستحيل يتحول في الغالب إلى قصائد، ولكن يبدو أن هذا ليس زمانها والناس مشغولون بهموم أخرى.

ثم حرك جسده المدد وأعنته ليجلس في الفراش وهو يواصل تفريغ ما في صدره بصوته المعلول :

ـ يا غياث إنني أجن، إن لم أكن قد جننت فعلا. فهذا الحب المرير لا يمكنني أن احتمله أو أستمـر فيه لذلك فكرت في قطعه. سأسافر إلى

بغداد وأتشبث بأمر عودتي إليها. سأطلب إلغاء انتدابي إلى الجامعة، لقد أمضيت هنا أكثر من عامين وهذا كافٍ جدا، وهل خلا البلد من البديل الذي يطيق تأدية المهمة المسندة إلـيّ؟

وسألتـه ببساطـة :

- خديجة بنت الهادي قد اختلطت بدمك، ولذلك لن تستطيع قطع علاقتك بها، هذا أمر تمني نفسك به. ولكنك لن تقدر عليه، ستظل هكذا مشطورا إلى نصفين، أحدهما مع زوجتك وأولادك والآخر هنا مع خديجة بنت الهادي.

وهز يده وقال بدعاء :

- إذن ليكن الله في عوني..

وأضاف وهو يبعد المنشفة ليظهر رأسه المكور منكوش الشعر :

- ليتني مثلك

فضحكت وأنا أعلق :

- لقد دبغ جلدي جيدا، وبات سميكا لا يؤثر فيه شيء.

وقال وكأنه يخالفني :

- إذا كانت العلائق العاطفية تصطدم بجلدك فتتوقف فأنا لا جلد لي. لذلك تنفذ إلى قلبي وتصيب مني مقتلا، ثم انك سافرت وعشت وعرفت الكثيرات، أما أنا فلم أعرف إلا زوجتي، إنها الحب الأول، وظننتها الأخير، ولكن أين كان الله يخبىء لي خديجة بنت الهادي؟

وعلقت على ما قاله مناقشا :

- مصيبتك يا عزيزي أنك تفكر في الأيام القادمة بحرارة أكثر من تفكيرك في أيامك الحاضرة، أما أنا فكل الأزمان بالنسبة لي ملغاة، لذلك لن يهمني شيء، إن خربت أو عمرت، أفهمت؟

رمى رأسه إلى الوراء أكثر، وأغمض عينيه قليلا، ثم نطق وقد بدا الإجهاد واضحا على صوته :

ـ لقد باتت مقتنعة بشكل ما ان استمرارنا في هذه العلاقة هو انتحار لكلينا، إننا نغطس تدريجيا في بحر الغرين والرمل هذا، وقد يتعذر علينا الخروج وكل منا حياته مرتبة بمعزل عن الآخر وآخذة لقرارها وشكلها النهائي، هي وابنتاها وبلدها، وأنا وزوجتي وأولادي وبلدي، ولذا لم تطلب مني شيئا إلا أن أحبها أكثر وأمنحها حنانا أكبر مادمنا معا تضمنا مدينة واحدة، ولعل هذا مطلب صغير يشبه تلك الأمنيات التي ينطق بها المحكومون بالإعدام قبل أن يقادوا إلى حتفهم، تصور يا غياث انني أصبحت كواحد من أفراد عائلتها، وابنتاها اعتادتا علي وما أكبر فرحتهما عندما تريانني، حتى الهدايا باتتا تطالبانني بها وكأنني أبوهما الحقيقي.

وتساءلت :

ـ وماذا ينتظر أهلها منك ؟

ـ أن أتزوجها. لأنهم لا يعرفون بأنني متزوج وأب لنصف دزينة من الأولاد، والسابع في الطريق. هذه الحقيقة هي سري وسرها الذي لا يعرفه أحد غيرنا.

وهنا حاول النهوض بعد أن تسرب اللهاث إلى صوته من حديثه الطويل الشاكي هذا الذي أنساني السبب الذي استدعاني من أجله.

وأعنته على النهوض حتى وقف بجانب السرير وهو يسند يده على الحائط.

قال محاولاً استعادة شيء من مرحه المنطفىء :

ـ منذ يومين لم أمارس طقوسي. توقفت عنها، ما ألعن المرض انه لم يرد في حسابي من قبل ولكن ها هو يصطادني ويحاصرني مثل جرذ في مصيدة.

وبدأ بخلع ملابسه فقلت له :

ـ سأنتظرك في غرفة الضيوف.

وقال وهو يرمي بمعطفه فوق السرير :

ـ اجلس، هل تتصور بأنني أخجل من التعري أمامك ؟

ثم نزع بيجامته وبقي بملابسه الداخلية، بعد ذلك بدأ بارتداء ملابس الخروج وهو يقول مواصلا حديثه الأول :

- لخديجة بنت الهادي أحلام تجعلني أنفجر ضحكا، ومنها أن أزوج اثنين من أولادي بابنتيها، أو أزوجها هي من أحد أقربائي حتى تتحول إلى العراق وتكون على مقربة مني، أتصدق ذلك ؟

قلت وأنا أصفق بيدي :

- من المؤسف أن علاقة من هذا النوع مكتوب عليها الفشل المحتوم.

وردد منكسرا :

- ولذا لا تستغرب إن جننت يوما.

بعد ذلك خرج من غرفة نومه واتجه نحو غرفة ملاصقة لها فتبعته، كانت الغرفة تغط في الظلام لذا ضغط على زر النور فاعتلق. وهنا وقع نظري على هذه الغرفة الخالية ولكن أرضيتها كانت ملأى بالأحذية، من شتى الألوان والموديلات، وقدرت عددها بأكثر من ثلاثين زوجا، وبينما هو ينحني ليختار زوجا منها يضعه في قدميه سألته باستغراب :

- ما هذا :

قال :

- مجزرة أحذية أليس كذلك ؟

ثم ابتسم وقال مضيفا ليوضح لي :

- انها هواية لم أحدثك عنها، إنني مغرم بالأحذية، وكأنهن محظيات نادرات، لذا أقف أمام واجهات العرض وأتأمل ما فيه، وإن استقرت عيناي على زوج أدخل فورا وأدفع ثمنه ثم أحمل علبته تحت ابطي، وكأنني امتلكت الدنيا

دس قدميه في حذاء لونه يقترب لون بنطاله، وقال :

- هيا لنخرج.

قلت له وأنا أنظر في ساعتي :

ـ عيادات الأطباء الخاصة لم تفتح بعد لذا سأحملك إلى المستشفى.
وخرجنا وهو يضع يده على كتفي مستعينا بي لتواصل خطواته ثباتها.
وعندما وصلنا إلى سيّارتي المركونة أمام العمارة التي يقطنها أعلن :
ـ هذه أول مرة أسمح فيها لأحد بأن يقود السيارة وأظل أنا جالسا جواره، قاتل الله المرض.

* * *

أصبح سامي المنذر في عهدة طبيب وديع، قامة ناعمة، وشعر تساقط جله، ولم تبق منه الا شعيرات متناثرة ينبىء لونها الباهت أنها كانت شقراء يوما.

كان يتكلم بهدوء، وقد احتضن سامي المنذر بحنان أكبر عندما عرف أنه من العراق إذ قال :
ـ قد تعجبان إذا عرفتما أنني متابع للموسيقى العراقية ولدي تسجيلات كثيرة منها، المقام والبوذية وغيرهما.
وقلت له مازحا :
ـ ولكنك طبيب ؟
أجـــاب :
ـ نعم. أنا طبيب من أجل أن أعيش في بحبوحة فقط، ولكن عالمي الآخـر بعيـد عن عالم الأدويـة والمباضع والمستشفيات كلها. إن حياتي منذورة لهوايتين هما الصيد والموسيقى، فأنا صياد أستطيع أن أقول عن نفسي بأنني ماهر دون أن أبالغ في هذا، وفي الموسيقى أعزف على الكمان والبيانو والقانون إضافة إلى آلتي المفضلة العود. ولدي عود عراقي من صنع العواد العراقي المشهور فاضل، لم أعرف عودا أكثر حساسية منه إذ يكاد يعزف عندما يلامس الهواء أوتاره
وعلق سامي المنذر :
ـ أعرف هذا العواد، لديه دكان صغير في أزقة منطقة عريقة من بغداد

اسمها الحيدرخانة، وإذا ما صادف ومررت من أمام دكانه أجده يمارس صنع أعواده باهتمام دؤوب، ولذا لا تستغرب إن جاءت بهذه الحساسية التي ذكرتها.

وهنا قال الطبيب مواصلا حديث الموسيقى الذي أنساه جسد سامي المنذر الممدد على سرير الفحص:

- لديكم أحب عازفي عود على قلبي وهما سلمان شكر ومنير بشير، وقد جلبت للأول أسطوانة من لندن أما الثاني فقد حضرت إحدى حفلاته في تونس.

ثم انكب على فحص جسد سامي المنذر، أنصت بسماعته لصوت ضربات قلبه، ثم قاس ضغطه، وبعد ذلك أعلن بصوته الودود:

- اطمئن أيها الأخ فلا شيء مهما، ويخيل إلي أنك متعب فكريا، أعصابك مشدودة وضغطك مرتفع قليلا، ويجب أن تطرد الهموم من رأسك وتأخذ إجازة للراحة إن استطعت، وسأكتب لك بعض الحبوب المهدئة، إنها تساعدك على النوم وارتخاء الأعصاب.

وبينما نهض سامي ليرتدي ثيابه جلس الطبيب وراء مكتبه وراح يدون اسم الدواء.

أخذت الورقة منه ثم صافحناه مودعين بعد أن زودنا برقم هاتفه وعنوان عيادته، وطلب منا أن نلتقي به بعيدا عن الأمراض لنتحدث عن العراق الذي يحب كما قال.

وقلت لسامي ونحن نقطع ممرات المستشفى ورائحة الأدوية والمطهرات الحادة تملأ أنفينا:

- أسمعت ؟

- نعم. ولذا سأطلب إجازة وأذهب لعل هذا الاشكال يحل. لا تنس يا غياث بأنني ثوري وأنني قادر على البتر في الوقت المناسب، ولا أكتمك بأنني قد ضعفت وتراخت حبالي وقد آن لي أن أنهض وأشد.

* * *

سألني سامي المنذر ونحن في السيارة :

ـ لقد أخذنا حديث خديجة بنت الهادي، ولم أسألك عن سعيدة بنت المنصف، وما هي أخبارها ؟

وأجبتــه :

ـ سترحل غدا، وسيكون لقائي معها الليلة لقاء الوداع.

ـ وأين ستذهب ؟

ـ صدقني بأنني لم أسألها عن ذلك، إنها مأخوذة بالسفر قبل المكان، ومن الصعوبة ايجاد لغة للتحاور معها في هذا الأمر.

ولم يعلق بشيء، بل طأطأ رأسه ساهما وأدرت محرك السيارة لتنطلق بنا.

لقد تحولنا إلى طيور مهاجرة لا تأمن إلى وكر ولا تشدها أية أرض، كامل السعـدون وجليلة عبـاس، وسعيدة بنت المنصف، وأنـا، حتى حسان صبحي وسميرة حليم يداريان انكساراتهما واختناقهما بالسفر ولكن ماذا بعد ذلك ؟

سعيدة بنت المنصف أود أن أسـألك بهدوء : إلى أين ؟ وما الجواب الـذي تنقّبين عنه ؟ لماذا لا تمكثين هنا ؟ إنكم تملكون الأمان، لم تستل رؤوسكم الانقلابات ولم تسحق صدوركم أحذية العساكر المتطاحنة، في سمائكم آلاف الطيور، انظري، ها هي أشجار الشارع تكتظ بها بحيث يتعذر على المرء السير في وقت الغروب مخافة أن تتساقط ذروقها على رأسه وكتفيه، سميرة حليم تأكل الضفادع لأن عصافير لبنان كلها قد فرت. سعيدة بنت المنصف، لن أقول لك هاتي يدك بعد، سأطلقك لتحلقي، ولكن أين المفـر والفـوهـات كلها مسددة إلى هيكلك الناعم الذي يؤجج الشهية إلى القضم، والابتلاع أيضا ؟

اذهبي، حيثما تريدين، فتوقفنا معا لم يكن الا مصادفة وفي نقطة تقاطع طريقـين كل منهـما يؤدي إلى بلاد، قد تكونين مشروع بائعة هوى، أو مشروع ثائرة ومغيرة، وقد تكونين مشروع مجنونة فقط، ولكن لن يكون

بيننا لقاء آخر وحساب حتى أتأكد من تصوراتي، أما أنا فمجرد متعب يسري عطب ما في جسده، لم يفلح في تشخيصه طبيب ولا عالم نفساني، ولن يهمني حتى إن انتهيت عجوزا مرميا يكرع الخمرة بإفراط ويتشهى الغلمان وراقصات الملاهي، وفي جسده تعشش كل أمراض الكبر، البواسير والضغط والسكري وغيرها، نعم، هكذا أنا، غياث داود الذي تألق في سماء ناصعة يوماً، رفع صوته إلى أقصاه، وقارع وأحب، الوطن والناس والمرأة الحرة كالنبع والمتفجرة كالبركان، تلك التي تهز كتفيها بانشراح وترقص كلها حتى يتعب العازفون وهي مازالت منتصبة، أما الآن فسماواتي مدلهمة تنذر بشيء، وليس هناك خبير ملم بتوقعات هذا الطقس حتى أعرف هل أرابط في مكاني؟ أم أحمل معطفي على ذراعي وأخرج لأغرق في شوارع المدينة؟

سعيدة بنت المنصف مازالت الأسئلة ترجم هذا الرأس فتهدم قحفه الذي ظننته متينا.

ـ 26 ـ

أصبحت السيارة على مقربة من المرتفع الذي تقع عليه العمارة الصفراء التي يقطنها سامي المنذر عندها قلت له بمودة :

ـ قبـل أن أتـركـك أحب أن أنبهك إلى ضرورة الأخذ بملاحظات الطبيب، أما الدواء فسآتيك به عندما أعود من العمل ظهرا.

قـــال :

ـ لا حاجة بي إليه، وإنني لا أطمئن إلى الأطباء، ولذا فان جسدي هذا الذي تراه أمامك لم يدخله الدواء ولو مرة واحدة.

ثم حك شعر ذقنه الطويل وقال بمرح :

ـ ثم إنني أعرف دوائي.

فتساءلت ببساطة :

ـ ومـا هـو ؟

ـ خديجة بنت الهادي، سأكلمها إلى الشركة فيأتيني صوتها مرفرفا ثم غريدا أبيض فيذهب المرض وينتزع أشواكه التي حاول غرسها في جسدي.

ثم ربت بيده على ركبتي وهو يواصل الحديث عنها بدون ملل :

ـ إنها الحب الأول، هكذا أعتقد، الحب الذي يلوي الضلوع ويحطم عظام الرأس، ولكنه الذي يتوسد القلب في نفس الوقت مثل مليون يد حانية فيمده بنسغ من الفرح والتحليق في سماوات البشر.

ثم كبر الحماس والبوح في صوته وهو يفرك يديه ويواصل :

ـ كان حبي لزوجتي حب نظرات، من بعيـد إلى بعيد، وإن تمادت تبتسم لي أو تفتح عباءتها قليلا، أول مرة رأيتها فيها كانت في احتفال جماهيري، ألقيت فيه إحدى قصائدي بكل ما أمتلك من قدرة على الأداء، ولفت نظري بكاؤها، كانت تمد يدها بمنديلها بين فترة وأخرى لتمسح

دمعة تغالبها، وبعد أيام اعتقلت ونفيت إلى الشمال لأوقع في دفتر لدى الشرطة صباحا ومساء، كان القلائل من سكان المدينة يعرفون اللغة العربية، وكانت اللغة الكردية هي السائدة لذا جاهدت طيلة الشهور الخمسة التي مكثتها هناك من أجل أن أتعلم ولو مفردات التعامل اليومي. وقد أفلحت في ذلك، وبعد أن رفع عني قرار الابعاد وعدت إلى بغداد ثانية رجوت زوجة صديق لي أن تأخذ رأيها في الزواج مني فكان ردها ايجابيا، وهكذا تقدمت إلى خطبتها وتزوجتها وأنجبت لي هؤلاء الرجال الستة وسابعهم في الطريق، وكم أتمنى أن يكون أنثى تزين هذا العالم الذكوري برقتها وحنانها.

وكنت أصغي إليه بانتباه وقد جعلت السيارة تتباطأ في سرعتها حتى يفرغ كل ما عنده، لأنني موقن بأنني ربما أكون الوحيد الذي يفهمه وهو مزروع وسط عدد من الموظفين القادمين من بلدان عربية مختلفة وبأمزجة لا تتلاقى تماما كما هي حالة الحكومات التي بعثت بهم، ولذا قد يجدونه نشازا بينهم هو وقصائده وصدقه.

وواصل فرك يديه كالمقرور وهو يقول :

ـ لم أنشد غير الستر والعافية، أليس هكذا يقال ؟ وأن أعود إلى بغداد يوما ويكمل الأولاد تعليمهم، ولا أضطر لمد يدي لأي كائن كان، فقد دمرتني أيام العوز ومازالت كالعظم النابت في لهاتي، يخزني كلما حاولت المضغ أو الكلام، ولكن عذري أنني لم أخن أو أتآمر وظل سجلي نظيفا في الوقت الذي تآمر فيه البعض وهو في أعلى المواقع من السلطة، وأنا ابن القاعدة والفقراء حافظت على نقائي، وأتمنى أن أستمر هكذا ولا أضعف يوما أمام أي إغراء.

وكانت السيارة قد استقرت أمام عمارته، وقبل أن يفتح بابها لينزل سألته :

ـ أتريد طعاما أو أي شيء آخر ؟

ورد :

ـ شكرا، سأطلب من خديجة بنت الهادي أن تأخذ إجازة من العمل وتأتيني لتطبخ لي الكسكسي بالسمك فهي تجيده، وهذا ما أشتهيه الآن وفي انتظار مجيئها سأحلق ذقني وأتحمم وأتعطر حتى تراني بأحسن حال.

* * *

دخلت مكتبي وقبل أن أستقر هناك رن جرس الهاتف، وكان المتكلم زميلا تونسيا يعمل في دائرة الإعلام ويصر على مناداتي باللبناني ولذلك لا ينفك يرسل لي بآخر أخبار الجامعة العربية عن لبنان وتحركات أمينها العام بشأن ذلك وغيره من المسؤولين البارزين ولجان المتابعة والوساطة وقوات حفظ الطوارىء وكذلك ما تكتبه الصحف العالمية البارزة حول توقعاتها في هذا المشكل الشائك الذي بات يؤرق الجميع، وبعد أن حياني تساءل :

ـ أين كنت أيها اللبناني ؟ لقد طلبتك مرات ولم أجدك في مكتبك ؟

وقلت له :

ـ أخذت أحد الأصدقاء إلى المستشفى.

ـ يا فاعل الخير وصلني كتاب مصور جديد عن لبنان سأبعث لك بنسخة منه بيد الساعي، أردت أن أتأكد من مجيئك أولا.

واقترحت عليه :

ـ لماذا لا تأتي أنت وتأخذ قهوتك معي ؟

واعتذر قائلا :

ـ شكرا، دع ذلك لوقت آخر، أما الآن فلدي عمل كثير واللجنة الدائمة للاعلام العربي ستعقد اجتماعا جديدا بعد أحد عشر يوما.

وبعد أن ودعته ألقيت بنظرة خاطفة على صحف الصباح، قلبتها بسرعة ولم أجد فيها ما هو مهم، ولكن المكسف فيها هو هذا الإمعان في الصلف الذي يغرق فيه هذا الخارجي الذي يحكم مصر.

ألقيت بالصحف جانبا وطلبت من الساعي أن يحضر لي فنجان قهوة بعد أن استلمت الكتاب.

وضعته أمامي، قرأت عنوانه (لبنان : الشهيد المنتحر) ولفت نظري هذا الاسم، ولكن مازاد حماسي في تقليب صفحاته وجود اسم حسان صبحي على غلافه كمصمم له، فرحت لذلك، ووددت أن أبعث له ببرقية تهنئة على هذا الفعل، ولكنني خمنت انه مازال موجودا في لندن يعيش نقاهته وانعتاقه من تجربة الخطف المريرة التي تعرض لها، انه لم ينفذ قراره بتصميم حتى مجلات وكتب الجنس الرخيصة التي كنا نراها مكدسة على أرصفة شارع الحمراء بعد أن ازدهرت تجارتها إلى جانب تجارة تهريب الكحول والمخدرات في ظلال الحرب القاتمة.

كانت الصور الأولى في الكتاب تمثل الخراب الذي حل بأسواق بيروت القديمة، يتقدمها نص كتبه شاعر حزين، يطالب فيه المدينة الثكلى بأن تتحلى بالصبر ويطلب من المواطنين أن يرقصوا فوق الأنقاض تحديا للخراب والفجيعة.

شوارع مقفرة، وعمارات تبرك، ونوافذ محطمة، وبقايا يافطات تشير إلى أن هذه الشوارع كانت تحمل أسماء في يوم مضى، وكانت فيها حياة.

شارع سوق الجميل، منطقة المجيدية، محلات نايلون، نصب الشهداء، سينما دنيا، مسرح فاروق، سوق السمك، سوق الصاغة، وغيرها.

ثم تأتي بعد ذلك صور أسواق بيروت وصورمن الجنوب، الجرح النازف، هكذا قال عنه التعليق، البيوت التي نسفت، والشوارع المهجورة، والحيوانات الميتة، وعجائز وأطفال يحملون ما خف من أغراضهم في سيارات حمل صغيرة، أو على الحمير، أو فوق الرؤوس والأكتاف، وتوقفت عند صورة مدرسة مدمرة، نامت كل جدرانها وانطبقت سقوفها على الأرض فأطلقت صيحة فزع، أطبقت الكتاب اثرها ونهضت،

حاولت ان أستعيد توازني وأبدد الكابوس الذي هاجمني، اذ تخيلت سحر نحـاس تحت الأنقـاض هذه، تستنجد ولا أحد يطيق اخراجها فتنكتم أنفاسها إلى الأبد وتغيب عني، وأخسر ذلك الحلم الذي يسكنني في أن أراها يوما وفي ظروف أخرى.

مسحت بيدي على وجهي مزيحا عرقا تفصد عليه بهذه السرعة رغم ان جو الغرفة يميل إلى البرودة وتحركت ما بين مكتبي والباب وأنا أضع يدي في جيبي.

ودخل علي الساعي بالقهوة، فعدت لأجلس وراء مكتبي محاولا أن ارتشفها بتمهل.

سحر نحاس اذن تحت الانقاض الآن ؟ من المؤكد أن تكون كذلك والا أين تذهب الاف الصواريخ والقذائف التي ترجم كل مدن الجنوب وقراه وتحيلها إلى أنقاض وخرائب ؟

وليس من المؤكد أبدا أن تكون حية الآن، وإذا ما أخذت أول طائرة وذهبت إلى بيروت، ومن ثم إلى الجنوب لن أجد وجهها بين وجوه مئات النازحين، لن أجدها فوق حمار أو مندسة بين الأغراض في سيارة حمل وعيناها تبرقان بالوعد والحقد.

آنذاك سأصرخ في وسط الشوارع المهجورة :

ـ قتلتموها أيها الأفاكون فالويل لكم.

وقد لا يسمع أحد صوتي، أو قد يتصدى لي قناص ضجر فيخرسني برصـاصة من بندقيته، وليس من المحتمل أبدا أن تربت يد على كتفي فألتفت لأجد وجه سحر نحاس وهي تبتسم لي وتقول :

ـ ها نحن نلتقي من جديد.

وقد أسألها قبل أن أعلق بأي شيء :

ـ أتتزوجينني الآن ؟

فتطلق ضحكة عالية وتقول :

ـ وهل أصبح القانون يجيز للمرأة بأن تتزوج من رجلين في نفس الوقت ؟

وأصرخ فيها مستغيثا ومتوسّلا :

ـ طلقيه وتزوجيني ، لقد احترف القتل وانتهى ، أما أنا فمسالم وحيد لا أقوى على ذبح دجاجة .

فترتمي على صدري مانحة اياي حنانًا أضعته منذ أن أخرجوا أميرة حسين جثة هامدة من غرفة العمليات فوليت هاربا دون أن أجد في نفسي القوة لالقاء النظرة الأخيرة على وجهها الذي عبدته ولم أعرفه الا باسما حيا .

طرق باب غرفتي ودخل علي الساعي وهو يحمل لي ثلاث رسائل ففتحت فمي متمتما باستغراب :

ـ ثلاث رسائل دفعة واحدة ؟

ولم يجد الساعي ما يعلق به فابتسم لي بعد أن سلمني اياها وانصرف .

فتحت الأولى ، كانت من أخي ، وفيها يسرد لي كعادته آخر أخبار العائلة ، أو العوائل على الأصح ، هكذا أصبحنا ، من تزوج ومن أنجب ، ومن ذهب ، ومن جاء ، ولم ينس أن يعيد علي تساؤله المستمر عن موعد زيارتي لهم ، فالأولاد كبروا وكثرت أسئلتهم عني ، وهم لم يروا مني الا صورة معلقة تتصدر غرفة الاستقبال في بيت أخي ، كما أنه لمح بتلك الكلمات التي يعاتبني فيها دوما عن هذه القطيعة اللامبررة ، وان الانسان مهما كثرت مشاغله وتعددت لابد وأن يسترق الوقت يوما ليرى وجوه أهله وأقربائه ، وقد كتبت له مرة من قبل أقول : سمني يا أخي بالاصبع العائب في العائلة ، بالمتمرد على الأصول والأواصر والخارج عليها ، قل فيّ ماشئت ، ولكن دعني هكذا حتى أهتدي لشيء يوما لعلكم انذاك تفهمونني على حقيقتي فتسامحونني .

وقد ذيل رسالته بقوله : (ان لم تأت أنت سأحمل زوجتي وأولادي الأربعة وآتيك ، ولا تتصور بأن ثمن تذاكر السفر الغالي سيمنعني عن

ذلك)، ولم ينس أن يكتب لي ما بين قوسين ذلك المثل الشعبي العراقي الشائع الذي يردد في مثل هذه المواقف (اللي ما يجي عليك، تعال أنت عليه).

الرسالة الثانية كانت من لندن وتحمل توقيع حسان صبحي وفيها يقول لي :

(لم أكتب لك كل ما أريد كتابته من بيروت فقد كنت خائفا لا أستقر، ورأسي لم يستعـد صفاءه حتى أسلسل أفكاري بوضوح، ولكن ها أنا أكتب لك اليوم بعد أن مر على وجودي في لندن تسعة عشر يوما، أنفقتها كلها مع التي أحببتها وجئت أرجو لقاءها، لقد تفرغت لي تماما، أعطتني كل الوقت وكل الحب، وجعلت هذا الهيام الذي أكنه لها يتأكد ويترسخ أكثر. لا أستطيع أن أجزم يا غياث بأنها لم تعرف انسانا آخر غيري في لنـدن، ولكن ان كان هذا حاصـلا فعلا فان وجودي مسحـه وألغاه تماما، والا متى تلتقي به ؟ وأين ؟ وكيف لانسان يخبىء شيئا أن يعطي من نفسه هذا الفيض الغامر ؟ انها امرأة شنيعة، لن يستكين رأسها الا بعد أن تقضي على زجاجة ويسكي كاملة كل ليلة، تتحرر بعد ذلك من ثيابها وتضع اسطوانات مجنونة وترقص وترقص حتى تتقاتل أعضاؤها ويسكب جسدها ما خبأه من عرق ثم تصرخ وتهجم علي لتعريني، انها التي تفعل ذلك ولست أنا فهل لك أن تتصور المشهد ؟ ولن ترتوي مهما فعلت، ومهما سكبت في عروقها من دمي الشحيح. لذا أحس أحيانا بأنني أهزم أمامها وانني أقع مضرجا ولكنها مازالت راغبة في المزيد، وعندما تحس بأنني قد أفرغت مسدسي من آخر اطلاقة يتملكها هدوء غريب، تدخن سيكارة ثم تحتمي بصدري لترقد آمنة حتى ساعة متأخرة من النهار).

ثم يحدثني في رسـالته أيضا عن صديقنا مروان حيدر، ذلك الرسام المتوحد كما أسميته، ويخبرني بأنه قد انقطع عن جلسات المقهى المسائية، وقد سألت عنه كثيرا فلم يعرف أحد أي خبر عنه، حتى شقته وقد وقفت

أمام بابها مرات وضغطت على جرسها ولم أجد من يرد علـي.

ثم يخبرني حسان أنه هو الآخر كف عن الذهاب إلى المقهى إلا لماما فقـد بدأ يحتله مراهقـون صاخبـون، عاشـوا بوقـاره وهـدوئه اللذين عرفناهما، ولكنه أشار إلى أن سميرة حليم مازالت ترتاده كل مساء تقريبا هي وقريبة لها مغرمة بممثل تليفزيوني معروف غالبا ما يمضي أمسياته في المقهى، وأنها تبادره بالسؤال عني عندما تلتقيه، ويرد عليها غامزا : (هل أسألك أنا عنه ؟ أم تسألينني أنت ؟) فتجيب ببرودة أعصاب : (غياث طائر لا يحب الأقفاص، ولذا علينا نحن أحباءه ان نتركه هائما في سماواته حتى اليوم الذي يتمزق فيه جناحاه فيحط على أقرب وكر).

ويعـود ثانيـة للحديث عن الرسام المتوحد ويخبرني بقوله : (ولكن المفاجأة انني التقيت به قبل سفري بيوم واحد فقط، وكان لقاؤنا شبيها بمشهـد من فيلم بوليسي يكتم الأنفـاس، ويـزيد من خفقان القلب، أتدري كيف حدث ذلك ؟

كنت أوقف سيارتي في محطة للبنزين في انتظار ملء خزانها، وفجأة جاءني رجل مسلح، يضع رشاشته الكلاشنكوف على كتفه، أحنى قامته المديدة وأخذ ينقر بأصابعه على زجاج السيارة يدعوني لأن أفتح الباب، وعندما فعلت ذلك قال لي :

ـ استاذ حسان تفضل معي لحظة.

فتحت باب السيارة وخرجت بعد أن تمتمت بكلمات الشهادة، فرغم كل شيء لا أريد أن ألقى وجـه ربي إلا وأنا مسلم مؤمن. اتقدت فجأة جذوة الايمان المخبـأة في داخـلي لتكون تميمتي وملاذي، وأنا أتبع هذا المسلح الطويل الذي يرفس الأرض رفسا بخطواته، ولكن ما خفف من خوفي هو انه كان يمشي أمامي، ولم يسقني أمامه، كما ان نداءه لي كان مصحـوبـا بكلمـة أستـاذ، وتـوقف أمام سيارة مرسيدس زرقاء كانت تصـطف مع السيارات الأخرى التي تنتظر دورها أمام مضخة الوقود،

وتطلعت جيدا إلى داخل السيارة فوجدت مروان حيدر جالسا في مقعدها الخلفي وهو يسدد لي نظراته مبتسما.

فتح الباب وخرج إلي وأخذني بين أحضانه، ومكثنا دقائق ونحن على هذا الـوضع، ثم ابتعد عني قليلا ويداه مازالتا ممسكتين برمانتي كتفي وعيناه تتفحصانني، ثم هتف :

ـ عموحسان، كما أنا مشتاق لك ؟

وقلت له غير مصدق انني سألتقيه بعد غيابه المفاجىء :

ـ وأنا أكثر شوقا.

بعد ذلك سألته :

ـ أين كنت ؟

قـال :

ـ في هذه الدنيا.

وأضاف بلهجة مسرعة :

ـ ثمة أشياء كثيرة قد جدت.

ـ ولكنني لم أعد أعرف شيئا عنك منذ أن هجرت المقهى ؟ ظننت أن أحدا قد اختطفك، أو انك انتابتك نوبة قرف مفاجئة فسافرت.

وسألني بدعابة :

ـ ماذا عندك الآن ؟

أجبتـه :

ـ لا شيء، ولكنني ذاهب إلى مكتب احدى المجلات، فقد طلبوا مني أن أساهم في تصميمها واخراجها.

وهنا اقترح علي :

ـ ما رأيك في أن نذهب إلى مقهى قريب لنرتشف فنجاني قهوة ونثرثر قليلا ؟

ووافقته على اقتراحه وأنا أقول :

- أقرب وأهدأ مقهى في مثل هذا الوقت المبكر هو « الدولتشه فيتا » سأسبقك إليه.

وردد وهو يلوي ليدخل السيارة :

- حسنا، سألحق بك.

* * *

جلسنا متقابلين في شرفة المقهى الخالي من الرواد، وأمامنا كان البحر مخبأ وراء دكاكين الصفيح التي بدأ بتشييدها أصحاب المخازن الفارين من منطقة الأسواق القديمة.

قلت له :

- لقد أرعبني مرافقك المسلح هذا عندما جاء ليناديني.

وقهقه بضحكة حرة وهو يعلق :

- لقد تعمدت هذا، لأنني أعرف أن أعصابك قوية فأردت أن اختبرها

فقلت له بعتاب :

- قاتلك الله، ثم انني لم أخرج الا قبل مدة قصيرة من تجربة خطف كادت تنهي حياتي، ولا أريد أن أحدثك عنها الآن قبل أن أسمع اخبارك.

أخذ يمرر سبابته على شفته السفلى التي استحوذ عليها الجفاف، ونبتت دملة صغيرة في طرفها ثم تمتم وكأنه يتهرب من الرد على تساؤلي :

- من يظن أن هذا المقهى العامر سيكون قفرا هكذا بعد أن كانت أحداث الوطن العربي الكبيرة تصاغ حول موائده ؟

وأضاف لكي لا يعطيني المجال لأعاود السؤال :

- ومقهى الهورس شو تحول إلى مطعم لبيع السندويشات، هذا هو الخراب بعينه وبعد، وبعد.

وبعد أن وضع النادل فنجاني القهوة أمامنا، اخذت رشفة من فنجاني ثم سألته :

ـ مروان، لا تتهرب مني، قل لي ما الذي حدث حتى انقلبت حياتك هكذا ؟

هز يديه ثم أخذ رشفة متمهلة من فنجانه وقال مذعنا لالحاحي :

ـ كل الذي حدث انني كرهت ان أبقى مراقبا، احتج بالألفاظ فقط، ثمة خراب شنيع، يعم كل شيء، ولعبة السياسة كبيرة، لذا اتخذت قراري بأن ألعبها بما تبقى بيدي من أوراق، ومادامت الطائفية هي الصوت الأعلى في هذا البلد لذا التصقت بطائفتي وبالتنظيم المسلح الذي أقامته، وكان مركزي الثقافي والاجتماعي يؤهلني لأن أكون عضوا في القيادة العليا لهذا التنظيم، نعم، أنا في هذا الموقع الآن، ومن قبل لم تمسك يدي الا بفرشاة الرسم، وها هي اليوم تمسك بكل الأسلحة القاتلة والجارحة.

وتمتمت غير متفق معه :

ـ ولكنها لعبة خطرة وأنت لم تخلق لها ؟

فرد محتدا :

ـ أعرف ذلك، ولكن إذا كان الأمر يتوقف على هذا العنق فليقطعوه.

وعدت إلى ارتشاف قهوتي محاولا أن أواجه هذا الموقف المربك الذي غاص فيه هذا الانسان الذي عاش حياة أخرى، لها أبعادها وغناها، وكان دوما المندد والصارخ خارج اللعبة كلها، ولم يدر بخلدي يوما أنه سيكون طرفا فيها بكل هذا العناد والاصرار.

قلت :

ـ تعرف ان لعبة الطائفية خطيرة، وهي تهددنا جميعا، ليس أنا وأنت بل وكبلدان عربية مجتمعة وكان من الممكن أن يكون لك دورك ولكن من خلال حزب سياسي مثلا ؟

ورد بلهجة حاسمة :

ـ أتتصورني مغفلا ؟ النتيجة واحدة يا عمو حسان، وحتى الأحزاب

ما هي إلا طوائف، الفرق بيني وبين الكثيرين انني كنت أكثر جرأة منهم إذ سميت الأشياء بأسمائها.

وقلت مواصلا المناقشة التي حاذرت أن أجعلها بعيدة عن النقار :

ـ لو بدأت بالانحياز الديني بشكله العام لكان ذلك أهون، ولكن الانحياز الطائفي يتناقض تماما مع المبادىء والتطلعات التي يؤمن بها جل المثقفين العرب في مثل هذه المرحلة ؟ ثم أسألك سؤالا آخر أرجو أن لا يستفزك وهو ماذا تسمي انتماءك القومي كعربي قبل كل شيء ؟ ولأسبقك أنا إلى الرد وأقول ان المسار الطائفي مطب كبير والخطر فيه انه غالبا موجه من غير العرب، ثم متى كان الانتماء الطائفي أقوى من الانتماء القومي ؟ أنت تستطيع أن تغير دينك أو طائفتك ولكنك لا تستطيع أن تغير قوميتك فهي أصلك وجذورك، أفهمت ما أعنيه ؟

ربت بيده على الطاولة فكاد أن ينقلب فنجانا القهوة وقال متملصا :

ـ لا تتصور انك ستحاصرني أو تحرجني بهذه الأسئلة، لقد وضعتها في حسابي كلها، ولا تنس ان بعض الطوائف تمر بلحظات صعود ولحظات ضمور، وطائفتي اليوم في لحظة صعود ولذلك فانني معها بكل طاقتي، تأمل ما صنعته هذه الطائفة هناك باسقاط نظام الشاه ؟

فتساءلت وكأنني لم أفهم شيئا :

ـ وما دخلك أنت بما يحدث في بلد آخر يبعد عن بلدك آلاف الكيلومترات ؟

وقال مصرا :

ـ دخلي أن أضرب لك مثالا عن كيفية رفع طائفتي لرأسها بعد ذل.

وأجبته ببساطة :

ـ ألم يكن الشاه من نفس الطائفة أيضا ؟

وتمتم بحزم مبتعدا عن سؤالي :

ـ الطائفية هي القاعدة والقائدة والمتحكمة اليوم، ويجب أن ندخل فيها

ونكون جزءا منها حتى نفيد من ايجابياتها، أو نوجهها بالشكل الأمثل والفعال.

وصفنت برهة محاولا أن أجد الجواب خارج هذا الحوار الذي أصبح عقيما، ولكنني عجزت، لذا قلت بيأس :

ـ أنت واهم يا مروان، صدقني.

وقـال :

ـ كلانا واهم يا عمو حسان، ان أردت الحق، ولكن بين لعبة الوهم والواقع لم تعد هناك حدود، هيا اضحك يا عمو حسان، لو لم أكن مرتبطا بموعد لسكرت معك حتى نسقط ثمالة، ولكن أعدك بأنني سأختطفك من الطريق يوما، أو أرسل لك من يختطفك ويأتيني بك لأسكر معك فقط.

وأطلق ضحكة عالية، نهض بعدها وهو يمد لي يده مصافحا).

كان هذا بعض ما ورد في رسالة حسان صبحي، وهو أمر لم يدفعني الا ان ابتسم برثاء لأشياء كثيرة كنا نضعها في مواقع متألقة، ولكن يبدو أن الكسوف والتقهقر يهددانها دوما.

صديقي الرسام المتوحد، هل أقول رحمك الله ؟ حسنا، لماذا لا أقولها مادامت الرحمة للحي والميت كما كانت حكيمة بنت الشيخ جابر تردد دوما ؟

ولكن من يدري انك مازلت حيا فعلا وقد ألقيت بنفسك في المعمعة، وفي عالم الطوائف والمتفجرات والكلاشنكوف وتحت حراسة مسلحين ملثمين لا يفقهون عن أية قضية يدافعون.

* * *

أما الرسالة الثالثة فكانت من كامل السعدون، فتحتها وقرأت توقيعه في أسفلها، وكانت مفاجأة مدهشة أن يكتب لي، تركتها مشرعة على المكتب ونهضت من مكاني، وأخذت أخطو في الغرفة، ثم فتحت نافذتها

وتنفست عدة مرات بشهيق طويـل، بعـد ذلك عدت إلى مكاني لأبدأ رحلتي مع كلمات الرسالة التي استحوذت على تسع صفحات من الحجم المتوسط.

يقول كامل السعدون فيما يقوله :

(. . هنا أحس بعدم الخوف، وحتى ان خفت يوما فان خوفي من نوع آخر، كأن أخاف من أن يسفرّوني لأنني لا أملك الأوراق القانونية للاقامة والعمل، أخاف من أن أمرض وأنا وحيد ولا أحد يهتم بي، وهذا الأمر قد يحدث للانسان حتى وهو في بلده، يحدث لنا كلنا نحن الذين وجدنا أنفسنا خارج مؤسسة الزواج والعلائق الاجتماعية الأخرى كلها، ولكنه ليس الخـوف الـلاسع اللاأخلاقي الذي عرفناه هناك، حيث الاعتقال المجاني ومداهمة البيوت وترويع الأطفال من قبل مخبرين ورجال شرطة أغبياء عتاة، يشخصون انتماءك السياسي من لون ربطة عنقك، أتتذكر كل هذه المصائب التي مرت بنا ؟

أريـد أن أتحول إلى الحديث في موضوع آخر، وأسألك : هل أنك مازلت تستقرىء ما يجري أمامك وحولك ؟ إنك تفعل ذلك حتما، بحكم انتمائك أولا وبحكم عملك في الجامعة العربية ثانيا.

هل تصدق بما حدث هناك ؟ ترى كيف يكون العالم غبيا أحيانا لدرجة لا تصدق ؟

وإلا لماذا هذا التصفيق والتهليل عندما تغدر الثورات الحقيقية وتسلب من قبل البعض ؟ ولماذا يصدق العالم من أقصاه إلى أقصاه ؟ من شرقة إلى غربه هذه المسرحية الكبيرة ؟

إنني لا أستطيع أن أصرخ مخافة أن أتهم، رغم أنني بت عارفا بكل شيء ومتوقعا له، وكلي ثقة أن هؤلاء الدعاة الجدد قد سرقوا الكحل من

العين، ليس ببراعتهم هم، بل ببراعة من أعطاهم الدور لاطفاء كل ومضة أمل حقيقية كانت تعد بها ايران تلك البلاد المترامية التي عرفت شعوبها القهر قرونا.

هنا تستطيع أن تقرأ صحف اليمين واليسار معا، صحف المعارضة وصحف الحكومة، وليس كما كان يحصل عندنا في تلك الأيام حيث كان يشكل شراؤك لجريدة معينة دون غيرها علامة عن انتمائك الحزبي أو ميولك السياسية كما كانوا يقولون مخففين الأمر، ويتركون جواسيسهم الجهلة يلهثون وراءنا، يتعقبوننا في كل مكان نحل فيه، ولو كان المرحاض يسع لاثنين في وقت واحد لما توانوا عن دخوله معك. ومرة كلفوا أحد المخبرين بملاحقتي ففعل ذلك بدأب أياما، ولم يكن تشخيصه من قبلي صعبا، فكان هو يعلن عن وجوده مباهاة وفخرا كما يظن، والبعض كان يتمادى بركوب دراجة هوائية حتى لا يأتيه التعب خصوصا إذا كان يلاحق انسانا مثلي لا تستقر مؤخرته على مقعد أكثر من عشر دقائق متواصلة، لقد وجدني هذا المخبر الأبله اشتري الصحف كلها، فاحتار في أمري، وضاع من يده الخيط، ويبدو أن تقاريره التي أخذ يرفعها إلى رؤسائه عني أصبحت مرتبكة متناقضة، ولعلهم وبخوه على ذلك، لذا أمسك بي من كتفي يوما وهو يسألني بصوت كله توسل وذل :

- قل لي يا أستاذ، ألست منتسبا للحزب الفلاني ؟

فأجبته :

- ربما.

وعاد يسألني بتوسل :

- إذن لماذا لا تشتري صحيفته وحدها وتريحني ؟ لماذا تشتري الصحف كلها وتدوخني هكذا ؟

فأجبته لعلني أوضح له :

- السبب في أنني مواطن من هذا البلد وأعيش فيه، وعلي أن ألم بآراء

كل الأحزاب والاتجاهات السياسية التي تحرك الأحداث وتصنعها فيه .

ولم يفهم ما ذهبت إليه ، وقد هز يده سخطا وحيرة وهو يشتمني بصوت عال .

كان يريد أن يسمي الأشياء بأسمائها ، لذا عاد وأضاف في يوم آخر :

ـ لابـد أنـك سياسي خطير، لذا تريد أن تموه علـي خططك ، ولكنني أعرفك جيدا ، ولن تفلت مني ، وراءك ، وراءك ، مهما فعلت ، وأينما ذهبت .

وظل ورائي فعلا ، ولعدة شهور حتى تآلفنا تدريجيا ، وصرت أدعوه ليجلس بجانبي في المقهى ، ويحـدثني عن أولاده وظـروف تعليمهم وصعـوبة العيش ، ولم أعطه أي مبلغ من المال ، لأنني كنت عاطلا عن العمل يومذاك ، ولكنني كنت أدفع ثمن الشاي أو زجاجة المبردات التي يتناولها في المقهى) .

ويقول في مكان آخر من رسالته :

(دخلت هذه القرية السويسرية عابرا ، ولكن ها أنا أقيمُ فيها منذ سبعة أشهر تقريبا ، وأنا أسميها قرية تجاوزا ، ففيها أربعة فنادق وثلاث دور سينـما ، ومـرقصـان وستـة مطاعم كبـيرة غير محلات السنـدويش والحلوى ، وأربعة أسواق وأكثر من عشر حانات جميلة ، يلذ لك فيها أن تنصت للموسيقى الصاخبة وأمامك كأس كبيرة ذات عروة مليئة بالبيرة التي تسكب للزبائن من براميل خاصة .

إنني أعمل في أحد فنادق القرية الأربعة . في أصغرها ، وأرخصها ، بعـد حلولي فيـه بيـوم شاركت صاحبه العجوز حديثا باللغة الألمانية ، فأعجب بإجادتي لها ، وقد قال لي وهو يفغر فمه تعجبا :

ـ عربي وتجيد هذه اللغة كل هذه الإجادة ؟

ثـم سألنـي :

ـ أين تعلمتها ؟

فأخبرته أن البدايات كانت في السجن على يد طبيب تخرج من احدى جامعات المانيا الاتحادية، وبعد أن أطلق سراحي استكملت معلوماتي في معهد « غوته » ببغداد، ومن ثم جاء دور الصحف والمجلات والكتب وهكذا.

وعندما عرف عني انني أبحث عن عمل ومستقر عرض علي البقاء معه ومعاونته في ادارة الفندق فقبلت على الفور، وها أنا اليوم أشكل كل شيء في هذا الفندق الذي يضم عشرين غرفة ومطعما صغيرا لفطور الصباح، أسجل أسماء النزلاء، وأحيانا أعينهم في ايصال حقائبهم لغرفهم المخصصة إن كان العامل المكلف بذلك غائبا أو منشغلا بشيء.

صاحب الفندق هذا جنرال فرنسي متقاعد، أقام في هذا المكان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واكتسب الجنسية السويسرية، وقد ماتت زوجته قبل سنوات، ولم تعد له إلا ابنة متزوجة من أمريكي جاء سائحا واختطفها مني، هكذا كان يقول، وأخذت رسائلها تقل حتى انعدمت ولم يعد يعرف عنها شيئا.

وهو رغم قتاله ضد هتلر إلى جانب قوات الحلفاء إلا أنه يعتقد بأن هتلر لم يكن انسانا اعتياديا، وكان من الممكن أن يروض هذه البشرية السائبة الجامحة ويضعها في المسار الصحيح، وقد عرف الوسيلة في تحقيق ذلك وهي القوة، ولكنهم اجتمعوا عليه وغلبوه وأضاعوه.

هذه هي أفكار الجنرال العجوز التي يطلقها بعد أن يتجلى ويتألق إثر كأسين من الويسكي يتجرعهما متمهلا بدون ثلج ولا ماء، وقد قلت له يوما :

- إنك تذكرني بالحجاج.

ثم حدثته عنه فانطلق فرحا، وثمل تلك الليلة بعد أن شرب أربع كؤوس نخب الحجاج والعرب كلهم. كسر قاعدته اليومية قبل أن ينهض متهاوتا، ليحمله عكازه الأثري إلى منزله القريب.

يوما ما قال لي :

ـ ظننتك فلاحا جرمانيا عندما رأيتك وأنت تدخل فندقي لأول مرة بشعرك الأحمر الكث ووجهك المائل إلى الحمرة أيضا وشاربيك اللذين لهما نفس لون بشرتك حيث لا يمكن للمرء أن يراهما عندما يكون على بعد خمسة أمتار منك.

وقلت له مازحا :

ـ الألمان لم يصلوا العراق، ولكن الأتراك والانكليز فعلوا ذلك وربما تكون احدى جداتي قد وقعت في غرام واحد من أبناء هاتين القوميتين، أو ربما اغتصبها أحدهم فكثيرا ما يحصل ذلك. انني هنا ذائب ولكن في بلدي لي تميزي بين ملايين الوجوه السمراء وهو ما يمنحني فرصة أكبر مع النساء.

ويضحك الجنرال الشيخ ويتساءل :

ـ وهنا ؟

ـ أدبر أموري في الأوقات التي أستطيع فيها أن أفلت من أسار الفندق، لقد ارتبط كل شيء فيه بي للدرجة التي يختل فيها العمل عندما أغادره ولو لساعة واحدة فقط).

ثم يتنقل بعد ذلك للحديث عن سعيدة بنت المنصف التي لم يعد يذكر اسمها ويقول :

(كان آخر مافكرت فيه أن تلك الشقراء الناعمة عربية الأصل، ولكن قد تكون هي الأخرى مثلي غرسا من ضابط فرنسي مخمور اغتصب جدتها أو أمها يوما، أو أنها استسلمت له برغبة وحب وهي منبهرة بفتوته وشقرة شعره، فجل السمر يعيشون هذه العقدة، وقد عرفت أكثر من عربي في أوربا لا يهمه نوع المرأة بقدر ما يهمه أن تكون شقراء وقد انقلبت الآية بالنسبة للنساء أيضا فترى البيضاء كالثلج ممسكة بذراع زنجي قبيح، جسده يفوح برائحة العرق العطنة، انه الجنون بعينه.

ولكنني أظنــك لم تفلتهــا، ان صدقت وأوصلت إليـك رســالتي، فالجميـلات غالبـا ما يكن كاذبات، ومن يدري فقد تكون قد مزقت رسالتي التي تعبت في تسطير حروفها بعد أن ودعتها مغادرا القطار بدقائق ورمتها من النافذة ؟ أو تكون قد حملتها لك فعلا فاقتنصتها، دون أن تترحم على أجدادي، فأنا أعرفك كيف تصبح لعينا في مثل هذه الحالات، تبحث عن المخطِيات اللذيذات لتعيد أمجاد أجدادك التعساء).

ثم يقول :

(غياث داود، قد تطول الرحلة، ستة أعوام أو أكثر، لقد ضاع علي الحســاب، من غسـل الصحـون في مطاعم الـطلبـة بروما، إلى بيـع الصحف في جنيف، إلى حاسب صغير في محطة للبنزين ببون، إلى بائع صحف أيضا في فينا، أزاحم المهاجرين المصريين الشبان الذين يستأثرون بالمهنة، إلى موظف في هذا الفندق الآمن الذي لن أكتب لك عنوانه بسبب قرب مغادرتي له نهائيا، وهذا أمر سأشرحه لك.

أخي غياث . .

الأمان والسلام، آخ ما أروعهما ومـا أعظمهما بالنسبة لنا نحن الذين كتب علينا أن نظل مطرودين مطاردين إلى الأبد، ولكن إلى متى ؟ وبأي شيء خرجنا ؟ قد تكون أنت شيئا آخر، إذ أنك « مع » أما أنا فلست « مع » ولا « ضد » ولست « بين بين » أيضـا ومن هنا أعايش لسع هذه السياط المجهولة التي تأكل أضلعي.

عندما كنت في بون فكرت في الزواج من ألمانية رائعة، لم أجد امرأة تماثلها في العطاء عندما نكون معا. حتى في الفراش لها ندرتها، ولكنني اكتشفت يومـا أن لها حياتها السرية الأخرى، حيث اعترفت لي بذلك وأخبرتني بأنها عضوة في منظمة ارهابية، تختطف وتقتل وتداهم البنوك، لأن هذا الصفاء الكاذب الذي يظهر على وجه العالم يجب أن يتم تلطيخه وتشـويهه حتى يتعرى الممسوخ والمشبوهون ويؤدوا رقصة موتهم الداعرة

الأخيرة ـ كما كانت تقول.

كانت متحمسة للزواج بي، ولكنني حملت حقيبتي وغادرت المدينة دون أن أترك لها خبرا يدلها على مكاني، ومن يدري فقد تكون في أثري الآن لتختطفني وتتزوجني بالقوة).

ويقــــول :

(أريـد أن أفـرغ أشيـاء كثـيرة، أتوسدها وكأنها فراش من أشواك ومسامير متظاهرا بالأمان والدعة، ولكنها تعذبني وتسيل دمي، عذري يا غياث انني قد حاولت وضمن امكاناتي المتواضعة أن أقدم في العالم الذي اخترته منفى لي الصورة الأخرى التي لا يعرفونها عن هذه الأمة المستلبة المبتـلاة، وهم لا يرون منهـا الا ديـوك البـترول، وأصحـاب الجيوب العامرة، ورواد بيوت الدعارة التي أنشئت خصيصا لهم في جل عواصم أوربا.

أردت أن يفهم هؤلاء المضللون بأن لهذه الأمة شهداءها ومناضليها وفقراءها ومشرديها، أما السماسرة الأدنياء فلن يمثلونا وإن حسبوا علينا، وليسوا منا أبدا.

إنني أرى الكثـير من الـوجـوه فأمتلىء أسى، ولكن وجهي الأبيض وشعري الأحمر يشكلان لي مفتاح النفاذ، فهما كالحجاب الذي من ورائه أنصت لهذا الهجـوم الـذي نسلق به بسبب هؤلاء الفحـول المخصيين، والـذين لا يرون من الـدنيـا غير ثقوب النساء. وعندما أتذكر الأمثلة أصاب بالقرف والدوار، مرة كدت أقتل أحدهم، أشبعته ضربا وركلا وبصقا وتركته مرميا وهربت، ومن الغريب أن بعض المارة لم يحاولوا انقاذه مني بل على العكس أخـذوا يشاركونني في ضربه. هكذا تفجر حقدي الكامن على هؤلاء الأغبياء القادمين من مدن الكونكريت والكبت والعقم).

ويقول أيضا :

(غياث يا صديقي،

أريد أن أتحول إلى الحديث في موضوع آخر، وأسألك : هل مازلت تستقرىء ما يجري أمامك وحولك ؟ أنت تفعل ذلك حتما، بحكم عملك في الجامعة العربية أو جامعة التشتت العربية كما يلذ لي أن أسميها.

هل تصدق بما حدث هناك ؟ ترى كيف يكون العالم غبيا أحيانا لدرجة لا تصدق ؟ وإلا لماذا يصدق هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه ؟ من شرقه إلى غربه هذه المسرحية الكبيرة ؟

إنني لا أستطيع أن أصرخ مخافة أن أتهم، رغم أنني بت عارفا بكل شيء ومتوقعا له، وكلي ثقة أن هؤلاء الدعاة الجدد قد سرقوا الكحل من العين، ليس ببراعتهم هم، بل ببراعة من أعطاهم الدور لاطفاء كل ومضة أمل حقيقية كانت تعد بها تلك البلاد المترامية التي عرفت شعوبها القهر قرونا.

إن الذي يقاتلك بسلاحك، هو طالب رأسك في الأخير، هذه بديهية نعرفها جيدا، لذلك كنت أقرأ عناوين الصحف وأنصت إلى محطات الأذاعة وأشاهد التليفزيون بصمت حجري.

ومرة قام محرر في إحدى الصحف السويسرية بإجراء استفتاء مع عدد من المواطنين المختلفي الجنسيات عن الموضوع، والبدائل الجدد، والعمائم، وآيات الله، عن كل هذا، والجميع ردوا وفق مسار الموجة، إلا أنا، فقد أجبته بابتسامة فقط، فسألني :

- ماذا تعني بابتسامتك هذه ؟

فقلت له :

- ألم تفهمها أنت ؟

فقال :

- كلا.

وهنا أوضحت له بكل هدوء :

- أعني بها أنني قد أضعت أكثر من أربعين عامًا في هذه الدوامة الأبدية التي يسمونها سياسة. أنتم تعرفونها مظاهرات صامتة ويافطات وإضرابات ومقالات في صحف وأشياء أخرى من هذا القبيل، أما نحن فنعرفها تعليقًا من الأرجل في مراوح سقفية، ورجات كهربائية، وأنابيب مطاطية في الأست، ومشانق، وسجونا صحراوية، ومخبرين ورجال شرطة وكلاب صيد، ولهذا السبب لم أرد عليك بمثل ما رد هؤلاء الناس البسطاء الذين يرون من الأشياء قشورها، وكان من الأنسب لي أن ابتسم لك فقط.

ولم يفهم ما قلته وما عنيته، ولم يحاول أن يناقشني أكثر إذ سرعان ما تركني ليتوقف أمام مواطنة عجوز ليوجه إليها نفس السؤال من أجل أن يفرغ سريعا من التحقيق الصحفي الذي كلفته به جريدته.

غياث داود

يحدث هذا هناك الآن، قريبا منا، وبمحاذاتنا، والترقب وحده لم يعد كافيا، ترى ما هي البنود اللاحقة في هذا الحلف ؟ وما هي الوقائع الجديدة في هذه المسرحية ؟ وهؤلاء الشرهون الفاتحون أفواههم هتافًا والذين لم يعودوا يبصرون إلا ما يلمسونه بمدى أيديهم أين سيكون مآلهم ؟ وما الذي يبتغونه بعد ؟

عندما غادرت بغداد ذلك اليوم كان في نيتي أن لا أعود، ولست أول من خرج ولا الأخير، لقد اخترت طريقي، بينما اختار آخرون طريقهم المغاير، وبينهم أنت، ولكن قلبي ظل هناك يفرح لكل خطوة نحو الأمام ويحزن لكل عثرة، فأنا ابن العراق قبل كل شيء.

ولكن عندما تدلهم السماء، وتؤشر الأنواء قدوم طقس غريب، آنذاك تفرض عليك الأحداث موقفا آخر، وتملي عليك تحركا جديدا، وهذا ما أحسه الآن، وقد لا تصدق إن قلت لك بأن عيني لم تعرفا الرقاد العميق

إلا بمعونة الحبوب المنومة، هذا ما أنا فيه الآن.

غياث داود، أنت تعرف كامل السعدون جيدا، وتعرف كم أنا عاقل رتيب في أغلب الأحيان، ولكن لي جنوني أيضا الذي أعتز به وأمجده، ولذا عليك أن تسمع قراري الجديد دون أن تعلق عليه بشي، فلا حاجة لي بذلك. فقد تكون هذه الرسالة بين يديك في الوقت الذي أكون فيه قد حللت هناك، نعم، في بغداد، في الأرض المنبت، والأرض المصير، ترى هل فاجأتك ؟ لا أعتقد هذا، فأنت قد اعتدت مني كل التناقضات وروعتك أنك لم تخضع شيئا من تصرفاتي هذه للحساب، إذ أنك تفهم أن الذي في رأسي يظل في رأسي، وأنا وحدي القادر على توجيهه والتحكم فيه.

إن لي أذنين تصغيان جيدا، ولم يصبهما الوقر، أما هاتان العينان فرغم أنني لا أطيق بهما أن أحل حروف الجريدة إلا بمعونة نظارة طبية تزداد سمكا كلما تقدم بي العمر، إلا أنهما تريان بعيدا، إنهم كعيني زرقاء اليمامة اللتين رأتا ما وراء الأشجار القادمة، إنني أقرأ الخطر الآتي وأؤشره، لذا سأرحل لأكون قريبا، رغم أنك قد تقول ماذا يقدم كامل السعدون هذا الرقم الضال بين أربعة عشر مليون عراقي، ولكن لابد من الذهاب، فالقضية لم تعد قضية خلاف واجتهاد وموقف من حزب حتى ولو كان حاكما بل إنها قضية وطن بأكمله، ومن هنا تصغر مشكلة شخص سجل اعتراضه بسفره).

طلبت فنجان قهوة، ونهضت لأتمشى في الغرفة الصغيرة على عادتي كلما تعبت من الجلوس وراء المكتب ولأؤدي بعض التمارين الرياضية علها تزيح عن صدري احتقانه وعن عروقي خدرها وأستجمع صفائي. حيث أقف على إحدى ساقي وأطلق الثانية لتتحرك إلى الأمام والخلف، ثم أستبدلها بالأخرى، أفعل ذلك على عجل وعيناي تراقبان باب الغرفة حتى لا يدخل علي الساعي بفنجان القهوة، ويظن أنني قد أصابني مس.

وبعد أن أفرغ من ذلك أعود للجلوس وراء مكتبي لأواصل قراءة بقية الرسالة.

(هذه أمة تقود نفسها للشرك، هكذا أقول لنفسي مرات، ولكن هل المبرر أننا لا نملك شيئا معينا وواضحا لنفعله ؟ وأن تلك المقولة السلفية مازالت تتردد وهي تعلن أن ليس بالامكان أبدع مما كان ؟ هل استنتاجي صحيح ؟ إن كان كذلك فإنها الفجيعة بعينها، وأنها الانتحار والدمار).

كلام كثير باح به، وربما ظل يؤرقه، ولم يجد إلاي من يصبه له.

ويقول أيضا في مكان آخر من رسالته :

(من يمثلنا في هذه البلدان ؟ لقد رأيت بهاتين العينين عشرات النماذج وعرفت البعض منها عن قرب، وكم أود لو أغرس اصبع يدي الوسطى في مؤخرات هؤلاء البلهاء الذين لا أدري من أرسلهم ؟ وأية وساطة قادتهم ؟ وأنا هنا لا أخصص بل أعمم لأن الأمر لا ينطبق على بلد دون غيره.

كلنا نعرف أن البلدان المتقدمة التي تريد أن تحصد نتائج إيجابية من وراء عملها الدبلوماسي لا تبعث بأي كان في هذا العمل الصعب. وإن اعتبارات عديدة غير الالمام بتاريخ البلد الذي يرسلون للعمل فيه وأحزابه ورجاله وجغرافيته تدخل ومنها الوسامة والرشاقة والأناقة والذكاء.

أما أنا فلم أر في تطوافي إلا المزيد من الدمامة والغلظة والكروش المندلعة والغباء والقدرة النادرة على معرفة المطاعم والملاهي الليليّة ودور اللهو والمخازن ونوادي القمار فقط.

غياث داود، إننا ننام على فضيحة، وستنكشف يوما، وآنذاك لا أدري ما الذي سيحصل ؟

لماذا ينشىء الأوروبيون وحدهم منظمات إرهابية ليغتالوا الرداءة والزيف والتزوير ؟ لماذا لا نفعل ذلك نحن أيضا ؟ وكن واثقا بأنني سأكون أول إرهابي في هذه الأمة.

حط الليل، حط القهر، وحل الانكسار، وأنا سمكة لم تعد تلبط في مياهها الدافئة، أنا سمكة مأكولة مذمومة، تلتهم باشتهاء، ثم يسرع الآكلون ليغسلوا أيديهم وأفواههم ويخضبوا أيديهم ووجوههم بالعطر وماء الكولونيا تخلصا من بقاياي.

حط الثقل على هذا الصدر الذي يتنفس بصعوبة واجهاد، وطائر السماوة قد أخذته المتاعب، ولم يعد جناحاه طليقين قادرين على اختراق السماوات المغلقة والمجهول المدلهم، لقد فقدلذة الاكتشاف والمعانقة البكر لتلك الآماد التي لن تطالها يد ولن تصلها صرخة تفجع واستغاثة.

أما نخل السماوة فحديثه آخر، وتلك الأغنية النائحة التي وضعت على لسانه مازالت تدور وتلاك، تطرب لها الرؤوس المنصتة فترتمي إلى الأمام إذعانًا وهزيمة.

يا نخل السماوة، أين تلك السمراء الفاتنة التي شقت طريقها بين قاماتك المتزاحمة فتركتها سعفا وكربًا لا ثمر فيها؟ إذن لماذا تظل واقفا هكذا مثل فزاعات غامضة، تنتظر قادمين ملثمين، فوق جمالهم وخيولهم لتوقعهم في الشرك وتقودهم سبايا إلى تلك البلاطات العاجة بالسيافين وأكلة اللحوم وشاربي الدم نخب أباطرة ملعونين، يعانون من التخمة والشيخوخة وفقدان الفحولة والإخصاب.

يا نخل السماوة، كل امرىء معه الفه، كل طائر، إلا طائر السماواة، ابن مدينتك الحائر المتقلب، غير البار، المكلل باليتم، دون أن يجد الوقت ليسد ثلمة، أو يرمم خللا، يزنخر جواده المنسحب وهو يجاهد من أجل أن يرفع قوائمه من بحار الغرين والملح، حتى يخب في فلوات خضراء، وهو على صهوته فاتح عتيد، تطأطىء له المدن المندحرة رؤوسها، وتقدم له شعوبها المغلوبة الذبائح والهدايا.

يا نخل السماوة، لماذا لا أحد يعين من يقع ؟ لماذا لا تمتد له يد ؟ لماذا هذا التحجر والتكلس قد أعميا القلوب وعيون هذه الجموع المشتتة الدائخة التي تساقَ إلى يوم حشرها دون أن تعرف لها وجهة أو طريقا ؟
طائر السماوة، سيأتي من يقص جناحيك لتظل منحشرا في باحة الدار مثل دجاجة هرمة أو ديك لم يعد له صوت يطيق الصياح.

طائر السماوة، قد كلّ جناحاك وتقرحا، فهل يأتي يوم نراك فيه مرميا فوق مزبلة، منتفخا، تنفث رائحة عطنة لن يطيق أنف استنشاقها ؟ ينتظرك التفسخ وتحوم حولك الغربان والجوارح ؟

طائر السماوة، نخل السماوة، من لكما ؟ من لي ؟ من لتلك البيوت الواطئة الثكلى ؟ والصدور التي ينخرها الوصب، ويقتلها الظمأ والانخراق ؟

كان حسان صبحي يردد :

ـ لا أعرف من أحب ؟ ومن أكره ؟ فالوجوه كلها أصبحت جميلة، إن جيلا رائعا جديدا يكتسحنا، انظر، تأمل شعرهن وثيابهن، ولكن هل ضاعت علينا يا غياث ؟ورغم كل شيء فإنني أواصل وأقتحم، فأنا رجل لا أستطيع المقاومة ولكثرة ما أوزع ابتساماتي على هذه الوجوه الطالعة التي نبتت مثل أحى الأزهار من بين أنقاض الحرب وفوهات المدافع، أجد نفسي مضحكا أحيانا مثل مهرّج أبله.

خبر

(انفجرت سيارة الرسام اللبناني الشهير مروان حيدر عندما أدار محركها. وانتشر جسده أشلاء تبعثرت مع هيكل السيارة، وهكذا خسر لبنان في حربه المجنونة واحدا من أبرز فنانيه المعاصرين).

خبر تناقلته الصحف مرفقا بصورة له وهو يزم شفتيه ويركز نظراته إلى

الأمام، وقد ألحق الخبر بكلمات تأبين طويلة عددت مآثر وإنجازات هذا الفنان.

ـ تعرف يا كامل السعدون بأنني أيضا رجل صعب، لا يمكن استيعابي بسهولة، ومن هنا فإنني قد أنبت في لهاة كل من يحاول أن يبتلعني، وقد حدث ذلك للكثيرين، ولكن، وبعد كل شيء، ها أنا وحيد الآن، أقلب المجلات الملونة، وأنصت إلى النواح العراقي، وأجاهد من أجل أن أذرف ولو دمعة واحدة.

غياث داود يا عزيزي، قل لي، كيف نستطيع أن نصطاد الأسود، نمسك بالهزبر ونجعله مطية لنا، لنفتح كل القرى المستكينة ؟ نحمل بادىء الأمر رماحنا وقوانا وندلف في دكنة تلك الغابات الخرساء في رحلة الصيد ؟ في الأيام الخوالي شنقت مئات القطط، علقتها من رقابها، وكان أبو مراد على علم بذلك، وهو في متجره الصغير يبيع الشاي والسكر والحاجيات اليومية الأخرى، وفي الأيام الخوالي خصي مئات الكلاب أيضا، سلبتها ما كانت تفاخر به وتركتها تعوي وذيولها مخبأة ما بين سيقانها الخلفية . . ولكن صيد الأسود أمره آخر، اخلع ثيابك، تماما كما يفعل سامي المنذر عندما يؤدي طقوسه، وائتزر بقطعة قماش بسيطة، واقبض جيدا على رمحك واصطحبني.

غياث داود، هل أنت سعيد بهذا الارتحال ؟ وبهذا الانقطاع ؟ ماذا أعطتك المدن والوجوه والكؤوس والأجساد ؟ وأي جني جئت به على كتفيك المتهدلتين ؟ قل لي أيها الناثر حبوبه في حقول السبخ والملح مرة وفي حقول الخصب والمطر مرة أخرى. هل تساءلت في لحظة وئام ؟ في لحظة صفاء ؟ ماذا بعد ؟ وهل أمسكت بجواب لذلك ؟ وإن حصل فما الذي سيحدث ؟ وهل تغير الأنهار مجاريها ؟ وهل تنقلب اهرامات الجيزة على رؤوسها ؟ وهل ستمسح الجبال الشم لتصبح مجرد أودية ووهاد ؟ وهل يورق ثانية وجه أميرة حسين من العدم والفناء ؟ هل

يخضر الرمل ؟ وهل تنطق الحناجر الخرساء ؟.

غياث داود، لعلك تعرف جيدا بأن لا شيء من هذا أو من غيره سيرتسم له جواب شاف، اللعنة والرحمة معًا في أنك لم تخطط، ولم ترشدك خرائط ثابتة، أو تهرول وراء دليل بليد، وكنت دوما كالماء الحر الذي ينساح في الأراضي البكر الشاسعة ليحفر مجراه، فكان أن تعددت مساربك ومجاريك، كل واحد يقود إلى مكان، إلى بحر، أو حقل، إلى صحراء أو مستنقع، لا يهم، غياث داود، هل من هنا كان نبع الأسى ؟

في أمسية ضاجة أوقفك الشاعر أمام فندق إفريقيا، كان ثملا بشكل غريب، بحيث لم تستطع قامته المائلة إلى القصر أن تتماسك، إذ كانت تختض مترنحة، والكلمات يقذفها من فمه بصعوبة مع الرذاذ ورائحة الخمرة.

ـ سألته :

ـ هه، ما بك ؟

قال :

ـ أريد أن أكتب آخر قصيدة، ستكون رثاء لهذا العالم الهرم. سأندد به وأهجوه أمرّ هجاء.

وعدت تسأله :

ـ ولكن ما الذي حدث ؟

رفع سبابته وحاول جمع معطفه المفتوح الأزرار وهو يصرخ :

ـ فتش عن المرأة، من قال هذه الكلمة البليغة ؟ هيا ارشدني أرجوك.

أمسكت به من يده محاولا أن أعبر به إلى الممر المشجر الذي يتوسط الشارع علني أستطيع أن أوقف تهريجه وأنا أرد عليه :

ـ ليس المهم القائل بل المهم الكلمة، لقد نطق بها أحدهم يوما وكفى، وها أنت ترددها الآن.

وصرخ :

ـ رائع، أنت تفهمني، إذن، ولكن.
وكانت كلماته الثملة تنساب من طرفي شفتيه، وكأنه قد ابتلع بقية قطعة الحلوى، ولم تعد جاثمة تحت لسانه.
وأضاف وسبابته مازالت مشهرة أمام وجهه :
ـ دع كل شيء الآن، الي أين تقودني ؟ أريد أن أبقى في مكاني علني أستطيع اصطياد احدى العاهرات، لدي عشرون ديناراً وهي بقية مرتبي لهذا الشهر، ولعلها كافية لمضاجعة أحسن بغايا المدينة.
وقلت محاولاً تهدئته بجهد :
ـ وصاحبتـــك ؟
ـ ولت، ذهبت مع ممثل ملتح، أغراها بأدواره التاريخية التي يمثلها على المسرح أو في التليفزيون وتركتني، لقد عملت من أجلها المستحيل، حملت لها الحلوى إلى دار الطالبات، واشتريت لها الملابس والكتب، ظننتها شيئا آخر، نمطا جديدا من النساء، ولكنها لم تكن كذلك أبدا، بل هي مثل عشرات الغبيات.
ثم وضع يده تحت ابطي وكأنه يهمس لي :
ـ سنصطاد واحدة معا، سيدفع كل منا نصف الثمن.
وسألتـــه :
أتتصور أن الأمر سهل لهذا الحد ؟
وهز كتفيه وهو يقول زاعقا :
ـ ولمــاذا لا ؟ أي امـتياز تحمله أنت عن الآخـــرين ؟ أنــظر هؤلاء الفحول، كلهم لديهم أعضاء، ربما تفوق عضوك بالطول والقدرة على اداء الفعل اياه، فماذا تتصور نفسك ؟ هيا وشاركني، فكلهن عاهرات بالنتيجة.
وتعذرت بألف عذر حتى هربت منه، وصوته الملعلع يلاحقني :
ـ اِمتيازك الوحيد انك تملك سيارة ونقودا فكف عن غرورك الأجْوف.
ها أنـا واجم وراء مقـود السيارة وهي تأخذ طريقها باتجاه بيت عم

سعيدة بنت المنصف لنمضي معًا ليلتها الأخيرة في هذه المدينة، وكانت يدي لا تنفك تعبث بمؤشر الراديو بحثا عن لحن أستطيع أن انصت إليه، ولكن حتى المحطات الأجنبية ترطن بكلمات مقرفة ترجمني كالحجارة وتهد رأسي، دون أن أفهم شيئا من معانيها، لا موسيقى في هذا المساء غير الكلام، عالم ثرثار إلى حد المقت.

سأقف أمام الدار وأضغط على منبه السيارة مرتين فتعرف سعيدة بنت المنصف انني جئت، ستعرف ذلك المرحومة سعيدة بنت المنصف وتأتيني معطرة أنيقة ناعمة، تجلس بجانبي وتعطيني خدها لأطبع عليه قبلة، ثم تطبع هي الأخرى قبلة على خدي، وتتمتم بالسؤال العراقي الذي علّمتها اياه: (شلونك؟) فأردد الجواب الجاهز:

ـ كما ترين.

سعيدة بنت المنصف، ها أنا قريب من دارك، أقف أمام الباب، أنظر إلى ساعتي، فأجد انني قد وصلتك مبكرا ببضع دقائق، بين بيتي وبيتك مسافة طويلة، ولا أستطيع ان أضبط وصولي في الموعد المحدد تمامًا.

تعالي أيتها المرحومة، فأنا مهيأ تمامًا لأن أحمل باقة ورد إلى مقبرة (الجلاز) أو (المكان) (*) أو اية مقبرة أخرى لا أعرف اسمها في مدينة الفئران الشاحبة التي انحدرت منها، لأضعها فوق قبرك، وأقرأ الفاتحة، والعاقبة للمتقين، ولم نكن اتقياء يوما، لا أنا، ولا أنت، وقد أذرف من أجلك دمعة، أو لا أفعل ذلك بعد أن أتى عليّ التحجر والجمود. انك ميتة، أو إذا شئت أن أخفف من ذلك فانك محتضرة، في صدرك بقية من أنفاس، وأنا أتعجل نهايتك، ليحملوك أينما شاؤوا حتى يخلو أمامي الدرب فقد مللت المرابطة أمام وجهك، أعطيتك كل كلمات الحب، وسمعت كل ثرثرتك ومشاريعك المحبطة، وعرفت جسدك في كل حالاته،

(*) الجلاز والمكان مقبرتان في العاصمة التونسية.

فما الذي بقي ؟

سعيدة بنت المنصف، هيا موتي، والرحمة عليك، ولا اله الا الله، وكلّنا على هذا الطريق.

ولكن قد اسبقك أنا لذلك، فمن يرسلك إلى هناك لتحملي إلى قبري باقة ورد ؟ أية طائرة ضالة ستقلك ؟ ربما كنت ستفعلين ذلك لو بقيت مضيفة تحملك الطائرات المغادرة، وتنامين مع طيارين وسيمين، أو مع أغنياء بترول ومقاولين وموظفين كبار، تشترين الثياب والعطور الفاخرة، والحلي الثمينة، تثملين وتضحكين من كل قلبك، وتشتمين في سرك ذلك الغائب الهجين غياث دواد. قد تفعلين أشياء وأشياء، أما أنا فماذا أرقب ؟ وأي شيء سأتعرف عليه وأنا قابع في هذا المرصد النائي ؟ أي خصم أصوب إليه نار بندقيتي الصدئة علني أجندله وأفر هاربًا من عدالة هذا العصر الأغبر، غير الجميل ؟

انطفئي وغيبي، حتى تشرق شمس أميرة حسين، يورق ذلك الوجه الذي أحببته في ذروة فتوتي وتألقي، تدفأت به، وشربت ملامحه، قبلتها وشممتها واحدًا واحدًا، ولكن هل كل هذا مجرد وهم أقتات عليه حتى يوم موتي ؟

انسحبي وفري، فقد تأتي سحر نحاس. تحمل اسمي وعنواني، ليدلوها علي، تطرق باب غرفتي وتدخل، نظل واجمين ذاهلين من وقع المفاجأة، كل منا يلهث مصلوبا في مكانه دون أن يصدق عينيه.

ولكن يا لخيبتي، فهي مازالت هناك، تسلم جسدها لقاتل محترف، يسترق الزيارات من أجل أن يعتليها بعرقه ودبقه، ينزف بين فخذيها حماه وسعيره، ثم يحمل رشاشته ويمضي ليربض وراء متراس ما، يترقب عدوا ما، ولكن من يدري لعل رصاصة سددت إلى صدره من قنّاص تافه فقضت عليه ؟ لتظل سحر نحاس أرملة وحيدة ؟ وكيف تلقاني يومذاك ؟ من يدلها علي ؟ ومن يدلني عليها ؟

أما أنت يا كامل السعدون فما عليك إلا أن تعود إلى قواعدك، حاول أن تهدأ، وأن تنصت جيدا، فالحلم الذي يعربد في رأسك لم تعد في العمر بقيـة لتحقيقه، وقد تقضي نحبك دون أن تتنسمه، وسأعود أنا في يوم آخر، فهناك أرضنا وأناسنا، وأوبئة القرون لن تزاح بسهولة، وطريحها لن تشفيه زرقة واحدة، سأعود بعد أن أبرأ من هذه الشؤون والشجون التي تنهشني، لنستمتع بشيخوختنا، ونعيد جلساتنا وثرثرتنا، أستند إلى كتفك ان ثملت، وتستند إلى كتفي ان ثملت أنت، وقد نقطن في دار واحدة، من يدري ؟ فكلانا قد أصبح خارج كل المؤسسات التي تضم الآخرين ؟

ولكن قبـل أن تغادر تعال معي لنقرأ الفاتحة على روح سعيدة بنت المنصف فها هي آتية وعلى شفتيها ابتسامة دون أن تدري بأن السم بدأ يتسرب إلى عروقها وأن نهايتها قريبة، وسأحملها معي لنمضي معا بضع ساعـات، أوصلها بعدها إلى بيتها وألغي آثارها بمضاجعة أول عاهرة تصادفني في طريق عودتي.

يأتي الملوك الملثمـون بصولجانـاتهـم، تحف بهم حاشية من العبيد والخصيان والمـرتـزقـة والـدجالين، وان أكل الكبر والعته أحدهم يحتفل بذكرى هذه الخاتمة كل عام، تنكس الرايات، وتردد الصلوات والأناشيد، أما أنت يا كامل السعدون فليس لك شيء من كل هذا، ولن تحلم بتمثال صغير يجثم جوار تمثال ذلك الرجل الحامل للقبك ـ وأنت لست قريبا له كما أخبرتني فكلاكما من مكان ـ ولكنه تشابه الألقاب فقط، ولن تحلم بشيء آخر، فقد كف رأسك عن الحلم، الاحتمال الوحيد الباقي هو أن ترضى بك احدى قريباتك، كأن تكون مطلقة أو عانسا أو أرملة لها سرب من الأولاد لم تغرس احدهم في رحمها، وقد لا تجد هذه القريبة، فتظل صنو المقاهي والحوارات الفارغة وتعود إلى مسبحتك الطويلة التي تخليت عنها حتما وأنت في أوربا.

كامل السعدون، عن أي سر مخبأ سترفع الغطاء ؟ أيها الفضائحي المندد بكـل شيء حتى بنفسك. هل لك أن تقفل ذاكرتك وتوصدها ؟ تلغي الماضي بكل وقائعه وأحداثه الجسام وترتضي التدجين ضمن حياة ليس فيها الا النوم والتدخين والجنس والعمل والصحو والكأس والمسبحة ؟

مصيبتك واللعنة التي تطاردك في كونك تراقب جيدا، انهما عينا زرقاء اليمامة رغم النظارة الطبية التي تتقدم وجهك الهجين.

كامل السعدون، لا تقل بأنك قد ربحت أو خسرت، دع كل هذا، فليس الوقت وقت حساب.

ولذا فانني غير مهتم بأن أعرف، هل عاشت بك المدن الباردة ؟ أم انك عشت بها ؟ هل أفقدتها أمنها وسكونها ؟ أم أنها التي فعلت ذلك بك ؟ لا فرق، هكذا أقول، فأنا أعرفك مخلوقا غير قادر على التدافع بالأكتاف، والاندساس بين الصفوف، لتعود خالي الوفاض ملاحقا بعفطة عالية هي كل حصـادك، وان حاولت ان تقـارع فستجـد من يزايد عليك، فهم كثيرون، يأتون مثل أمواج الجراد فيأكلون كل شيء، ولكن مع كل هذا يا كامـل السعـدون، اسبقني وعـد، فلابـد من عيني زرقاء اليمامة، لأن التـدافـع والاصـطفـاف في الطوابير والانتظار المدمر أمور قد لا تسمح للبعض منا حتى يـرون ماذا حل بوجوههم من خلال مرآة صافية ؟

كامل السعدون، انني أرى بغالا وحميرا وثيرانا وأبقارا وأفيالا وماعزا، ولن أرى عصفورا أو فراشة، فما الذي حصل لي ؟ ما الذي حصل لهذه الدنيا ؟

كامل السعدون، لا تقل لم يبق شيء، حتى لا أقول لك :

ـ علينـا وعلى الدنيا السلام.

هل كان على تلك المغنيـة الحلوة أن تغني هذه الأغنية بالذات دون غيرهـا وأنـا أفتح لك باب السيارة لتجلسي بجانبي حتى نطلق العنان للسيـارة لتهـرب بنـا صوب الشواطىء، لتلك الضواحي البحرية التي تعطي لرتابة الحياة طعمها الناعم وموسيقاها التي لا تمل.

رفعت صوت المذياع ليمتلىء جوف السيارة بالأغنية التي كأنها بثت من أجل مناسبة هذا اللقاء الختامي المغمس بالحزن رغم كل شيء، هذه الأغنية تقول على لسان صاحبتها بأن لا أحد يقدر أن يملأ مكانك في قلبي أيها الحبيب الأعز، إلى آخر هذه الكلمات الطافحة بالحب الشرقي الذليل والطيب أيضا.

أنصتت سعيدة بنت المنصف لبقايا الأغنية بعد أن أخذت مكانها إلى جواري وتعكرت ملامح وجهها الواجم الذي جاهدت من أجل أن تبقيه مطليا بالاستبشار بعد أن وضعت فمها على فمي برهة كاسرة القاعدة التي اعتدناها في مثل هذه اللقاءات، بعد ذلك طأطأت رأسها وظلت تنصت حتى نهاية الأغنية، وقد تركتها لسهومها وحيرتها وأعطيت انتباهي للطريق المتعرج المليء بالمارة والصبية اللاعبين.

قلت لها:

- أصبحت هذه المغنية اللبنانية موضة في تونس منذ أن حلت بينكم في الصيف الماضي.

وعلقت:

- لعل الاهتمام بها أو بغيرها من الأصوات القادمة سببه الملل من الأصوات المحلية المعدودة التي تقرع الآذان من الصباح حتى المساء.

- على أية حال ان لهذه المغنية صوتا رائعا، قد تكون ورثته عن أبيها المغني والموسيقي المعروف، وأروع من صوتها تلك الرصعة الفاتنة في حنكها.

ورددت بتهكم:

- أتهمك الرصعات لهذا الحد؟

- يهمني التميز في الجمال، وهذه الرصعة جعلت لوجهها الطفولي سحره الأخاذ.

وعاودت تهكمها:

ـ إذن فأنت تتعجـل رحيلي حتما، وربما تكون قد هيأت الأخرى، ولابد في مثل هذه الحالة أن تكون لها رصعة أو شامة، أو جديلة، أو . .

وقاطعتها محاولا مشاكستها :

ـ ولماذا لا ؟ لابد من العجلة الخامسة، العجلة الاحتياطية، كما في كل السيارات.

ـ وهل تعتبرني عجلة معطوبة تستبدلني ؟

وهنا نطقت بلهجة جاهدت من أجل أن أجعلها حنونة :

ـ مازلت العجلة السليمة.

وهزت يدها قائلة :

ـ هذا كلام، تقوله لي الآن، وربما قلته لأخريات قبلي، وستقوله لمن يأتين بعدي.

وهنا انفجرت بالضحك وأنا أقول :

ـ وماذا تتصورينني ؟ فارس زماني ؟

وقبل أن أدعها تعلق نطقت مرة أخرى مغيرا مجرى الحديث :

ـ لم تدعيني أكمل حديثي عن المغنية.

وقالت وهي ترفع يدها الجاثمة في حضنها :

ـ هيا أكمـل.

وقلـــت :

ـ يوم قرأت عن حفلتها في الصحف أسرعت لأقتني تذكرة، فقد رأيت فيها رسولة قادمة من الخراب لتدعو من أجل بلدها بالانفراج وانقشاع الغمة عن وجهه المورق، وقد كانت فعلا في مستوى المهمة، لم يخب ظني فيها، كانت فرحة وصغيرة مثل غيمة من العطر، ولا أدري كيف لم أنتبه إليها عندما كنت في بيروت، انحشرت في مقعد جانبي من مسرح قرطاج الأثري المفتوح، غير آبه ببرودة الليل وأنا في قميصي الصيفي الخفيف مما اضطرني لأن أحتضن صدري بذراعي بحثًا عن الدفء حتى ينتهي الحفل.

وأردت أن أضيف :

ـ رأيت في وجهها لبنان الذي أحببت، رأيت الحمراء وعالية وبحمدون وصيدا وصور والفاكهاني والرملة البيضاء. رأيت سميرة حليم وأبا مراد والرسام المتوحد وحسان صبحي وسحر نحاس، لكنني لم أر اولئك القتلة الملثمين الذين كانوا يقبعون متراصين ومتربصين وراء أكياس الرمل، ويطلبون من المارة أن يبرزوا هوياتهم. ولست أدري بأي حق يفعلون ذلك ؟ وكأنهم يرون في الجميع أعداء لهم ويجب مراقبتهم.

وهنا تساءلت سعيدة بنت المنصف:

ـ لماذا صمتّ ؟

وقلت :

ـ انتهى الكلام.

وعادت تسأل :

ـ أتريدنا أن نعود اذن ؟

وقرصتها من ذراعها وأنا أهمس لها :

ـ الكلام عن المغنية وليس عنا.

وهنا ضحكت سعيدة بنت المنصف، أطلقت كل صوتها الخبيء، وعندما تعبت وضعت يدها على جبينها وأحنت رأسها إلى الأمام كالمفكرة.

سألتها :

ـ لماذا لا تسمعيني النكتة التي تذكرتها فأضحكتك إلى هذا الحد ؟

وعلقت :

ـ النكتة الوحيدة التي تطاردني هذه الأيام هي أنني أحببتك.

وقلت بلامبالاة واضحة :

ـ ها أنت تعترفين أخيرا ببطلان اللعبة ؟

واحتشد صوتها بأسى مفاجىء وهي تردد :

ـ ليتها كانت لعبة، ولكن من المؤسف انها حقيقة دامغة، وها أنا كما

تراني، شبه مخبولة، لا أستطيع أن أفر منك، تتنازعني قوتان، وقد أنشطر

ـ ليتها كانت لعبة ا ولكن من المؤسف انها حقيقة دامغة، وها أنا كما تراني، شبه مخبولة، لا أستطيع أن أفر منك، تتنازعني قوتان، وقد أنشطر إلى نصفين قبل أن اتخذ قراري إلى أية جهة أذهب ؟ أأبقى معك على هذا الوضع ؟ أطاردك من أجل أن تمنحني فضلة من وقتك ؟ أم أولي بعيدا ؟

وعادت إلى ضحكتها التي ترنح مهسترة، وأعطت لها كل ما في صدرها من قوة، ثم أضافت بعد أن أحنت رأسها من جديد :

ـ غياث داود، لماذا أنت وليس غيرك ؟ أي شيء فيك ؟ أنت لست بالوسيم، هيا أعلق ضوء السيارة الداخلي لأتأكد من هذا الحكم ؟

ففعلت ذلك، فالتفتت إلي بكامل وجهها، وأخت تتملاني وأنا أقود السيارة وألتفت إليها مبتسما بين فترة وأخرى.

ونطقـــت :

ـ قد اكون ظلمتك قليلا فأنت لا تخلو من الوسامة، ولكن لو لم أكن أعرفك والتقيت بي في الطريق وجها لوجه لما لفت نظري فيك شيء، ولكن عندما عرفتك اختلف الأمر، وانقلبت الأشياء على قفاها واختلط الحابل بالنابل كما يقول أجدادنا في أمثالهم.

ولم أجد ما أتفوه به، أحسست أنها مشحونة بالتناقض والخبل والاختلاط لذا عذرتها وتركتها تمضي.

التقطت ورقة كلينكس وأخذت تمسح وجهها وعينيها، وعندما فرغت من ذلك تساءلت :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

وقلت على الفور :

ـ نهيم هكذا بدون هدف محدد نذهب إليه.

نظرت في ساعتها وقالت :

ـ اتجه بنا إلى شاطىء اميلكار.

واستجبت لطلبها بقولي :

ـ حسنا، كما تشائين.

وكنا نجتاز أسواق « حلق الوادي » المكتظة في طريقنا صوب قرطاج، وعندما عبرناها، وعبرنا القصر الجمهوري الذي يقع على يمين الشارع بأنواره العالية لمحنا بضعة حراس واقفين في الكابينات المخصصة لهم.

قلـــت :

ـ من حسن حظ هذا البلد أن رئيسه لا يحرسه إلا نفر قليل، في حين أن بعض الحكام العرب لا ينامون في قصورهم بل في ثكنات الجيش، وتحيط بهم خمسة أسوار من الدبابات والجنود المدججين بالسلاح.

ولم تعلق سعيدة بنت المنصف بشيء، وشعرت بأنني قد نطقت بهذا القول تعبيرا عن حالة طرأت في ذهني فجأة، بعد ذلك اتجهت يمينا في الطريق المؤدي إلى فندق اميلكار، وانحرفت نحو الشاطىء الذي يحاذيه وعندما وصلته أوقفت محرك السيارة وأطفأت أضواءها، ثم وضعت يدي على خدي صافنا دون أن أجد ما أقوله في انتظار أن تفصح عن رغبة جديدة.

قالت بعد صمت متأمل للنهر والسكون الذي لم يكن يسمع فيه إلا صوت تنفسها اللاهث :

ـ اغفر لي كل نزواتي هذ المساء، دعني أفعل ما أشاء، تحملني في لقائنا هذا الذي قد يكون الأخير، من يدري ؟

وقلـــت :

ـ انني على استعداد لتنفيذ أي شيء تريدينه.

وفتحت حقيبتهـا وأخرجت شريطا دسته في آلة التسجيل ثم كبسته بأطراف أصابعها في انتظار أن ينطق.

وقبل أن يبدأ ذلك قالت :

ـ ما عليـك الا ان تصغي، ولا أريـدك أن تعلق بشيء حتى ينتهي الشريط كله، أسمعت ؟

وقلـت مذعنـا :

ـ أمــرك.

ثم جاء الصوت، كان صوتها هي، صوت سعيدة بنت المنصف وهي تتحدث عن أقمار مختنقة وزوار غرباء لا ملامح لهم، وزهور لا تبارح أكمامها، وكلاب تعوي في فلوات قاحلة وقد خلفتها القوافل المرتحلة، ونساء مع عباءاتهن التونسية البيضاء يلحن من بعيد كالأشرعة التي تقارع تيار البحر، وعن أطفال يرتصفون على جوانب الطرق الخارجية ليبيعوا العسل والتين وثمار الصبير الصحراوي، ورجال يحفرون الأرض وسط أشجار الكرم والزيتون ليفتحوا سواقي لمرور المياه.

ثم كان هناك كلام كثير كاللغط لم أفقه له معنى، ولم أحاول أن أسألها لتوضحه لي، ثم تلاه فحيح وتوجع واستنجاد وفترات صمت تدور فيها آلة التسجيل في فراغ، ثم فجأة يمتلىء بالنحيب.

بعد ذلك غنت، نعم غنت سعيدة بنت المنصف، واكتشفت أن صوتها جميل عذب عندما يسجل على الآلة ويترك ليردد الأغاني المحلية الناعمة، وابتسمت في قرارتي، هذه مهنة أخرى تجيدها، اذن لن تضيع، سأجدها يومـا في ملهى ليـلي من ملاهي العـواصم العربية، أو في أحد المطاعم العـربيـة في أوربـا التي يقـودني إليهـا سأم ما، المطربـة أو الـراقصـة « اللهلوبة » سعيدة بنت المنصف، وقد تستبدل اسمها باسم فني فتكون سوسو أو ميمي أو أي اسم آخر، تهز ردفيها وهي تلقي بهذه المنلوجات الناعمة فيدعوها زبون غني إلى مائدته، ثم يساومها ويحملها إلى فندقه لينفق مع جسدها بقية ليلته ليتسلمها في الليلة التالية زبون آخر وهكذا.

مدت يدها وقلبت الشريط على وجهه الآخر بعد ان انتهى ما سجل على وجهه الأول، ومرت ثوان جاء بعدها صوتها مثل مذيعة قديرة تترنم بأبيـات من الشعر العاطفي الساحر، تحدثت عن صياد يحلم باصطياد سمكة، وعن زوجته التي حلمت هي الأخرى بأن تجد جوهرة ثمينة في جوف صدفة تحملها الشباك، ثم تحدثت عن أيام ولت، ولحظات غريبة الأطوار، وعن قضايا أخرى وأنصاف مشاريع، ثم عن شخص معلق ما

بين المضي والتردد، ترفضه، ثم تتقبله، ثم لا تعرف ماذا تفعل له بعد ؟

وعندما انتهت من ذلك بدأت تقرأ وكأنها تتوجه برسالة على الهواء إلى أحدهم ومما نطقت به :

(. . . هل تتساءل يوما ما إذا كانت تلك الأيام وخفق قلبينا فيها كان كذبا وزورا ؟ أتوسل إليك ان تبعد هذا التساؤل تماما، واترك الذكرى في نقائها وعذريتها فلقد عشناها، بصدق، هكذا أعتقد بجزم.

. . . .

لقد تعبت من خداع نفسي ومواصلة حياة مستترة تحت الظلام البشع القاسي. ولكن مع كل هذا فانني أحس الآن بنوع من الاطمئنان سببه انني قد واجهت ضعفي وانتصرت عليه، وان لم أكن قد انتصرت عليه تماما فانني أحاول ذلك بشجاعة.

. . . .

ان الشهور التي عشناها معًا أذكر وقائعها اليوم وسأظل أذكرها غدا أينما حللت بشوق وحنين أقوى من القوة نفسها، لأن الصرح الذي بنيناه معا لم يكن خاويا بل متينا ومرصوصا).

وانتهى الشريط، دار برهة في فراغ ثم توقف.

قالت سعيدة بنت المنصف بصوت مكروب :

- احتفظ بهذا الشريط، انني أتركه لك فقد سجلته من أجلك.

بعد ذلك مسحت براحة يدها على جبينها ثم التفتت إلي وهي تسألني :

- مـا رأيـك ؟

وقلـت :

- بمـــاذا ؟

- بالذي سمعته.

وأجبت ببساطة في محاولة مني لاستفزازها دون أن أعرف لماذا انتابتني هذه الرغبة فجأة :

- هـــراء.

ثم أضفت مستدركا :

ـ ولكنه هراء لذيذ على أية حال.

وعندما لم ترد علي واصلت التعليق :

ـ شكرا على الهدية، سأعتز بها حتما.

ثم أدرت محرك السيارة بدون أن أسألها رأيها في المغادرة أو البقاء في هذا السكون اللذيذ.

انني أفر. رغبت في هذا. لعلي أبرأ مما بي، ومن أثار الأوبئة التي اجتاحتني وعصفت بي. ولكنني أجد نفسي مراوحا في مكاني، وكأنني لم أغادر، ولم أمنح جسدي للرحيل والتسكع على أرصفة المدن الغريبة، لقد بقيت سجين العراق، تطاردني الوجوه والحكايا، سلاسل متصلة الحلقات لا تغادر بعضها. كما تطاردني الأغاني والأحلام وعبثا حاولت أن أتجانس، ان جذوري هناك، مغروسة في تلك الأرض الطيبة، بين تلك الوجوه الحبيبة فلا فكاك.

هل ينطق غياث داود بالقول الفصل ؟ وهل تدندن شفتاه بكلمات حكمة أثيرة ؟

اذن لماذا أحس بأن علينا وعندما ننجز عملا معينا أن نمسك به بأسناننا وأظفارنا وكل قوانا حتى لا يفلت منا، وحتى لا نكون السبايا في مسيرة الذل، أو أيتاما على موائد اللئام الأوباش.

ليست لنا الا بقية من عمر ووطن قارعنا من أجل ان يظل شامخا، وماض اختلطت فيه الأصوات، وتاهت السبل، ولكنه بقي نقيا صافيا.

اسمع يا كامل السعدون لست متجانسا مع كل ما يحدث هناك، حلمي لم يعد حلمي، وثمار تجربتي فجة، انني متعب معذور. ألف سهم رشق جسدي، وها أنا أحاول انتزاعها واحدا واحدا، أحاول ذلك وحدي وأنا في هذا العراء اللئيم.

* * *

في تلك الأيام القـلائـل التي مكثتها في القاهرة، شاركت يوما رجلا ستينيا وجيها مائدته، كان له طاقم من الأسنان المذهبة تعلن عنها بسمته التي ترفرف على وجهه كسمة مميزة له، كنا في مقهى « لاباس » نحتسي البيرة، لقد أفرغ في جوفه ثلاث زجاجات من البيرة المصرية الكبيرة الحجم قبل أن احتل المقعد الشاغر على مائدته. لم يتركني استرد أنفاسي حيث بادرني بالحديث عندما عرف من لهجتي انني لست مصريا :

ـ من أين ؟

وأجبتــه :

ـ من العراق.

وهتف والبسمة تعلن عن طاقم أسنانه الذهبي :

ـ تشرفنا.

ثم أخذ رشفة طويلة من كأسه المترعة، كاد أن يفرغها في هذه الرشفة دفعة واحدة في معدته، مسح بأصابعه أطراف شاربيه وفمه من بقايا رغوة البيرة وواصل القول :

ـ لقـد انتصرتم لنـا أيها الأخوة العراقيون، وجئتم لتقاتلوا معنا ومن أجلنا، ولن ننسى أن طيّاريكم كانوا أول من دك حصون الاسرائيليين في حرب اكتوبر.

فوجدت نفسي مواصلا معه الحديث، إذ كانت اقامتي في المدينة حديثة العهد، ولم تصبح لي فيها أواصر صداقة عميقة حتى بين العاملين معي في الجامعة العربية، وليس لدي ما أفعله غير السكر والعودة ماشيا إلى شقتي الصغـيرة في حي المهنـدسـين مبكرا والاسترخاء في الفراش، والرد على تحرشات العاهرات اللواتي يعرفن أرقام الساكنين العزاب من بوابي العمارات.

قلـــت :

ـ انه الواجب، وعلينا ان نتنادى عندما يدعونا الداعي لذلك.

ملأ كأسه وأخذ منها رشفة طويلة، ثم تجشأ بصوت مسموع وطلب مني

العفو على هذا الفعل اللاارادي فالبيرة ملعونة ولكنها مرغوبة لا غنى عنها كما علق. بعد ذلك قال بلهجة أكثر جدية محاولا السيطرة على كلماته التي أخذ يتلكأ بها بفعل البيرة التي شرب منها كمية كبيرة :

ـ رحم الله جمال عبد الناصر، كان صوته الجهير ينبهنا دوما إلى أصلنا وفصلنا اللذين كدنا أن ننساهما، وجعلنا نفخر بكوننا عربا، وأن الروابط التي تجمعنا أكبر من أن تضيعها أو تضعفها خلافات الحكام الأذلاء المهزوزين الذين لا يهمهم الا البقاء في كراسي الحكم، ولكن مرتزقة أجهزة الاعلام وبعض السياسيين في هذا البلد أرادوا أن يخمدوا صوته الذي يرن في ضمائرنا ولم يفلحوا. نشروا المقالات والكتب ودبجوا الاتهامات وأصبح البعض من الخنافس والجرذان أبطالا ولكنه كان أكبر منهم، أما ابن الزانية هذا الذي يحكمنا اليوم فقد ساهم في كل هذه العمليّة من أجل أن يظهر وكأنه الحاكم الديموقراطي الوحيد القادر على حكم البلد.

وتوجست خيفة من جرأته، وظننته أحد هؤلاء الذين يندسون في المقاهي والأماكن العامة لينصتوا إلى أصوات تنفس الناس، وقلت في داخلي لأستمع منه، ما الضير؟

وانبس بعد أن نشّ ذبابة حطت على وجهه فجأة :

ـ لا تحسبوه علينا، رغم انه يحكمنا اليوم، نحن أهل الدار أدرى بها وسنعرف كيف نزيح هذه الدملة التي تشوه وجه مصر الجميل.

ودفعني حديثه الذي استشرفت منه الصدق لأن أتفوه بالقول :

ـ انتم أيها الأخوة المصريون أبطال الملاحم الخالدة، وبينها ملحمة « عين جالوت » التي ستظل ماثلة في ذاكرة الدهر، هذه الملحمة التي أوقفت جموع التتار الزاحفة من آسيا الوسطى وأطراف الصين لتسقط الدويلات المتفرقة المتنابذة، وتحتل بغداد وتجعل من طرقاتها وميادينها بركًا من الدم لا تجف.

وتوقد الحماس في داخلي للحديث بعد أن تزودت بجرعة من كأس البيرة

الذي يستكين أمامي برغوته الفائحة وتركت حديثي لينطلق.على سجيته رغم ان ذهني كان منشغلا باستحضار هذه المعلومات التاريخية التي قرأتها منذ زمن ولم تعد ذاكرتي تحتفظ بالكثير من تفاصيلها.

قلــت :

ـ كانت معركـة عين جالـوت النقـطة الفـاصلة في تاريخ الحضـارة الشرقية، ولـو أن عسكـر مصر والشام هزم فيها اذن لسقط آخر معقل للحضارة بين سنابك الخيل الغازية والقادمة من تلك الأصقاع البعيدة.

وعلق الرجل بعد أن أحس بأنني قد أنهيت جملتي :

ـ لقد أخذت القاهرة بثأر بغداد في مصيبتها الفادحة تلك، وها أنتم تعاونوننا في الرد على التتار الجدد.

وعرفت منه بعد ذلك انه محام تقاعد عن العمل، ولكنه لم يبرأ من داء السياسة منذ أن كان صبيا في المدرسة الابتدائية يهتف لحزب الوفد وسعد زغلول، وعندما انقرض الوفد لم يجد ضالته في الأحزاب الجديدة، وقال وهو يقهقه بصوت عال :

ـ لقـد كون أنـور السادات حزب مصر، ثم حوله هكذا إلى الحزب الوطني، دون أن يتغير شيء في الموضوع. وقد علق أحد الصحفيين مرة ساخـرا من أعضـاء ما يسمى بمجلس الشعب من حزب مصر الـذين هرولوا لتسجيل أسمائهم في الحزب الجديد دون أن يقرأوا برنامجه أو يطلعوا على أهدافه، كل هذا حصل لمجرد أن الحزب هو حزب رئيس الجمهورية، وهكذا يا صديقي لقد خربت حتى الحزبية والأحزاب في هذا البلد، وكان الله في عون مصر.

وقاطعتـه بقولـي :

ـ لماذا مصر وحدها ؟ قل كان الله في عون العرب جميعهم.

كامل السعدون، تذكرتك فيه يومذاك، انه أنت عندما تصبح شيخا في الستين والسنون تجري سراعا، تطرق بابي كل صباح لنذهب إلى أقرب مقهى، نشتري صحيفة نحاول ان نفك طلاسم حروفها بنظارتينا اللتين

ستزدادان سمكا، والسعال لا يفارق صدرينا المنخورين.

كامل السعدون، المعارك التي ظننا أنها قد حسمت، مازالت تتأجج كل يوم بأسباب جديدة، وقد كتب علينا القراع إلى آخر العمر، أما الاسترخاء والتنفس فلن ننعم بهما أبدا.

كامل السعدون، أريد أن أصمت بعض الوقت، فاتركني ولا تطاردني بعد، اعتقني،

توقف السيارة أمام مطعم « الرمال »، دسها غياث بين مجموعة من السيارات التي يحمل أغلبها أرقاما أجنبية، إذ أن سكان المدينة يفضلون قضاء لياليهم في بيوتهم الدافئة متمتعين بارتشاف القهوة والشاي الأخضر بالنعناع و « الأطرنجية » ومراقبة برامج التليفزيون، وتظل المطاعم المقرورة البعيدة وكرا للغرباء والوحيدين والباحثين عن لقاء عاجل ليملأوه بالذكريات والمعاني.

نزلا من السيارة ودلفا إلى داخل المطعم، وكان هواء البحر يهب عاليًا وباردًا والأمواج تهاجم الساحل بضراوة حيث يتناثر رذاذها المتطاير إلى الشارع الرئيسي المحاذي للبحر.

قال غياث داود :

ـ ان السماء ملبدة بالغيوم، والمطر سيتساقط حتما، انه فأل خير على أية حالة حتى تعودي إلينا.

قالت وكأنها قد استفزت عند سماعها لتعليقه :

ـ ان كان هذا فأل خير أو شر فالشيء الذي يجب أن تعرفه انني عندما آخذ مقعدي في الطائرة لن ترى عيناي هذه المدينة بعد.

وتساءل مبتسما :

ـ من تهدّدين بكلامك هذا ؟

هزت يدها وقالت :

ـ لا أحد. ولكنني أؤكد قرارا اتخذته فقط.

وأضاف لما تفوهت به :

ـ المهم انها حياتك، ومن حقك أن تختاري كيف توجهينها أو تبددينها.

وهزت رأسها متمتمة :

ـ بالتأكيـــد.

لم يكن المطعم ممتلئا بالرواد، لذا اختارا مائدة منزوية وهبطا على كرسيين متقابلين فيها والقر مازال ممسكا بجسديهما المختضين.

غياث داود افتح اذنيك جيدا واصغ لما أقول فنحن يا عزيزي لن نتصيد في المياه العكرة أبدا، ففي هذه الحالة سيكون صيدنا خليطا، قد تكون فيه السلاحف والديدان والأفاعي أكثر من الأسماك اللابطة المشتهاة، ولكننا ان حاولنا التصيد ـ وهذا أمر لم يرد في البال من قبل ـ فلابد أن يكون ذلك في الماء الصافي القراح، أفهمت؟ حتى تستطيع أن تختار ما تريد صيده ولن تذهب جهودك هباء. نصيحة أخرى أضفها إلى بعض ما أدلي به من نصائح في بعض الأحيان، فقد تراودك الرغبة في الخروج للشواطىء يوما، ويغريك انسيابها على محاولة الصيد. أما أنا فلم أعد أقدر على شيء، لا على الصيد، ولا على القنص، وليس لي بندقية ولا صقر أو كلب سلوقي أبدا.

خرجا من المطعم تحت وابل من المطر الغزير الثقيل، كأن تونس في كل تاريخها لم تعرفه بحيث تعذر عليهما أن يصلا إلى السيارة بسهولة رغم انها لا تبعد عن باب المطعم الا عدة خطوات.

كانت سعيدة بنت المنصف نصف ثملة، اضافة إلى أن المطر قد أربك خطواتها أكثر لذا أمسكت به من ذراعه حتى لا تسقط وهما يهرولان نحو السيارة.

وعندما دخلاها، أخذا ينفضان قطرات المطر العالقة بثيابهما، سألته :

ـ كم الساعـة الآن ؟

نظر إلى ساعته وقال :

ـ الحادية عشرة تقريبا.

وهنا رددت :

ـ مازال الليل في أوله.

ـ سأوصلك إلى البيت.

ـ بالتأكيد، هل تريد أن تتركني تحت المطر ؟

وعادت لتمسح البلل عن شعرها، وبعد أن فرغت من ذلك أعلنت بصوت مرح :

ـ انني اخبىء لك مفاجأة، قد تسميها مسك الختام في هذه الرحلة التي أمضيناها معا واستغرقت عدة شهور.

أدار محرك السيارة وهو يعلق :

ـ انني مهيأ لاستقبال مفاجأتك.

ضربته على يده وقالت بدلع :

ـ سق اذن.

في الطريق قالت له :

ـ لم تسألني عن المفاجأة وما هي ؟

ـ لست فضوليا لهذا الحد.

وهنا التفتت إليه ولفت ذراعيها حول عنقه وهي تنطق بصوت عال :

ـ المفاجأة أنني سأدخلك إلى بيت عمي الليلة، نعم، أريدك أن ترى الغرفة التي ضمتني مع ذكراك، لا تخف، لقد قلت قبل قليل أن الساعة هي الحادية عشرة، إذن فبرامج التليفزيون قد انتهت، وهذا يعني أن الجميع قد آووا إلى أسرتهم، سأفتح الباب وأدخل وتتبعني أنت متمهلا بعد أن تخلع حذاءك بالطبع، أفهمت ؟

وقال مستوضحا :

ـ وإن أحسوا بي ؟

ضحكت وأجابت :

ـ سيقودونك إلى مركز الشرطة بتهمة اللصوصية .

وبعد أن فرغت من النطق بجوابها، تبعت ذلك بقهقهة عالية فاستجاب هو الآخر لقهقهتها وأطلق العنان لحنجرته .

وضع يده على ركبتها ونطق :

ـ من أجلك سأكون لصا أو عاشقا، لا فرق .

وتوقفت عن الضحك وعلقت :

ـ ألم نكن لصين فعلا في علاقتنا ؟

ورد مباشـــرة :

ـ أنت حمقاء إن كنت تراجعين ما فعلناه وتحكمين عليه هذا الحكـم ، يكفينـا أننا قد عشنا بصدق، وليكن ذلك لصوصية أو سرقة فهذا أمر آخر، قابل للنقاش، وليس الآن الوقت المناسب لذلك .

وصمتت كأن رده قد أقنعها لذا راحت تعبث بمؤشر الراديو بينما تشق السيارة طريقها بصعوبة باتجاه حـــي باردو، وكلما توقف المؤشر عند محطة اذاعية غيرتها إلى أخرى .

سألهـــا :

ـ ماذا تريدين أن تسمعي ؟

وردت على الفور :

ـ أي شيء ماعدا أغانيكم العراقية المشحونة بالحزن والأسى

وقـــال :

ـ هناك واحدة لعبد الحليم حافظ ، اشتريتها قبل أيام ولم أسمعها بعد ، ابحثي عن الشريط في المشجب أمامك ، سأنصت إليها معك رغم أنني في مثل هذه اللحظات لن تداويني إلا أغنية عراقية فقط ، أفهمت ؟

لم ترد على قوله ، بل راحت تبحث عن الشريط وعندما وجدته وضعته في الآلة وفتحتها وراحت تنصت إلى الصوت الشجي وهي ترمي ظهرها إلى الوراء مسترخية .

* * *

دخـلا غرفتها بعد أن خلعا حذاءيهما كما أرادت وراحا يمشيان على أطراف أصابعهما، فاجأه غطيط عال يتردد في الدار، وبعد أن أصبحا في غرفتها سألها :

ـ افزعني هذا الغطيط.

ابتسمت وقالت :

ـ إنه عمي، لديه زوائد لحمية في منخريه ويخاف أن يجري لها عملية جراحية ليزيلها.

كانت غرفتهـا صغـيرة، جدرانها عاريـة من الصور إلا تقويم علق بصورة مائلة وربما كان يعود إلى عام سابق غير العام الذي هما فيه. وقد وضع سرير حديدي يسع لشخص واحد في مواجهة الباب وجواره خزانة ثياب تبدو قديمة من لونها الكالح وخشبها المتآكل. أما الأرض فلم تكن مفروشة الا بسجادة صغيرة لا يتعدى طولها المتر وقد تهرأت هي الأخرى.

ومن محتويات الغرفة أيضا منضدة كتابة حشرت بجانب السرير حتى يستعمل كمقعد، وصفت عليها مجموعة من الكتب باللغتين العربية والفرنسية.

وانتبه إلى مدفئة كهربائية صغيرة مركونة في الزاوية الخالية من الغرفة عندما كانت تخطو إليها لتفتحها.

ثم استخـرجت شمعـة من الخزانة وأعلقتها ووضعتها فوق منضدة الكتابة وأطفأت ضوء المصباح الكهربائي.

فتحت ذراعيها وكأنها تؤدي مشهدا تمثيليا ونطقت بصوت واطىء كالهمس :

ـ هنا أعيش، هذه الغرفة الخربة تفضل بها عمي علي.

بعد ذلك أخذت تخلع ثيابها وتعلقها في مشجب مثبت على الجدار وهي تستحثه :

ـ اخلع ملابسك المبتلة أنت لئلا تمرض.

. وامتثـل لما أرادت وأخذت ملابسهما تتكوم فوق بعضها في المشجب الصغير وقطرات المطر مازالت تتساقط منها، وبعد أن أصبحا بملابسهما الداخلية فقط استحثته من جديد ولكن بصوت واطىء أيضا :

ـ تعـال وساعدنـي.

ـ بمـــاذا ؟

ـ سنحمل الفراش ونضعه على الأرض، لا نريد أن يسمع أحد من أهـل البيت صوت صريـر السرير عندما تبدأ معركتنا فوقه.

قبّلها على خدها قبل أن يمسك بطرف الفراش وهو يسأل :

ـ أتتوقعين أن تكون معركتنا الليلة حامية الوطيس ؟

وهزت رأسها قائلة :

ـ بالتأكيد، ولذلك لم أثمل جيدا.

كانت شفتاها تتحركان مرتجفتين وأسنانها تصر، وكأنها تقول له منذرة :

ـ غياث داود ستعرف الليلة معنى جسد سعيدة بنت المنصف، ها أنا أمامك الآن فخذني، ارم فـيّ كل قواك، وبعد أن تتعب سيأتي دوري لأستلمك أنا، وسأعرف ماذا أصنع لأحيي كل ما مات وما سيموت فيك.

وبعد أن أصبح الفراش على الأرض ارتمت فوقه وهي تقول :

ـ تقبّل جنوني هذه الليلة، دعني أقوم بفعل نادر يبقى في ذاكرتينا وفي تاريخنـا أيضا، وما عليك الا أن تقتل كل تزمت وخوف وحياء ينام في عروقك منذ أن فتحت عينيك للنور، أفهمت ؟

وقـد بدأت آنذاك بخلع ملابسها الداخلية وطوحت بها في الغرفة، وفعل ذلك هو أيضا، وألقى عليها نظرة من عل وهي تفتح فخذيها وتمد له ذراعيها فانحنى والتقط طرف الغطاء ورماه فوقها وهو يردد آمرا :

ـ تدفئي جيدا، فالجو بارد ورطب.

وسحبته من يده بعد أن رفست الغطاء بقدمها وهي تعلن :

ـ لـن يؤثـر فـي، ولن أمرض أبدا، والمهم أن تعجل وتأتي الي.

وارتمى فوقها وقد أمسكت بجسده العاري خضة طفيفة هي خليط من البرودةوالرغبة في هذا الجسد الممدّ تحته بتحد.

همست في أذنه بأنفاسها الساخنة وهي تقول :

ـ لا أريد أية مقدمات، لا حاجة بي إلى القبل والعناق والمداعبات، لست ميتـة حتى تمدني بالحيـاة، أفهمت ؟ أريدك أن تدخلني رأسا فأنا راغبة في ذلك، هيا أرني فحولتك.

وتمتم بدعابة :

ـ ألم تعرفيها من قبل ؟

وعادت لتهمس في أذنه :

ـ عرفتها وخبرتها، ولكنك الليلة أمام امتحان آخر. أريد أن آخذ منك كل ما فيك، ترى هل أستطيع ذلك ؟ كما أريد أن أعطيك آخر ما فـيّ، فهل تريد ذلك ؟

قـــال :

ـ لن أقول لا ولا نعم، نحن في ساحة العمليات وفيها سنجد الجواب الحقيقي.

انـطرح فوقهـا فغطاها كلها بهيكله الطويل، وود أن يعوي، يرفع صوته بالعواء ليوقظ كل من في الدار ويهدم اطمئنانهم وسلامهم اللذين يغطون فيهما، وينادي تلك الأيام المطوية، أيام الحرقة والاستمناء والحمى التي تأكل العيون لتنبع من جديد لترى أين وصل غياث داود اليوم ؟

تمتم وكأنه يكلم نفسه :

ـ غياث داود، إقبل التحدي، فليس لك اليوم غير هذا الشيء النابض بين فخـذيـك، وكـل شيء عداه انسحب إلى الـوراء وغط في العتمـة والنسيـان.

أخذها بين ذراعيه، والتصقت به حتى ضاعت في صدره.

مرت عليهـا قرابة الساعتين وهما في اشتباك والتحام، لا أحد منهما

يذعن ولـو إلى هدنـة مؤقتة، وكلما أحس بالكلل تطرحه لتكون فوقه، وصرختها الوحيدة التي تتردد ضارية كالفحيح .

ـ اقتلني، اقتلني .

تكررها بلا انقطاع، فيواصل طعنها، دون أن يقضي عليها تماما .

أعطاها كما لم يعطها من قبل، وأعطته كما لم تعطه من قبل أيضا . وكان جو الغرفة القارص الذي لم تفلح المدفئة الكهربائية الصغيرة في الانتصار على برودته يدفع بهما لأن يلتصقا ببعضهما أكثر، يسكبان كل مدخرات جسديهما ويوقدانها قربانا في ليلة الختام الساخنة هذه .

وبعد أن استنفدا ما فيهما، انطرح كل منهما بجانب الآخر، ممددين على ظهريهما . كانت تغمض عينيها، أما هو فعيناه تتطلعان نحو سقف الغرفة التي يرتسم عليها ضوء الشمعة على هيئة هالات باهتة، تتراقص منخذلة مثل راقصة مجهدة، ليس فيها حرارة جسد سلوى الشرقي الأسمر الـذي يهتـز مع ايقاع الدرابك المجنونة في مطعم « المالوف » كل مساء والـذي يحلو له أن يأخذ بعض ضيوفه من غير التونسيين اليه، لينعموا بالطعام التونسي الصميم، ويتمتعوا بمرأى هذه الساحرة المهتزة .

قالت له بصوت خارج من بئر :

ـ إنني أعيش على ضوء الشموع، أقرأ عليه، وأنام عليه أيضا، فعمي لا يسمح لي بإشعال المصباح الكهربائي بعد الساعة التاسعة مساء، يقول إن مصروفات الكهرباء قد زادت منذ أن حللت في داره .

وانبس بخفوت :

ـ يا للعم العجيب .

وازداد صوتها قوة وهي تقول :

ـ لعل هذا سبب آخر لهروبي من هنا .

تحركت ووضعت رأسها على صدره العاري، وأخذت تمرر أناملها بين شعره الكث وكأنها تنقب فيه .

قالــــت :

- لم تسألني إلى أين ستكون وجهتي ؟

وعلـق ببساطـة :

- ولماذا أسألك عن ذلك ؟

ووجدت رده مقنعا مما دفعها إلى القول :

- فعــلا .

وعادت لتنطرح إلى جواره ويدها مازالت ممسكة بيده بتشبث، وتذكر أن في يده ساعة، رفعها ورأى عقاربها تقترب من الساعة الثالثة فهب قائلا :

- الساعة الثالثة الآن ويجب أن أخرج حتى لا يصحو أحد من سكان الدار وأظل محاصرا في هذه الغرفة .

قالت له جادة :

- لماذا لا تسافر معي ؟ اترك كل شيء، استقل، ودعنا نتشرد في هذا العالم الواسع، لن نموت جوعا، وأنا أتعهد بذلك ؟

قرصها من أنفها وهب واقفا ليرتدي ملابسه، ثم دمدم :

- وهل هذه آخر قذيفة تسددينها نحو مرماي ؟

ونهضت هي الأخرى لترتدي ثوب نومها وتجيب :

- لا أدري، هل هي الأخـيرة ؟ أم أنني مازلت أملك غيرها ولم يحن الوقت لاستعمالها ؟

وفتحت له باب الغرفة بعد أن أتم ارتداء ثيابه فصر ببطء، قبلها فوق جبينها قبلة ناعمة وسريعة دون أن ينبس بجرف، ثم لحق بها وهو يحمل حذاءه بيده .

وعندما وصلا إلى باب البيت فتحته وهي تهمس بصوت خافت خائف :

- باب الحديقة مفتوح .

وضغط بيـده على يدها وانسحب قاطعا الممر المسفلت والمطر مازال يتساقط بكثافـة أكثر وكأن كل قطرة منه تزن رطلا، وراح يهرول محاذرا الانزلاق بعد أن غرس قدميه المبلولين في الحذاء حتى وصل السيارة.

ضغط على كاسحتي المطر فراحتا تدوران مجاهدتين من أجل أن تبعدا الغيث المهطال، ثم أشعل النور بعد أن أدار المحرك فظهر أمامه الطريق مليئا بالحفر الممتلئة بالماء وأكوام الوحل، وترك السيارة تأخذ طريقها ببطء وحذر.

* * *

« سعيدة بنت المنصف، لقد انتهت المعركة، حسمت في هذه الليلة المشهودة، لست فرحا ولا كدرا. لست آملا ولا نادما ولكنني في وضع لم أكن عليه من قبل، لذا يصعب علـي أن أطلق عليه حكما وأنا في ذروة ارهاقي الآن، وكل الذي ابتغيه أن أصل فراشي حتى أنام ».

* * *

كانت السيارة قد قطعت عدة طرق جانبية من حي « باردو » المكتظ قبل أن تدخل شارع الاستقلال العريض، ولكن معالم الدرب أمام عينيه لم تكن واضحة إذ تكاثف الضباب من أنفاسه المتلاحقة على زجاج السيارة الأمامي وظل يواصل ازاحته براحة يده فيتجمع ثانية مضافا إلى ذلك المطر الـغـزيـر الـذي لـم تسـتـطـع كاسحـتـا المـطـر ازاحـتـه تمامـا.

وعن يمينه كانت أعمدة الكهرباء منتصبة وتنوس في أعاليها مصابيح خافتة، وثمة سيارات مركونة وعربات وبيوت موصدة الأبواب، وميز فيما رآه منارة عالية بيضاء، مر بها مسرعا. فالشارع خال، وهو العائد الأخير من رحلة الضلال المدغمة هذه.

وكـان رأسـه المتعب المخمـور يرتطم بمقود السيارة أحيانا فيصحو ويحاول أن يبقي عينيه مفتوحتين حتى يبصر طريقه في زحمة المطر والوحل

وأعمدة الكهرباء المنتصبة كنذير شؤم.

* * *

ضرب بيده على مقود السيارة وعوى بصوت عال، ولكن عواءه اختنق في ضوضاء المطر وقرقعة الرعد، أطلق هكذا صرخة تمخضت عنها أعماقه المضرجة ولم تقو على كتمانها.

بعد ذلك زفر بعمق، وكرر ذلك ثانية وهو يخفف من سرعة السيارة. التفت إلى اليمين فوجد المقعد الذي كم شغلته سعيدة بنت المنصف فارغا، ولكنه لم يدر لماذا تخيلها جالسة بجانبه منتظرة ان يتفوه بكلمة فقد قالت كل ما عندها ولم يعد لديها ما تضيفه، صفن برهة ثم تحركت شفتاه لتقولا بوعيد:

ـ سعيدة بنت المنصف لم أبدأ بك، لذا لن تكوني خاتمتي.

(تونس 1981 ـ 1982)

رؤيـة الطـول والعـرض
لرواية « خطوط الطول . . خطوط العرض »

من أين ندخل هذه الرواية ؟ وأكاد أهتف بغياث داود : من أين ننفذ إلى عالمك المتداخل المتشابك كأدغال افريقيا الاستوائية يا غياث يا ابن حكيمة بنت الشيخ جابر ؟ اعطني خيطا واحدا امسك به لأكشف أوراق اللعبـة المختلطة أمـامـك على هذا البسـاط الممتـد من الخليـج إلى المحيط . . اعطني خيطا واحدا اسحب به الغطاء عن هذا الجسد العربي « النائم على فضيحة » كما قال صديقك كامل السعدون ، فقد تعددت أمامي السبل واحترت ايها أسلك إليك ؟ أأدخل عليك عالمك من جسد امرأة وقد جعلت من المرأة هوية لك ؟ أم أدخل عليك من باب الترجمة الذاتية وفيك من ملامح صاحبك ومنشئك عبد الرحمن مجيد الربيعي ما به تكون له قريبا حميما ان لم نقل صنوًا وأخا شبيها ؟ أم تراني أدخل إليك من زمن القحط العربي الذي حملت من أجله سيفك المسلول تغرزه في كل انثى من شرق الوطن المسبي إلى غربه علك تداوي به هذا الزمن العنين ؟

أعلم ان كل تقسيم وتبويب لمثل هذه الرواية السائبة هو تجن وسادية بربرية . ولكنني مجبر على ارتكاب هذه الجريمة البيضاء واعتذاري انني من أمة أجرمت في حق ذاتها أكثر مما أجرمت في حقها الأمم الأخرى .

البنـاء الروائـي :

قبل الحديث عن بناء « خطوط الطول . . خطوط العرض » نذكّر بروايتـين سابقتين للربيعي وهما : « الوشم » و« القمر والأسوار » وهما روايتـان مختلفتان شكلا كامل الاختلاف، فالوشم من الروايات ذات البـطل الواحد هو كريم الناصري الذي يروي لنا قصته ويجعلنا نبصر ونسمع بعينيه وأذنيه، بل لا تتمتع أية شخصية بوجود منفصل عنه، وكل الشخصيات الأخرى في الرواية انما هي في الحقيقة مرايا عاكسة تطالعنا فيها صورته من زوايا مختلفة . . فالرواية زفرة طويلة وهذيان يفرج عن صدر منـاضل مهزوم متأزم، أطلق من السجن تائبا كافرا بكل شيء، لذلك جاءت في أسلوب شعري ولغة مكثفة ملأى بالمعاني والصور.

أما « القمر والأسوار » فهي تجربة نادرة في الرواية العربية لأنها رواية جماعية خالية من البطولة الفردية . . تقوم أساسًا على تتبع حياة جماعة في زقاق بحي من الأحياء الشعبية بكل تفاصيلها المغرقة في الواقعية الفجة أحيـانـا فكانت لغتها لذلك لغة تسجيلية تقوم على الكفاف من المعاني والصور. وهي روايات عديدة متداخلة في رواية واحدة تداخل أصحابها في حياة الزقاق القائمة على التضامن وقيم الجيرة.

وقد جاءت « خطوط الطول . . . » لتأخذ من الرواية الأولى أسلوبها الشعـري ولغتهـا المكتنـزة وبناءها على الهذيان والتداعي و« الكولاج » بواسطة الرسائل خاصة. كما أخذت عنها تركيزها على شخصية محورية هي شخصيـة غيـاث داود ابن نفس المنـطقة التي انجبت سابقه كريم النـاصري . . ولكنهـا أخذت عن الرواية الثانية تعدد الروايات ضمن الـرواية الواحدة إذ نعيش من خلال قصة غياث داود مع سعيدة بنت المنصف قصة هذا الرجل مع العديد من النساء الأخريات، كما نعيش قصة مروان حيدر ـ الرسام المتوحد ـ في مسيرته من فنان مسالم لا يعرف

سوى حمل الفرشاة، يعش حرب بيروت بلا مبالاة عجيبة، إلى ارهابي مسلح وزعيم من زعماء طائفة وتلاشت اشلاؤه في الفضاء ذات يوم عندما انفجرت به سيارته الملغومة. وإلى جانبه نعيش قصة عمو حسان صبحي وقصة سميرة حليم في بيروت وقصة كامل السعدون بين العراق والمنفى الاختياري في أوربا. وقصة عشق سامي المنذر وخديجة بنت الهادي زيادة على قصة الشاعر عمر الماجري.

وكل واحدة من هذه القصص يمكن ان تكون موضوع رواية مستقلة، ولكنها جميعا تتشابك وتصب في قصة غياث داود وتكون بمثابة الروافد التي تصب في نهر واحد يبتلعها وينمو بها ولكنها تذوب فيه حتى تصبح هي هو.

ولا يبدو لنا هذا البناء اعتباطيا وانما طبيعة شخصية غياث داود المتصدعة المحمومة هي التي فرضته وحددت جميع ملامح الرواية واطرتها بناء ولغة. ولذلك سوف ندرس البناء الروائي متزامنا مع دراستنا لشخصية غياث داود التي يمثل مداها مدى الرواية، فهو في الآن نفسه راويها وبطلها وإليه تتوجه كشاهد حينا وكطرف دائما ومن هنا تتناوب الضمائر الثلاثة: المتكلم (أنا) والمخاطب (أنت) والغائب (هو) في عملية القص الروائي، ولو نظرنا في «خطوط الطول .. خطوط العرض» للاحظنا ان غياث داود ينتقل بين هذه الضمائر بشكل متواصل حتى لكأنها بوابات مشرعة تنفتح منها الشخصية على زوايا من ذاتها فيتحدث من الداخل مستعملا ضمير المتكلم (أنا) فإذا ما ارتفعت حمى هذيانه توجه إلى نفسه بالخطاب مستعملا الضمير (أنت) ويفتر حينا ويهدأ فإذا هو كالغائب يخبرنا عن نفسه بالضمير (هو).

فضمير المتكلم ينقلنا إلى داخل الشخصية عبر التداعيات والتذكر والحنين والاعتراف والمنولوج الباطني الذي يعري سجف الذات تعرية باطنية حميمية، لا يقدر عليها أي راو آخر ينظر إليها من الخارج.

مثال : (زينب عزوز، ان سعيدة بنت المنصف تحتضر في قلبي وإني سأعلن موتها يوما، وليس هذا اليوم ببعيد).

وضمير الغائب ينقلنا إلى خارج الشخصية ويضعها في محيطها الموضوعي ولكن هذه الموضوعية تصبح وهمية عندما نعلم ان المتكلم هو نفسه المتكلم عنه. وقد أكّد « تودوروف » ذلك بقوله : (ان من يتحدث عن ذاته لا يبقى هو ذاته) ـ انظر كتابه « ما هي الهيكلية ؟ » ـ وذلك ان الروائي في هذه الحالة لا يمكن ان يكون بريئا وهو ينقل لنا الأحداث من الداخل والخارج في نفس الوقت. فعندما يروي غياث عن نفسه وهو يستمع إلى سميرة حليم قائلا : (يصغي إليها جيدا وهو مأخوذ بدنيويتها وتحديها، تبوح له بأشياء كثيرة) فانه يمزج بين رؤية الراوي من الخارج يصف ما تقع عليه عيناه ورؤية الراوي من الداخل يعبر عن وقع الكلام في نفسه.

أما ضمير المخاطب (أنت) فانه يتيح للشخصية ان تتعامل مع ذاتها بالحوار حينا واللوم والتقريع احيانا وبصوت مسموع وهو اسلوب مغاير للمنلوج الباطني الذي يصاحب الضمير (أنا) وهو ما ينقل الرواية إلى مستوى ما يعرف بالرواية « المنطوقة » بالمقابلة مع الرواية المكتوبة أو المنقولة، فسنستقبل الحكاية بصوت البطل نفسه أثناء هذيانه وحواره مع نفسه. ولذلك تأتي طافحة بالحرارة والشعر والغموض لأنها فيض من النفس لا تخضع لأي مقياس منطقي سوى مقياس النفس الزئبقي المتفجر دوما. مثال : (غياث داود، هل أنت سعيد بهذا الارتحال وبهذا الانقطاع ؟ ماذا أعطتك المدن والوجوه والكؤوس والأجساد ؟).

ويتجلى هذا الطابع خاصة في تلك الترجيعات التي تنغم مفاصل هذه الرواية في حزن سخين مخاطبا طائر السماوة المعادل الرمزي لغياث داود مناويا ما بين ضميري الغائب والمخاطب : (حط الليل وطائر السماوة قد مضى. اعطى جناحيه للآفاق والسماوات المضمخة ورا « . . . . » طائر السماوة. بغداد. بيروت. القاهرة. الدنيا. طائر الأرق والقحط. امض في الدروب الزلقة ولا تحاذر من شيء. اطلق كل ما خبأته حنجرتك من ألحان. ندد أيام الأسر والمكوث في مساحة صغيرة لا تمنح لجناحيك القدرة على الانطلاق).

وهكذا يقوم ضمير المخاطب بدور الواصل بين الضميرين السابقين لأنه يحويهما معا باعتباره نظرة من الداخل والخارج في نفس الوقت وهو ما أكده ميشال بوتور في كتابه « بحوث في الرواية الجديدة » إذ يقول : (إن الضمير « أنا » يخفي وراءه الضمير « هو » والضمير « أنت » يخفي وراءه الضميرين الآخرين ويجعل بينهما اتصالا دائما).

وهذا النوع من البناء الروائي مرتبط ببناء معين للشخصية المحورية وهو بناء مفكك متصدع مرخي لأن الشخصية من هذا النوع الاشكالي المتأزم هي شخصية مهووسة واقعة تحت وطأة أزمة ما. وقد ذهب جان بلوخ ميشيل إلى اعتبارها شخصية ذات عاهة أو مرض ويقول : (إذا كان الأمـر يتعلق برواية منطوقة، وعندما نجد شخصا ينساق إلى هذه الحركة الانفصامية التي هي الحوار الذاتي فانه من الضروري ان يكون المتكلم انسـانـا غير عادي) (جان بلوخ ميشيـل الزمن الحاضر » ص 132 . وهذه هي حال غياث داود كما سنرى في موضعه.

إلا ان التلاعب بالضمائر له مزايا فنية أخرى إذ أنه يسمح لنا بالتمييز بين مستويات الوعي واللاوعي المختلفة في شخصية غياث داود وذلك

بالتقابل خاصة بين ضمير الغائب فيما يشبه السرد الواعي وضميري المخاطب والمتكلم فيما يشبه الهذيان الدافق من اللاوعي.

كما يتيح لنا حسب تعبير ميشال بوتور : (ان نلقي الضوء على المادة الروائية بصورة عمودية أي ان نظهر علاقاتها مع كاتبها وقارئها والعالم الذي تظهر لنا في وسطه، وبصورة افقية بان تظهر لنا العلاقات بين الأشخاص الذين يؤلفونها وتكشف لنا حتى خفاياهم النفسية).

وهو ما سيساعدنا على تلمس العلاقة التي تربطنا كقراء من موقعنا الخاص كعرب تقدميين بهذا الرجل غياث داود والعلاقة التي قد تكون بينه وبين مؤلف الرواية عبد الرحمن مجيد الربيعي من موقعه الخاص أيضا باعتباره كاتبا ملتزما عربيا من العراق عايش الأحداث الكبرى التي جدت في هذا البلد طيلة ما يزيد عن الثلاثين سنة الماضية. وبالتالي فان ذلك سيساعدنا أيضا على تتبع ملامح التربة الحضارية التي يتحرك عليها غياث داود، وهي نفس التربة التي نقف عليها جميعا، وهكذا لا نكتفي بدور القارئ البريء وانما نتورط في قضية غياث داود إلى حد المشاركة.

الا أن استعمال ضمير المخاطب لم يقتصر على الحوار الذاتي وأغلب استعماله كان للحديث عن الغائبين من معارفه وأحبابه، أو بالأحرى للحديث إليهم، إلى أمه حكيمة بنت الشيخ جابر والنساء اللائي عرفهن وخاصة زوجته أميرة حسين والحديث إلى الرسام المتوحد وعمو حسان صبحي وكامل السعدون، والآخرين، من مات منهم ومن لازال يعيش في المنفى، أو في الوطن الكبير . . الوطن القتيل . . الوطن السجن. والغاية من استعمال ضمير المخاطب (أنت) هنا هي الغاء المسافة بين المتكلم غياث داود والمخاطبين ـ بفتح الطاء ـ وذلك يعبر عن حالة مرضية لديه من الوحدة والحنين : (حكيمة بنت الشيخ جابر هيا انهضي،

لـملمي بقاياك وانبعثي مثل غيمة من حنان، وامطري، ما الذي بقي من ذلك الجدث البعيد في صحراء النجف الشاسعة ؟ وهل تتحرك عظامك المواراة فيه شوقا أو حزنا لابنك المتعب المدمى ؟ ابنك النائح الذبيح ؟ أو هل تخضها فرحة ناعمة فتطرد عنها التراب والدود ؟).

... هكـذا يقودنا التعمق في درس عمل الضمائر إلى الكشف عن العـلاقة الوثيقة بين تعدد الضمائر وتناوبها والبنية الزمنية للرواية وذلك لارتبـاطهـا بالـوسـائـل التي يستعملهـا كتـاب الرواية الجديدة لتكسير « التوقيت » بمفهومه الكلاسيكي واطلاق الديمومة بدلا عنه، أي الزمن النفسي، عن طريق الحوار الذاتي، أي انشطار الشخصية الواحدة إلى شخصيتـين متخـاصمتـين بصـوت مسمـوع، والحـوار الباطني والحلم بمختلف أنواعه.

وإذا كانت دراسة الزمن في الرواية الكلاسيكية لا تمثل اشكالية نظرًا لخضـوعهـا إلى المقـاييس المـوضوعية المتعارفة حيث تتوزع الرواية إلى أحـداث ماضيـة تروى بصيغـة المـاضي وأخرى حاضرة تروى بصيغة الحـاضر ولكـل زمن سياقه، فإن هذه الدراسة أصبحت على غاية من التعقيد في الرواية الحديثة. وخاصة رواية تيار الشعور أو الرواية المنطوقة والـروايـة القائمة على الومضات الورائية. وقد أكّد ميشال بوتور هذه الحقيقـة بقـوله : (ان الأبنية الزمنية هي في الواقع من التعقيد المضني بحيث ان أمهر المخططات سواء كانت مستعملة في تحضير العمل الأدبي أو نقده لا يمكن أن تكون الا مخططات تقريبية عديمة الاتقان، غير انها تلقيْ شيئا من الأضواء المزيلة للغموض).

وفي هذا المجال لابد ان نميز بين ثلاثة مستويات للزمن في الأعمال الروائية الجديدة ومن بينها هذه الرواية التي نحن بصدد تحليلها.

زمن الخلق : وهـو الـزمن الـذي كتبت فيـه الـروايـة، اي الـزمن الموضوعي، وهو في رواية « خطوط الطول . . خطوط العرض » وحسب ما تحمله الـرواية في خاتمتها ما بين سنتي 1981 و1982 . ويحيلنا هذا التاريخ إلى مرحلة حاسمة على الساحة العربية إذ شهدت احداثا هامة منهـا مقتل السادات الذي نجد له صدى في الرواية حيث يقول رجل مصري لغياث : (لا تحسبوه ـ أي السادات ـ علينا، نحن أهل الدار أدرى بها، وسنعـرف كيف نزيـح هذه الـدملة التي تشـوه وجـه مصر الجميل) . كما شهدت هذه الفترة احداثا أخرى جساما أهمها غزو بيروت وترحيل المقاومة الفلسطينية عنها، وان كنا لا نجد صدى الترحيل وربما لأن كتابة الرواية انتهت قبل ذلك، فان جو الحرب في بيروت وجنوب لبنان يمثل احد الأعمدة الأساسية في الرواية.

ولذلك فان هذا الإطار الزماني الموضوعي شكل احد عوامل الأزمة التي يعيشها غياث داود المريض بالواقع العربي. وهناك في الرواية حدث هام آخر أيضا وهو الحرب العراقية الايرانية التي نجد اشارة واضحة إليها في رسالة كامل السعدون الأخيرة إلى غياث داود.

إلا أن قيمة هذا الزمن الموضوعي ـ زمن الخلق ـ لا تكمن في تفسير بعض الأحداث ضمن الرواية وانما بكونه أحد أعمدة المأساة التي تعيشها الشخصيـات بما فيهـا غيـاث داود نفسـه الـذي شمـل بلعنته وقذائفه الانشطارية والعنقودية من الشتائم والسباب المقذعة المتقاتلين في بيروت جميعا بدون استثناء لا تبرئة ساحة أي كان منهم وهو أمر سنعود إليه في نهاية هذا البحث.

وهل الشخصيات اللبنانية هي التي تعبر أكثر عن هذا البعد المأساوي المتأتي من هذا « الزمن العنين » على غرار سميرة حليم التي تحب الحياة

وتعتقـد (انها تستحق ان تعاش وحرام ان نفقدها بطريقة بشعة) وان هؤلاء المتحاربين قد افقدوا الحياة نكهتها. فتقول مبررة رحيلها المتواصل إلى قبرص : (هناك أستطيع ان أمشي وان أضحك « . . . »، الضحك الآخر الذي غادرنا. تصور يا غياث ما أصغر الحلم وما أسهله إ ان يمشي المرء ويضحك فقط إ لا يوقفه حاجز مسلح ولا تنغرس في ظهره فوهة رشاش، أو يشتمه عتي ابن قحبة، وان يطلق حنجرته على مداها لتكركر بالضحك الخلي حتى تغتسل العروق من ادرانها).

ومن المهم أيضـا أن نلاحظ ان الاحـالة على زمن الخلق من داخل الرواية تكشف لنا أيضا عن علاقة الكاتب بتلك الأحداث الدائرة حوله وتوضح لنا على ألسنة شخصياته موقفه الشخصي منها. وبذلك يمكن ان نستشف موقف الربيعي مما جرى في لبنان في هاتين السنتين من خلال مواقف غيـاث داود أولا ثم سمـيرة حليم وعمو حسان صبحي بدرجة ثانية. ويتأكد لدينا هذا الرأي عندما نلاحظ ان الكاتب قد اختار الزمن الخارجي لروايته، أي بداية الحدث الروائي الأفقي عدة شهور ضمن ذلك الزمن الموضوعي نفسه أي زمن الخلق. وهي الشهور التي استغرقتها علاقة غياث داود بالتونسية بنت المنصف إذ بدأت الرواية بحوار معها وانتهت بهتاف غياث داود بعد وداعه لها للمرة الأخيرة : (سعيدة بنت المنصف لم أبدأ بك لذا لن تكوني خاتمتي). وهو اختيار مرتبط بطبيعة شخصية غياث داود وبوجهة النظر التي تروى منها الحكاية وهي ما يسميه تودوروف « الرؤية مع » اي عندما يرى الراوي والبطل في نفس الوقت وذلـك لأن الراوي هنا هو نفسه البطل، وهكذا يصبح الراوي الأول والبـطل وهمـا شخص واحـد والـراوي الثـاني الذي هو الكاتب نفسه يسبحون في نفس الزمن لأن الأحداث تروى لنا لحظة تشكلها ولا تقدم جاهزة منتهية وهو ما يجعل شخصية الأحداث غياث داود مرتبطة بعلاقة

« مشبوهة » ان صح هذا التعبير مع شخصية الكاتب. والقرائن على ذلك عديدة منها المنبت الريفي والطبقي، العمر، الالتزام السياسي . . . الخ. وهي قضية لا نتوسع فيها هنا ونترك أمرها لدراسة أخرى ولدارس آخر.

ونعود إلى قضية الزمن في رواية « خطوط الطول . . خطوط العرض » لنوضح انه لا يقف عند الإطار الموضوعي الخارجي وانما يتفجر في شكل ديمومة تمثل عصبا خيا من أعصاب الرواية أو قل هو الدم الذي تنبض فيه. فنحن عبر هذيان غياث داود وذكرياته وحواره الباطني وحواره مع أشباح معارفه الغائبين الحاضرة أمامه نعيش مدا زمنيا مداه حياة غياث بأكملها، وهو ما اصطلح على تسميته بالزمن الداخلي الذي أصبح من أهم عناصر البناء المعماري في الرواية الحديثة وان كان بلزاك نفسه من قبل قد أشار إلى أهميته في مقدمة روايته « امرأة من بنات حواء » قائلا : (لست قادرا على رواية قصة حسب تسلسلها الزمني ان لم تكن قصة من الماضي ـ تاريخية ـ وهذه طريقة لا يمكن تطبيقها على حاضر لا يتوقف أبدا).

ولعل أول من أعطى للزمن ـ الديمومة مداه في العمل الروائي هو مارسال بروست في « بحثه عن الزمن المفقود »، إلا أن أبرز من طرح هذه القضية على مستواها الفلسفي الذي تأثرت به الرواية الحديثة خاصة بعد انتشار دراسات فرويد في التحليل النفسي هو الفيلسوف « هنري برغسن » خصوصا في كتابه « الفكرة والمتحرك ». ويعرف برغسون الديمومة بقوله : (انها ليست وحدة ولا تعددا وانما هي تواصل لا يتجزأ أو خلق مستمر وتدفق جدة لا ينقطع، فلنعد للحركة حركيتها وللتغير سيولته وللزمن ديمومته)، ويربط برغسون بين هذا المفهوم للزمن النفسي وتيار الشعور والوعي الذي لا يكاد يتميز عن اللاشعور، لأنه كما يقول أيضا : (وعي آني ورؤية لا تكاد تتوضح عن الشيء المرئي وهو بعد ذلك

وعي موسع يضغط على حافة اللاوعي الذي يستسلم ويقاوم والذي يسلم نفسه ثم يسترجعها من خلال تداخلات سريعة بين العتمة والضوء مما يجعلنا نعاين وجود اللاوعي)، ولذلك نجد غياث داود يسبح في زمنه، يتقلب فيه كالسمكة في أعماق البحر، فيعيش وهو بين أحضان سعيدة بنت المنصف أعواما مضت من الحب والألم والعذاب والصداقة والنضال والسجن وتمتد الأشهر التي تمثل اطارا خارجيا للحكاية لتشمل أربعين سنة هي عمر غياث داود بأكمله. ولابد ان نلاحظ هنا ان الومضة الورائية هي كما أكد ميشال بوتور (ليست أفعالا ماضية تحكى في الحاضر وانما هي أفعال ماضية تنقل نابضة إلى الحاضر)، وذلك عبر استبطان الذات واطلاق صوت الباطن والهاب الذاكرة بسياط الحنين، وهو ما اكسب هذه الرواية تلك التدفقات الشعرية الحارة والتي تتوزع على خطوط الطول وخطوط العرض في هذه الرواية التي هي في الحقيقة الخطوط التي تؤطر طولا وعرضا شخصية غياث داود، هذا الرجل العربي القادم إلينا من عصرنا العنين هذا.

عندما يتحول القمع إلى مرض وجودي في وطننا العربي :

فمن هو اذن هذا الرجل الذي يقف على عتبة الجنون يهذي ماضيه وأشواقه وعذاباته وأحلامه، ويهذي هذا الوطن الذي يفر منه إليه لينزوي في ركن من بيت خال في بيروت أو في مكتب من مكاتب الجامعة العربية أو في أحضان امرأة من تونس أو روما ليخصي (الديوك الغبية وأولاد الأفاعي والجنرلات المزهوين والسماسرة وبنات آوى والعبيد وسدنة المواخير وسارقي الثورات).

غياث داود هو رجل مثقف في الأربعين من العمر منحدر من مدينة السماوة في الجنوب العراقي، مناضل متحزب. عرف السجون

والتعذيب . ثم فجأة أحسّ انه قد تعب وأخذ يبحث عن فرصة للخروج والعمل في مكان آخر ويبرر ذلك بقوله : (ماذا يحصل إذا خارت قواك فجأة وأحسست انك غير قادر على الجري وان الجموع قد بدأت تتقدمك وانك إذا ما أخذك العناد وبقيت فستكون في الأخير ؟ هكذا أنا) .

وعبر تنقله من القاهرة في زمن الردة السادية إلى بيروت في زمن الحرب الطائفية إلى تونس تزداد أزمته وتتعقد وتأخذ طابع المأساة الوجودية ، اذ نجده رجلا يعاني من الشعور بالوحدة حتى وهو في الزحام يمزقه القلق والاضطراب والشعور بانسداد الأفق والضيق الخانق فيتكثف لديه شعوره بالخيبة والحزن ، فيقول مضمنا ما قاله مطلع أغنية شعبية عراقية نائحة : (طائر السماوة . نخل السماوة . من لكما ؟ من لي ؟ من لتلك البيوت الواطئة الثكلى ؟ والصدور التي ينخرها الوصب ويقتلها الظمأ والانخراق) .

ويصور هذا الحصار الوجودي الخانق تصويرا مؤثرا في قوله : تنطرح على ظهرك عاريا وتتقلب في رمل مسعور تنبح مثل كلب وقع في حفرة فأحاط به الصبيان ليحصبوه بالحصى والحجارة . تعوي ولكن لن يسعفك عابر حنون ، فصوتك مختنق خاو ، وأنت بينهم يتلذذون بما يصنعونه بك ولن يغادروك ما لم تنفث آخر أنفاسك ، يجمعون قهقهاتهم وينصرفون ليظل جسدك الملقى شاهدا وفزاعة) .

الا ان هذه الملامح الوجودية لأزمة غياث داود تبقى غير مقنعة ولم يتمكن الكاتب (أو لم يشأ) ان يبني هذه الشخصية بناء مأساويا وجوديا ولذلك تظل لدينا قناعة بأن داء غياث داود مأتاه شيء آخر غير القلق الوجودي خاصة وانه رجل ملتزم بحزب سياسي ، وهو (ابن النظام في بلده كما يقول) فمن أين جاءه هذا التأزم اذن والذي أراد مداواته على

طريقة الوجوديين بالجنس الملتاع المحموم والتنقل وعدم الارتباط بالأشخاص والأشياء والأماكن ؟

ولعله من الهام ان ننبه بادئ ذي بدء إلى ان جانبا هاما من الشعور بالتفجع الذي يلازم غياث داود يعود أساسا إلى الموروث الشيعي في العراق حيث مراقد الكاظمين وحيث كربلاء الشهداء الحزينة . فالذاكرة الجماعية للشيعة محملة بمأساة كربلاء والشعور بنوع من الذنب والخطيئة بحق الشهداء، وبهذا نفسر طابع النواح الذي يغلب على المواويل والأغاني الشعبية العراقية ويميزها، وقد ضمن الربيعي منها أغنيتين في روايته هذه وهما :

1 ـ طائر المجرة.

1 ـ نخل السماوة.

أما « المرض » الذي يمثل الداء الحقيقي لغياث داود فلا نجد تفسيرا له في شخصيته هو بالذات وانما نجده في شخصيتين أخريين من أهم شخصيات الرواية وأقربها الى نفس القارىء وهما : الأم حكيمة بنت الشيخ جابر والصديق كامل السعدون. فالأم هنا هي رمز واضح للوطن في مسيرته الطويلة عبر تاريخه المليء بالمآسي الحافل بليالي الاستبداد منذ اليوم الأبيض واليوم الأسود للمنذر الى مقبل الحسين وعائلته في كربلاء مرورا بالمجازر التي عاشها على يدي الحجاج والسفاح وغيرهما ثم غزو الغزاة البرابرة في القديم والحديث و . . . و . . . . والسلسلة تطول . وحكيمة بنت الشيخ جابر رمز هذا الوطن، امرأة عظيمة صبورة ولكنها ابتليت بمعاشرة جملة من الأمراض واجهتها بصمت وشجاعة كما ابتليت برجل مستبد مزواج شبق يقول عنه ابنه غياث : (تزوج فوجا من النساء ولكن عينيه كانتا تقطران بالشبق والاشتهاء كلما مرت أمامه انثى).

وكانت ثورة غياث داود على هذا الأب وتمرده عليه ايذانا بدخول هذا الجيل، جيل غياث في مرحلة التمرد والثورة على السلطة التي يرمز لها هنا الأب، وقد حدثت بينهما القطيعة عندما حاول ان يتزوج على حكيمة أم غياث فتاة اخرى فهدده غياث باغتصابها ان فعل. وبلغت هذه القطيعة خط اللارجعة عندما علم غياث ان والده يشاطره جسد عشيقته، فحمل اغراضه وغادر المدينة.

ولكن حكيمة بنت الشيخ جابر رغم كل شيء ومثل هذا الوطن ظلت صامدة على طريقتها الخاصة. يقول عنها غياث الذي يمثل عنده الحنين إليها تعبيرا من تعابير فاجعته : (ظلت مرابطة في الزقاق، جاءته أول مرة عروسامن بيت أبيها ولم تغادره إلا مرات معدودات لزيارة المراقد المقدسة، حياتها كلها متلفعة بالسواد . . . الخ).

ورغم ان المجال لا يتسع هنا كثيرا ولكننا نلاحظ ان الشخصيات النسوية التي عرفها غياث في أيام شبابه وعشقه في العراق تحمل ملامح من شخصية هذه الأم وتعاني مأساة من الكبت والتسلط البربري للرجل. وقد شاهد غياث وهو فتى امرأة تذبح أمام عينيه هي نورية سالم. ذبحها أخوها وهي في السابعة عشرة من عمرها، أخوها اللوطي عندما رآها تخاطب رجلا غريبا استرشد بها عن الطريق، ذبحها بكل برود ثم قصد مركز الشرطة قائلا : (لقد قتلتها، غسلت عاري) فأجابه العريف ببرود : (بارك الله فيك). هذه هي المرأة في « المدن الخائنة » خير تجسيد للوطن المسلوبة حريته وحرية ابنائه، وقد حدثنا غياث داود عن شيخ قبيلة تزوج خمسين امرأة، لا تعرف الواحدة منهن عندما تأتي نوبتها الا ان تستحم وتتعطر وتعد له عشاء دسما، وبعد الأكل يتجشأ ثم تسبقه إلى الفراش فتنقلب على ظهرها لينزل فوقها في مضاجعة عاجلة يعكرها السعال والبصاق).

والأمراض التي كانت تعاني منها حكيمة بنت الشيخ جابر ما هي إلا الواقع السياسي والاجتماعي والحضاري المتردي، وهو عينه الذي أورث غياث داود النصيب الأهم من « مرضه » الذي حوله إلى (مجرد صرخة في واد تتردد مرات، وقد يمتصها الصمت. هذه الصرخة قد انطلقت يوما من تلك القرية العراقية البعيدة. والذي يتناهى منها ما هو الا صداها فقط، ولو أصغينا إليها جيدا لتأكدنا انها بدأت تفقد رنينها وتتهاوت تدريجيا حتى تخرس إلى الابد).

فغياث داود على حد تعبيره هو (مشروع لم ينجز نتيجة الاحباطات). وقد كشفت شخصية صديقه كامل السعدون جيدا عن هذه الاحباطات من خلال ما كان يلاقيه في السجون من تعذيب وتقليع أظافر وادخال قضبان المطاط في استه، لا لشيء إلا لأن رأسه (يفكر ويعرف كيف يفرز الأشياء، وهم يريدون افراغه وحشوه تبنا)، ولا فرق في ذلك بين حاكم وحاكم، يتبدل الحاكم والطريقة واحدة. وقد قال كامل السعدون : (كثرت أعوام سجني عندما كثرت وجوه الحاكمين الذين مروا على هذا البلد). ووضعية كامل السعدون في بلاده تعكس وضعية المثقف الواعي في العالم العربي عامة، فهو في تعارض دائم حتى مع الحزب الذي ينتمي إليه (في بلد تعتبر فيه قراءة جريدة معينة جريمة، ويصنف الناس سياسيا من لون ربطة العنق) ويصبح الأمان حلما صعب المنال، ولذلك يقرر كامل السعدون ان يخرج من البلاد ويختار المنفى مع الحرية على الوطن السجن وهناك يهتف من أعماق قلبه كمن كان يختنق ثم هبت عليه نسمة عليلة أنقذته من الموت : (الامان والسلام . . آخ . . . ما أروعها ا ما أعظمها ! بالنسبة لنا نحن الذين كتب علينا ان نظل مطرودين مطاردين إلى الأبد). ويقول في رسالته إلى غياث داود من سويسرا : (هنا أحسّ بعدم الخوف. هنا تستطيع أن تقرأ

صحف اليمين واليسار معا، صحف المعارضة وصحف الحكومة). ثم يهتف به : (غياث داود اننا ننام على فضيحة وستنكشف يوما وآنذاك لا أدري ما الذي سيحصل) هذا الواقع الفضيحة حيث يعرف الناس السياسة (تعليقا من الأرجل في مراوح سقفية، ورجات كهربائية وأنابيب مطاطية في الأست ومشانق وسجونا صحراوية ومخبرين ورجال شرطة وكلاب صيد) وهو يقصد بذلك كامل الوطن العربي لا بلدا بعينه. هذا هو الواقع الذي جعل كامل السعدون الرجل المسالم الذي فر من حبيبته الألمانية عندما علم انها ارهابية يتبنى سياسة الارهاب إذ يقول : (لماذا ينشىء الأوربيون وحدهم منظمات ارهابية ليغتالوا الرداءة والزيف والتّزوير؟ لماذا لا نفعل ذلك نحن أيضا ؟ وكن واثقا انني سأكون أول ارهابي في هذه الأمة وفي هذا الوطن الذي نفاخر بامتداده من المحيط إلى الخليج.

هذا هو الواقع الذي سبب « الفيروس » الحقيقي لغياث داود ولذلك يعلق على كلام كامل السعدون، هل نطقت بالحق ؟ ان لم تكن كذلك فلماذا أعملت خناجرك بأحشائي).

إلا أن غياث داود على عكس وضوح كامل السعدون وصدقه مع نفسه، يعاني من ازدواج في شخصيته بين الرجل المثقف الواعي الذي يمثله كامل السعدون والرجل الملتزم سياسيا « ابن النظام القائم » وكلتا الشخصيتين تتعارض مع الأخرى، ولكن غياث داود حاول ان يبقى ابن النظام أو ان يبقى « مع » رغم كل شيء، فاختفى منه الرجل المثقف المعارض في منطقة اللاوعي واستبد الرجل الملتزم بالنظام على منطقة الوعي. وهذا الازدواج زاد شخصيته تعقدا وتأزما. فهو في كلامه الواعي ينطق بخطابية تبدو نشازا في سياق الرواية متحدثا باعتباره موظفا رسميا في الجامعة العربية معارا من بلده لأنه ابن (النظام فيه والمؤمن بمبادئ الحزب الحاكم فيه).

وبصفتـه هذه يقـول أيضـا مرددا الرأي الرسمي حول فرار أعضاء الحزب الشيوعي من العراق : (جليلة عباس الآن في وارشبو أو صوفيا أو برلين، فقد عرف متأخرا انها كانت منتمية أو محسوبة على حزب اختار بعض أعضائه مغادرة العراق بناء على تعميم بذلك من قيادته وكانت هي احد المغادرين) .

ولكن الـرجـل الـواعي الذي سجنه في لاوعيه يهتف بنا في لحظات هذيانه موضحا ان الحقيقة ليست بهذه السهولة وان المنفى لا يمكن أبدا ان يكـون اختيـارا كالسيـاحـة، ولنستمع إلى غياث داود الباطن ينوح يتفجع : (يا نخل السماوة اين تلك السمراء الفاتنة التي شقت طريقها بين قاماتك المتزاحمة فتركتها سعفا وكربا لا ثمر فيها ؟ اذن لماذا تظل واقفا هكـذا مثل فزاعات غامضة تنتظر قادمين ملثمين فوق جمالهم وخيولهم لتوقعهم في الشرك وتقودهم سبابا إلى تلك البلاطات العاجة بالسيافين وأكلة اللحـوم وشـاربي الـدم نخب ابـاطـرة ملعـونـين يعانون التخمة والشيخوخة وفقدان الفحولة والاخصاب ؟) .

هذا هو المرض الحقيقي الذي يعاني منه غياث داود في هذه الرواية حتى انتهى منـه ذلك المناضل كما قال : (إلى مجرد انسان وحيد يقلب المجلات الملونة وينصت إلى النواح العراقي) وأضيف عليه : ويبحث عن جسـد امرأة يصب فيه خيبته المرة . . مناضل يواجه حرب بيروت بالشتائم والسباب لجميع المتحاربين دون تمييز بين من يدافع عن الحرية ويريد استئصال الفضيحة التي نتام عليها، ومن يريد ان ينشر ستر الظلام على تلك الفضيحـة لتفـرخ وتتواصل بها مصيبتنا . . ومصيبتنا كما قال غياث داود نفسه هي (في هؤلاء الشرطة الصغار الذين هم غالبا كبيرو الفعل، يسكنوننا منذ الطفولة ويحولون كل فعل نقدم عليه إلى « تابور » وذعر، في السياسة والدين والجنس . . ارث مئات السنين من العلائق

المريضة المتشابكة . . من تحدث بصراحة عن الكبت واللواط والسحاق والاستمناء والاغتصاب ومضاجعة الحيوانات ؟) .

ويحق لنـا أن نسـأل غيـاث داود هنـا : أمـا آن الأوان لننهي كل هذا ؟ وهـل تقـودنا طريقتك الوجودية العدمية إلى الحل ؟ لذلك ومن موقعي كقارئ عربي أريد أن أكون تقدميا لا يمكن أن تكون بيني وبين غياث داود الا علاقة جدل وانتقاد بلا مهادنة ولا مجاملة .

مؤلفات الربيعي

أ ـ في القصة القصيرة :

1 ـ السيف والسفينة (قصص) الطبعة الثالثة ـ دار الطليعة، بيروت 1979 .

2 ـ الظل في الرأس (قصص) الطبعة الثالثة ـ دار الطليعة ـ بيروت 1985 .

3 ـ وجوه من رحلة التعب (قصص) الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1978 .

4 ـ المواسم الأخرى (قصص) الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1979 .

5 ـ عيون في الحلم (قصص) الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1979 .

6 ـ ذاكرة المدينة (قصص) الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1979 .

7 ـ الخيول (قصص) الطبعة الثانية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1979 .

8 ـ الأفواه (قصص) ـ دار الآداب ـ بيروت 1979 .

9 ـ سر الماء (مختارات قصصية) الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ سوسة/تونس 1993 .

10 ـ صولة في ميدان قاحل (قصص) الدار العربية للموسوعات ـ بيروت 1984 .

11 ـ نار لشتاء القلب ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1986 .

12 ـ السومري ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1993 .

ب ـ في الرواية :

1 ـ الوشم (رواية) الطبعة الرابعة ـ دار الطليعة ـ بيروت 1980 .

2 ـ الأنهار (رواية) ـ الطبعة الرابعة ـ دار الأقواس ـ تونس 1984 .

3 ـ القمر والأسوار (رواية) الطبعة الرابعة ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد.

4 ـ الوكر (رواية) ـ الطبعة الأولى ـ دار الطليعة بيروت 1980 .

5 ـ خطوط الطول . . خطوط العرض (رواية) ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف سوسة/تونس 1993 .

جـ ـ في النقد الأدبي :

1 ـ الشاطىء الجديد ـ قراءة في كتاب القصة العربية ـ الطبعة الثالثة ـ الدار العربية للكتاب (تونس ـ ليبيا) 1983 .

2 ـ أصوات وخطوات ـ مقالات في القصة العربية 1984 ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف سوسة/تونس 1993 .

3 ـ رؤى وظلال ـ تحت الطبع .

4 ـ من النافذة إلى الأفق ـ تحت الطبع .

د ـ قصيدة النثر :

1 ـ للحب والمستحيل (تداعيات قلب) ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت 1984 .

2 ـ شهريار يبحر . . . منشورات عالم الكتب ـ بيروت .

3 ـ امرأة لكل الأعوام ـ منشورات عالم الكتب ـ بيروت .

4 ـ ملامح من الوجه المسافر ـ منشورات عالم الكتب ـ بيروت .

5 ـ علامات على خارطة القلب ـ دار النضال ـ بيروت .

6 ـ اسئلة العاشق ـ دار النورس ـ تونس .

7 ـ فصول من كتاب ـ الحب التونسي ـ تحت الطبع .

هـ ـ كتب ورسائل عن المؤلف :

1 ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي بين الرواية والقصة القصيرة ـ تأليف عبد الرضا علي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1976 (رسالة دبلوم عليا) .

2 ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي وتجديد القصة العراقية ـ تأليف سليمان البكري ـ الطبعة الثانية ـ الدار العربية للكتاب (تونس ـ ليبيا) 1984 .

3 ـ الوشم رواية الربيعي وتجديد القصة العراقية ـ تأليف المستشرقة الايطالية ماتيلدا غالياردي ـ ترجمة عبد الله جواد ـ الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1980 (رسالة دكتوراه من جامعة فينيسيا) .

4 ـ المرأة والمجتمع في قصص الربيعي (رسالة ماجستير) لمحمد ياسين ـ الجامعة اللبنانية.

5 ـ دور الربيعي في تجديد قصة الستينات (رسالة ماجستير باللغة الاسبانية) لماريسا بريتو كونثالث ـ جامعة مدريد المستقلة.

6 ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي والبطل السلبي في القصة العربية ـ د. أفنان القاسم (رسالة دكتوراه من جامعة السوربون الثالثة) ـ منشورات عالم الكتب ـ بيروت.

7 ـ مدخل لتجربة الربيعي القصصية في 38 حوارا ـ دار النضال ـ بيروت 1984 .

8 ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي روائيا ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت 1984 .

9 ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي في قصصه القصيرة ـ دار النضال ـ بيروت 1984 .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/الجمهورية التونسية
في شهر أفريل 1993

هذه الرواية

ان تقنية « خطوط الطول . . خطوط العرض » تقنية صعبة لعبت في انجازها قدرات المؤلف وخبرته الطويلة في مجال الكتابة القصصية حيث يعتمد على اللغة الحارة والمسددة باحكام كذلك على التلاعب بالضمائر وتداخل الأزمنة والأمكنة بحيث استطاع أن يستوعب هذا الكمّ الكبير من الشخوص الذين ندر أن تضمهم رواية ويصبح وجودهم فيها مشروعا.

- يا سين رفاعية -

ان أهمية خطوط الطول . . خطوط العرض تكمن في كونها فجرتْ دلالات الجسد وأعطته تعددية في الايحاء والرمز ولعل في ذلك اضفاء مسحة جمالية على التكتيك الروائي.

- د. المنصف وناس -

رواية ليست طيعة، رواية مخاتلة، تجمع بين تقنيات عدة، رواية مستقبلية متميزة فيها نقرأ لروائي له بصمة خاصة على الرواية العربية تتجاوز حدوده القطرية.

- مصطفى كيلاني -

تدمك : ISBN 9973 _ 16 _ 313 _ 3
الثمن : 5.000 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.